رائد للشباب

خالد بن الوليد

بقلـــم

الشيخ / منصور الرفاعى عبيد

وكيل وزارة الأوقاف الأسبق

للمساجد وشئون القرآن

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م

مركز الكتاب للنشر

رقم الايداع :
٢٠٠٣ / ١٤٣٣٠
الترقيم الدولى :
977 - 294 - 273 -9

حقوق الطبع محفوظة

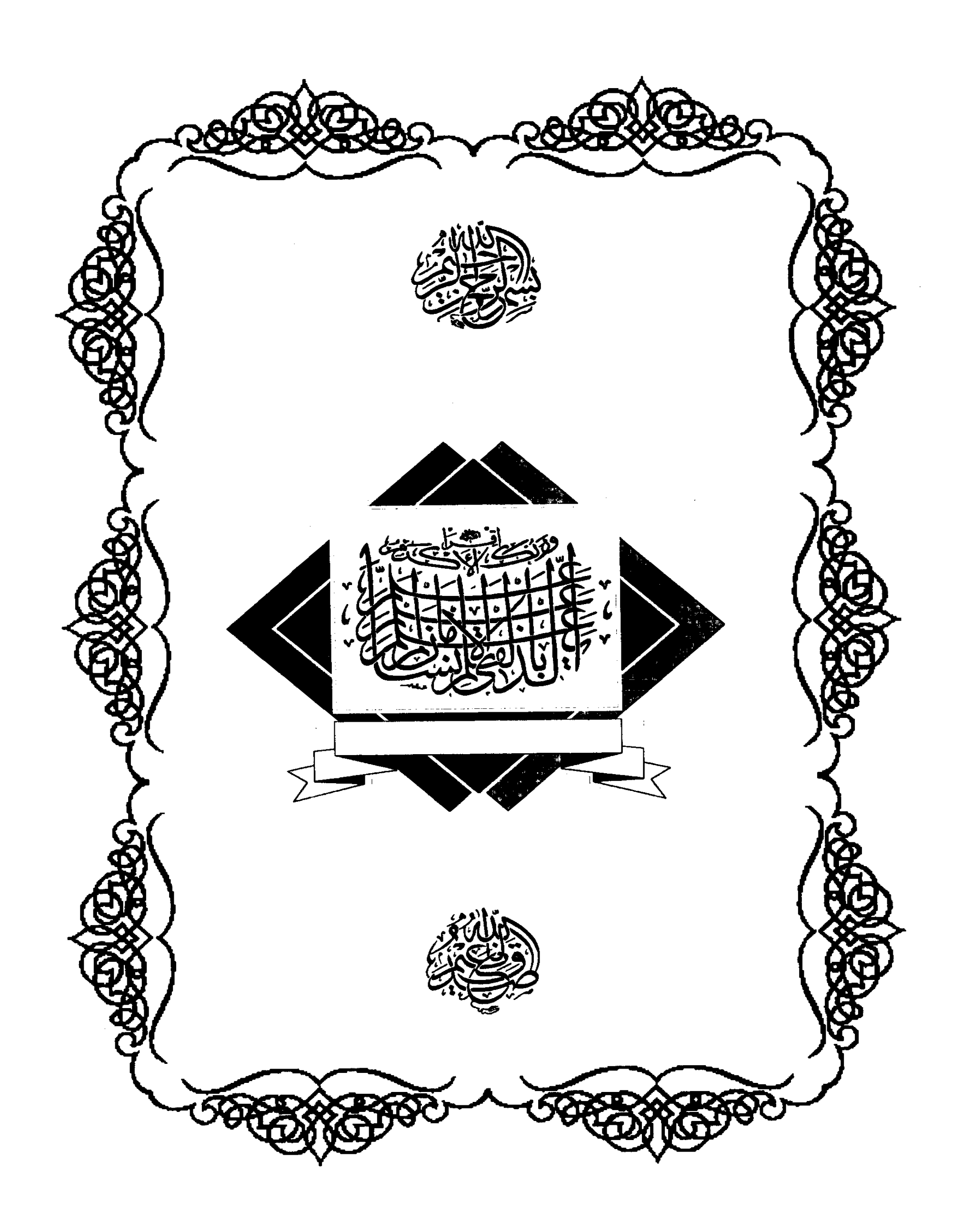
الطبعة الأولى
١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م

مركز الكتاب للنشر

مصر الجديدة: ٢١ شارع الخليفة المأمون - القاهرة
تليفون: ٢٩٠٨٢٠٣ - ٢٩٠٦٢٥٠ - فاكس: ٢٩٠٦٢٥٠

مدينة نصر: ٧١ شارع ابن النفيس - المنطقة السادسة - ت: ٢٧٢٣٣٩٨

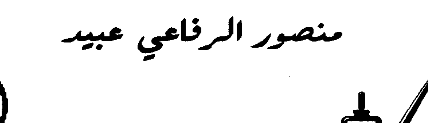
http://www.top25books.net/bookcp.asp.
E-mail:bookcp@menanet.net





إلى الباحثين عن المثل النبيلة .. إلى الباحثين عن القيادات العسكرية العظيمة .. إلى الشباب .. وإلى الجنود العاملين كل في موقعه نقدم إليهم نموذجا فريدا.. وقيادة تتسم بالمهارة والجد .. والتخطيط الجيد.. المنضبط على كل قواعد العلم والمعرفة الشاملة ....

فإلى الباحثين عن الحقيقة لمعرفة معادن الرجال وأقدارهم.. نقدم إليهم صفحة من تاريخ بطل عظيم وشخصية متميزة فريدة وحتى لا ننسى عمالقة الأبطال نقدم هذه الشخصية العظيمة .



مُقَدِّمَة

الحمد لله ..الواحد الأحد ..الفرد الصمد .. جل ثناؤه .. وتقدست أسماؤه.. وعزت صفاته.. لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة ؛ سبحانه .. سبح بحمده كل شيء.. وله سجد من في السموات والأرض طوعا وكرها لأنه الخالق فلا معبود بحق سواه..الرازق.. فكل شيء من عطائه وفضله.. له الحمد في الأولى والآخرة.. والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي مَنَّ الله به على عباده المؤمنين .. فبعثه إليهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آيات ربه .. ويعلمهم الكتاب و الحكمة .. أرسله الله بالشرع العام .. إلى جميع الأنام ليكون رحمة للعالمين.. حمل إلينا رسالة ربه وأدى الأمانة التي كلف بها .. ونصح الأمة .. وترك الإنسانية على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك .

ﷺ وعلى آله وصحابته الذين هم بفضله تحولوا من رعاة غنم إلى قادة أمم .. وعلى من سار على دربه وعمل بهديه إلى يوم الدين..

وبعد ...،

فإن علم التاريخ من أجل العلوم قدراً وأعظمها شأنا لما يحويه من المواعظ والحكم وما يتيحه من الاطلاع على تاريخ الأمم وسير السابقين وأخبار الماضين .. ليقتدي بهم المُطلِّع ويرشد غيره إلى ذلك لأن العلم ميراث الأنبياء .. وبضاعة الصالحين .. وأثمن ميراث يورثه المرء لأبناء جنسه ودينه .. والتاريخ من أجل المعارف الإنسانية ففيه الحوادث مسجلة ومن خلاله يُعْرف الماضي ليكون نبراسا للحاضر ودعامة للمستقبل..

وشاءت مشيئة الله عز وجل لي أن أعيش رحلة طويلة من سنين عمري وأنا أصاحب خالد بن الوليد قراءة في تاريخه .. وتتبعاً لسيرته .. لأنني وجدت فيه شخصية فذة .. اتسمت بالجد والمهارة والذكاء .. وأعجبني فيه تواضعه رغم ثرائه .. كان سخيا كريما يعرف قدر الرجال .. ويعطي للصحبة حقها .. من غاب عنه من أصحابه سأل عنه وتفقد أحواله .. ومن حضر إليه اهتم به وسأله عن احتياجاته .. يساعد المحتاج .. يُعين الضعيف .. عالي الهمة لا يقر التخاذل .. مِقْداما لا يعرف التردد .. بعيد النظر يخطط للمستقبل بدقة .. وسائله نظيفة .. غايته نبيلة.. آماله

عريضة .. عف اللسان .. طاهر القلب .. حليماً صبورا .. لم يدنس شرفه بفعل الصغائر من الفواحش .. بعيداً كل البعد عن كبائرها .. لكل هذه الأسباب كانت صحبتي له في رحلة حياته .. قرأت عن نجابته صغيراً .. وفروسيته شابا .. وقيادته رجلاً .. وبطولاته النادرة لذلك أفسحت الحديث عنه لأعايش القارئ الكريم معي في المناخ الاجتماعي العام الذي عاشه خالد ،لأن النساء عقمن عن أن ينجبن مثله .. فهو بحق كما قال الصادق الأمين .. سيف الله المسلول على الأعداء .. إن خالدا شخصيته فريدة .. فهو رائد على طريق الخير للطلائع والشباب .. قائد لا يعرف التردد ولا التخاذل .. صاحب رأي وقرار يتسم بالوضوح والصلاحية للعلاج وإمكانية التنفيذ .. منضبط على القيم الأخلاقية والآداب العامة ثم هو ملتزم بالموضوعية ..

لهذا لزم الأمر أن نحيط ببعض جوانب من حياته لتتسع دائرة المعرفة عنه وعن علاقاته بالبيئة الاجتماعية التي عاش فيها .. لقد تأثرت بخالد حتى كان يخيل إلى أنني أراه رأي العين .. أحادثه وأسرد على مسامعه ما عرفته عنه.. حتى إذا شعرت برضاه اقتربت منه لأشد على يده مصافحا .. فأفيق من حلم خيالي وأحس بالواقع الذي أنا فيه .. ولقد قررت أن أزوره .. وذهبت إلى حمص بدمشق مقر مثواه الأخير .. وروضة منامه .. فما أن اقتربت من مسجده إلاَّ وأخذتني رعدة .. وعلت ضربات قلبي .. واضطربت نفس .. وتملكني إحساس بالرهبة والخشية .. ووقفت حائرا .. أمثلي يدخل على هذا القائد العظيم المجاهد النبيل .. الذي دَمَّر عرش إمبراطورية فارس بالحق وبعد محاورات دبلوماسية لأن أهل فارس يومها كانوا يتصفون بالغطرسة والصلف وعدم الاستماع إلى صوت الحق فأراد خالد أن يؤدبهم .. ليعرفوا أن الإيمان يصنع الرجال ويقوي هممهم مع الالتزام بالأدب وحسن التعامل ثم ألحق الهزيمة بعد الهزيمة بهم وبعرش الإمبراطورية الرومانية كذلك وهذا كله لخدمة الدين ونشر السلام، ولقد تقدمت إلى روضة منامه لأن خالداً جندي من جنود الإسلام وصحابي للنبي العظيم وقائد من جنود الخليفة الأول الذي استطاع به أن يكسر شوكة المرتدين .. وأن يؤدب المارقين .. وأن يقتص من الباغين.. لذا فقد علا نجم خالد وذاع صيته .. وصار مضرب الأمثال .. وقد كاد الناس أن يفتتنوا به ، لذلك عزله عمر بن الخطاب – الخليفة الثاني للمسلمين – عن القيادة .. وكلفه أن يكون جندياً عاديا في الصفوف .. فقبل خالد ذلك بنفس راضية وقلب طاهر .. وقال .. ما أنا

إلا جندي من جنود الإسلام يضعني القائد في أي مكان يشاء .. ولقد تحمَّس لـه بعـض أصدقائه وأرادوا أن يقوموا بأى عمل فيه من وجهة نظرهم خدمة لخالد القـائد المظفـر أو يذهبون إلى الخليفة (عمر) ليبقي على خالد أو يفعلون أي شئ حتى يعود إلى موقع القيادة فرفض ذلك بشدة وقال : كلنا جنود نعمل تحت قيادة موحدة لا نشذ عنـها .. ولا نخرج عليها .. والقائد له في أعناقنا بيعة .. لابد أن نكون أوفياء له بها .. نسمع للقائد العام ونطيع.. في المنشط والمكره في العسر واليسر .. لهذا كـان خـالد مـن معـدن فريد لذلك .. أفسح لك أيها القارئ / المجال/ لتعيش في هذه الصُحبة المعبقة بروائـح الفل والياسمين وتحيا على طريق الورد والزهور والرياحين .. وتمد يدك إلى صفحـات التاريخ لتقرأ عن قائد عظيم وبطل شهم كريم .. وتأخذ الـدرس لنفسـك وتسـتفيد مـن المواقف .. لأنك ستحيا في مدرسة خالد وكل حياته دروس وحكم وعظات وعبر.. ومن صحب الرجال لا يندم أبدا .. وتردد مع القائلين:

((أولئك آبائي فجئني بمثلهم ...))

فعلى أن أدخل إلى ساحته الطاهرة وهـو في مثـواه الأخـير مُسِّلماً مُحيِّيـاً ... متذكرا قول الله سبحانه :

(أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُـوَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ) [سورة الأنعام الآية : ٩٠].

رضي الله عنك يا خالد في الأولين والآخرين .. وغفـر الله لـك . وعفـا عنـك .. وأعلا درجتك في الجنة وبوّءك منازل الأبرار الأطهار وجعلك مع النبيين والصديقـين والشهداء والصالحين.. جزاءً ما قدمت لدينك من خير يذكر ولا ينكر.. وجـهاد أثمـر وأينع .. حيث حفل التاريخ باسمك المشرق المضيء .. وها هي الأمة الإسـلامية اليـوم تنادي .. اليس فينا مثل خالد يقوم فيرفع سيفه في وجه الظلم والطغيان وينادي علـى العرب والمسلمين .. تعـالوا إلى وحـدة الصـف ووحـدة الهـدف وشـرف المقصـد ونبـل الغاية.. لعل الأيام تمنحنا مـا نريـد فتحـرر بلادنـا ونطـهر مقدسـاتنا ونرفـع رايـة الإسلام حتى تعيش الإنسانية فى أمن وسعادة واستقرار .. وما ذلك على الله بعزيز ..

والله الموفق

منصور الرفاعي عبيد


الفصل الأول
جاهلية أهل مكة



جاهلية أهل مكة

كان أهل مكة قبل مبعث النبي محمد ﷺ في غيهم سادرون ولكل أنواع الموبيقات يأتون ... فهم يعبدون الحجارة ويقدسونها كما أن بعضهم يئد البنات ، وهذه مصيبة خطيرة ، لأن أبا البنت يتركها حتى تبلغ السادسة من عمرها وهي سعيدة في وسط قومها فرحة وفي لحظة رهيبة يدخل معها الأب حجرتها ويكسوها بأحسن حللها كأنها ذاهبة إلى حفل كبير حيث تدق الطبول وتقام الأفراح أو كأنها ذاهبة إلى نزهة ، ثم يأخذ الوالد يد ابنته ويخرج بها إلى الجبل وهناك لحد أعد ثم يقرب الطفلة من حافة اللحد وهي لا تدري ماذا سيفعل أبوها لأن في ذهنها وذاكرتها أن الأب لم يصطحبها إلا ليُروِّح عنها لكنها تشعر بيد الأب تمتد إليها بقسوة لم تعهدها وتقع المسكينة في اللحد وتمد يديها إلى أبيها وهي تصرخ ليعينها على الخروج من هذه الحفرة ، لكنه يتصامم عن صراخها بل ويلقي عليها بالأحجار الكبيرة حتى إذا سكت الجسد وأصبح لا حركة فيه بدأ يهيل التراب عليها حتى يسوي القبر بالأرض ثم يعود إلى بيته ، وفي الليل يحضر إلى النادي يتباهى ويتفاخر بما صنعت يداه.. فالبنات موءودة خوف المذلة والعار والقرآن يسجل ذلك في قول الله تعالى : (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

[النحل٥٨ : ٥٩]

ويقول في آية أخرى : (وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ * سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ) [التكوير ٨ :٩] كذلك كان بعض العرب يقتلون الذكور من أبنائهم خوف الفقر .. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه المواقف فقال الحق سبحانه (وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً) [الاسراء:٣١]

كما أن المشركين في ناديهم يشربون الخمر ويلعبون الميسر ومن المعلوم أن الخمر تذهب بالعقل والميسر يصُد عن ذكر الله وعن الصلاة والخمر والميسر يجلبان

العداوة بين بني البشر لذلك نهى الإسلام عن هذا واعتبر الخمر والميسر من المحرمات فقال سبحانه (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ« إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) [المائدة٩٠ : ٩١]

كما أنه في هذه الحالة كان الناس يطوفون بالكعبة عرايا الرجال نهارا والنساء ليلا وبالتالي فإن بعض النساء لا ترد يد لامس ولا تمتنع على طالب.. وإذا كان الأمر كذلك فإن الفساد قد انتشر في البر والبحر بفعل الناس فيذكر لنا ربنا سبحانه هذه الفترة بقوله (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) [الروم : الآية ٤١] في هذا المناخ الاجتماعي الفاسد ...ولد خالد بن الوليد ...

من هو خالد

هو خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ويمتد نسبه في قبائل لها شرف وقدم في المجتمع لكننا نقف عند مخزوم الذي سميت القبيلة به لأن خالدا من قبيلة بني مخزوم وهذه القبيلة من القبائل الكبرى وأبو خالد هو رئيس القبيلة وكانت هذه القبيلة قد أوكل إليها العرب شئون الحرب ، لذلك كانت دائما تشرف على تربية الخيول وتدريبها على القتال وكانت هى التي تدرب القيادات الذين كانوا يذهبون إلى مختلف المعارك على رؤوس الجند وهذه القبيلة هى التي تعد العدة وتهيئ جميع الوسائل لكل المعارك الحربية .. كانت الأسرة العربية تتكون عادة من عدد كبير من الأفراد إذ كثيرا ما كان الرجل يتزوج بأكثر من زوجة كل واحدة منهن تلد له العدد الكبير من الذرية ، وكان الوليد والد خالد واحدا من ستة إخوة ولكن الوليد هو الذي تفوق على إخوته في الإدارة والقيادة ولهذا كانوا يلقبونه بـ (الوحيد) في هذا المناخ العائلي الذي يتسم بالثروة والجاه والغنى ولد خالد وعندما أذيع خبر

ميلاد ، خالد في جوف الكعبة وسمع رواد النادي ما عم أهل مكة من فرح وسرور وتساءلوا ماذا هناك ؟ فقالوا ولد للوليد ولد وسئل الوليد الذي كان يتيه فرحا وفخرا.. بم أسميت المولود ؟ قال .. خالد .. وأقام الوليد ليلة ذبح فيها ونحر وقدم الطعام للغادي والرائح ابتهاجا بهذه البشرى السعيدة ... ولقد كانت عادة الأسر الكبيرة في مكة إذا ولد لهم مولود يرسلون به إلى مرضعة في البادية .. وكانوا يحبون أن تكون هذه المرضعة سليمة قوية تتصف بالخلق الحسن والعفة في السلوك لأن الطفل الذي يرضع منها سيأخذ من خلقها وطبعها ويكتسب الصحة والعافية من سلامة جسمها ثم إن البادية فيها الهواء النقي الجاف والمناخ الصحي الصحو .. ومن هنا بني خالد جسده القوي الشديد الذي احتفظ به طيلة حياته .. وقد ارتبط خالد بالبادية فكان يحبها ويشعر بالراحة حين يلجأ إليها وبقي بين البدو حتى بلغ السادسة من عمره فعاد إلى أبويه بمكة .. في دار أبيه استطاع الأب والأم أن يقوما على تربيته وتلقينه كل الفضائل التي يتحلى بها العرب من الشجاعة والكرم والبسالة والمهارة في القتال ومن هنا كان يشعر خالد بشيء من الاعتزاز لأن الوليد يعتز بنسبه وقبيلته ، وما خالد إلا غصن من هذه الدوحة فهو ابن أحد رؤساء العشائر بل إن أباه هو رئيس القبيلة .. لهذا تعلم خالد ركوب الخيل لأن قبيلته تقوم على تربيتها .. وسرعان ما أصبح ماهراً وتعلم كيف يسوس الجياد بل عهد إليه أن يدرب المهور الصغيرة غير المدربة ويجعلها طيعة تستطيع أن تخوض أي حرب بصورة مرضية وأصبح خالد واحداً من الفرسان ومن أقدر الشباب مهارة في ركوب الخيل يجول بها ويصول في ميدان التدريب ومع ذلك تعلم ركوب الإبل أيضاً لأنه مع الخيل كانت الإبل من مستلزمات الحرب مع العرب ، وأجاد فن ركوب الإبل واستطاع أن يقودها بمهارة .. لهذا تعلم فنون القتال وعرف كيف يستخدم مختلف الأسلحة وكان العرب يعدون السيف سلاح الفروسية لأن من يستطيع أن ينتصر على خصمه ويحتل مكانة اجتماعية وأن ينتصر عليه بقوته وخبرته ومهارته.

خالد في مطلع أيامه أصيب بالجدري ولم يترك في وجهه غير أثر لم يشوه وجهه الجميل الخشن بل كانت البثور التي تركت تزيد في جماله مما جعله محل إعجاب الحسناوات في الجزيرة العربية .. و كان خالد ينزل إلى حلبة المصارعة

مع الفتيان الذين هم في مثل سنه لأن المصارعة كانت هواية كل الصبية والشباب في الجزيرة العربية يقومون بها لاعن عداوة وإنما عن رغبة في ممارسة رياضة محببة إلى نفوس من يقومون بها، لأن الرجل العربي لا يُعد رجلا إلا إذا تمرس على المصارعة لأنه في حاجة إليها دائما ، وكانت المبارزة دائما تنتهي بمنح الفائز لقب البطولة وكانوا يشترطون في المتصارعين عند النزول إلى ميدان المصارعة أن يكون السن بينهما واحدا بالتقريب ومستوى الأداء واحد .. وأن يكون المصارع قد تجاوز العاشرة بقليل ... .

عُمَر وخالد

في مكة مكان فسيح تدور فيه مصارعة بين الشباب والغرض من ذلك تدريب الشباب على المصارعة وبناء الجسم مع القدرة على الأقدام وعدم الخوف وفي أحد الأيام دارت مصارعة بين خالد وعمر بن الخطاب..كانا فارعي القامة نحيليها يمتاز كتفاهما وساعداهما بعضلات قوية ، عرفا كيف يكوناها وهما في هذه السن الصغيرة وكان العرق يتصبب من جسديهما بسبب أشعة الشمس.. وكان عمر أطول من خالد بقليل ، وتقابلا كل منهما يحدق في الآخر لأن وجهيهما متشابهين إلى حد يصعب على الإنسان أن يميز بينهما في كثير من الأحيان .. ثم راحا يتصاولان ببطء داخل دائرة المصارعة يحاول كل منهما أن يجد فرصة يسدد فيها هجومه على صاحبه مع اتخاذ الحذر ليكون بمأمن من أي حركة قد يعمد إليها الطرف الآخر ... ولم يقم الصبيان بهذه المحاورة والمناورة لخصومة بينهما بل للرغبة في التنافس وكل منهما مصمم على الانتصار على صاحبه وكان خالد أكثر حذرا لأن من أمامه في الحلبة يتمتع بكل المزايا التي كان يتحلى بها أمثاله .. وتصارع الصبيّان .. وألقى خالد برفيقه إلى الأرض محدثا في ساقه كسرا وتمدد الصبي على الأرض بلا حراك وراح خالد ينظر إليه والفزع يملأ نفسه والخوف يطل من عينيه لأن عُمر كُسرت ساقه ولأنه ابن عمته (هنتمة بنت هشام بن المغيرة) ولكن مرت الأيام وجبر كسر الصبي ، وكان الصبيّان

مازالا على حسن الصداقة ، ولذلك بعد أن شفى عمر استأنف ممارسة هوايته في المصارعة ، وكانت الأقدار قد أنعمت على عمر وخالد بالذكاء والقدرة على التخلص من أي مأزق ثم هما على درجة عالية من الفهم الجيد .. ولهذا ظلا يتنافسان في كل شأن من شئونهما .. وكان لخالد صفوة من الأصحاب يخرج معهم لركوب الخيل والصيد والقنص .. كما أن خالدا حدد لنفسه أوقاتا يعكف فيها في بيته يقرأ الشعر ويتعرف على الأنساب .. كما كان يشرب الخمر في بعض الأحيان وكان من أصحابه بالإضافة إلى عمر.. عمرو بن العاص.. وأبو الحكم عمرو بن هشام الذي عرف فيما بعد بأبي جهل كذلك عكرمة بن أبي جهل..

من المعروف أن العرب كان كل فرد منهم يزاول عملا ليتكسب منه ليحقق بذلك ذاته وليؤكد للناس أنه عضو نافع في المجتمع .. لهذا كان الوليد والد خالد، رغم أنه من أغنياء القوم وعنده الكثير من الموالى، والخدم، وتلك ثروة عظيمة إلا أنه كان يعمل بيده ، ينتفع بهذا العمل والعائد منه زيادة في ثروته وتمكينا لمكانته ، ولقد كان يجيد عمل (الحدادة) صناعة السيوف وغيرها .. كما كان يجيد فن الذبح .. فكان يذبح لبني عشيرته كما كان تاجرا يخرج بالقوافل محملة بالأمتعة يبيع ويشتري وقد صحب خالد والده أكثر من مرة في قوافل التجارة التي كانت تتجه إلى الشام وكان خالد ينتهز فرصة تواجده في هذه الرحلات ويلتقي بالعرب النصارى منهم أو من المشركين أو يلتقي باليهود وأهل غسان وفارس والمدائن والأقباط من مصر والروم ويقيم معهم حوارا في أي لون من ألوان الحياة مما يدل على سعة أفقه وبعد نظره وكياسته وكان الكل يعجب بخالد وإذا عرفوا أن أباه وصل كانوا يبحثون عنه ليجالسوه ويستمتعوا بالحديث العذب معه ، لهذا كان خالد محل إعجاب الجميع الكل يبحث عنه ويريد أن يصادقه لما تحلي به من نُبل الأخلاق وحسن العادات وما يتصف به من أدب وحياء وتفوق في كل شيء بشجاعة ومهارة ..وذكاء وبعد نظر وفكر ثاقب ومعرفة كثير من المجالات الاجتماعية.



أسـرة خـالد

الوليد بن المغيرة هو رأس أسرة خالد بن الوليد .. والوليد هذا واحد من ستة أخوة وهو من أغنياء القوم فكان يملك الذهب والفضة والبساتين وله تجارة واسعة .. لهذا كان الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم يعتز بنفسه ، ولقد كان أكثر أهل زمانه جودا وعطاءا لذلك لَقبوه (ريحانة قريش) ولقد اشتهر بالعدل .. إذا شارك في قضية ليكون حكما فيها وكان يدعو قومه إلى مكارم الأخلاق وكان لا يشرب الخمر حفاظا على عقله .. هذا هو والد خالد .. ثري غني فاضل كريم وأم خالد هى لبابة بنت الحارث الهلالية .. كانت من أسرة عظيمة لها مجد تليد ولبابة هذه أمها هند بنت عوف بن زهير .. سيدة من أكرم سيدات مكة وأخت لبابة هى ميمونة بنت الحارث (أم المؤمنين) زوجة النبي ﷺ وكذلك أم الفضل زوجة العباس عم الرسول ﷺ وهى أول امرأة آمنت بالرسول ﷺ بعد السيدة خديجة رضي الله عنها ، وكان لها موقف عظيم في الدفاع عن الرسول ﷺ لذلك ضربت أبا لهب بعمود فشجت رأسه عندما تطاول على النبي ﷺ ولها أخت أخرى هى أسماء بنت عميس زوج حمزة بن عبد المطلب سيد الشهداء .. لهذا كانوا يقولون عن أم (لبابة) أكرم عجوز لها أصهار كرام .. لذلك يتبين أن المناخ الاجتماعي الذي نشأ فيه خالد بن الوليد مناخ اجتماعي عظيم شرف ومروءة.. علم وأدب .. أسرة متشعّبة لها كيان اجتماعي معروف للقاصي والداني أما إخوة خالد فهم :

١- الوليد .. وقد سمي باسم أبيه .. وكان فتي يتميز بالجمال والجسم المشوق وقد أخذ عن أبيه خصاله ونهج نهجه في حياته ...

٢- عمارة .. وقد اتخذ لنفسه نهجا منحرفا لأنه يعيش حياة اللهو والعبث والمجون.. وعمارة هذا كان كَيِّسا فطنا، لذلك رافق عمرو بن العاص وعبد الله بن ربيعة عندما بعثت بهم قريش إلى الحبشة لمخاطبة النجاشي حتى يرد المهاجرين المسلمين من بلده .. فهو إذاً عنده لباقة وكياسة رغم ما كان فيه من

لهو وعبث .. ولقد حدث مرة أن عمارة أقام خيمة في الصحراء لتكون (منتجـع) شأنه في ذلك شأن أبناء تلك الطبقـة الغنيـة الموسـرة لتكـون دار لهـو ومجـون .. وعمارة يدعو أخاه خالدا ليذهب معه إلى هذا المنتجع وينضـم إلى زمـرة الماجنين لكن خالدا يرفض ويعنف أخاه على سوء مسلكه ويدعـوه إلى التحـرر مـن اللـهو حتى لا يكون عبدا للرذيلة .. لكن عمارة يسخر من خـالد وينـادي علـى امـرأة تسمى (سُمية) ويحيلـها علـى خـالد فوقفت أمـام خـالد تـتراقص وترتمـي في أحضانه.. وإذا بخالد يغضب ويثور ويصفعـها علـى وجهـها ويـهم بـالانصراف فيعترض عمارة طريق خالد فيصفعه هو الآخر على وجهه ويصفه بالفتى الفاشل الذي أفسدته النعمة وأضر به المال ...

٣- هشام .. وكان من الشخصيات المعتدلة ..

٤- عبد شمس ... .

هـؤلاء هـم الذكـور إخـوة خـالد .. ولـه كذلـك إخوتـان مـن الإنـاث همـا : (فختة .. وفاطمة) . وقد نشأ خالد على حب الحياة الخشنة رغم ثراء أبيه.. لذلك كان يشارك الأعراب في طعامهم الرخيص فيأكل مثلهم لحم الضب وهو حيـوان جبلـي يأكله الطبقة الفقيرة ولا يستسيغ لحمه أبناء الطبقـة الموسـرة .. وكـان الوليـد يعتـب على ولده خالداً هذا المسلك فيكـون رد خـالد .. إن اهتمـامي الأول منصـرف إلى بنـاء جسمي ليكون قوياً وبناء عقلي كذلك وأن أسمو على مطامع نفسي وأترفـع عـن الدنايـا حتى أستطيع مواجهة الحياة بحلوها ومُرها فقد يزول النعيم ويذهـب المـال ويتغـير الحال فلا يبقى للإنسان غير مبادئه التي اعتـاد عليـها ومثلـه العليـا ... وهـذا قمـة العقل الذي يسعد صاحبه .

لم يكن الوليد أبا لأولاده فحسب بل كان لهم النـاصح الأمـين والمعلـم العظيـم دفع بهم إلى أن يتعلموا فنون الحرب ... ولقد تميز خالد عن إخوته فتعلم أصول هـذا الفن وعرف كيف يصول ويجول فوق رمال البادية وتعلم كيف يفاجئ العدو بهجومه عليه وكيف يأخذه على غرة ثم كيف يتعقبه إذا ما لاذ بالفرار .. تعلم خالد هـذا مـن المناورات التي كانت تقيمها القبائل وكانت هـذه التدريبـات القبليـة تـدور في المقـام

الأول على أســاس الخطـط الهجوميــة .. لذلـك كـانت دوافـع خـالد تجنـح إلى الشـدة وحواسه النفسية تتمنى الحرب وكان يحلم دائما بخوض معارك كبـيرة يحـرز فيـها انتصارات باهرة ويكون فيها الفائز والبطل الذي يحظى بإعجاب الجميـع .. كـم كـان يُمنّي نفسه بخوض معـارك القتـال ويـرى في أحـلام اليقظـة الدمـاء الكثـيرة تخضـب الأرض بينما هو يقف ممتشقا سيفه وكلمات الثناء تصل إلى مسامعه واستحسان شيوخ القبائل لقيادته وحسن بلائه ولذلك كان الوليد سعيداً بولده خالد .. ولقد أصبح خـالد ملء السمع والبصر كما صار حديث أهل النادي بل أصبح حديث الأسر في البيـوت ولا شك أن هناك فتيات وصل إلى مسامعهن الحديث عن خالد فأصبحت كل فتاة تتمناه .. وليس هناك شيء يعيب خـالد فـهو يتسم بالجمـال الظـاهري مـع الفتـوة والرجولـة ودماثة الخلق وخفة الروح.. وأصبحت العيـون تتطلـع إلى خـالد الـذي أصبـح حديـث الجميع .. لذلك .. رغبت أمه في أن يـتزوج ولدهـا خـالد وعرضـت عليـه العديـد مـن الفتيات منهن من تتميز بالجمال الفائق ذات الشعر الطويل والجسم المشـوق وأبوهـا يتميز بالثراء وعندها الخدم والحشم وتعرض الأم كل يوم أكثر مـن فتـاة علـى ولدهـا لكنه يرفض فلما سألته عن المواصفات التي يرغبها فيمن ستكون له زوجة أباح عما في نفسه وحدد المواصفات.. جمال الروح .. الشخصية القوية والتي تعـرف بأنـها تجيـد الفتوة بل صرح لأمه أنه يرغب في فتاة تجيد ركوب الخيل وتعرف الفروسية .






الفصل الثاني
نور السماء

في جو مكة كان يعيش الناس جميعا حياة الصخب واللهو واللعب ومن بين هؤلاء الناس .. شخصية فريدة عرف الناس عنها أنها شخصية أمينة .. صادقة .. لا تحب اللهو ولا تميل إلى العبث .. إنها شخصية محمد بن عبد الله بن عبد المطلب كان يمشى في طرقات مكة ويراه الناس بالغ الوسامة .. ربع القامة كتفاه عريضتان قويتان عيناه واسعتان سوداوان فوقهما أهداب طويلة يبدو عليه أنه لا يعيش مع الناس بل يعيش في فكر خاص في صدره شيء مما يجرى على أرض مكة وحول الكعبة كان لا يشارك الناس لهوهم ولا يقر هذا الوضع الذي هو السبب في التدهور الخلقي والضعف النفسي الذي أصبح ظاهرة في كل مكان وكان أبو الحكم عمرو بن هشام بن المغيرة ، والذي سمى فيما بعد وعرف في التاريخ بأبى جهل وهو من أولاد أعمام خالد بن الوليد .. وكان أبو جهل هذا خشنا في كلامه عنيفا في أسلوبه وصفه أحد معاصريه بقوله (حديد الوجه حديد اللسان حديد النظر)[1] .. في يوم من الأيام قبل نزول الرسالة (اعترض أبو جهل طريق محمد ودخلا في صراع .. شأنهما شأن شباب المجتمع المكى وكانت مفاجأة أن محمدا يصرع أبا الحكم وقد ألقاه على الأرض محدثا بركبته جرحا بقى ظاهرا إلى أن مات)[2].. وأبو الحكم لم يغفر لمحمد هذا .. ثم إن هذا الشاب الوسيم العظيم محمد تزوج من ((السيدة خديجة)) التي كان أثرياء مكة يحاولون بشتى الطرق أن يحصلوا على رضاها أو موافقتها للزواج منها .. بل إن البعض عرض عليها ماله وضياعه وخدمه وحشمه ولم تقبل ، أثر فض كل ذلك وتتزوج من محمد اليتيم الذي عاش معها ردحا من الزمن في أسعد أيام حياته وكانت معجبة به لخلقه وأمانته وصدق حديثه وصلته للرحم ومشاركته في حلف الفضول (هو يشبه الجمعيات الخيرية الآن) ومبادئ هذا الحلف إنصاف المظلوم وإغاثة الملهوف وتقديم العون إلى المحتاجين وإطعام الجائعين ورفع مستوى الكادحين من

---

(١) انظر كتاب المغازى للواقدى جـ١ .
(٢) الطبرى جـ٢ .

الإماء والعبيد .. هذه الشخصية العظيمة اتجهت عندما قاربت الأربعين من العمر إلى العزلة في غار حراء وهو جبل عالٍ بمكة وكان يعتزل الجميع ويمكث فيه الليالى ويقضى وقته في التأمل والتفكر .. شمس تشرق ثم تغيب .. وقمر يظهر ثم يغيب .. وليل مظلم يعقبه نهار مضيء .. نجوم سابحات في الفضاء .. إن هذا الكون المنظم بدقة والقائم بنظام بديع لابد أن وراءه قدرة عالية .. وبينما هو في ليلة من الليالى أحس بأن شخصا معه في الغار لم يستطع أن يراه كما أنه لم يشعر بأي حركة تنم عن تواجده في جهة معينة لذلك بدأ يترقب وجسمه في حالة من القشعريرة والرهبة .. وبينما هو على هذه الحالة من الترقب إذ بصوت يصل إلى مسامعه .. يا محمد .. اقرأ.. قال .. ما أنا بقارئ .. وفي دهشة بالغة ارتفع الصوت مرة أخرى وعاد قائلا اقرأ.. وإذا بالصوت يقترب منه جسما ويضمه إلى صدره بشدة ضاغطة .. ويعيد عليه اقرأ إلى أن قال له بلهجة حاسمة (اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) [العلق ١ : ٥]

حدث ذلك في يوم الاثنين من شهر أغسطس عام ٦١٠ ميلادية ومن لحظة هذا الموقف العظيم التقت الأرض بالسماء أشرقت الأرض بنور ربها وذهب محمد بما سمع إلى زوجته البارة الوفية الكريمة يخبرها بما تلقاه وكان الاضطراب بار عليه وهو يقول لها زملونى . زملونى فبدأت تهدئ من روعه وأدخلت الأمن على نفسه وهيأت له مضجعه ليستريح وقالت له كلمات تؤنسه وتدخل السرور على قلبه ومن قولها (والله لن يخزك الله أبدا إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الدهر) ثم ذهبت خديجة إلى ورقة بن نوفل ، وكان ابن عمها، وكان رجلا له صلة بعلم الكتاب الأول ، وما أن سمع منها حتى بشرها وقال لها هذا هو الناموس الذي نزل على موسى من قبل، كما أنه أخبر النبي ﷺ عندما قابله بأنه سيهاجر لأن قومه سيخرجونه من مكة .. ولقد استنكر النبي ﷺ عندما سمع هذا وقال لورقة أو مخرجي ، قال ورقة .. نعم . لم يأت رجل بمثل ما جئت به إلا أوذي وكان هذا إخبار للنبي ﷺ بالهجرة التي وقعت بعد ثلاثة عشر سنة وبدأ النبي ﷺ يدعو إلى دعوة الحق ويبشر بالدين الجديد ، وفي أحد أيام السنوات الأولى للدعوة

جمع النبي عشيرته الأقربين حول طعام طيب وقصد من وراء ذلك أن يتحدث إلى أقاربه في أمر الدين الجديد ليؤازروه وينصروه ويعاونوه على التبليغ.. وبعد أن أكل القوم وشبعوا وبدءوا يتسامرون ويتحدثون تكلم النبيﷺ وقال لهم.. يا بني عبد المطلب إني والله ما أعلم شابا في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به إني قد جئتكم بخيرى الدنيا والآخرة وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه .. فأيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم ؟ فأحجم القوم عن الجواب وأخذ كل منهم يتطلع إلى الآخر ليرى هل سيقبل أحد منهم مؤازرة محمد .. وسادت لحظة صمت رهيبة .. وقطع الصمت صوت صبي حديث السن نحيل الجسم صغير القامة رقيق الساقين[1] (وقال أنا يا نبي الله أكون وزيرك .. فقام القوم وهم يضحكون ويسخرون وانصرفوا .. ولكن الصبي لم يأبه للخشونة التي بدت من القوم .. واحتضنه النبي ﷺ وقال هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم) .. (كان هذا الصبي هو علي بن أبي طالب ابن عم النبيﷺ وهو أول من آمن من الصبيان وصدّق بما نزل على محمد من عند الله)[2]...

بدأ النبيﷺ يبلغ دعوته إلى بعض أصدقائه ومعارفه بالتدريج .. وبالسماحة.. والرفق .. ولقد دخل عدد قليل من الناس في هذا الدين عن إيمان به واقتناع بشخصية الداعي التي عرفت بالجد والبعد عن كل ما يحط بكرامة الإنسان.. وكان معظم الذين دخلوا في هذا الدين من الشبان والضعفاء .. وهؤلاء الذين دخلوا في الدين الجديد اتسموا بالشجاعة والقوة والصمود .. وبدأ يظهر في المجتمع المكي «المعارضة» التي تعارض هذا الدين الذي يعلن الحرب على الأصنام ويؤكد على أن المعبود بحق هو إله واحد لا شريك له وهو لم يلد ولم يولد .. وكانت قيادات المعارضة تتكون من :

١- أبو سفيان .. وكان اسمه صخر بن حرب .. وهو رئيس قبيلة بني أمية ..

٢- الوليد بن المغيرة .. وهو رئيس قبيلة بني مخزوم .. (والد خالد) ...

---

(١) الطبري جـ ٢ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ .

٣- أبو لهب .. وهو عم النبي ﷺ ... واسمه .

٤- أبو الحكم .. الذي عرف فيما بعد بأبى (جهل) ...

هؤلاء الأربعة كانوا قادة المعارضة وكان أبو سفيان والوليد من أكابر القوم وممن يعتدون بأنفسهم .. وكان الوليد بن المغيرة استقبل نبأ ظهور الدين الجديد بفزع وجزع وانزعاج ولذلك صاح قائلا (أينزل وحى السماء على محمد وأترك أنا.. وأنا كبير قريش وسيدها ؟ .. وإذا كان الوحى تخطانى فلّم لَمْ ينزل على أبى مسعود عمرو بن عمير الثقفي .. سيد ثقيف ونحن عظيما القريتين ..؟ ، بسبب هذه المقالة من الوليد نزل قول الله تعالى (وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَـذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ)[1] [سورة الزخرف ٣١] .. أما أبو سفيان فكان من الحكمة بمكان لأنه لم يلجأ إلى العنف ولم تبدر منه أي إهانة في حق شخصية النبي محمد ولم يحقر الدين الجديد وإنما انضم إلى المعارضة وقادها حفاظا على منزلته الاجتماعية واستمراراً لوضعه لأنه رجل يحب الفخر .. أما أبو لهب فهو شخصية مهزوزة ضعيف أمام زوجته وهو عم النبي ﷺ وقد زوّج ولديه من ابنتى النبي محمد وهما رقية وأم كلثوم ولقد أصرت زوجة أبى لهب "وهى حمالة الحطب أن يطلق أولادها بنات النبي ﷺ وانقاد لها زوجها وتم طلاق البنات وهذا أمر صعب جدا على نفسية السيدة الفاضلة خديجة زوجة النبي ﷺ لأن المرأة في الجاهلية إذا طلقت فهذا عيب كبير وخطأ جسيم وإهانة بالغة لأسرة الفتاة المطلقة ، فما بالك وقد طلقت الفتاتان في يوم واحد ، لكن محمدا وخديجة أحسَّا بالراحة والطمأنينة لطلاق البنات بل والسعادة النفسية ، لأن أم جميل (حمالة الحطب) زوجة أبى لهب كانت سفيهة منحطة الأخلاق لم ترع للجيرة حرمة ولم تعرف للقرابة قدسيتها فأولادها يقولون لمحمد (يا عم) لأنهما من أقاربه وأبوهما عم النبي ﷺ مباشرة ومع ذلك كانت أم جميل سليطة اللسان تجرح شعور البنات بألفاظ نابية وكلمات مستهجنة وكان زوجها لا رأي له في البيت ولا كرامة .. أما أبو جهل فقد كان الحقد يعتمل في نفسه والغيرة تقتله وكان هو من رؤوس القبائل المعروفة، ثم هو ابن عم خالد وصفّيه وكان لشدة معارضته للدين

(١) سيرة ابن هشام جـ١ .

ومقاومته العنيفة للإسلام والتخطيط للتصفية الجسدية للمسلمين أن أطلقوا عليه اسم (أبو جهل) ...

بدأت المعارضة تجند الناس جميعا ضد الدين الجديد ويرددون في أذن الناس (امشوا واصبروا على آلهتكم) وبدءوا يعلنون عداوتهم للنبي محمد ﷺ ومن معه وهم في قرارة أنفسهم يؤمنون بصدق النبي محمد ومن المستحيل أنه يكذب على الله لكن تمسكهم بالتقاليد التي كان عليها الآباء دفعتهم مع عصبيتهم إلى أن يرفضوا الدعوة ولم يستجيبوا لأي حوار .. لهذا قال الله تعالى لحبيبه ومصطفاه (قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ) .
[الأنعام: ٣٣]



في دار الوليد

الوليد بن المغيرة .. والد خالد كان يشغل باله هذه الدعوة وهذا الدين الجديد وكيف اختار الوحى هذا الرجل الفقير ليحمل هذه الدعوة إلى الناس. وكان دائما يشارك في التخطيط لإرسال وفد وراء وفد لمناقشة أبي طالب ، حيث يتميز أبو طالب بشخصية فذة وما زالت متمسكة بدين الآباء ، لكنه يدافع وبشدة عن النبي محمد ﷺ .. وكان الوليد في كل مساء يجلس في بيته ومن حوله الأبناء والأقارب يحكى لهم ما جرى في هذا اليوم من مفاوضات ويشرح ما قامت به قريش لصد محمد عن دعوته .. وكان خالد ينصت وباهتمام إلى أبيه ثم يلحظ خالد تجاعيد وجه الأب وهو يعلن فشل الوفود المفاوضة ، كما أنه يعلن وبمرارة انتشار الدين الجديد وأن المعارضة لم تجد شيئا رغم تنوع الأساليب التي تتبعها مثل الأذى والحصار الاقتصادى والمطاردة والحبس والطلبات التي يقدمونها لمحمد من باب التعجيز ، حتى أنهم طلبوا منه قائلين (لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء) إلى غير ذلك من أسئلة التعجيز ، ومع ذلك فالناس تقبل على الدعوة كما يقبل العطشان على الماء .. استمع خالد إلى والده وهو يقرر أنه سوف يقوم بخطوة جريئة خلاصتها أن (عمارة) أخو خالد وهو كان من الشباب الأقوياء وسيما

ممشوق القامة فيه كل الصفات التي يتحلى بها الرجل .. رغم أنه ماجن مستهتر ، لكن والده يقرر وبقوة أنه سيبعث وفداً من قريش إلى أبى طالب يعرض عليه أن يأخذ عمارة فله عقله وسوف يكون له ولداً عظيماً ومقابل هذا التنازل عن ولدى (الكلام على لسان الوليد) لأبى طالب عليه أن يسلمنا محمدا لأنه خالف عرف القوم وخرج على التقاليد الاجتماعية والعادات الموروثة وقد فرّق الجماعة وسفّه الأحلام.. ونحن نقوم بقتل محمد ويُحل عمارة في بيتك محله ورجل برجل) ..

بدأ خالد يرقب الأحداث وهل يقبل أبو طالب العرض أم سيكون هناك اتجاه آخر ، سكت خالد لحظة وهو يفكر .. وقال .. غدا تكشف الأيام عما ستجرى به الأحداث وجاءت الأنباء في اليوم التالى بأن أبا طالب رفض العرض وقال (لبئس ما تساومونني عليه أتعطونني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه هذا والله ما لا يكون أبدا) وفشل القوم في مهمتهم ولم تفصح الأخبار كيف تلقى خالد وأخوه عمارة هذا النبأ .. هل بخيبة أمل أم بفرحة ؟..

لقد أدركت قريش ألاَّ أمل لها في إقناع أبى طالب بوقف نشاط النبي والحيلولة بينه وبين الضعفاء الذين استجابوا لدعوته وبدءوا يتزايدون ، لذلك اتجهت المعارضة وبتخطيط من الأربعة الكبار إلى أن يحيلوا حياة النبي محمد ومن آمن برسالته إلى عذاب أليم لعلهم عن مبدأ الدعوة يبتعدون ، لذلك أغروا سفهاءهم برسول الله ﷺ يسمعونه بعض الكلمات النابية ويغمزون في حقه بالألفاظ الساخرة ويستهزئون به ويضعون الشوك في طريقه ويلقون بالقاذورات أمام بيته وهكذا بدءوا يتفننون في أنواع الأذى ، ولقد تفتق ذهن المعارضة عن أمر خطير وهو إحالة السفهاء لترمى التراب على النبي العظيم لعل ذلك يحط من شأنه .. وكان هناك رجل يسمى (ركانة بن عبد يزيد) وكان من أولاد عمومة النبي ﷺ ولم يصدق برسالته وكان مصارعا قويا بطلا عنيفا ولم يحدث أن صرعه أي إنسان بمكة ...

أحالت المعارضة هذا الشخص على النبي ﷺ ليدخل معه في المصارعة وهم يعتقدون أن ركانة سيصرع النبي ﷺ وهذا أمر كاف للنيل من شخصية النبي والحط من قدره .. وذهب ركانة إلى النبي ﷺ وطلب منه المبارزة والمصارعة وقال ركانة

للنبى : إن صرعتنى علمت أنك صادق .. وفرح النبي ﷺ وقبل الأمر ونزل إلى حلبة المصارعة ووقف الناس يهللون لركانة وما هى إلا لحظات حتى وقع ركانة على الأرض واستعمل النبي ﷺ معه أسلوب الرحمة ومد إليه يده فنهض لكنه أصر على مواصلة المصارعة وانهزم ثلاث مرات ثم أسرع بالخروج من الحلبة ولم يف بوعده ونكص على عقيبه[1] ...

خرج النبي ﷺ من هذه المصارعة ولم يصب في جسده بأي أذى .. وزادت قريش في قسوتها مع النبي ومن آمن معه .. عذاب وإرهاب بأساليب متنوعة إلى حد فظيع ثم بعد عشر سنين من نزول الوحى توفي أبو طالب وبعد وفاته أصبح وضع النبي أكثر صعوبة لأن خصومة قريش له زادت وبالتالى زاد الخطر على حياة المسلمين كما ان خديجة هى الأخرى توفيت وسمى هذا العام الذي حدث فيه الوفاة للاثنين بعام الحزن .. ثم كانت رحلة الإسراء والمعراج وفي كل هذه المراحل كان العنف والاضطهاد في التعامل مع المسلمين ثم جاء الإذن بالهجرة إلى يثرب التي أحس فيها المسلمون بالأمن والأمان حيث يمارسون شعائر دينهم في جو فيه استقرار .. ولقد تمكن النبي ﷺ من إقامة دولة سادت بالعدل وبالحق وبلغت كلمة الله برفق وشعر الناس فيها بالأمن والاستقرار والمساواة في الحقوق بين السادة والعبيد.

موت الوليد

عاش الوليد في حياته عيشة الخير والعز .. فالأولاد من حوله كثير.. والمال في يده أكثر .. وهو رجل له فكره وعقله .. ولقد ذكر المفسرون أن الوليد بن المغيرة دخل على أبى بكر رضى الله عنه .. فسأله عن القرآن .. فلما أخبره عنه خرج على قريش .. فقال .. يا عجبا لما يقول ابن أبى كبشة وهو زوج السيدة حليمة مرضعة النبي ﷺ فهو أبوه من الرضاعة .. فوالله إن ما يقوله ما هو بشعر.. ولا بسحر .. ولا بهذى من الجنون .. وإن قوله لمن كلام الله .. فلما سمع بذلك نفر من قريش .. قالوا .. والله لإن

---

(١) ابن الأثير جـ٢ .

صبأ الوليد لتصبؤ قريش فلما سمع بذلك أبو جهل بن هشام .. قال .. أنا والله أكفيكم شأنه ، فانطلق حتى دخل على الوليد بيته .. فقال أبو جهل للوليد .. ألم تر إلى قومك قد جمعوا لك الصدقة ؟ فقال الوليد .. كيف وأنا أكثرهم مالا وولدا ؟ فقال أبو جهل .. يتحدثون عنك بأنك تدخل على ابن أبى قحافة لتصيب من طعامه فقال الوليد .. أقد تحدثت به عشيرتى ؟ فلا والله لا أقرب دار ابن أبى قحافة ولا عمر ولا ابن أبى كبشة .. وما قوله إلاَّ سحر يؤثر.. فأنزل الله عز وجل ردا عليه (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً * وَبَنِينَ شُهُوداً * وَمَهَّدْتُّ لَهُ تَمْهِيداً * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً * سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ) [المدثر١١ :٢٤]

هذا الرجل الذي عاش على الكفر وعدم الاستجابة لدعوة الحق رغم علمه اليقين بأن محمدا صادق وما كان ليكذب على الله .. ومع علمه بأن القرآن ليس من كلام البشر .. إلا أنه تمسك بكفره وإلحاده إلى أن هاجر النبي ﷺ وعاش أولاده من حوله إلى أن مرض بعد هجرة النبي ﷺ بثلاثة أشهر .. وهو على فراش المرض استدعى أولاده فالتفوا حول فراشه .. فقال لهم .. لن أقوم من هذا المرض وأنا أوصيكم بثلاث .. فلا تضيعوا فيهن .. دمى في خزاعة فلا تطلبونه لأنى والله أعلم أنهم منه براء .. ولكنى أخشى أن تسُبوا به بعد اليوم .. وربأي في ثقيف فلا تدعوه حتى تأخذوه .. وعقرى عند أبى أزيهر الدوري فلا يفوتنكم به .. وكان أبو أزيهر قد زوجه بنتا ثم أمسكها عنه فلم يدخلها عليه حتى مات .. وقد أهدر الوليد دمه في خزاعة لأنه لم يعرف من رماه بالسهم.. (وعُقْري) دية الفرج المغصوب .. ثم مات الوليد بعد أن أوصى أولاده.. وشيعت جنازته بمظاهر التكريم التي تليق بزعيم كبير وابن من أبناء قريش من الذين عرفوا بالحكمة والعقل والرأي السديد .. وعاش أولاده من بعده .. خالد بمكة.. يتمتع بالحياة الناعمة في هدوء وسلام .. وبدأ ينمى ثروته التي آلت إليه .. وأصبح يخرج في وفود التجارة .. وبدأ ينمى العلاقات الاجتماعية بينه وبين الناس.. وكان له أصدقاء في الشام التي كان يذهب إليها كثيرا .. لذلك

وضعها دائما تحت عينيه بل وجعلها هدفا من أهدافه الحربية فيما بعد .. ولقد نعم خالد في بيته حيث أنجب .. (سليمان .. وعبد الرحمن) وكان خالد يُكنَّى بأبى سليمان وأحيانا بابن الوليد .. وإذا كانت صفحة الوليد قد طويت إلا أن سيرته بقيت في صفحات التاريخ الذي يقول (من أنجب لم يمت) وقد أنجب الوليد خالدا البطل الشجاع المغوار المقدام الذي يتحدث عنه التاريخ بكل إعجاب .. لقد سجل خالد اسمه على جبين الزمن لأنه كان مخططا جيدا ومنظما حكيما ومنضبطا على القيم الأخلاقية العالية في الجاهلية والإسلام وهذا هو منطق العقل السليم .. ويا ليت شبابنا به يقتدون في العفة والطهارة والاحتكام إلى العقل والرجوع إلى الحق ...

غزوة بدر

في شهر رمضان .. وفي السنة الثانية من الهجرة وقعت غزوة بدر لم يشارك فيها خالد لأنه كان قد تغيب عن مكة..وإنما خرج أخ لخالد هو (الوليد) الأخ الأصغر.. ومن المعلوم أن سبب هذه الغزوة أن الرسولﷺ تعرض لقافلة تجارية لأهل مكة تحمل سلعا كثيرة تقدر بخمسين ألف دينار .. وكان رئيس هذه القافلة (أبو سفيان) تعرض النبي ﷺ لهذه القافلة ليعوض أصحابه ما فقدوه عند الهجرة .. لأن قريشا أخذت أموالهم وأممت ديارهم ولم ترع فيهم حرمة القرابة ولا الجوار ولا أي حق..بل إن أبا سفيان أخذ دار عائلة (بنو جحش) وباعها بعد الهجرة.. وأرسل أحد أبناء العائلة ويدعى (أبو أحمد) برسالة إلى أبى سفيان يقول فيها:

أبلغ أبا سفيان عن أمر عواقبه ندامة
دار ابن عمك بعتها : تقضى بها عنك الغرامة
وحليفكم بالله رب الناس مجتهد القسامة
اذهب بها اذ هب بها : طوقتها طوق الحمامة

كان النبي ﷺ يقصد من الاستيلاء على القافلة أن يوسع على أصحابه خاصة المهاجرين .. لكن القافلة غيرت مسارها بعد أن أرسلت إلى قريش تستنجد بهم .. لهذا خرج كل مز له مال في القافلة .. ومن لم يستطع الخروج ندب من يخرج مكانه..

فتحرك جيش قريش وفيه قرابة الألف معهم الكثير من معدات الحرب كما حملوا الطعام والشراب بكميات كبيرة .. بل وأخذوا الخمر والنساء للمتعة وكأنهم متوجهون إلى رحلة ...

القافلة

وصلت قافلة قريش إلى مكة بسلام وأمان .. لأن أبا سفيان بعد أن أرسل برسول إلى قريش خطط بسرعة فائقة لاجتياز هذه الأزمة .. ونجحت خطته .. ووصلت القافلة إلى مكة وهى تضم ألف بعير تحمل سلعا متعددة وأشياء متنوعة وإذا كانت المبالغ التي حملها أبو سفيان معه في التجارة السابقة التي ذهب بها إلى الشام كانت قيمتها خمسون ألف دينار .. زائد المكسب والربح الذي قدر بهذا المبلغ .. أيضاً .. وأهل مكة جميعا أموالهم مستثمرة في هذه القافلة .. لهذا كان الناس جميعا في فرح زائد عن الحد لكن .. عندما سأل أبو سفيان عن أبى جهل وغيره .. قالوا .. بأنهم خرجوا في جيش كبير لاستنقاذ القافلة فأرسل أبو سفيان سريعا ببعض الأشخاص لرد الجيش وعودته وعدم الدخول مع محمد في معركة ..

ولكن لأمر أراده الله وحكمة عالية تخفي على الأذهان .. شاءت مشيئة الله أن أبا جهل يرفض العودة وأصر على أن يجلس مع الجيش عند ماء بدر .. ترقص الحسان وتغنى القيان ويُعزف على مسامعهم .. وتنحر الإبل.. ويقدم الطعام للغادى والرائح ليعلم العرب أن قريشا مازالت تتمتع بهيبتها .. وأن مكانتها في النفوس ومنزلتها عند العرب لا يؤثر في ذلك أبدا هجرة محمدﷺ ومن معه من الصابئين .. على حسب زعمهم وافتراءاتهم .

جيش المسلمين

تحرك النبي العظيم محمد ﷺ من المدينة ومعه مجموعة من الصحابة وأخبرهم بالذي يريده فخرج معه ثلاثمائة صحابى جليل قد يزيدون قليلا .. يحملون إيمانهم في قلوبهم .. ويرفعون راية السلام ويعلنون مبدءا معترفاً به من الدول ومنظمة هيئة

الأمم المتحدة وهو (ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة) والحق سبحانه وتعالى يحدد ذلك فيقول (كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ * يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ * وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ) [الأنفال من ٥-٨] .. ولما علم الرسول ﷺ أن القافلة غيَّرت مسارها استطلع رأي أصحابه حتى لا يأخذهم على غرة أو يخدعهم .. وحاشا لنبي الأمة العظيم أن يكون كذلك .. فلقد عرف بالصراحة والوضوح والشجاعة بصفة عامة لذلك أخبر أصحابه بأن المعركة فرضت عليه ولابد من مواجهة الأمر الواقع .. ثم استطلع رأي القيادات الطبيعية والتي تمثل ثقلا شعبيا في المجتمع .. وقد اتفق رأي المهاجرين والأنصار على أن يكونوا مع النبي العظيم حتى لو خاض بهم البحر وضاعت أموالهم وقتلوا في سبيل نصرة الحق وكانوا فداءا للنبي العظيم فإن سعادتهم عظيمة بذلك وفرحهم كبير لأنهم خلف رائد وقائد ليس له مثيل في علو الهمة ونبل الأخلاق وحسن العلاقات وطيب العشرة ومكارم الأخلاق لذلك فرح النبي ﷺ واتجه إلى منطقة بدر.

المعـــركة

على أرض بدر دارت معركة رهيبة بدت غير متكافئة .. فمحمد ﷺ يقود جيشا من ثلاثمائة قد يزيد أفراداً قلائل عدتهم قليلة وطعامهم قليل كان الثلاثة منهم يتعاقبون على جمل أثناء اتجاههم إلى المعركة .. أما جيش المشركين فهم ألف كلهم من صناديد قريش وفرسانها وأبطالها المشهود لهم بالكر والفر والإقبال والإدبار .. ومع ذلك فلم تمض أكثر من ساعتين حتى أطاح المسلمون بجيش قريش وأجبروه على الهرب من ميدان القتال بلا نظام بعد أن سقط منهم قتلى في ميدان المعركة قدروا بسبعين قتيلاً من المشركين .. ومثلهم كذلك وقعوا أسرى وكان من بين القتلى سبعة عشر شخصا من قبيلة بني مخزوم كان معظمهم من أبناء عمومة خالد أو أبناء إخوته .. كما قتل أبو جهل أيضا .. وأسر الوليد أخو خالد .. أما المسلمون فقد استشهد منهم أربعة عشر

فقط .. ولقد منَّ الله تعالى على المسلمين بهذا لأنه هو الذي ثبَّت المسلمين وقوى شوكتهم وأنزل ملائكته معهم وقال سبحانه وتعالى مبينا ذلك (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) [آل عمران ١٢٣] .. إن الشيطان زين للكافرين أعمالهم وخدعهم في أنفسهم وغرهم بكثرة أعدادهم ... وقد حكى القرآن ذلك بقوله (وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ) [الأنفال ٤٨] .. لقد فرح المسلمون بهذا النصر العظيم الذي تحقق لهم بفضل قوة إيمانهم .. ودعاء نبيهم واستجابة الرب القوى القدير .. فبعد شكر الله وحمده رجع المسلمون إلى المدينة ومعهم الأسرى والغنائم .. وأذن مؤذن الخير على ربوع المدينة فخرج أهلها في فرح وسرور .. وأدب واحترام .. حامدين الله مكبرين .. شاكرين له فضله .. يسألونه أن يكون معهم دائما بالنصر والتأييد .. وتلك طبيعة المؤمن .. يشكر ربه عند النعمة ويسأله المزيد ويصبر إن حلت به نقمة ويسأل ربه رفع الكرب والبلاء .. والمؤمن في كلتا الحالتين على خير .. وإلى هذا أشار النبي ﷺ بقوله (عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير إن أصابته نعماء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له) هذا هو المؤمن الموحد الذي يعرف ربه ويصدق النبي محمدا ﷺ في كل ما جاء به من عند الله سبحانه .



عندما جاءت أخبار تجارة القافلة إلى قريش وأن الربح فيها مائة في المائة.. خرجوا إلى الشوارع يرقصون ويغنون والخمر في أيديهم .. وقد اختلط الحابل بالنابل .. فكل واحد يحتضن من يقابله .. ثم توجهوا إلى الأصنام فسجدوا لها طويلا .. كما استبيحت الأعراض فالمرأة لا ترد يد لامس واختلطت الأمور ومضت أيام ولم يتوقفوا وأقسموا أن يستمروا هكذا حتى تصل إليهم أخبار المعركة .. وهم متأكدون من النصر لجيشهم .. ثم قالوا لابد للأفراح أن تتعانق .. ولأيام السرور أن تتواصل .. ولكن

للأسف الفرحة لم تتم .. لأنهم عصوا أمر الله وخرجوا على كل القيم الأخلاقية .. لذلك وهم في غمرة النشوة .. سمعوا صوت شخص ينادى بأعلى صوته ويستغيث وينوح ويولول فخرجوا إليه مسرعين .. فمزق قميصه وأخبرهم بأخبار المعركة .. وهى أخبار غير سارة لأنها محزنة للغاية .. ووقف الرجل على جمله وكل واحد يسأله عن ابنه أو أخيه أو قريبه .. فتكون الإجابة غير مطمئنة .. فانقلب فرحهم غما .. وسرورهم حزنا .. وتلك عاقبة الظالمين المجرمين المنحرفين الضالين .. وخرج أبو سفيان باعتباره أكبر رأس موجودة في مكة ومعه زوجته هند بنت عتبة التي عرفت بموت أبيها عتبة على يدى (على وحمزة) وبموت عمها شيبة على يد (حمزة) وبموت أخيها الوليد على يد (علي) وبموت ابنها حنظلة على يد (على) .. ولقد زاغ بصرها .. وخرجت عن وعيها وهتكت ستار الأدب والحياء فأخذت تلعن عليا وحمزة .. أما زوجها فقد وقف يفكر في الأمر .. لقد سقط صناديد قريش .. وأصبح هو كبير مكة فلابد أن يدبر الأمر ويخطط بدقة ونظام ولهذا دعا إلى عقد مؤتمر عاجل .. وفي هذا الاجتماع حضر سادة قريش .. وكل واحد منهم مصاب في فقد عزيز .. وقد حدث صخب في هذا الاجتماع من (صفوان بن أمية .. وعكرمة بن أبى جهل) وسبب هذه الثورة أنهما يريدان الخروج فورا لملاقاة محمد وجيشه وأخذ الثأر منه .. وقد رد أبو سفيان على الثائرين بقوله .. أنا أول من يجيب النداء ومعى قبيلة عبد مناف .. لأنه والله أنا الموتور فقد قتل ولدى حنظلة كما قتل أبوك يا عكرمة وأنت يا صفوان.. ولكن علينا أن نتروى ونخطط وأن نعد حملة قوية لم تر الجزيرة العربية مثلها من قبل .. وعلينا أن ندعو القبائل المحيطة بنا للاشتراك معنا حتى نتمكن من القضاء على محمد والذين معه .. وفي هذا الاجتماع اتخذوا قراراً بالإجماع وهو تخصيص الربح المالى الذي حققه أبو سفيان في تجارته ويبلغ (خمسون ألف دينار) وأن يكون أبو سفيان بالإجماع هو القائد مع تخويله الصلاحية لتدبير كل شيء بحكمة ودقة ..

عندما تم اختيار أبى سفيان قائداً عاماً مع تخويله كافة الصلاحيات وقف يشكر الجميع ويعلن عن بعض القرارات التي اتخذها في مجلسه وهى :

١- القرار الأول .. أن يمتنع كل إنسان عن البكاء والنحيب على قتلى بدر .. وكل إنسان يحتفظ بالمرارة حية في قلبه .. وأن نتجه جميعا إلى إذكاء الحمية في النفوس وتأهيل الناس للثأر من محمد بأي وسيلة كانت ..

٢- القرار الثاني .. تشكيل وفد ليذهب إلى المدينة للتفاوض في شأن الأسرى .. وقد وقف البعض ليعارض هذه القرارات خاصة وأن بعض الناس ذهبوا إلى المدينة فعلا وتفاوضوا في فك أسراهم .. وكان المسلمون قد وضعوا شروطا حددها القرآن الكريم في قول الله سبحانه (فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ) [سورة محمد ٤] .. والمسلمون وضعوا لكل واحد فدية تتناسب مع وضعه المالي وكيانه الاجتماعي (عدالة التوزيع) وقد تحدد بدء الفداء من ألف درهم .. الحد الأدنى .. أما الحد الأقصى (أربعة آلاف درهم) .. ومن كان يعرف القراءة والكتابة ويريد أن يحصل على حريته ولا يستطيع دفع الفدية فيعُلّم عددا من أولاد المسلمين القراءة والكتابة .. ولأن النبيﷺ خلقه العفو والرحمة والتسامح فقد عفا عن بعض الأسرى دون أي فدية واشترط عليهم ألا يشتركوا في أي معركة ضد المسلمين .. لكن أبا سفيان بعد أن استمع إلى كل ذلك أعلن على الناس أن الطريق الذي تقطعه قوافلهم من مكة إلى الشام وفلسطين يمر بالقرب من المدينة ومحمد يهدد قوافلنا في غدوها ورواحها .. لذلك علينا أن نسرع بإعداد العدة وأن نقوم بحملة قوية لتأمين الطريق من المسلمين..



تخلف خالد عن الاشتراك في غزوة بدر كما تخلف أخوه هشام .. لكن الوليد وهو الأخ الثالث لخالد اشترك في المعركة ووقع أسيرا .. وفي المدينة عرف خالد أن فدية أخيه (أربعة آلاف درهم) فأخذ هشام يساوم المسلمين على تخفيض الفدية .. لكن خالدا لام هشاما وقال له ادفع فمثلنا لا يُسَاومْ .. وبعد دفع الفدية غادر الإخوة الثلاثة المدينة المنورة واتجهوا إلى (ذى الحليفة) وقضوا ليلتهم هناك.. في وسط الظلام وفي منتصف الليل فرَّ (الوليد) الذي كان أسيراً ودفع له إخوته الفدية ثم عاد إلى المدينة لأنه كان قد أسلم سرا بعد أن رأي بعينيه ما يتحلى به المسلمون من خلق نظيف .. وطهارة .. وحسن معاملة ، وفي الصباح علم الإخوة بما حدث لذلك عاد خالد وهشام إلى مكة .. وقد ظلت العلاقة بين الأخوة طيبة قوية يحكمها العقل وتؤكدها المودة .. لكن خالدا بدأ يفكر في أمر أخيه الذي ترك مكة بكل ما فيها من ملاذ وذهب إلى محمد الذي تحاصره المشاكل من كل جانب .. لكن الأحداث وسرعة جريانها أنست خالداً هذا التفكير لأنه اندمج مع أهل مكة يدلى بدلوه في الأمور ويسهم برأيه في التخطيط ...

وفد من المدينة

كانت الأحداث في مكة تجرى على قدم وساق .. فأبو سفيان يجرى مفاوضات مع القبائل المجاورة .. ويلقى بالتكليفات على الأشخاص كل على قدر همته فهناك من يشترى الجمال وهناك من يدرب الذين يرغبون على حمل السلاح.. وهناك من يشترى السلاح وهناك من يحرك العواطف بالشعر ويذكى نار الحمية في قلوب الناس مع المطالبة بسرعة الانتقام وهناك من يجمع المال .. وفي وسط هذا الجو المشحون بالتوتر وصل وفد من المدينة يتقدمهم (أبو عامر الراهب) وكان من قبيلة الأوس .. وقد خرج في خمسين رجلا من قبيلته .. وأبو عامر هذا كان من الشخصيات التي تعيش على الدجل والشعوذة والاحتيال على الناس لسلب أموالهم .. ولما وصل النبي

ﷺ إلى المدينة وسارع أفراد قبيلته إلى اعتناق الإسلام انكشف أمره وعرفت قبيلته أنه (مشعوذ) ولما لم يمتنع عن ممارسة أعماله سماه النبيﷺ (أبو عامر الفاسق) وأصبح يعرف بهذا الاسم في المدينة .. وعندما عرف أن أهل مكة موتورون وأنهم يخططون للقضاء على الإسلام وإبادة المسلمين أخذ من طاوعه وذهبوا إلى مكة واجتمع مع أبى سفيان وأقسم ألا يعود إلى المدينة طالما محمد فيها ، وقد بدأ يمارس أسلوبه الرخيص في تحريض قريش ضد المسلمين .. وكان قد أسرّ إلى أبى سفيان أنه لو قدم على قومه (الأوس) فسيتركون جيش محمد وينضمون إليه، وقد صدّق الرجال الذين معه على كلامه وقد نقل أبو سفيان هذا الكلام إلى قادة قريش فزاد حماسهم وطمعوا في نصر مؤكد.. كان خالد يرقب هذا الوفد ويتساءل .. أهؤلاء يتركون المدينة وأخي يفر منا إليها في جنح الظلام .. ثم يقول في نفسه إنها معادلة صعبة.. لكن الأحداث سرعان ما تلهيه وتشغله..

الحملة

استطاع أبو سفيان أن يجهز جيشا قوامه (ثلاثة آلاف رجل) منهم سبعمائة مسلحون.. وكان مع الجيش ثلاثة آلاف بعير ومئتا فرس وصحب الجيش خمس عشرة سيدة من سيدات قريش وهن من قُتل لهن ببدر ابن أو أب أو أخ .. والغرض من ذلك تذكير الرجال والشد من عزائمهم .. وكان من بين النسوة.. بل هي الزعيمة لهن (هند بنت عتبة) ومعها زوجة عكرمة بن أبى جهل وزوجة عمرو بن العاص .. وأخت لخالد بن الوليد .. وكان معهن كذلك منشدات يحملن الدفوف والطبول .. وكان من بين أفراد الجيش عبد لجبير بن مطعم الذي أقعده المرض فلم يخرج وأرسل بعبده (وحشى بن حرب) وقال جبير لحبش .. حمزة عم النبي قتل عمى طعيمة بن عدى فإن قتلت حمزة فأنت عتيق.. وفرح حبش لما سمع .. وكان عبدا حبشيا ضخم الجثة ماهراً في قذف الحربة يجيد اللف والدوران في الميدان .. وبينما العبد الحبشى في سيره مع الجيش رأي (هندا) تطل عليه من محفتها فوق الإبل .. وقالت له ..

(ويها أبا دسمة.. إشف واستشف).. ووعدته إن هو قتل حمزة انتقاما لقتله أباها فستعطيه حليها كاملا.. لهذا بدأ وحشي يُعد نفسه ويهيؤها لقتل حمزة ليحصل على حريته وَذَهَبِ هند .. وهو ثروة له يبني حياته به بعد الحرية .. وهذا شئ ما كان يحلم به أبداً لهذا بدأ يخطط وبدقة للحصول على ما يتمناه ..

جيش المسلمين

جمع النبي العظيم محمدﷺ في صدره قيادة الدنيا وقيادة الدين .. لذلك كان حصيفا بعيد النظر .. يأخذ الأمور بجدية ويخطط لسنوات مقبلة طويلة وهو يعتمد على ربه.. لذلك كان سمعه دائما على الأخبار يتلقفها من الوافدين من مكة .. وكان يمحص الأفكار .. كما كانت له عيون ترصد الحركات الداخلية لأنه ﷺ يحب السلام ويدعو إليه .. ويبغض الحرب ويكرهها .. لأنه إذا كان السلام تنمية شاملة .. ونهوضاً بمرافق الدولة .. فإن الحرب خراب ودمار وقتل للرجال وترمل للنساء وتشرد للأطفال وضياع للشباب ، وكانت العيون التي يبعثها محمد ﷺ تنشر ذلك بين الناس.. لكن أهل مكة أصموا أسماعهم عن الدعوة إلى السلام وأعموا أبصارهم عن رؤية الحق لذلك نقلت العيون التي كانت ترقب الأحداث في مكة إلى النبي ﷺ أن أهل مكة استعدوا للحرب .. لذلك جمع النبي ﷺ أصحابه وعقد جلسة مع مجلس الدفاع وأهل الرأي والحل والعقد وبعد المشاورات وتقليب الأمور وبدأ كل واحد يدلى برأيه.. كان رأي النبي محمدﷺ أنه لا داعي للخروج وعلينا أن نتحصن في المدينة .. لكن ظهر مَنَ عارض هذا الرأي بحجة أنه لا يليق بنا أن نتخلف عن القتال والمبارزة ولابد لنا من الخروج وقد أيد هذا الرأي كثير من المجتمعين معظمهم ممن لم يشهد بدرا وأصبح رأي الأغلبية يتجه إلى الخروج.. ولابد لهم أن يقاتلوا في الميدان .. وقد انضم إلى هذا الفريق كثير من الشباب .. عندئذ لم يجد النبي ﷺ بدا من النزول على رأيهم لأنه ﷺ .. لا يستبد بالرأي .. كما أنه ليس بفظ ولا غليظ .. وإنما هو الرحمة المهداة .. لذلك ترك المجلس بعد أن أمرهم بالاستعداد للتحرك لملاقاة العدو خارج المدينة .. وما هى إلا لحظات حتى ظهر النبي ﷺ في المسجد وهو يلبس ملابس

الحرب وقد أخذ أهبته للتحرك .. عندئذ التف حوله بعض الناس ممن عارضوه الرأي .. وقالوا يا نبي الله .. ننزل على رأيك ونتحصن بالمدينة .. فكان رده عليهم.. ما كان لنبي لبس لأمته[1] أن يخلعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه .. وتحرك جيش المسلمين وقوامه ألف رجل .. ثم بعد أن ابتعدوا عن المدينة بقليل .. عسكر المسلمون عند جبل صغير يسمى (الشيخين) ولما أصبح الصباح في اليوم التالي وبدأ الجيش يتحرك إذ بـ (عبد الله بن أبي بن سلول) يقف ويعلن بأنه راجع إلى المدينة لأن هذه حرب خاسرة ومعركة لن نقدر على إدارتها لأن قريشا جمعت أكثر من ثلاثة ألف مقاتل .. علاوة على النساء والمغنيات .. وكان أمر عبد الله عجبا .. لأنه هو الذي أصر على الخروج من الأول.. فلم هذا الموقف ؟ .. إنها حركة مقصود بها إضعاف جيش المسلمين وبث روح التخاذل والانهزامية في صفوف الجيش .. ومن عجب أن ينضم إليه أكثر من ثلاثمائة شخص .. لكن المسلمين أصحاب العقيدة القوية والذين أخلصوا في حبهم لنبى الأمة ورسول السلام وقفوا حول النبي ﷺ وأعلنوا مضيهم معه .. ولقد تحرك النبي ﷺ إلى غايته ومعه قرابة سبعمائة مقاتل .. وقد حدد النبي ﷺ بفراسته مكان المعركة عند سفح جبل أحد ونظم جنده على ذلك وكان التنظيم في شكل محكم حيث أقام جناح الجيش الأيمن عند سفح الشعبة وجناح الجيش الأيسر عند سفح تل منخفض اسمه (عينين) ومع أن ميمنة المسلمين كانت بمثابة حصن قوى إلا أن ميسرتهم كان يمكن أن تنكشف من وراء (عينين) ولكى يتفادى النبي ﷺ مثل هذا التسلل من جانب قريش كلف النبي ﷺ خمسين راميا للسهام ليشرفوا على المسالك التي يمكن لقريش أن تنفذ منها إلى مؤخرة المسلمين .. وتفتح ثغرة لتحدث خلخلة في جند المسلمين من الخلف .. وكان الرماة بقيادة عبد الله بن جبير .. وقد وصاهم النبي ﷺ وشدد عليهم ألا يتركوا أماكنهم مهما كانت الأسباب .. وقال لقائدهم (إنضح الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك)[2] وقال للرماة (قوموا على مصافكم هذه

(١) أى لبس ملابس الحرب.
(٢) ابن هشام جـ ٣ .

فاحموا ظهورنا فإن رأيتمونا قد انتصرنا فلا تشركونا .. وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا)[1] وكان هذا التنظيم الذي وضعه النبي ﷺ يسمح للمسلمين بالتقدم مع إبعاد الخطر عنهم رغم أن المسلمين يفتقدون سلاح الفرسان .. وكم حاول أبو سفيان وهو القائد العام لجيش المشركين أن يناور المسلمين وأن يدفع ببعض جيشه لإحداث ثغرة أو بلبلة في جيش المسلمين من الخلف .. لكن النبي ﷺ كان بتخطيطه قد أفسد عليه خطته..

خالد في أحد

تحرك بعض جيش قريش ونصب معسكرا حربيا على بعد ميل جنوبى النتوء (الأماكن التي حددها الرسول ﷺ للرماة) .. ودفع أبو سفيان ببعض جيشه إلى الأمام وأعده لقتال المسلمين بعد أن شكل قوة مشاة رئيسية في الوسط مع جناحين متنقلين كان في الأيمن منهما خالد بن الوليد .. وفي الأيسر .. عكرمة بن أبى جهل .. وكان مع كل منهما مائة من أشجع الفرسان .. وكلف عمرو بن العاص بالأشراف العام على الخيالة ومتابعة التنسيق العام للجيش .. ثم دفع أبو سفيان بمائة من أمهر رماة النبل في المقدمة ليبدأوا القتال .. وكان لواء قريش مع طلحة بن أبى طلحة .. وهو واحد ممن نجوا من غزوة بدر .. وعندما نحلل ذلك نرى أن قيادة الجيش ممثلة في أبى سفيان دفعت بالشخصيات الموتورة .. والتي تريد أن تثأر لنفسها .. علاوة على الكفاءة والشجاعة والمهارة .. ومع ذلك فقد وقف جيش قريش وظهره إلى المدينة ووجهه قبالة المسلمين .. وهذا الوضع يحول بين المسلمين وقاعدتهم بالمدينة إن احتاجوا إلى مدد أو معاونة .. وأراد أبو سفيان أن يلهب عواطف جند المشركين وأن يدفع بالدم ساخنا إلى رؤوسهم وأعصابهم فدفع بالنساء وعلى رأسهن هند زوجته فأخذن يرحن ويجئن أمام الجند .. ويلهبن حماسهم بتذكيرهم بقتلى بدر .. بل إن هنداً كانت تنشد وتقول :

---

(١) كتاب المغازى للواقدى .

ويّها بني عبد الدار ... ويها حماة الأدبار[1]

ضربا بكل بتار

إن تقبلوا نعانق : ونفرش النمارق

أو تدبروا نفارق : فراق غير وامق

كان جيش المسلمين يتألف من سبعمائة مقاتل .. أما جيش المشركين فكان بتألف من ثلاثة آلاف مقاتل .. وكان أبو سفيان قائد الجيش موتوراً من سيدنا محمد.. ولذلك نرى أن أبا سفيان استقطب شخصيات لديها حقد على الإسلام وتحمل في قلبها البغض للنبي ﷺ .. لأنه في زعمهم قد فوت عليهم فرصا شخصية ومغانم مالية .. من هؤلاء:

الفاسق

إنه أبو عامر الراهب .. الذي سماه النبي محمدﷺ (أبو عامر الفاسق) وهو من قبيلة الأوس .. وقد راعه وهو في يثرب إقبال أهلها على الإسلام ثم غاظه أكثر وصول النبي ﷺ إلى يثرب ومسارعة أفراد قبيلته إلى اعتناق الإسلام .. وكان دائما وهو في يثرب يحرض الناس ضد الإسلام .. وعندما انتصر المسلمون في غزوة بدر عز على (بو عامر) هذا النصر .. وما أن وصلته الأخبار بأن قريشا تعد لحملة حربية لتستأصل بها الإسلام وتقضي على محمد .. جمع جماعة من أنصاره ومن قبيلته (الأوس) وغادر المدينة وهم معه وكان عددهم خمسون فرداً وأقسموا ألا يعودوا إلى المدينة طالما بقي محمد فيها واتجه إلى مكة واتصل فورا بأبي سفيان وبدأ يوجه الذين معه ليلتقوا بأهل مكة ويكون التحريض منهم لقريش على الأخذ بثأرهم من محمد الذي قتل أشرافهم وعاب على آلهتهم .. وكان أبو عامر الفاسق يخطب في الناس يحرضهم على القتال ويعلمهم أن أهل مكة على حق وما جاء به محمد باطل .. وكان يدخل الأمن على نفوس القرشيين ويقول لهم بأن قبيلته (الأوس) ستكون معه في أي معركة . لن يتأخر منهم رجل واحد.. وأنا معي الآن خمسون رجلا من كافة الأسر وهم

(١) ابن هشام جـ ٢.

مندوبون عن عائلاتهم .. فصدقه أهل مكة وفرحوا بهذه المحالفة التي ساقتها الأقدار إليهم .. ولما كانت الأوس إحدى أكبر قبيلتين في المدينة .. بل إن الأوس كانت تشكل ثلث جيش المسلمين.. لذلك أذاع أبو سفيان هذا السر الذي جعل العباس عم النبي ﷺ وهو بمكة يكتب إلى النبي ﷺ معلنا تخوفه من هذه المعركة ربما لأنه قد تكون هناك خيانة في المدينة وهو لا يعلم .. ولقد عرف المسلمون حقيقة وضع المعركة .. لكنهم بإيمانهم القوى وثقتهم في الله أخذوا يرددون (حسبنا الله ونعم الوكيل) ..

لعبة مكشوفة

في شوال من العام الثالث الهجري .. أي بعد سنة واحدة وأيام من غزوة بدر وقف الجيشان الواحد قبالة الآخر في نظام دقيق .. أراد أبو سفيان أن يضعف الروح المعنوية في جيش المسلمين فدفع (بأبي عامر الفاسق) على رأس أتباعه وعدد من عبيد قريش ليقوم بإحداث شغب وتخريب في جيش المسلمين .. فحمل هؤلاء أبو عامر على أكتافهم وأخذ ينادى .. يا معشر الأوس .. أنا أبو عامر الراهب .. وأنتم تعلمون صدقى لكم ومحبتى .. لهذا أدعوكم أن تنحازوا لجيش قريش وهذا وعدكم لي سابقاً .. لكن الجنود الأوفياء من قبيلة الأوس الذين أنعم الله عليهم بنعمة الإيمان الصادق.. ردُّوا عليه بصوت واحد (لا أنعم الله بك علينا يا فاسق) ثم أخذوا يرجمونه بالحجارة .. فتراجع هو ومن معه إلى صفوف قريش الذين نظروا إليه باستهزاء .. لكنه تعامى عن نظرات السخرية وقال :

(لقد أصاب قومى من بعدي منهم شراً) ولكن قريشا لفظته ومن معه[1].. وهذا ما يصيب كل خائن لقومه ووطنه .. لأن الخيانة غدر .. وعلى الغادر تدور الدوائر... بعد ذلك بدأت مبارزة بين الرماة المائة من قريش والرماة المسلمين على طول الجبهة الأمامية .. وفي أثناء ذلك تقدم خالد بفصيلته محاولا مهاجمة ميسرة

---

(١) ابن هشام جـ ٣.

المسلمين .. لكن المسلمين أمطروه وفصيلته بالسهام فتراجع .. لكنه قوبل ببعض النسوة .. وهن يغنين مرة ثانية .

إن تقبلوا نعانق : ونفرش النمارق

أوتدبروا نفارق : فراق غير وامق

بدأت المبارزة ووقع قتلى من المشركين خاصة طلحة الذي بارز الإمام علياً رضي الله عنه فقتله .. كذلك حمزة قتل آخر .. وكان حمزة يضع ريشة طاووس طويلة في عمامته فلفت إليه الأنظار .. وأراد أبو سفيان أن يجرب حظه بعد أن رأي بعض جنده يتساقط .. فخرج له حنظلة بن عامر فضرب بسيفه قائمي فرس أبى سفيان فسقط على الأرض ورفع عقيرته طلبا للنجدة فهرع إليه أحد قواده الذي استطاع أن يقتل حنظلة .. ونجى أبو سفيان الذي اندس في صفوف جيشه يملأه الرعب والخوف.

غسيل الملائكة

حنظلة هو ابن أبو عامر الراهب .. الذي سماه النبيﷺ بالفاسق وحنظلة من أشجع الرجال وأكفأ الجنود المسلمين .. كان حنظلة قد تزوج ودخل بزوجته وبينما هو معها في الفراش في أول ليلة عرسه وصل إلى مسامعه صوت داعي الجهاد وهو ينادي على المسلمين بالخروج فانسل من بين أذرع زوجته ليستطلع الخبر فعرف أن جيش المسلمين بقيادة النبي محمد ﷺ يتحرك من المدينة لصد جيش المشركين الذي تحرك ليغير على المدينة ويهلك الحرث والنسل .. في غمرة تلك الأنباء رجع حنظلة إلى بيته ولبس ملابس الحرب وخرج إلى الجهاد ونسى في غمرة ذلك أن يغتسل ، ولما وقع شهيدا في المعركة غسلته الملائكة وتعجب المسلمون لذلك .. لأن الذي يقع شهيدا في المعركة لا يُغسَّل .. فلم غُسل حنظلة ؟ وبقى السؤال في أذهان المسلمين إلى أن رجعوا إلى المدينة .. فسألوا زوجته .. فقالت قد كان بيني وبينه ما أحله الله وأباحه للرجل من زوجته .. ولما سمع النداء انفلت من بين يدي وعرف بتحرك جيش المسلمين فرجع مسرعاً ولبس ملابس الحرب وحاول اللحاق به ونسى أن يغتسل ..

لهذا كان جزاؤه أن غسلته الملائكة وتلك طبيعة المؤمن يلقى الله طاهرا .. وحنظلة استجاب لله ولرسوله .. وبادر بهمة إلى أداء الواجب النضالي في سبيل الحق وتلبية أوامر الرسول ﷺ للدفاع عن الدين والوطن .. وكان نعم المعين الذي لقن المسلمين درساً في (صناعة الشهادة) والموت في سبيل الله أسمى ما يتمناه أي مسلم مخلص لدينه وهذا درس من دروس التضحية والفداء يؤكد على سمو مكانة الجهاد في سبيل الله والحرص عليه ...

بين الأب وولده

إذا كان حنظلة من عظماء الذين نالوا الشهادة ولقنوا الأعداء درساً عظيما وللأجيال القادمة منهاجاً واضحا في الإخلاص لله ولرسوله .. رغم أن أباه كان يحرض ضد المسلمين وهو (أبو عامر الفاسق).. فهذه صورة أخرى الأب مع المسلمين والابن مع المشركين فقد خرج من صفوف قريش مقاتل يطالب أي مبارز ويتحدى .. وإذا بأبي بكر الصديق رضى الله عنه ينتفض ويقف بقوة وعزم ويشهر سيفه ويندفع لقتال هذا الشاب لأنه ولده وابنه (عبد الرحمن بن أبى بكر) لكن النبي ﷺ وهو الذي بعثه الله رحمة للعالمين يمنع أبا بكر من الخروج ويقول له في رفق ولين (شم سيفك وارجع إلى مكانك ومتعنا بنفسك)[1].. والحق سبحانه وتعالى يذكر لنا هذه المواقف البطولية.. مواجهة الابن لأبيه كحنظلة .. أو الأب لولده كأبي بكر الصديق .. أو الصديق لصديقه .. إنها مواجهة بين الخير والشر .. بين الإيمان والكفر يقول الله تعالى (لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ باللهِ وَالْيَوْمِ الأَخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [سورة المجادلة آية٢٢] .

(١) مغازى الواقدى جـ١.



استشهاد حمزة

ما إن انتهت مرحلة المبارزة إلا واشتبك الطرفان في معركة ضارية حاول خالد أثناء ذلك أن يقوم بهجمة على ميسرة المسلمين لكن حظه السيئ أن النبي محمداً ﷺ كان يقف مع ميسرة المسلمين في (يمينهم) لذلك عاد على أعقابه .. كان حمزة يقاتل على آخر ميسرة المسلمين وقد قتل رجلين فتقدم منه (السباع بن عبد العزى) وكان حمزة يعرفه فصاح في وجهه وصرخ (هلم إلى يا ابن مقطعة البظور) لأن أمه كانت تقوم بختان الإناث في مكة .. واحمر وجه السباع خجلا وشهر سيفه ودار بين حمزة وهذا الرجل صراع انتهى بموت (السباع) لكن (وحشيا بن حرب) عبد جبير بن مطعم الموعود بالحرية وذهَب هند بنت عتبة كان يتتبع حمزة وأثناء اشتباكه مع السباع وبعد أن أنهى حمزة عليه استطاع وحشى أن يسدد حربته إلى حمزة فاخترقت بطنه فاستدار حمزة والغضب يملؤه فاحتمى وحشى منه بحجر والخوف يسيطر عليه .. ولم يستطع حمزة المشي بل سقط شهيدا وكان وحشى يرقب المنظر حتى إذا هدأت كل حركة في جسد حمزة اقترب منه وحشى ونزع حربته وغادر المكان ليبلغ هنداً بما كان وحتى يأخذ منها ما وعدته به .. ومع ذلك فقد بدأ جيش قريش يضعف أمام شدة هجمات المسلمين وتفككت صفوف قريش واستداروا يطلبون الفرار وتعقبهم المسلمون .. وبدأت النساء تبكى عندما شاهدن ما حل برجالهن وسارعن بدورهن بالهرب وظن المسلمون أنهم كسبوا المعركة .. وإنه لحق أن أول مرحلة في هذه المعركة انتهت بهزيمة قريش وكان يمكن أن تكون هذه هى نهاية غزوة أحد.

لكن .. كيف .. وخالد يرقب

أمام هذا الزحف من المسلمين .. تراجع خالد وعكرمة عن موقعهما قليلا.. إلا أنهما احتفظا بسيطرتهما على رجالهما دون أن يسمحا لأي فارس بالتقهقر .. كان خالد يتطلع إلى الهاربين وما يحدث من اضطراب في جيش قومه.. ثم يتطلع إلى المسلمين

وقد هجموا على معسكر المشركين يسلبون ما فيه ولم يدر ما يصنع .. لكنه تذرع بالصبر .. وكان يتحين الفرصة ليقوم بأي عمل حربي يحدث به خلخلة في صفوف المسلمين .. ولم يطل انتظاره حيث واتته الفرصة .. فهو كمحارب ماهر يستطيع أن يضع الأمور بدقة ويحاول فتح أي ثغرة لينفذ منها لوقف ما حل بقومه .. وها هم الرماة أمام عينيه الذين طلب منهم الرسولﷺ ألا يغادروا أماكنهم مهما كانت الظروف .. لكن الرماة عندما رأوا الدنيا مقبلة على جيش المسلمين بالخير الذي يمتلأ به معسكر المشركين وخافوا أن يفوتهم هذا الخير .. لذلك طلبوا من قائدهم (عبد الله بن جبير) أن يأذن لهم بالانصراف ليحصلوا على المغانم لكنه رفض أن يأذن لهم وطلب إليهم البقاء في أماكنهم لكنهم خالفوا أمر القائد ونزلوا إلى ميدان المعركة ليجمعوا الغنائم ...

العين المبصرة

كانت عين خالد على هؤلاء الرماة .. الذين تركوا أماكنهم ونزلوا إلى المعسكر وانتظر خالد حتى وصل الرماة إلي معسكر المشركين .. وهنا هجم بخيالته على من بقى من الرماة وهم لا يزيدون عن عشرة مع اميرهم عبد الله بن جبير .. وضرب خالد ضربته القوية فقتل من قتل وهرب من هرب وخلى المكان أمامه واتخذ خالد هذا الموقع الاستراتيجي مركزاً للمناورة ووصلت جماعة خالد إلى قمة التل .. بينما تقدم عكرمة بعدما رأى ما فعله خالد واحتل عكرمة السهل ثم ترك عليه سرية وأسرع هو إلى خالد لمقاتلة بقية الرماة حيث قتل بعضهم وتخلى البعض الآخر عن موقعه وقتل عبد الله بن جبير قائد الرماة على يد عكرمة ثم تقدم خالد بجيشه إلى أن وصل إلى آخر الخط الذي كان المسلمون يصمدون عنده منذ ساعة واحدة .. ومن هذا الموقع استدار جيش المشركين بقيادة خالد وعكرمة إلى اليسار ثم كان الهجوم على المسلمين من الخلف حيث هجم عكرمة مع جماعة من سريته على المكان الذي يقف فيه النبي ﷺ.. أما خالد وسريته فقد هجموا على المسلمين من الخلف .. وفوجئ المسلمون بهذا الأمر الذي لم يكن في الحسبان والسبب مخالفة أوامر القيادة والانشغال بجمع حطام

الدنيا لذلك .. لما استداروا لمقاتلة فرسان قريش اندفعت عمرة بنت القماء وحملت لواء قريش الذي كان قد سقط على الأرض ورفعته وأخذت تلوح به فوق رأسها ليراه قلب جيش قريش .. هنا استعاد أبو سفيان سلطانه حيث رأي لواء قريش يرتفع وبيد امرأة .. وأن جيش خالد وعكرمة هجما مع مجموعة من الفرسان على مؤخرة المسلمين استعاد المشركون نشاطهم من جديد وأخذوا يصرخون صرخة الحرب (يا للعزى يا آل هبل)[1] لقد وقع المسلمون بين نارين .. تعرضت مؤخرتهم إلى هجوم من فرسان قريش في حين تعرضت مقدمتهم لمعظم مشاة قريش وأصبح الوضع بالنسبة للمسلمين سيئا للغاية.. وراحوا يحاربون على غير هدى وزاد الاضطراب بين صفوف المسلمين وتصاعدت الأتربة وحال الغبار بين رؤية الناس لبعضهم ولم يدر المسلمون من يقتلون لأنهم لم يميزوا بين بعضهم .. وقد صمد المسلمون وصمموا رغم كل هذا على المضي في القتال .. كان خالد يصول ويجول بل إنه قتل أحد المسلمين وجرح آخر،لقد كان هو السبب في تطويق المسلمين من المؤخرة .. ثم حمى وطيس القتال واستخدم النبي ﷺ قوسه إلى أن انكسرت ثم عمد إلى سهامه ونبله .. وكان عكرمة بن أبى جهل يبحث عن النبي ﷺ .. ولما أدرك موقعه اقترب منه .. وكانت عناية الله أن التفت النبي ﷺ فلحظ عكرمة وفي عينيه الغدر والشر .. فأشار النبي ﷺ إلى (على رضى الله عنه) وقال له إحمل عليهم.. ونهض على ومن معه فدفع بعكرمة ومن معه إلى الوراء[2] ... اشتد لهيب المعركة .. وقريش بدأت ترمى أصحاب النبي ﷺ بالحجارة ويشنون هجمات قاسية .. وقد دل عكرمة على مكان النبي ﷺ فاتجه إليه المشركون يسددون سهامهم نحوه .. لكن أبا دجانة رضى الله عنه حمى بجسمه جسم النبي ﷺ لأنه واجه النبي ﷺ بصدره وترك ظهره لسهام قريش فامتلأ بالنبل حتى بدى كالقنفذ .. كما أحاط طلحة بالنبي ﷺ إحاطة هائلة في وسط هذه المعركة .. الساخنة كان خالد بسريته يواصل الهجوم على قلب جيش المسلمين وقد أوقع بينهم

---

(١) مغازى الواقدى جـ١ .

(٢) الطبرى جـ ٢ .

خسائر جسيمة كما قتل مسلما وكان وهو ينـزع سهمه من جسـم القتيـل يصيـح قـائلا (أنا أبو سليمان)[1] ...



عداء قديم

أبي بن خلف من صناديد قريش الذين امتلأت قلوبهم بالحقد علـى الإسـلام والعـداء الشديد .. كان وهو بمكة في بدء الدعوة الإسلامية إذا التقى بالنبي ﷺ يكلمه بصلـف وغرور وتعالٍ .. ويرفع صوته قائلا (يا محمد) إن عندي فرسا أعلفه كل يوم فرقا مـن ذرة أعده وأربيه حتى أقتلك عليه .. فيرد الرسـول ﷺ قـائلا: بـل أنـا أقتلـك إنشـاء الله[2] أبيّ بن خلف هذا كان له ولد اسمه (عبد الله) أسر في غزوة بدر .. ودفـع أبـوه الفديـة لـه (أربعـة آلاف درهـم) لمحمـد وصحبـه فـزاد ذلـك مـن عدائـه وحقـده وكراهيته.. لهذا عندما عرف ابن خلف بمكان النبي ﷺ هجم عليه وهو يصيح (أي محمد لا نجوت إن نجا) فقال القوم الذين مع النبي ﷺ أيعطف عليه رجل منـا ؟ .. فقال ﷺ دعوه لي .. وتناول الرسول ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة وانتفض بها انتفاضة اهتز منها الصحابة .. وكان على رأسه ﷺ مغفر له حلقتان تغطيان وجنتيه وكان سيفه في غمده يتدلى من حزام مصنوع من الجلد .. وكان يمسك رمحـه بيمينـه.. لقد كان منظر النبي ﷺ رائعا وهو يقف أمام (أبي) بكتفيه العريضين القويين ويديه الكبيرتين اللتين كانتا تستطيعان كسر أي رمح إلى قطعتين .. لقـد كـان النـبي ﷺ في عصره من أقوى الشخصيات في بنية جسمه .. أضف إلى ذلك العناية الإلهيـة .. لذلـك كان خصما قويا لأي عدو يواجهـه .. وكان أبيّ بـن خلـف هـو الآخـر شجاعا وكـانت روحه المعنوية مرتفعة لأنه قتل مسلما منـذ لحظـات .. لما دنـى أبـى مـن النـبي ﷺ واقترب منه أوقف فرسه ظنـا منـه أن ليـس هنـاك داع للعجلـة ليحقـق مـا جـاء مـن أجله.. لم يشك أبى لحظة في أن النبي ﷺ كان يرقبـه لذلـك بـدأ يتقـاعس ويتسـرب الخوف إلى نفسه .. وهمس أحد الصحابـة في أذن النـبي ﷺ أن يـأمر عليـاً بقتلـه ..

---

(١) مغازى الواقدى.
(٢) ابن هشام جـ ٣ .

وهو كفء لذلك .. لكن الرسولﷺ رفض ، وفي لحظة خاطفة رفع النبي ﷺ رمحه وهوى به إلى صدر أبيّ الذي حاول أن يتفادى الضربة .. لكن الرمح أصابه في كتفه الأيمن وسقط أبى على الأرض فانكسر أحد أضلاعه ورفع النبي ﷺ يده ليضرب الضربة الثانية فجرى (أبي) إلى إخوانه وهو يصرخ ويقول بصوت مرتعش قتلني والله محمد .. ولما كشفت قريش عن جرح أبى وجدوه بسيطا .. لكن الخوف سيطر على أبى وكان يصيح ويردد (سأموت .. سأموت) إنه قد قال لى بمكة أنا أقتلك فوالله لو بصق على لقتلني[1] وظل أبي على حاله هذه من الخوف والفزع والرعب إلى أن رجع جيش قريش إلى مكة ومات التعيس في الطريق ...

في هذه المعركة الساخنة اتصل خالد بأبي سفيان وخاطبه في إنهاء المعركة بسرعة.. لكن عكرمة وغيره من صناديد قريش قرروا أن يشددوا الهجمات على النبي ومن معه لإبادتهم جميعا .. ونزل خالد إلى المعركة وقتل المسلم الثالث فيكون من قتلهم خالد في هذه المعركة من المسلمين (أبو عسيرة ، ثبت بن دحدحة ، رفاعة بن وقس) وجرح آخرين ، وكانت المعركة حامية جدا فقد بدأ الأعداء يرمون النبي ﷺ بالحجارة حتى كسرت الحجارة سنتين في فكه الأسفل وجرحت شفته .. كما رمى بحجر آخر شج جبهته .. وفي أثناء ذلك سقط الرسولﷺ في حفرة حفرها المشركون وغطوها بعد حفرها بشيء هش .. وكان الذي رمى بالحجارة عتبة بن أبى وقاص ، وعبد الله بن شهاب ، وابن قمأة) هم وعتبة بن أبى وقاص هو شقيق سعد لذلك استل سعد بن أبى وقاص سيفه واندفع نحو أخيه يريد قتله .. لكن عتبة فرَّ واحتمى بصفوف قريش وقد قال سعد فيما بعد إنه لم يتمن أي شيء في حياته قدر ما تمنى قتل أخيه عتبة بعد أن أصاب النبي ﷺ بجرح .. هذا هو الحب والإخلاص لنبي حمل أمانة التبليغ .. أمام هذه الضربات المتتالية من المشركين سقط رسول الله ﷺ في حفرة .. لكن المسلمين أخرجوه منها ودافعوا عنه دفاع الأبطال رغم ما بهم من جراح.. وساد الموقف هدوءا مشوبا بالحذر والتوتر ، وأخذ النبي ﷺ يمسح الدماء

---

(١) ابن هشام جـ٣ .

من على وجهه وهو يقول (كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم)[1]..

لحظات واستطاع النبي ﷺ أن يستعيد قوته .. وذهبت عنه آثار الصدمة التي أصابته عندما جرح .. كانت السيدة (أم أيمن) بدأت تغسل وجه النبي ﷺ وتعتني به وكان وجهها للنبي وظهرها لقريش وقد خرج من صفوف قريش رجل اسمه (حبان بن الأرقة) وكان يحمل قوسه ونظر إلى النبي ﷺ ورآه وبدأ يمشي ببطء حتى أصبح على قرب من النبي ﷺ ورمى بسهمه إلى النبي ﷺ .. لكن السهم أصاب (أم أيمن) .. أما حبان فقد فرح بما فعل وظن أن سهمه أصاب محمدا وفرح فرحا شديدا وعلت ضحكته واستدار ليخبر قريشا .. لكن النبي ﷺ انتابه غضب شديد وأخذ سهما من جعبته ناوله سعدا وقال له (إرم) وأخذ سعد سهم النبي ﷺ وثبته في قوسه وسدده ناحية المشرك (حبان بن الأرقة) فأصابه في عنقه فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجزه.

موقف رهيب

بدأ المشركون يشددون من هجماتهم خاصة المكان الذي فيه النبي ﷺ فقد أحاطوا به من جميع الجهات .. لكن المسلمين أحاطوا بالنبي ﷺ إحاطة كاملة .. لذلك لم ينفذ إليه سهم ولا حجر بعد ما كان .. كان هناك شخص يسمى (ابن قمأة) كان يبحث عن أي ثغرة ليصل إلى النبي ﷺ .. وكان ابن قمأة يسمع صوت النبي ﷺ وهو يتحدث إلى مصعب بن عمير .. ونسيبة بنت كعب أم عمارة التي تخلت عن سقاية المصابين وانتزعت سيفاً وقوسا من أحد القتلى واشتركت اشتراكاً فعليا في المعركة وقتلت وجرحت العديد من المشركين .. دخل ابن قمأة إلى المكان الذي فيه النبي ﷺ وقد شهر سيفه وظن أن مصعبا هو النبي ﷺ وحدث مواجهة ومبارزة بين مصعب وابن قمأة ، وقد أصيب مصعب بضربة قاتلة فرفعت أم عمارة السيف وضربت ابن قمأة على كتفه .. وكانت الضربة غير شديدة وإن كان جرح منها إلا أنه ضرب المرأة

---

(١) ابن هشام جـ٣ .

(أم عمارة) على كتفها بسيفه فسقطت مصابة بجرح غائر أقعدها عن الحركة ثم اندفع بقوة وقد رفع سيفه وهوى به على رأس النبي التي أصابت حلقات المغفر فمال السهم قليلا وأصاب النبي .. ومن قوة الضربة سقط النبي في حفرة كانت وراءه فأدركه على بن أبي طالب وطلحة بن عبيد الله وأخذا بيده حتى استوى قائما .. لكن ابن قمأة أخذ يصرخ بأعلى صوته (أنا قتلت محمداً .. أنا قتلت محمداً)[1] وتردد صوت ابن قمأة عبر ميدان القتال وسمعه كل من قريش والمسلمين .. وكان لهذا النبأ أثره في إضعاف الروح المعنوية لدى المسلمين حيث هرب معظمهم في اتجاه جبل أحد ووقف بعضهم يقولون .. ما دام النبي قد قتل فليس هناك معنى للحياة .. لذلك هجموا على خيالة قريش مصممين على التضحية بأنفسهم في سبيل الدفاع عن قضيتهم .. لكن خالدا وعكرمة تصدا لهما.. استعاد النبي ﷺ قوته وأحاط به من نجى من أصحابه فانسحب إلى إحدى شعاب الوادي حيث الطريق خاليا .. وكان يدور مصادمات بين المسلمين ومن يطاردونهم.. وشاهد خالد النبي ﷺ في جماعته وهي تتجه إلى شعب الجبل ولم يحاول أن يحول بينهم وبين ما يريدون .. واتجه إلى مشاة المسلمين .. انتهز النبي ﷺ وصوله إلى الشعبة وراح يعتني بجراحه وكانت ابنته فاطمة تساعده في تضميد الجروح ،وكانت تبكى بحرارة وهى تمسح الدم عن وجه أبيها، ولقد اطمأن النبي ﷺ في هذا المكان فأخلد إلى الراحة .. كان المسلمون قد احتموا بجبل أحد ولم يعرفوا لأنفسهم هدفا محددا .. لكن (كعب بن مالك) رأي النبي ﷺ وكان له صوت جهوري فاعتلى صخرة واتجه إلى المكان الذي فيه المسلمون وصاح بأعلى صوته (يا معشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله ﷺ .. فهرع عدد كبير منهم إلى أعلى التل وانضموا إلى النبي ﷺ .. في نفس الوقت كان أبو سفيان يتعرف على وجوه القتلى ويسأل أين محمد ؟

فاخبره خالد أنه شاهد النبي بنفسه ومعه صحابته يحيطون به وكان اتجاههم ناحية الشعاب ...

---

(١) ابن هشام جـ ٣ .



أبو سفيان القائد الأعلى لجيش قريش .. أصدر أمرا قياديا إلى خالد بن الوليد بأن يهاجم الموقع الذي فيه النبي محمد ﷺ وأن يصطحب معه ما يشاء من الفرسان لإبادة المسلمين الذين يحيطون بالنبي .. استجاب خالد للأمر وتطلع إلى الوادي المليء بالأحجار الذي يؤدى إلى الشعاب ثم إلى المنحدر الذي تتخلله الشعاب وأدرك أن جنوده لن يحققوا أي نجاح فوق أرض كهذه .. لكن خالدا كان شديد التفاؤل ويريد أن يحرز النصر بأي وسيلة ولن يتحقق ذلك إلا بقتل محمد.. إذا فلنركب الصعب .. وشاهد النبي ﷺ كتيبة خالد وهى تتحرك .. فرفع يديه إلى السماء وقال (اللهم لا ينبغي لهم أن يعلونا)[1] .. وتحرك عمر بن الخطاب مع جماعة من المسلمين وابتعد بهم قليلا عن المنحدر ليواجه فرسان قريش .. ولما وصل خالد بكتيبته .. ورأي عمر وغيره من المسلمين ينتظرونه على مكان عال وأدرك خالد أن الموقف في غير صالحه لذلك تراجع وبسرعة وكانت هذه هى آخر مناورة حربية في غزوة أحد ...

شيء مؤسف

هند بنت عتبة زوجة أبى سفيان .. بعد غزوة بدر طار لبها وفقدت صوابها .. ولم تتمالك سيطرتها على نفسها .. وكانت تمتلئ حقدا وغيظا على النبي محمد ﷺ .. لذلك ذكر الرواة أنها وهى ذاهبة إلى أحد مرت على قبر أم النبي ﷺ .. ومن حقدها وغيظها أرادت أن تحفر القبر وتنبشه وأن تخرج عظام الفاضلة الطاهرة .. لكن عقلاء القوم وقفوا أمامها بشدة وقالوا لها نخشى أن يتحدث الناس عنا وتذهب فينا مقالة سوء لا يمحوها الزمن .. هذه هند القاسية القلب المتحجرة العواطف .. فإذا كان قد فاتها أن تتشفى من أم النبي ﷺ ، فها هى اليوم بعد انتهاء معركة أحد تأخذ بعض النسوة وأدت دورا على مسرح الموقعة وهو دور .. مخزي .. ومؤثر ومحزن .. لأنها هى والنسوة اندفعن إلى شهداء أحد من المسلمين .. يمثلن بالقتلى .. ويجدعن الآذان

---

(١) ابن هشام جـ ٣ .

والأنوف .. حتى أن هنداً اتخذت من آذان الشهداء وأنوفهم قلائد وعلقت على صدرها أجزاء من جسم الرجال الأبطال ، بل بقرت بطن حمزة ومثلت بجسمه وأخذت كبده فلاكتها بأسنانها ، وأخذت تعمل فيه السكين وأمرت النسوة أن تمثل كل واحدة بشهيد وصعدت على جبل أحد وهى ترقص وتغنى وتقول :

نحن جزيناكم بيوم بدر : والحرب بعد الحرب ذات سعر
ما كان عن عتبة لى من صبر : ولا أخي وعمه وبكرى
شفيت نفسي وقضيت نذري : شفيت وحشي غليل صدري
فشكر وحشي على عمري : حتى ترم أعظمي في قبرى

ثم صرخت تقول كذلك :

شفيت من حمزة نفسي بأحد : حتى بقرت بطنه عن الكبد
أذهب عنى ذاك ما كنت أجد : من لذعة الحزن الشديد المعتمد
والحرب تعلوكم بشؤبوب برد : تقدم إقدامـا عليكم كالأسد

الذي يقرأ ما سطره التاريخ يلحظ أن هنداً ليس عندها خلق ولا أدب لما فعلت بالشهداء .. وليس ذلك بغريب عليها لأن الإيمان لم يدخل إلى قلبها ولم تعرف معنى الإسلام والرحمة ..

وانظر إلى ما فعله الرسول ﷺ بقتلى الكفار .. فلقد نهى عن التمثيل بهم بل وأمر بتقديم العلاج إلى الجرحى .. وعدم تتبع الفارين .. وعدم ترويع الأطفال وعدم ضرب النساء بل الحرص عليهن والبعد بهن عن مكان المعركة حتى لا ترى المرأة دماء القتلى ولا الجثث .. وكان دائما يقول لأصحابه (رفقا بالقوارير) هذا هو محمد بن عبد الله .. الداعي إلى السلام .. والإخاء والمحبة .. لهذا فإن الفرق كبير جدا بين المؤمنين في أخلاقهم العظيمة .. ومكارم صفاتهم وحسن سيرتهم ونبل مقصدهم .. وبين غيرهم ممن لم يتذوقوا طعم الإيمان ..



هند التي مزقت جسد الشهيد العظيم – عم النبي الكريم "حمزة بـن عبـد المطلـب" لم يكفها ذلك بل نادت على وحشى بن حرب .. وهو الذي قتل حمزة غدراً مـن الخلـف وليس هذا من خلق الرجال الأحرار لكنـه خلـق العبيـد اللئـام .. لذلـك اتصـف هـذا العمل بالجبن والنذالة والغدر والخيانة .. استدعت هند وحشيا وأعطته كل ما عليها من حلي ووعدته بعشرة دنانير تعطيها إياه ساعة أن تعود إلى مكـة[1].. وكـانت هنـد تستبدل مكان الحلي قطعا من جثث القتلى .. ولقد رأي أبو سفيان وخالد هـذا المنظـر المؤثر .. ولم ينسوه ولم يقروه .. لأنـه عمـل غـير أخلاقـي.. والحـرب لهـا قوانينـها الأخلاقية .. لكن هذا ما حدث ولله في خلقه شئون ...

موقف مؤثر

بدأ المسلمون يجمعون الشـهداء مـن أرض المعركـة .. ورأي رسـول الله ﷺ مـا حـدث لبعض الصحابة .. وعندما رأي حمزة وجد أن بطنـه بقـرت كـل مـا فيـها أخـرج وأن أجزاء جسده مبعثرة فزاد ألمه .. ثم قال .. عجزت النساء عن أن تلد مثـل حمـزة ولما اشتد ألمه ونزلت دموعه .. قال .. لإن أمكنني الله منهم لأمثلن بسبعين منهم.. فأنزل الله تعالى (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَـيْرٌ لِلصَّـابِرِينَ * وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّـا يَمْكُـرُونَ * إِنَّ اللَّـهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) [الآيات ١٢٦-١٢٨ سورة النحل]

وهذا درس من دروس الصبر على الابتـلاء يُعلِّمـه الله لحبيبـه ومصطفـاه لأن الصبر ضياء .. وهو يدل على قوة العزيمة وثقة الإنسان بربه ورضاه عنه .. فكـل مـا يقع على الأرض هو بأمر الله ونحن أمرنا أن نرضى بالقدر والقضاء لأن الإنسـان إذا لم يصبر ماذا يفعل ؟ .. لن يستطيع أن يفعل أي شيء .. لذلـك كـان مـن الحكمـة الرضا بقضاء الله وقدره .. والتمسك بالصبر والاعتماد على الله من عوامل النصر ...

---

(١) مغازى الواقدى .



أبو سفيان يسأل

انتهت المعركة بما فيها من بشاعة وفظاعة وعدم الالتزام بالأخلاق .. ومع ذلك كان أبو سفيان قائد قوات الاعداء يتمنى أن يكون النبى العظيم .. محمد ﷺ قد مات في هذه المعركة .. لأن محمدا إذا مات هدأت الأمور واستقرت الأحوال في زعمه .. لكن خالدا يؤكد أن محمدا حي .. لذلك .. وقف أبو سفيان على صخرة عالية واتجه إلى المسلمين حيث يسمعون صوته ونادى .. هل محمد حي معكم؟ وأشار النبي الكريم محمد ﷺ إلى صحابته ألا يردوا عليه .. وكرر السؤال أكثر من مرة .. ولم يسمع أي جواب فغير السؤال .. هل أبو بكر حي ومعكم وهل عمر كذلك حي معكم ؟ .. فلما لم يسمع أي جواب .. أطلق أبو سفيان ضحكة عالية .. وقال .. أَعْلُ هبل .. وهنا أشار النبي ﷺ إلى عمر وقال له قم فأجبه .. فقام عمر ورد على أبى سفيان.. وقال .. الله أعلى وأجل .. قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار .. يا عدو الله إنك لتكذب فإن الثلاثة الذين تسأل عنهم أحياء .. وهنا بهت الذي كفر .. وقال هلم إلى يا عمر .. فقال رسول الله ﷺ لعمر ائته فانظر ما شأنه .. فالتقيا .. فقال أبو سفيان .. يا عمر .. أنشدك الله أقتلنا محمداً ؟ قال عمر : اللهم لا .. وإنه ليسمع كلامك الآن .. قال أنت أصدق عندي من ابن (قمأه) وأبر .. وابن قمأة هذا هو الذي ضرب النبي ﷺ بسيفه على كتفه وزعم أنه قتله .. ولقد كذب وخسر وخاب .. ثم قال أبو سفيان لعمر .. بصوت جهوري عال سمعه المسلمون إنه قد كان في قتلاكم مُثُل .. والله ما رضيت وما أمرت وما نهيت وما سخطت ..

موقف عظيم

درس من دروس الوفاء والأخلاق الكريمة يجب أن نتعلمه من هذه الدروس ... عندما نحلل موقف النبي محمد ﷺ فعندما كان أبو سفيان يستفسر ويستعلم عن الأشخاص محمد .. أبو بكر .. عمر .. أمر الرسول ﷺ الصحابة ألا يردوا عليه لأن الموقف هنا يتعلق بالأشخاص حتى النبي العظيم .. والأشخاص زائلون .. لكن عندما أراد أبو

سفيان أن يرفع قدر هُبلُ ويعلى مكانته فالأمر هنا يتعلق بالعقيدة.. والإنسان لا يفرط في عقيدته تحت أي ضغوط نفسية أو حربية .. لذلك قال النبي ﷺ لعمر رد عليه وقل لهم وللدنيا بأسرها الله هو الأعلى والأكرم وإليه يرجع الأمر كله.. وهذا درس علينا أن نستفيد منه ونتعلم.. ألاّ نجامل على حساب عقيدتنا.. ولا نفرط في قيمنا ولا نتراخى عن أداء كل شيء يتصل بعقيدتنا.. لهذا قال الحق سبحانه يعلمنا ذلك (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ) [آل عمران ١٤٤، ١٤٥]..

إن الأمور العظيمة كفؤها العظماء من الناس .. لذلك رأينا النبي محمداﷺ في ساعة العسرة التي أحاطت به والظروف الضاغطة على نفسه لم يقبل أبدا أن تمس العقيدة .. فمن أجلها تحمّل المكاره والصعاب وفي سبيلها يتحمل ويصبر على ما يلاقى .. والرسول ﷺ قدوتنا ومعلمنا لذلك علينا أن نتعلم هذا الدرس وأن نستفيد منه ...



انصراف

صرف الله قلب المشركين عن المضي في المعركة .. لذلك صاح أبو سفيان في الناس بأن ينصرفوا إلى مكة وغادرت قريش ميدان المعركة وصاح أبو سفيان قبل أن ينصرف يخبر المسلمين إن موعدكم ببدر في العام القادم .. فأشار الرسول ﷺ لأحد أصحابه بالرد عليه .. فقال .. نعم هو بيننا وبينكم .. وبعث الرسولﷺ بالعيون تتتبع قريشا وقال للعيون انظروا (فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة .. والذي نفسي بيده لأن أرادوها لأسيَّرن إليهم فيها ثم لأناجزنهم)[1] .. ثم انصرف النبي ﷺ إلى المدينة ..

---

(١) ابن هشام جـ ٣

نعود إلى المشركين الذين بدأوا يتحاورون وحدث جدال عنيف في داخل معسكرهم .. تزعم عكرمة بن أبى جهل وكانت روحة الحربية ونفسه العدوانية لم تخمد بعد .. وقد أعلن أن وضع المسلمين متردي .. وأن الروح المعنوية عندهم ضعيفة جدا .. ولا قدرة لهم على القتال فلا بد أن نرجع إليهم ونغتنم هذه الفرصة ونستأصل شأفتهم ونقضي عليهم قبل أن يستردوا أنفاسهم ، هذا الرأي وجد معارضة من (صفوان بن أمية) الذي قال يا قوم لا تنسوا أننا تركنا ثلاثمائة من جنودنا في ميدان المعركة لم يتحركوا .. وهؤلاء ربما يكونون قد ندموا على اشتراكهم معنا وأنهم الآن قد انضموا إلى صفوف محمد .. وهؤلاء أصبحوا قوة .. علاوة على مدد يأتيهم من المدينة وأرى أن ننصرف إلى مكة .. بينما كان المشركون في هذا النقاش والحوار أمسك الجند الذين يحرسون الخيام برجلين من جند المسلمين يحاولان التسمع إلى ما يجرى داخل الخيام ومع أن قريشا استعجلت بقتل الرجلين .. إلا أن مجرد بعثهما للتجسس على المشركين أكد المخاوف التي كانت تساور رأس صفوان بن أمية من أن المسلمين يريدون استئناف القتال حقيقة.. لذلك انضم أبو سفيان إلى صفوان في الرأي وأصدر أبو سفيان تعليماته إلى الجيش بأن يتحرك إلى مكة فورا ...

في المدينة

وصل المسلمون إلى المدينة بعد أن أحسوا بالمرارة التي لحقت بهم .. وكان ذلك بسبب مخالفة تعليمات رسول الله ﷺ لأن الحقيقة والواقع أنه حين تخلى الرماة عن موقعهم لبعض الوقت إنما كانوا يخالفون أمر رسول الله ﷺ ثم كذلك خالفوا أمر قائدهم .. وسبب المخالفة .. الحرص على متاع الحياة .. وجمع المال .. وهذا درس علينا أن نتعلمه .. هو أن مخالفة أمر الرائد أو القائد خسران مبين والتهافت على الدنيا ضياع وهلاك وأن الانضباط والالتزام نجاح وأن ما عند الله خير وأبقى ..كان المسلمون يتدارسون ذلك وهم في الطريق من أحد إلى المدينة .. وقد قضوا ليلتهم يتوجعون ويتألمون كما قضت النساء ليلتهن هن الأخريات يرعين المقاتلين حيث يغسلن الملابس ويضمدن جراح الرجال .. في الصباح استيقظ النبي محمد ﷺ من

نومه وقد تورمت وجنته وجبهته وشفته .. مع شعوره بألم شديد بسبب سِنَّتَيْن سقطتا من فمه علاوة على الجرح الذي أصاب كتفه الأيمن .. المهم أنه في حالة يحتاج إلى الراحة .. لكن المحيطين به فوجئوا به ينهض وطلب أن يحضر بلال على الفور.. وخرج بلال يؤذن في الناس ويدعوهم للتجمع .. ورنَّ صوته في طرقات المدينة وهو يقول لا يخرج معنا إلى هذه المعركة إلا من كان معنا بالأمس .. ولبس النبي ملابس الحرب وتوجه إلى المسجد وبدأ الرجال يأتون من كل حدب وصوب لم تبدر منهم أي شكوى أو تند عن صدورهم أي صرخة ألم ولم يظهر على وجوههم أي أثر للتعب .. كان منهم من يعرج في مشيته ومنهم من يمشي على عصا أمسك بها ومنهم من سار على قدميه معتمدا على سواعد من حوله من الرجال والكل يقول لبيك رسول الله .. وتجمع حول النبيﷺ حوالي خمسمائة شخص وأعاد بلال النداء (لا يخرج معنا أحد إلا من كان معنا بالأمس) ووصل المسلمون بعد ظهر ذلك اليوم إلى (حمراء الأسد) وهو مكان قريب من بئر على الطريق الرئيسي المؤدى إلى مكة وتبعد عن المدينة عشرة أميال .. وهذا المكان هو الذي كان قد عسكر فيه المشركون يتشاورون في أمر العودة إلى المدينة .. وقضى المسلمون في هذا المكان أربع ليال .. وكان لذلك أثر عظيم في نفوس المسلمين رفعت من روحهم المعنوية .. كما أن العرب تسمعوا بأن المسلمين تعقبوا المشركين .. وهذا أمر له دلالته في الجزيرة العربية .. وإلى هذا أشار الحق سبحانه (يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ* الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ *الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ) [آل عمران ١٧١ - ١٧٤] ..

إن المسلمين الذين ضمدوا جراحهم وصبروا على ما أصابهم وخرجوا استجابة لنبيهم رغم ما بهم منحهم الله نعمة الأمن والاستقرار والسعادة والسلام... ذلك فضل الله والله ذو الفضل العظيم ...

كانت غزوة أحد هى أول معركة يشترك فيها خـالد .. حيث أظهر بُعد النظر من الناحية الحربية وتفننه فيها ثم ثبت باليقين أنه قائد شجاع .. فعندما هرب قلب جيش المشركين صمد هو وكتيبته .. وهنا يتبين لنا شجاعة خالد غير العادية .. وقدرة خالد على القيادة جعلته يسيطر على قواته .. كما ظهر بُعد نظره وما يتمتع به من صبر عندما رفض تقبل الهزيمة في أول الأمر وقد استطاع بثاقب فكره وبُعد نظره أن يحدث ثغرة في جيش المسلمين ثم استطاع أن يسدد ضربة مفاجئة جعلته يفرق جيش المسلمين مما يدل على أنه صاحب قرار لا يتوانى في تنفيذه في سرعة أقل من لمح البصر وهكذا تكون القيادة التى تتسم بالقدرة والمهارة .. لذلك نرى أنه بسبب تصميمه وعناده في تنفيذ القرار الذي اتخذه وجرأته وإقدامه جعلته بكل هذه المعايير يجعل الدائرة على المسلمين بعد أن كانت لهم .. ولا ننسى أن خالدا قتل وجرح ثلاثة رجال من المسلمين مما يدل على قوته البدنية ومهارته في القتال .. لهذا أفرزت معركة أحد شخصية خالد الذي أصبح مثار إعجاب من الجميع ...

وخالد لم يشترك في غزوة بدر لأنه كان مسافراً بتجارة إلى الشام لكنه اكتوى بنارها حيث إن أخاه الوليد كان ضمن الأسرى وقد دفع له فديته ومع ذلك فـرَّ الوليد من بين يديه وذهب إلى المدينة مُسلما .. لهذا ظلت غزوة أحد شغل خالد الشاغل لعدة أيام بعد عودته لمكة .. وكان يستعرض دائما في مخيلته الفرصة التي أتاحها له الرماة عندما تخلوا عن موقعهم وكيف استغلها للهجوم على المسلمين.. وكان خالد يدير الأمر على نفسه من كل جوانبه .. إن المسلمين من نفس القبائل والبيئة الاجتماعية التي جاءت منها قريش فكيف يفرق الدين الذي جاء به محمد بين هؤلاء وهم أبناء منطقة واحدة .. وكيف تميزت شخصية النبي وتفوقت.. إن الإجابة على كل ذلك ليست أمام عينيه .. ولم يحس بأي ميل نحو الدين الجديد بل كان يتطلع إلى معركة جديدة ليواجه المسلمين مرة أخرى ليشبع شيئا في نفسه غير معروف .. وبدأ يمارس حياته الطبيعية ويلتقى بأصدقائه وأحاديثهم كلها تدور حول الإسلام ونبيه .. (ولما

كان كلهم يحملون حقدا وكراهية لمحمد لأنه تفوق عليهم رغم قلة عدده وضعف إمكانياته فإنهم يتمنون القضاء عليه .. لكن الأيام القادمة سوف تكشف عن شيء لا يعرفون كنهه ولم تتضح معالمه ..



الرجيع

هو مكان في موضع كذا وقد خرج إليه المسلمون بناء على ما اقترحه أبو سفيان عند انصرافه من غزوة أحد .. ولقد كان الرسول ﷺ يعيش بين المسلمين يفقههم في دينهم ويبين لهم أسس العلاقة التي تكون بين الإنسان وأخيه الإنسان والعلاقة بين الإنسان والمجتمع ويؤم الناس في الصلوات .. ولم ينس المسلمون أبدا ما حدث من سقوط شهداء في ميدان المعركة وخلفوا وراءهم النساء والأطفال يقوم المسلمون على رعايتهم وتدبير شئونهم .. ومما يذكر أن امرأة من بنى دينار وقد استشهد زوجها وأخوها وأبوها بأحد .. فلما نعوا إليها.. قالت .. فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا هو بخير وهو بحمد الله كما تحبين .. قالت .. أرونيه حتى أنظر إليه.. فأشير لها إليه حتى إذا رأته قالت .. الحمد لله .. كل مصيبة بعدك جلل[1] ... وكان رسول الله ﷺ وهو بالمدينة يبعث بالعيون لتتعرف ما يجرى على الساحة.. فالرسول ﷺ رئيس دولة .. ومسئول عن أمنها .. كما هو مسئول عن تنظيم أمورها الداخلية وعلاقتها الدولية مع تبليغ وحي الدين الذي يتلقاه من ربه وتعليم الناس بأمور الدين ومعرفة الحلال والحرام .

ولقد كانت الأمور تسير بهدوء وأمن لا يعكر صفوها في المدينة إلا ما يقوم به اليهود من أعمال مُقلقة للأمن .. وفي العام الرابع خرج جيش من المسلمين يقدر بنحو ألف وخمسمائة رجل .. وكان ذلك في ذى القعدة من العام الرابع .. وسبب خروجهم أن أبا سفيان قبل أن ينصرف من أحد قال لهم .. إن موعدكم العام القادم في بدر .. والمسلمون أوفياء لذلك خرجوا في الموعد وتحركوا حتى وصل جيش المسلمين إلى بدر في المكان المتفق عليه ..

(١) الروض الأنف جـ ٣ ، صـ ١٧٣ .

كان المشركون كذلك قد أعدوا جيشا يتكون من ألفين ومائة فارس يتقدمهم خالد وعكرمة وصفوان .. وفي الطريق حدث نقاش مع أبى سفيان ومعاونيه على أنه من الأفضل لهم أن يرجعوا إلى مكة لأن هذا عام جدب وإنما يصلحنا عام خصب[1]... ولما اقتنع بالأسباب التي عرضت عليه وافق على إرجاء القتال وأصدر قراره بعودة الجيش فوراً إلى مكة .. واحتج صفوان وعكرمة على هذا القرار ولاذ خالد بالصمت...

عاد المشركون إلى مكة .. ولكن تحركت عناصر يهودية خبيثة حيث ذهب وفد من يهود خيبر إلى مكة وكان على رأس هذا الوفد حُيى بن أخطب (زعيم يهود بنى النضير) الذين أجلاهم الرسول ﷺ عن المدينة وأقاموا بخيبر.. وفي مكة أجرى وفد اليهود مباحثات مع أبى سفيان وبحث الطرفان أمر تنظيم حملة ضد النبي محمد ﷺ .. وقد شرح اليهود ما يهدد قريشا من خطر المسلمين.. وقالوا لهم بأن المسلمين سيسدون الطريق أمام تجارتكم مع العراق والبحرين .. وقد اقتنعت قريش بهذا الكلام وأيقنوا أنه طالما بقى المسلمون في المدينة فإنه من العسير على أهل مكة كذلك أن يستخدموا الطريق الساحلي الذاهب إلى الشام .. لذلك أدرك المشركون الخطر الذي يهدد حياتهم ويقضى على تجارتهم الأمر الذي يضرب المركز الاقتصادي لهم فينهارون ويستسلمون للمسلمين وهذا أمر لن يكون أبدا .. أما المسلمون فقد عسكروا في بدر لمدة أيام ولما لم يجدوا أي أثر لقريش رجعوا إلى المدينة بسلام ...

موقف مؤسف

عُرف اليهود في التاريخ بأنهم لا ذمة لهم ولا أمان ولا عهد ولا ميثاق .. وحتى دينهم خانوه وهم دائما يبحثون أين مصلحتهم فيذللون كل شئ للوصول إلي أهدافهم ويركبون إليه الصعاب ليحققوا ما يحلوا لهم .. المهم لا يحول بينهم وبين مآربهم أي حائل .. لذلك عندما ذهب وفد اليهود برئاسة حُيى بن أخطب إلى المشركين ليشعلوا نار العداوة في نفوسهم ضد محمد ويدقوا طبول الحرب .. وفي جمع ضخم

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ٢ ، صـ ٣٤ وما بعدها .

رهيب سأل أبو سفيان .. حُيي بن أخطب وقال له .. (إنكم أهل الكتاب الأول وتعلمون ما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد .. أفديننا خير أم دينهم ؟) ورد عليه حُيي دون أن تطرف عيناه .. (بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه)[1].. وهللت قريش لما سمعت وفرحت بما قال اليهود .. لذلك أصروا على قتال محمد.. وبدأت تحشد الحشود .. والمعروف أن اليهود يحاولون دائماً في أي مكان إشعال نار الحرب وهم أساتذة في هذا المجال وصدق الله العظيم (كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً) [سورة المائدة آية ٦٤] .

غزوة الأحزاب

بدأت قريش تعد العدة وتحزب الأحزاب لمعركة تكون فاصلة وقاضية على الإسلام والمسلمين لذلك حشدت أربعة آلاف رجل وثلاثمائة فارس وألف وخمسمائة بعير.. كما أن غطفان أرسلت بألفي رجل وجعلت عليهم عيينة بن حصن .. وبنو سليم بعثوا سبعمائة مقاتل .. وبنو أسد بعثوا بكتيبة لم يعرف عددها على رأسها طليحة بن خويلد .. قدر هذا العدد بعشرة آلاف رجل جعلوا القائد العام لهم أبو سفيان وقد سموا هذا الحشد بـ (الأحزاب) وتحركت الأحزاب في أول شوال من العام الخامس الهجري وعسكروا قرب المدينة ... كان الرسول ﷺ على علم بمجريات الأحداث التى تجرى بمكة ولما وصل الخبر بهذا الحشد ساد المدينة جو من الخوف .. لأن نسبة المسلمين في بدر (١) إلى (٣) من المشركين وبأحد (١) ضد (٤) أما اليوم فان المسلمين لا يزيد عددهم عن ثلاثة آلاف بينهم لا يقل عن ألف من المنافقين وضعاف الإيمان فالمسلمون حوالى ألفين من الرجال العظام بينما جيش الكفار عشرة آلاف فالعدد في الواقع كبير ومخيف ...

---

(١) ابن هشام جـ ٣ ، صـ ٢٢٥ وما بعدها .



مع العسر يسرا

إذا اشتدت الأزمة فُرجت .. لأنه عند اشتداد الظلام لابد يأتي بصيص النور مع طلائع الفجر .. لذلك كان المسلمون في حالة حيرة .. والرسول ﷺ يستشير أصحابه.. لأن الشورى مبدأ إسلامي في كل الأمور .. وطلب سليمان الفارسي الإذن له بالكلام وهو من فارس وآمن بالله ورسوله وأخلص لدينه فوقف وأبدى رأيا خلاصته لابد من حفر خندق وعلل ذلك بقوله نحن في فارس إذا تورط الجيش في حرب دفاعية في ظروف قاسية ولم تكن الأمور في صالحه حفر الجيش خندقا واسعا وعميقا ليحول دون عبور العدو ويعوق مسيرته .. وقبل المسلمون هذا الاقتراح وأمر النبي ﷺ بحفر الخندق واشترك هو ﷺ بنفسه في العمل .. وانتهى العمل في حفر الخندق بعد أمور وأحداث عظيمة خارقة للعادة .. والخندق يعتبر من الأسلحة الحربية ولم يكن معروفا عند العرب ولم يحدث أن استخدموه قبل ذلك في حروبهم .. وكان المسلمون وهم يحفرون بالخندق يرمون بالأتربة الخارجة منه نحو العدو .. ووضع الرسول ﷺ نقط حراسة على طول الخندق .. ولما جاء المشركون إلى أرض المعركة ورأوا الخندق فزعوا وتملكهم الغضب وقالوا (والله إن هذه مكيدة ما كانت العرب تكيدها)[1]..

وبدأ المشركون يضعون جيشهم حول الخندق ولم يستطيعوا أن يفعلوا أي شئ وكانوا إذا حاولوا اقتحامه اعتراهم الجبن والخوف والفزع والهلع ..



لعبة خسيسة

مضت عشرة أيام والأحزاب لم تستطع أن تفعل أي شئ لذلك بدأت الروح المعنوية في صفوف الأحزاب تضعف .. زد على ذلك رداءة الجو ونقص الطعام عند الأحزاب وبدأ التذمر يسرى بين نفوس الأحزاب .. وراح أبو سفيان يفكر بجدية ليجد مخرجا من هذا المأزق وذهب إلى صاحبه اليهودي حُيى بن أخطب .. وانتهت المباحثات بينهما

(١) ابن هشام جـ ٣ صـ ٢٣٥ وما بعدها .

بخطة جديدة يتوقعان لها النجاح (على حسب زعمهما) تحرك حُيى بن أخطب وذهب إلى يهود بنى قريظة وتوجه إلى دار زعيمها (كعب بن أسد) وطلب حُيى من كعب بكل ما أوتى من مهارة في اللفظ ودقة في الحديث أن يجعل كعبا ينضم مع قبيلته إلى الأحزاب .. بعد مناقشات ومحاورات وكان كعب يرد بقوله على حُيى و (دعنى وما أنا عليه فإني لم أر من محمد إلا صدقا ووفاءً) وأضاف قائلا (لا ينقض العهد رجل من بنى قريظة وأنا حي) وقال أحد الحاضرين في هذه الجلسة إن استجبنا لك يا حُيى (فإنه والله جلاؤنا عن أرضنا وذهاب أموالنا وشرفنا أو سباء ذرارينا مع قتل مقاتلينا) ..

ولم ييأس حُيى وأخذ يضغط على القوم ويغريهم مرة ويهددهم أخرى ثم يستجدى معونتهم مرة ثالثة إلى أن رضخ كعب ورضى أن ينقض عهده مع رسول الله ﷺ وأن يدخل في حلف الأحزاب .. وطلبت بنو قريظة مهلة قدرها عشرة أيام يعدون خلالها أنفسهم .. لقد كانت هناك مناولات حربية صغيرة تقع بين المسلمين والمشركين وظن اليهود أن المسلمين في شغل دائم لصد هجوم المشركين عن الخندق والبحث عن المؤنة إلى غير ذلك..وأن المسلمين لن يعرفوا بهذا التحالف الجديد..لكن الأمور كلها كانت بين يدي رسول الله ﷺ الذي كان على علم بكل الأحداث ..

أخذ يهود بنى قريظة يجوسون خلال المدينة ليتعرفوا على أسهل الطرق لفتحها أمام الأحزاب .. والذين كانوا بالمدينة من المسلمين هم النساء والذراري .. وبينما رجل من اليهود يتحسس أحد الحوائط ليتخذ منه نقبا رأته صفية بنت عبد المطلب .. ولم يكن هناك من رجل إلا حسان بن ثابت فقالت له إن هذا اليهودي يطوف بالحصن وإني والله ما آمنه أن يدل الأحزاب على عوراتنا وقد شغل عنا رسول الله ﷺ فأنزل إليه فاقتله فقال حسان يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب .. والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا.. فرمته بنظرة نكراء وأخذت هي عمودا ونزلت من الحصن إلى اليهودى وضربته حتى قتلته وعادت إلى الحصن وقالت لحسان أنزل إليه فاسلبه فإنه لم يمنعني من سلبه إلا أنه رجل ورد عليها حسان بقوله مالي لسلبه من حاجة

يا بنت عبد المطلب[1] لقد اشتد الموقف على المسلمين وقد أوضح القرآن ذلك بقوله (إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً) [الأحزاب ١١:١٠]
وكان ذلك بسبب خيانة اليهود وغدرهم ونقضهم العهد مع رسول الله ﷺ وتحالفهم مع الأحزاب ورضوخهم لحيى بن أخطب الذى غرر بهم طمعاً في الاستيلاء على المدينة والقضاء على الإسلام ولكن " ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله " لذلك دارت عليهم الدائرة في النهاية ونالوا جزاء خيانتهم مصداقا لما قاله الحق سبحانه (فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ) [الفتح الآية ١٠]



عرف الناس جميعاً أن النبي محمدا ﷺ يتميز بإيجاد الحلول السريعة للمشاكل الصعبة مع التيسير ومراعاة الظروف الاجتماعية وإمكانية التطبيق .. لذلك لما رأي الموقف على هذه الصورة قرر أن يلجأ إلى الوسائل الدبلوماسية لتحقيق ما تعذر عليه تحقيقه بعد حفر الخندق ..لهذا أرسل النبي ﷺ إلى غطفان وكان قائدها رجلا من أحمق الناس له عين واحدة يتمتع بالقوة العضلية اكثر مما يتمتع به من قوة ذهنية .. وكان النبي ﷺ يسميه (الأحمق المطاع)[2]

إنه " عُيينة بن حصن " وهو القائد الذي بدأت المفاوضات معه باعتباره قائد جيش كبير يقترب من جيش قريش واستهدفت المفاوضات أن غطفان لو ترجع إلى بلادها لها ثلث ثمار المدينة .. وقبل عُيينة هذا العرض .. لأنه كان قد فقد كل أمل في إحراز أي نصر على المسلمين لأن الخندق يحول بينهم وبين ما يريدون ... وبعد المفاوضات .. وعند كتابة كتاب الصلح اعترض " السعدان" سعد بن معاذ وهو شخصية شعبية له ثقله في الوضع الاجتماعي وسعد بن عباده وعلا اعتراضهما بقولهما (يا

(١) ابن هشام – جـ ٣ ، صـ ٢٣٩ .
(٢) ابن قتية صـ ١٣٥ .

رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا ثمرة من عندنا إلا قِراً أو بيعاً أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطهم أموالنا .. والله مالنا بهذا من حاجة .. والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم) .. إن المسلمين الذين أعربوا عن عدم رضاهم عن الاتفاق الذي كاد أن يُبرم بينوا السبب لذلك نزل النبي على رغبتهم وتوقفت المفاوضات .. وهم في الواقع لم يدركوا خطورة الموقف الحربي .. وكان الأفضل فك الحصار عن طريق المناورات الدبلوماسية .. وعلى أي حال في هذه اللحظات الحاسمة والموقف الراهن قرر خالد وعكرمة بن أبى جهل أن يقوما بعمل بطولي حيث نفذ صبرهما وأيقنا بألا أمل هناك في عمل موحد تقوم به الأحزاب مجتمعة .. ونظرا لاندفاع عكرمة تحركت سريته بسرعة وقفز عكرمة ومعه ستة من أشجع الرجال وقفزوا بخيولهم إلى مواقع المسلمين .. كان وراء عكرمة رجل ضخم الجثة عملاقا فارع الطول له وجه عبوس إذا اعتلى صهوة جواده يبدو في صورة مخيفة .. وقف هذا الرجل يتطلع إلى صفوف المسلمين بازدراء .. ثم بدأ يضحك ويتهكم بالإسلام والمسلمين ويتطاول على مقام النبي الكريم هذا الرجل هو "عمرو بن عبدود" .. الأمر الذي أثار المسلمين .. فطلب على بن أبى طالب من النبيﷺ أن يسمح له بمبارزة هذا الرجل .. لكن النبي ﷺ كان يتأنى لأن هذا الرجل عُرف عنه أنه يستطيع أن يحمل عجلا بيده اليسرى ويواجه خمسمائة فارس ويستطيع أن يرفع فرسا عن الأرض ثم يلقى به وقد نُسج حوله قصص كثير .. الأمر الذي جعل النبي ﷺ يتروى .. لكن الأمر زاد فنزع النبي ﷺ السيف وعلقه على صدر على وعممه بعمامته وقال (اللهم أعنه عليه) وبعد محاورات من ((على لعمرو)) بدأ الكر والفر وقفز على في الهواء كالصاروخ وأمسك برقبة هذا العملاق وبحركة لا يتقنها إلا المبارزين الأكفاء ألقى على بالعملاق إلى الأرض فسقط على ظهره وجلس عَلِيٌّ على صدره ونظر الجميع وهم في حالة انبهار وحاول العملاق أن يقوم لكن عليا شل حركته وطلب منه أن يعتنق الإسلام لينجو بنفسه ويحظى برضاء الله وأخوة المسلمين فرفض بشدة وتحرك لسانه بالسب واللعن للإسلام ونبيه .. فأخرج علي السيف وحاول أن يجهز عليه .. لكن

الرجل استطاع أن يفلت من بين يدي على وبصق في وجهه فصاح علي وقال (اعلم يا عدو الله أني كنت أرجو لك الخير أما وأنك مُصر خذ مني هذه الضربة في سبيل الله وسقط العملاق بوجهه على الأرض بلا حراك ولم تهتز الأرض لسقوطه وإنما اهتزت بتكبير المسلمين الذين رفعوا أصواتهم وقالوا الله أكبر ... وقد فر عكرمة مع باقي جنده وسقط رمح عكرمة عندما قفز من فوق الخندق وسقط نوفل بن عبد الله (ابن عمة خالد) في الخندق .. وراح المسلمون يرمونه بالحجارة وهو يقول .. (يا معشر العرب قتلة أحسن من هذه)[1].. ومات الرجل ، أدرك خالد ما عليه المسلمون من يقظة لذلك عاد بسريته إلى الخلف لكنه يتناول رماية النبل مع المسلمين .. وظن المسلمون أن الأمر انتهى عند هذا الحد فأخلدوا إلى الراحة بعد أن أيقنوا أن خالدا تخلى عن محاولته .. وناموا لكن خالدا انتهز الفرصة وقفز بسريته قبل أن يتهيأ المسلمون لمواجهته ولكن المسلمين تجمعوا بسرعة وأوقفوا خالدا عند رأس الجسر الصغير وحاول خالد أن ينجو من هذا المأزق لكنه لم يستطع بسبب شدة المقاومة وتشابك خالد بسريته مع المسلمين .. قُتِل بعض المسلمين واحد بيد خالد وواحد بيد وحشى قاتل حمزة.. وأدرك خالد ألا أمل في الانتصار فترك الخندق وعاد إلى قومه

عودة إلى الدبلوماسية

ما كان الله ليذر المسلمين على ما هم فيه .. فمع اشتداد الأزمة وصعوبة الموقف وبلبلة الأفكار .. جاء رجل من غطفان يسمى (نعيم بن مسعود) هذا الرجل له نفوذ ومكانة عند اليهود ويعتبرونه صديقاً مخلصاً وكذلك الأحزاب المتحالفة من قريش وغطفان ينظرون إليه على أنه من خلصاء أصدقائهم .. وكان هذا الرجل كفأ لإقناع محدثه بما يريد قادرا على المحاورة الجيدة المتسمة بحسن اللفظ وجميل العبارة .. وفي ليلة تسلل هذا الرجل من معسكر غطفان وتوجه إلى رسول الله صلى عليه وسلم وقال (يا رسول الله إنى أسلمت وإن قومى لم يعلموا بإسلامى فَمُرنى بما شئت)[2] ... وهذه

(١) الطبرى جـ٢ صـ ٥٧٤ .

(٢) ابن هشام جـ ٣ ، صـ ٣٤٠ .

فرصة عظيمة .. أخذ النبي ﷺ يستعرض مع نعيم الموقف من جميع جوانبه وشرح له الخطة التي يريد أن ينفذها .. ولم يضيع نعيم الوقت بل تحرك على الفور إلى يهود بني قريظة .. واجتمع مع كعب بن أسد رئيسهم .. وأوضح له خطورة الموقف الذي يواجه اليهود وقال له (إن قريشا وغطفان ليسوا مثلكم .. هذا البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون على أن تتحولوا منه إلى غيره .. وإن قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتموهم عليه وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره .. فليسوا كأنتم فإن رأوا نهزة أصابوها وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ولا طاقة لكم به إن خلا بكم) .. قال كعب فأشر علينا يا نعيم قال (فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمدا حتى تناجزوه) ...

قال كعب هذا والله حق وقد أشرت بالرأي يا نعيم .. فقال له أكتم على ما قلته لك ثم انصرف من عنده وتوجه إلى قريش .. وكان صديقا لأبي سفيان وجلس يحادثه وسأله أبو سفيان عن الأخبار فقال نعيم مدى علمي أن اليهود ندموا على ما صنعوا وقد أرسلوا إلى محمد وقالوا له (إنا قد ندمنا على ما فعلنا فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالا من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقى منهم حتى نستأصلهم؟؟ فأرسل إليهم أن نعم .. فإن بعثت إليكم اليهود يلتمسون منكم رهنا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحداً)[1]..

ثم خرج إلى غطفان وقال لهم ما قال لقريش .. وقد أثمرت جولة نعيم عن بذر بذور الشك والفرقة بين اليهود وقريش وغطفان .. لذلك أسرعت قريش بإرسال وفد على رأسه عكرمة إلى بني قريظة ليتفقوا معهم على يوم الحرب والسماح للأحزاب بالدخول إلى المدينة من خلال الطرق التي أعدوها.. وقال عكرمة لليهود (إنا لسنا بدار مقام وقد هلك الخف والحافر فاغدوا معنا للقتال حتى نناجز محمدا ونفرغ مما بيننا وبينه)[2] ...

---

(١) ابن هشام جـ ٣ ، صـ ٣٤١ .

(٢) ابن هشام جـ ٣ ، صـ ٣٤١ .

وقف عكرمة يرقب موقف اليهود الذين يتهامسون فيما بينهم .. ثم قالوا لعكرمة لنا شروط :

١- إنكم حددتم يوم السبت لبدء القتال .. وهذا يوم لا نعمل فيه شيئا ..

٢- لن نقاتل معكم محمدا حتى تعطونا رهنا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا..

فإنا نخشى إن ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تشمروا إلى بلادكم وتتركونا .. والرجل في بلادنا ولا طاقة لنا بذلك منه[1]...

خفي حنين

عاد عكرمة من عند اليهود بخفي حنين .. وأعاد أبو سفيان المفاوضة مع اليهود لإغرائهم على القتال لكن الوفد الآخر فشل .. لذلك أرسل أبو سفيان إلى اليهود من يقول لهم (إنا والله لن ندفع إليكم برجل واحد من رجالنا فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا وقاتلوا). وباءت المحاولات كلها بالفشل ، بدأ التراخي يظهر في صفوف جيش قريش .. وظهر الملل والضعف عليه وهبطت روحهم المعنوية وسار بينهم التذمر وثارت نفوسهم بعد أن نفذ صبرهم وأدركوا أن الحرب التي جمعوا لها الجموع وحزبوا لها الأحزاب باءت بالفشل والخيبة والخسران ..ولم يعرفوا كيف الخروج من هذا المأزق؟

المسلمون بقيادة النبي محمد ﷺ ينعمون بالهدوء والأمن .. وقد انكشف الطابور الخامس من ضعاف الإيمان والمنافقين الذين كانوا يهربون من أرض الموقع ويقولون .. (إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً * وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيراً * وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُولاً * قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لاَ تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً * قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً * قَدْ يَعْلَمُ

(١) المرجع السابق صـ ٣٤٢ .

اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً * أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً) [الأحزاب ١٢: ١٩] .. في ليلة لم يظهر فيها نجم من شدة الغيوم والجو العام مكفهر هبت على المنطقة رياح باردة مع عاصفة شديدة من الريح اجتاحت معسكر الأحزاب فقلعت خيامهم وكفأت قدورهم وأطفأت نيرانهم وتزاحم القوم يحتمون منها تحت الأغطية .. وكان الواحد منهم لا يرى مَن بجواره من شدة الظلام .. وخيل إليهم أن المسلمين جاءوا بسيوفهم .. وكأن العاصفة تمهد لهم حتى ينتقموا منهم لذلك وقف أبو سفيان باعتباره القائد العام وهو يصيح بأعلى صوته : (يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام لقد هلك القراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي ننكره ولقينا من شدة الريح ما ترون فلا تقوم لنا نار وما تطمئن لنا قدر ولا يستمسك لنا بناء فارتحلوا فإني مرتحل)[1] ..

وأسرع أبو سفيان إلى بعيره فركبه وسار مع رجاله أملا في أن ينجو من هذه العاصفة.. لكنها تعقبته طوال الليل ولعب بعقله الوسواس الخناس ، وأصدر أبو سفيان أمره إلى خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ومجموعة من الفرسان أن يكونوا في مؤخرة جيش قريش يحرسونه ربما يتعقبهم المسلمون وانتهت غزوة الخندق بهذه الهزيمة المنكرة وقد ظهر فيها أن المسلمين استخدموا السياسة والدبلوماسية للنجاح في وقف إراقة الدماء .. لأن الواقع ينبىء أن استخدام القوة المسلحة أسلوب عنيف من وجه قبيح مدمر لما أنتجته يد الإنسان من بناء وتعمير أما إذا اشتركت السياسة والدبلوماسية لوقف تيار الحرب فهذا أفضل وأحسن للبشرية.. فلا نلجأ إلى الحرب وما تحمله في طياتها من دمار وخراب إلا إذا نفدت كل الأساليب التي يمكن استخدامها بعيدا عن السلاح ومشتقاته فإن عجزت السياسة وفشلت الدبلوماسية فالحرب لا مناص منها .. ومن السموم الناقعات دواء ..

---

(١) ابن هشام جـ٣ صـ٢٤٣.

هذه هى المرحلة الأولى من مراحل خالد بن الوليد عاشها مكبلا بقيود العصبية حريصا على الوصول إلى الزعامة التي يتطلع إليها ويسعى في سبيلها لأنه يشعر أنه رجل حرب من الطراز الأول .. وعقله يتميز بالإدارة المنضبطة على تحقيق المصلحة والوصول إلى الهدف بأقصر الطرق وأقل التكاليف .. لكن تفكيره وهو في الطريق من أرض المعركة التي خسرها كان يفكر في شيء لم يفصح عنه .. ولكن سرعان ما أخذ القدر بيده وشرح صدره وهداه إلى أفضل طريق .. فإذا كانت هذه المرحلة من حياته فليحاول طيها ونسيانها .. لكن كيف ؟ والتاريخ أكبر شاهد وكل شيء مسجل في طيات التاريخ .. إذا فلنبيض الصفحات الباقية من تاريخنا لعل الله بعفوه ورحمته يغفر لنا ما ارتكبنا من أخطاء .






الفصل الثالث
إلى الحديبية وصحوة القلب

في السنة السادسة من الهجرة وفي شهر ذي القعدة كان خالد لم يفصح بعد عما يدور في خلده .. وقد عاش في صراع نفسي وهو يعيش في وسط جو كله مشحون بالعداوة ضد الإسلام ومبلغه .. ثم إن سكان مكة وما جاورها يعيشون في توتر عصبي وترقب للأحداث وتحفز وتخوف مما سوف تكشف عنه الأحداث .. لأن المشركين في كل يوم تبلغهم أنباء بأن محمداً يجمع الجموع ويدرب الشباب على الحرب للزحف بهم على المشركين وإبادتهم..

خالد أحد أركان القوة في قريش ..(فكان أهل دار الندوة) يستدعونه دائما لمحادثته وعرض الخطط عليه وتوصيته بتدريب الشباب باعتباره أحد المهرة في فنون الحرب .. ولقد كان يتمني أن يخلد إلى الراحة يوما ويعرض ما بنفسه على نفسه ثم يأخذ قرارا في هدوء .. ليتجه إلى ما يتجه عن اقتناع .. ولكن.. ها هى الأخبار وصلت إلى مسامع قريش بأن محمدا خرج من المدينة ومعه ألف وأربعمائة رجل من المسلمين المسلحين .. وأن محمداً يزعم على حد تعبيرهم.. أنه يريد أداء العمرة .. لذلك ساق أمامه (الهدي) وهو الضأن الذي يذبح عند الكعبة وفي مكة.. وكانت هذه طبيعة العرب آنذاك .. لأن العرب منذ عهد إبراهيم عليه السلام يؤدون هذه المناسك .. وإمعانا من الرسولﷺ في إبعاد الريبة عن نفسه هو وصحبه الكرام خرجوا بملابس الإحرام..ونهى أصحابه عن حمل أسلحة الحرب سوى السيوف في القرب ليدلل بذلك على صدق نيته وأن زعمهم باطل ولا دليل لهم وإنما محمد صادق وهذا برهان الهدى الذي ساقه وعدم حمل السلاح .

لكن قريشا نظراً لما تعانيه من صراع نفسي وتوتر عصبي لذلك فقد أخذتها العزة بالإثم .. والنعرة الكاذبة .. وخالفت القواعد المتفق عليها وهى (أن البيت الحرام ملك للجميع لا يُصد عنه أي زائر) لكن قريشا تخشى أن يقوم المسلمون بقتالهم وإيقاع الهزيمة بهم في عقر دارهم وهذا عار عليهم وضياع لهيبتهم إذا فلابد أن يأخذوا بزمام المبادرة .. لهذا صدر قرار من أبي سفيان إلى خالد بن الوليد بأن

يأخذ كتيبته المكونة من ثلاثمائة فارس وأن يعترضوا المسلمين حتى لا يدخلوا مكة.. ولم يكن خالد يعرف كيف يستطيع أن يعترض طريق قوة كبيرة كقوة المسلمين بثلاثمائة رجل فقط .. ونظرا لأن خالدا كان في حالة عدم اتزان فهو في صراع بينه وبين نفسه .. وخوفا من أن يعترض خالد على أبي سفيان وهو القائد العام ويؤول اعتراضه بأنه جبن أو خوف لذلك نفذ الأمر وخرج وعزم على بذل كل ما يستطيع من جهد وتخطيط ليعيق تقدم المسلمين ...

وصل خالد إلى (كراع الغميم) وهذه المنطقة تبعد عن سعفان بخمسة عشر ميلا وقد كمن بكتيبته في أحد الشعاب التي يخترقها الطريق في هذه المنطقة الجبلية التي تحيط بها التلال ...

والرسول ﷺ بطبيعته كان بعيد النظر يضع القواعد والضوابط لهذا كان يبعث بمقدمة من الجند لاستكشاف الطرق والتعرف على ما يجرى في المنطقة التي سيمر بها جيش المسلمين (وهذا من باب الدقة والفطانة) وقد لمحت المقدمة خالدا وتعرفت على موقعه وقربه من الطريق والطرق التي يستطيع أن يتحرك منها الجيش (وقامت المقدمة بدراسة ميدانية مع معرفة طبيعة المنطقة) وأرسلوا للنبي ﷺ بيانا بالأمر على حالته بكل دقة وتفصيل .. والرسول ﷺ لم يشأ أن يضيع وقته في الاشتباك مع كتيبة خالد في معركة يدور رحاها في هذا الموضع .. ثم إن النبي ﷺ كان يعمل بكل قدرته على تفادي الصدام الحربي .. لأنه لا يحب الحرب .. فهى إزهاق للأرواح وتخريب للعمران .. ثم إنه خرج وهو ينوي العمرة .. لذلك استطاع النبي ﷺ وبمهارة فائقة وسرعة مدهشة أن ينتقل بجيشه من الطريق المعتاد المشي عليه والذي ترصده كتيبه إلى طريق وعر كثير الحجارة غير مطروق للمارة .. ومع أن السير في هذا الطريق كان متعبا للغاية .. إلا أن المسلمين حققوا ما هدفوا إليه وأمكنهم أن يبعدوا عن المكان الذي نزل فيه خالد ...

أحس خالد بفراسته الحربية وقوة ذاكرته أن خطرا يحيط به .. لأنه رأى الكتيبة الاستطلاعية ثم التفت خلفه فرأى الغبار الذي يعلو في الجو من أثار أقدام الجيش فأدرك أنه في خطر .. لذلك أسرع بالانسحاب إلى مكة وأخبر قيادته بالذي

رآه من الجند والغبار .. هنا وقف أهل مكة وحملوا السلاح وأقسموا ألا يدخل عليهم محمد مكة .. وبدأت تجمع جموعها ليتشاوروا في الأمر ... كذلك جمع النبي ﷺ أصحابه وأخذ يستشيرهم وكان هناك خلاف في الرأي .. المتحمسون يقولون نحارب والمتزنون يقولون ما تراه يا رسول الله .. ولقد بدا في الجو أن معركة حربية على وشك الوقوع .. وحدثت بعض مناوشات دون أن ينجم عنها أي إصابات .. والمشركون يرون (الهدي) مع رسول الله ﷺ .. فعلاوة على الخراف هناك أكثر من (سبعين بدنة .. أي ناقة) وعندما اقترب المسلمون من الحديبية وهى (الحد الفاصل بين الحل والحرم) بركت ناقة النبي ﷺ .. فقال الناس (خلأت) يعنى امتنعت عن المشي ، فقال الرسول ﷺ ما خلأت وما الخلأ بعادتها .. ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة.. ثم جرت الرسل بين الرسول ﷺ وبين قريش للتفاوض وكان من قول النبي ﷺ لرسل قريش (إنا لم نجيء لقتال ولكن جئنا معتمرين وإن قريشا قد أنهكتهم الحرب وأجهدتهم فإن شاؤا ماددتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس) أي هادنتهم ..
ولما أيقنت قريش أن المسلمين لم يقدموا فعلا إلا لأداء العمرة تم الاتفاق على صلح عُرفَ بصلح الحديبية وقد قام بالتوقيع عليه نيابة عن المسلمين النبي محمد ﷺ وعن المشركين سهيل بن عمرو وهو الذي كان يتفاوض عن المشركين .. وخلاصة هذا الاتفاق (المعاهدة) ..

١- أن يرجع المسلمون في هذا العام فلا يدخلون مكة .. وأن يقدموا في العام القادم لأداء العمرة ..
٢- وضع الحرب بين الطرفين لمدة عشر سنوات يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض...
٣- أن من قدم من مكة من المشركين على محمد يرد إليهم ... ومن قدم من المدينة من المسلمين إلى المشركين لا يُرد...
٤- السماح للقبائل الأخرى بالانضمام إلى الصلح ولكل قبيلة أن تختار الطرف الذي تنضم إليه وتطبق عليه نفس الشروط ...

أثارت هذه الشروط بعض الشخصيات خاصة عمر الذي كان ينظر إلى البند الثالث باعتباره مجحفا .. لكن النبي ﷺ بسياسته وكياسته وسماحته ولباقته وبعد نظره استطاع أن يحتوي الأزمة وأن يشرح للمعارضة هدفه من هذا والغاية التي يرجو لها التحقيق ..وقد أثبتت الأيام أن هذا الصلح هيأ للمسلمين بعض المزايا الهامة التي تحققت في مقتبل الأيام ولم تكن واضحة ساعة التوقيع على الصلح .. لهذا فإن هذا الصلح ترك أثرا طيبا بين القبائل العربية ودل على أن الثقة بالنفس دليل النجاح ، والواقع أن هذا الصلح كان مصدر قوة للمسلمين خاصة وأن كل واحد له مطلق الحرية لينضم إلى أي فريق والأمر كذلك بالنسبة للقبائل .

قلنا إن خالدا كان مسلوب اللبُّ يتأمل فيما يجري حوله ويفكر مليا في شئون الحرب وأهدافها وكان يشعر تماما أنه كفء لها قدير عليها شجاع مقدام.. بكل هذه المواصفات يستطيع أن يحقق النصر .. لكن لم يحالفه أبدا.. وهو فى غزوة أحد .. قام فيها بمناورات مذهلة .. وتحركات رائعة .. صال وجال .. وقتل من المسلمين وجرح منهم .. لكنه لم يهزم المسلمين .. لماذا ؟ لأن النبي ﷺ قام برسم خطط أفسدت خططه وخطط غيره ووضع تدابير فرض بها المعركة على قريش رغم أن الظروف والأحوال لم تكن في صالحه .. وإن محمدا ماهر بالدبلوماسية وعلى دراية كبيرة بالتخطيط الحربي .. رغم أنه لم يتعلم فنون الحرب كخالد .. وبذلك استطاع أن ينتصر على خالد وقرنائه ورفقائه .. في غزوة الخندق كذلك .. ولقد أعدت قريش قوة ضاربة لم يسمع العرب بمثلها أبدا وكان المأمول أن هذه القوة ستقضي على المسلمين في لحظة واحدة .. إلا أن محمدا ابتكر طريقة بسيطة تتلخص في حفر الخندق انتزع بهذه الطريقة النصر من قريش وتوج نفسه بنصر تحدث به الغادي والرائح .. إنه يتذكر يوم أن خرجت قريش للحرب كانت على صورة أسد وعادت وهى تنتفض كالفأر .. كذلك صلح الحديبية وما حدث قبله والأسلوب الذي أتبع وهذه البراعة في كسب الموقف وبعد النظر .. كل ذلك جعل خالداً يستعرض شخصية محمد ﷺ وانتهى به الأمر إلى أنه معجب به وبأخلاقه التي لم يجدها في أي إنسان ومواهبه التي تفرد بها أضف إلى ذلك قيادة محمد الحربية والمدنية ففي ذلك فكر ونبوغ لم يكن لدى أي إنسان ...

خالد من الشخصيات الـتي تعشـق القتـال ويشـتاق دائمـا إلى ميـدان الحـرب وكانت روحه دائما هائمة تبحث عن المنـاورات الحربيـة لأنـه يتمـني أن يضـع تـاج النصر فوق رأسه وأن تنحني له الجباه كما يسمع عن الملوك العظام ، لكنه بـدأ يـدرك أنه مادام مع قريش فلن يلقي نصراً أبدا .. لذلك قرر أن يحسم الموقف ويتخـذ الـرأي الواضح ويعلن عما يعتمل في نفسه وليكن ما يكون فإن قريشا أصابها ما أصابها وباتت تتوجع من الضربات التي تلقتها من محمد رغم أنـها البادئـة والمعـدة وزمـام الموقـف دائما بيدها .. لكن الفشل في النهاية حليفها رغـم كـثرة العـدد وقـوة العـدة .. إذا .. فمحمد هذا مؤيد من السماء ووراءه سر خفي علينا .. ومثل خـالد لا يغيـب عقلـه ولا يفقد رشده .. إذا فليتخذ الموقف الذي يتفق مع شخصيته وليكن ما يكون ..

بينما كان خالد في تأملاته جاءته رسالة من أخيه تدعـوه إلى الإسـلام ويقـول له إن مثلك في حصافة رأيه تدرك أن الإسلام حق وأن محمدا صادق فيما يبلغ .. لهـذا فإنه بعدما تلقى الرسالة واستوعبها وعرضها على عقله وحلل مضمونها اقتنـع وقـرر أن يدخل في الإسلام ...

اسـلام خالد

لم أعثر فيما قرأت على ما يشير إلى أن خالدا كان متمسكا بأصول ديانته الوثنيـة كمـا يجب .. فلم نقرأ عنه أنه استقسم بالأزلام .. أو قدَّم قرابين إلى الآلهـة وإنمـا كـل مـا هناك .. تفكيره متجه إلى الحرب وما يعود به الإنسان من نصر يزهو به وغنائم تزيد من رأس ماله .. وفي لحظة .. لما أراد الله به خـيرا قـذف في قلبـه حـب الإسـلام وقـد حضره رشده .. ومن المعلوم أن أخاه الوليد بن الوليد أبلغـه أكـثر مـن مـرة في رسـائل متبادلة أن النبي ﷺ سأل عنه وقال :

(ما مثله يجهل الإسلام) لذلك قال في نفسـه .. أي شـيء بقـى لى الآن ؟ أيـن أذهب؟ إلى النجاشي ؟ وهو الذي أمَّن أصحاب محمد من قبل ...

وهل أترك ديني إلى النصرانية .. أم إلى اليهودية ؟ .. فأكون تابعـا للعجـم.. هذا شيء لا يليق بك يا خالد وأنت العربي الأصيل .. هل أقيم في داري وأبقي ما بقـي

لي من عمر فلا أغادر بلدي وداري ؟ وهل يليق بمثلي مثل هذا الموقف .. بدأ خالد يكلم نفسه وبدأت أذنه تسمع لسانه وما هي إلا لحظة حتي أشرق نور الإيمان في صدره ، وصدق الله العظيم (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ) [سورة الأنعام الآية ١٢٥] .. في نفس الليلة التي أشرقت فيها أنوار الإيمان في قلب خالد .. فكر في أن يصاحبه شخص إلى رسول الله ﷺ فاتجه فكره على الفور إلى .. (صفوان بن أمية) وهو زوج شقيقته وقريب إلى نفسه .. ففاتحه في الأمر من باب العرض ولم يخبره بما استقر عليه رأيه.. لكن صفوان رجل موتور يسعى بكل جهده ليأخذ ثأره ويقتل من قتل أبوه وأخوه ببدر .. لذلك رفض فكرة خالد فتركه وانصرف .. فلقى عكرمة بن أبي جهل.. وهما أصدقاء .. فعرض خالد على عكرمة أن يذهب معه إلى محمد فربما تطيب الحياة لهما هناك .. لكن عكرمة هو الآخر يطالب محمداً بثأر أبيه .. فلما رفض .. كتم هو ما في نفسه ورجع إلى بيته ولبس سلاحه ودرعه وامتطي فرسه وقال: أذهب أنا وحدي .. وفي الطريق تقابل مع (عمرو بن العاص) ، (عثمان بن طلحه) وعثمان هذا هو حامل لواء قريش في غزوة أحد .. وكانا هما الآخران في طريقهما إلى المدينة ، فلما رأوا خالدا وعرفا بنيته أخبراه هما الآخران أنهما خرجا لنفس الغرض ، وسار الثلاثة حتى وصلوا المدينة المنورة ودخلوها في أوائل شهر صفر من العام الثامن من الهجرة.. وذهبوا إلى بيت رسول الله ﷺ ولما أذن لهم بالدخول تقدم خالد وبايع النبي ﷺ ثم تبعه عمرو ثم عثمان .. وقد رحب النبي ﷺ بالرجال الثلاثة وغفر لهم عداءهم السابق للإسلام .. وعليهم من الآن أن يبدأوا صفحة جديدة مع المسلمين .. ولقد فرح المسلمون بانضمام هؤلاء الثلاثة إليهم .. لأن خالدا وعمروا من أكفأ القيادات الحربية... هذا والإسلام يُجِب ما قبله ويغفر الله ما سلف ..لهذا كان فرح خالد عظيم بعفو الله ورحمته ومغفرته له بعد هدايته...

عندما أسلم خالد .. كان في حدود الثلاث والأربعين سنة .. أي في مقتبل عمره .. وهى سن العطاء .. لأن السنين التي مرت عليه صقلته فيها التجارب التي تؤصل في الإنسان الكثير من القيم الأخلاقية وتؤصل فيه المبادئ التي يتمسك بها ويتعلم في مدرسة الحياة ما يؤهله للمستقبل .. ولقد فرح خالد فرحا شديدا وهو يمشي في شوارع المدينة لأنه بدأ يلتقي بأصدقائه الذين نسوا له ما كان بينه وبينهم من حزازات أثناء الصدام الحربي .. كما أن شوارع المدينة بدأ فيها نشاط على غير العادة لأن الكل تفاءل بإسلام خالد وزملائه .. وهناك دعوه لاستضافته كل يوم عند كبار القوم من المهاجرين والأنصار .. لذلك فرح خالد بكل هذه الحفاوة وراح في نفس الوقت يمارس شعائر الإسلام ويسأل عما خفي عنه فيجد الإجابة المريحة التي تقنع فكره وعقله وتدخل قلبه ... وفى نفس الوقت وجد في القرآن الكريم غذاء عقله ونور بصيرته وسرت فيه روح جديدة فشعر بالأمن النفسي والسمو الروحي ... في نفس الوقت كان خالد يكثر من زيارة الرسول ﷺ ويحاول دائما أن يكون بالقرب منه ينصت إلى حديثه لينهل من معين حكمة النبي ﷺ ويقتبس من فضائله وشمائله.. كما كان يتردد على بيت أم المؤمنين السيدة ميمونة زوجة النبي ﷺ فهى عمة خالد.. والعباس كذلك زوج عمته .. وكان الفضل بن العباس قريب السن من خالد فتوثقت بينهما صداقة قوية ، وذات يوم كان خالد والفضل في بيت عمة خالد وخالة الفضل (السيدة ميمونة أم المؤمنين رضي الله عنها) .. وكان أحد الأصدقاء من البدو قد أرسل هدية إلى النبي ﷺ عبارة عن (طعام معد للأكل) والنبي ﷺ كان من طبعه وعادته أن يستبقي ضيوفه ليشاركوه الطعام .. وقد مدت السيدة ميمونة الطعام على الأرض وجلس النبي ﷺ ومعه خالد والفضل والسيدة ميمونة وقد هَّم الرسول ﷺ بمد يده فقالت السيدة ميمونة يا رسول الله .. أتدري ما هذا ؟ قال .. لا .. قالت هذا لحم ضب.. وسحب النبي ﷺ يده من الطعام وقال.. هذا لحم لم آكله .. فقال خالد.. يا

رسول الله .. أهو حرام ؟ قال .. لا .. فكلوا أنتم .. كذلك السيدة ميمونة قالت .. أنا كذلك .. لا آكل من شيء لم يأكل منه رسول الله ﷺ .. لذلك أكل خالد والفضل حتى شبعا .. وكان عرب البادية يحبون لحم الضب المشوي .. وقد كان خالد يعايشهم كثيرا وهو في مكة لذلك أكل بشهية[1] ...

ذكريات

خالد وعمر بن الخطاب .. بينهما صداقة قوية .. كما كان بينهما تنافس في حلبة المصارعة أيام الشباب .. ومما لا شك فيه أن كل واحد منهما يشعر بإحساس بسيط بهذا التنافس القديم .. وهذا الإحساس يظهر في بؤرة اللاشعور بلا وعي من كل واحد منهما وليس متعمدا .. ولكنه إحساس ليس مصحوبا بنية فيها سوء .. خالد يدرك تماما أن عمر بن الخطاب أسلم مبكرا حيث كان ترتيبه الأربعون من المسلمين الأول.. وعمر شخصية لها قدرها الاجتماعي ووزنها وعندما أسلم لم يكن هذا الترتيب مدعاة للاعتزاز .. أما الآن وقد دخل ألوف الناس في الإسلام فإن ترتيبه في المسلمين ووضعه الاجتماعي بينهم وفراسته ورأيه وقوة شكيمته كل ذلك أهله اليوم ليكون له شأنه ومنزلته .. من هنا فإن المنافسة بينه وبين عمر لا تتفق أبدا .. وكان إذا حدثته نفسه عن عمر يرد على نفسه ويقول : أين أنا منه إنني أدخل الإسلام في هذه الأيام ولي وقفات مضادة أما عمر فهو من السابقين ومن أصحاب الهجرة بل يعد من وزراء الرسول ﷺ لهذا فذكريات الماضي يا خالد لابد أن تطوي صفحتها وعلى أن أعرف لعمر قدره ومنزلته لأنه ممن مدحهم الله بقوله ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر الآية ٨] ...

عاش خالد يحاول بقدر ما يمكن أن يمحو من ذاكرته الماضي بما فيه.. لذلك فهو حريص اليوم على أن تحتفظ ذاكرته بكل ما يراه في مجتمع المدينة من حب وإخاء وصفاء ونقاء ومودة ورحمة في مجتمع طاهر يقوده نبي كريم ... وحوله صحب

(١) طبقات ابن سعد جـ١ صـ١١١.

كريم كلهم إخلاص وبذل وتضحية وخالد يتشبه بهم ويجالسهم ويستوضح منهم ويجد منهم الحب والتسامح والإخاء

مع جند المسلمين

النبي ﷺ بعث برسالة إلى زعيم قبيلة (غسان) وهذه القبيلة كبيرة وقوية .. وكانت تقطن بلاد الشام والأردن .. وبينما حامل رسالة النبي ﷺ يمر بأرض مؤتة اعترض أحد كبار الغساسنة .. حامل الرسالة وقتله .. ومثل هذه الجريمة يستنكرها المجتمع العربي كله لأن الرسل لا تقتل تحت أي ظرف لأن حامل الرسالة هو بمثابة (الشخصية الدبلوماسية) أي أنه يتمتع بحصانة تحميه من أي هجوم عليه مهما كان العداء الذي بين هذا وذاك .. وعندما وصل الخبر إلى المدينة حدث رد فعل قوى.. كيف يكون هذا الاعتداء الغادر على شخص مسالم يحمل رسالة نبي عظيم ...

في الحال جهز النبي ﷺ سرية لمعاقبة المعتدي الباغي الأثيم وهذه السرية كانت تتألف من ثلاثة ألف رجل .. كان من بينهم خالد بن الوليد الذي اعتبر أن وجوده بين جند المسلمين فرصة ليدلل على ما يستطيع أن يفعله كجندي يجاهد في سبيل الدين الذي آمن به عن اقتناع ... وكل سرية لها قائد لذلك " أمَّر النبي ﷺ على هذه السرية زيد بن حارثة وأوصى الرسول ﷺ الجند أن زيداً لو أصيب فالرئيس جعفر بن أبي طالب .. فإن أصيب .. فعبد الله بن رواحة.. فإن أصيب فعلى المسلمين أن يتخيروا من بينهم من له مهارة وكفاءة[1].. " وسارت السرية في طريقها مرعية بعناية الله .. وكان هناك توجيه أن الرجل الذي قَتَل مبعوث النبي ﷺ يقتل بعد أن يقوم القائد بعرض الإسلام على أهل مؤتة .. فإن قبلوا الإسلام فلا قتال وإذا لم يقبلوا الإسلام فعليهم أن يدفعوا دية القتيل أو يسلموا القاتل لينال عقابه فإن لم يقبلوا ذلك فتكون الحرب .. وعندما اقتربت السرية من أرض مؤتة بلغتهم أنباء أنه لأول مرة يأتي إمبراطور الروم بنفسه ومعه مائة ألف جندي من الرومان .. انضم إليهم مائة

---

(١) ابن هشام جـ٤، صـ ١٥.

ألف عربي من الحاقدين على الإسلام واليهود والنصارى أغلبهم من غسان .. لذلك بقي المسلمون يتداولون الأمر ويتشاورون وكان طبيعيا أن يغشاهم التردد والانفعال ولقد اقترح بعضهم أن يتوقفوا عن مناوشة العدو ويبعثوا إلى رسول الله ﷺ يخبرونه بعدد قوة العدو وضخامة جيشه وينتظرون الأمر.. لكن عبد الله بن رواحة شعر أن الجند قد يتملكهم الخوف بسبب طول مدة المراسلة ويخلق شعورا بالإحباط عندهم .. لذلك بعد أن أدلى برأيه ألقى كلمة على مسامع الجند رفع بها من معنوياتهم واختتمها بقوله (يا قوم والله فأنكم خرجتم تطلبون الشهادة ونحن لا نقاتل الناس بعدد أفراد ولا قوة ولا كثرة متاع ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين .. إما ظهور وإما شهادة)[1] .. أثر هذا الكلام في نفوس المسلمين وارتفعت معنوياتهم وزال كل أثر للشك وراحوا يواصلون السير.. ووصلوا إلى مكان قريب من البلقاء وهى منطقة تقع شمال الأردن .. وهناك فوجئوا بقوة كبيرة من العرب النصارى .. ثم إن قائد جند المسلمين وصل إلى مكان يسمى مؤتة .. ولكن العرب النصارى تعقبوهم .. ودارت معركة غير متكافئة عند مؤتة.. ونظم زيد قواته حسب الأسلوب المعتاد وجعل للجيش جناحين وقلب.. وقد وضع على الجناح الأيمن قطبة بن قتادة وعلى الجناح الأيسر عباية بن مالك.. أما في القلب فقد بقي زيد على رأسه وخالد واحد من هذه المجموعة .. أما العرب النصارى الذين كانوا تحت إمرة مالك بن زافلة فقد تجمعوا في قوة جماعية واحدة وقد قدر بعض المؤرخين عدد هذه القوة بمائة ألف مقاتل .. بدأت المعركة وبدأ الجيشان وقتل زيد ابن حارثة وحمل اللواء جعفر بن أبي طالب القائد الثاني وواصل القتال وضرب على يده فأصيب بجرح عميق لكنه حمل العلم "اللواء" باليد الثانية فأصيبت كذلك .. فرفع اللواء بذراعيه على رأسه لكنه لقي مصرعه .. وعز على المسلمين موت جعفر وحدث ارتباك في صفوف المسلمين لكن عبد الله بن رواحة تقدم بسرعة وحمل اللواء وواصل القتال وقتل هو الآخر .. ورغم كل هذا وما حدث من ارتباك كبير في صفوف المسلمين فإن الشهامة العربية والبسالة الإسلامية استطاعت أن تصد العدو الذي لم

---

(١) ابن هشام جـ ٤ صـ ١٧.

يقدر على إنزال الهزيمة بالمسلمين ... لأن شعار كل مسلم إن عشت عشت سعيدا تحت راية الحق وإن قتلت فحولى الحور العين وفي جنة النعيم تبصرن .

ولقد تقدم رجل من المسلمين يسمي (ثابت بن أقرم) وحمل اللواء ثم رفع صوته وقال (يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم نوله القيادة) وقد أسرع باللواء إلى خالد بن الوليد الذي يعرف منزلته ومهارته في الكر والفر، وبعد نظره وقدرته على اتخاذ القرار .. ودفع الرجل اللواء إلى خالد لكن خالدا رفض اللواء ، لأنه كان يدرك أنه لم يصل بعد إلى هذه المكانة المرموقة بين المسلمين ، فهو قريب عهد بالإسلام أما ثابت بن أقرم فقد اعتنق الإسلام قبله .. لذلك قال خالد يا ثابت أنت أحق بهذا وردد المسلمون ذلك وراء خالد .. لكن ثابت بن أقرم أصر على أنه يرشح خالدا لمهارته الحربية وشجاعته الفائقة .. وعندئذ قال المسلمون كلمتهم ورشحوا لذلك خالدا الذي حمل اللواء وتولي قيادة الجيش[1]... إن موقف المسلمين كان قد تأزم وكل لحظة تمر عليهم يزداد الموقف سوءا رغم أن القادة الذين تولوا القيادة وحملوا اللواء أظهروا شجاعة فائقة ..وتولي خالد الإمارة في ظروف صعبة وقد وضع أمامه ثلاث نقاط :

١- إما أن ينسحب بالبقية الباقية من جيشه وينقذ المسلمين من الهلاك المؤكد لكنه استبعد هذا الرأي لأنه يجلب العار على الجنود المقاتلة وهم أبطال أدوا دورا رائعا بطوليا..فلا تكون هذه نهايتهم ...
٢- أيظل مكانه في موقف الدفاع وهو يرى أن عدوه يتفوق عليه في العدد والعدة ...
٣- أيقوم بهجوم مفاجئ على العدو ليحدث بين صفوفه ارتباكا وقلقا .. الأمر الذي يعطيه فسحة في الوقت كي يدرس الموقف بدقة ويخطط لطريق أفضل وعمل منظم.. إن القيادة فن وقدرة على العطاء والسرعة في اتخاذ قرار لا يتردد فيه ولا يتخاذل : وهذا هو خالد الذي تكشف الأيام قدرته وبطولته وقيادته وحسن تصرفه ..

(١) المرجع السابق جـ٤ صـ٢١.



خطة خالد

لقد استعرض خالد هذه الأمور ووجد أن الرأي الأخير هو الأقرب للصواب ويتفق مع طبيعة خالد في الحروب لذلك غير خطة من سبقوه فجعل الميمنة ميسرة والميسرة ميمنة وأمر الجند أن يعلنوا استرخاءهم وينشروا ملابسهم إيهاما للعدو بأن المسلمين استرخوا وهُزموا ولن يحاربوا وكان قد أرسل بكتيبة تثير الغبار إيهاماً للعدو كذلك بأن مداداً وصل للمسلمين ثم دارت المعركة ونظر العدو إلى وجوه جند المسلمين فوجدوهم غير من نزلوا معهم المعركة من قبل وكان خالد يقود الجند بمهارة فائقة وهجم بشراسة وبقوة على جند العدو وعلى طول جبهة القتال وازداد الموقف شدة وعنفا ودار قتال اشتبك فيه الطرفان بالأيدى واندفع قطبة بن قتاده قائد جناح المسلمين الأيمن يطالب المبارزة فخرج له قائد جند النصارى مالك بن زافلة وكانت المبارزة عنيفة انتصر فيها قائد جناح جند المسلمين وهلل المسلمون وكبروا وتقهقر العرب النصارى وقد ولوا الأدبار وكان خالد قد حطم ما يقرب من عشرة سيوف في قتاله الشرس فلما حدثت الفوضى والارتباك في جند العدو أوقف خالد القتال لأن الأمر أصبح لصالحه أما العدو فقد خسر خسارة كبيرة .. ونظر خالد إلى الأمر وعرف أن الموقف لا يبشر بالفوز للمسلمين وعلى خالد أن يضع خطة يتفادى هزيمة دموية منكرة وأن ينقذ جيش المسلمين من هذه النكبة .. لذلك اتخذ قراره بالانسحاب من المعركة والعودة إلى المدينة (ولم يكن في استطاعته أن يفعل إلا ذلك) وغادر مؤتة متوجها إلى المدينة ...

في المدينة

وصلت أنباء هذه المعركة وما حدث فيها إلى المدينة التي عمها الحزن على فقد خيرة الرجال في نفس الوقت كان الغضب ظاهر على وجوه أهل المدينة .. ولقد استقبل أهل المدينة الجيش القادم بقيادة خالد بموجه من الغضب وبدءوا يحثون عليهم التراب ويقولون لهم (يا فرار فررتم في سبيل الله) .. لكن رسول الله ﷺ بعد ما سمع ما

حدث والدافع وراء قرار خالد وأنه حقق مصلحة عظيمة للمسلمين حيث حقن دماءهم لهذا فأن رسول الله ﷺ منع المسلمين من ترديد كلمة فرار وقال بل هم (الكرار إن شاء الله تعالى) [1]...

وسام تقدير

كانت موقعة مؤتة التي انتهت بهذه الصورة ورجحت كفة الروم .. لأن المسلمين انسحبوا من الميدان وتركوه لهم .. فأن هذه المعركة ليست بذات أهمية بالغة ولم تكن معركة كبيرة إلا أنها على كل حال أتاحت لخالد فرصة أظهر فيها مهارته الفائقة في دقة التخطيط وبسرعة كما أنها أظهرت قدرته كقائد مستقل الأمر الذي استبان للمسلمين في المدينة بعد فترة وأدركوا حكمة خالد وحسن تقديره للأمور وبقيت في مخيلة خالد ما حدث في مؤتة وما استقبله به المسلمون ثم ما طرأ من تحول في أفكار المسلمين تجاه خالد خاصة وأنهم سمعوا من النبي ﷺ بأن العائدين ليسوا بفرار ولكنهم كرار .. وانتشي خالد بعد أن سمع هذه الكلمة التي زادت ثقته في نفسه ورفعت من روحه المعنوية .. ولكن غطى على ذلك كله هذا الوسام العظيم الذي منحه النبي الكريم لخالد بن الوليد على بطولته وشجاعته .. هذا الوسام الذي ظل محفورا على جبين الزمن وفي أعماق التاريخ لتعرف الأجيال القادمة (أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا) هذا الوسام هو قوله النبي ﷺ لخالد (أنت سيف الله) هذا اللقب الذي رفع قدر خالد في الأولين والآخرين وأبان لنا عن شخصيته فأصبح يزهو بذلك لكنه في قمة التواضع دائما زهو الفرح برضاء رسول الله ﷺ عنه .. وهذه منزلة عالية ومكانة سامية نالها خالد بحسن بلائه وسرعته في اتخاذ القرار المناسب .. وإن كانت هذه أول معركة له في الاسلام يخوضها تحت راية الحق إلا أنه استطاع أن يكسر عشرة سيوف على الجند الذين هم أعداء الله وأعداء رسوله .. وبمثل حكمة (سيف الله) يفرح الإنسان ويهنأ ...

---

(١) ابن هشام جـ٤ صـ٢٤.

بدأ العرب في مكة يراجعون كشف حسابهم مع نبي الإسلام ﷺ طوال السنوات الماضية .. لأنهم رأوا أن محمدا ﷺ الذي خرج من مكة مطاردا قد استقر له الأمر.. ولا شك أن كل الجولات الحربية التي قام بها أهل مكة ضده .. والمناورات السياسية التي سلك بها العرب كل وسائلهم فقد باءوا بالفشل .. وأدي ذلك إلى نجاح محمد ﷺ.. الأمر الذي جعل اسمه يتردد بالإعزاز والإكبار حتى بين الأعداء.. بل انضم إليه العديد من أصحاب الرأي وأصحاب الفكر والسيف .. وإذا كانت المعاهدة التي وقعت في صلح الحديبية قد أجازت لأي قبيلة من القبائل أن تنضم إلى أي طرف فيكون لها نفس الشروط .. فقد انضمت قبيلة خزاعة إلى المسلمين.. وانضمت قبيلة بني بكر إلى قريش .. وكان بين القبيلتين ثأر قديم .. وكان الظن أن صلح الحديبية سوف يفرض السلام على كل الأطراف .. إلا أنه للأسف .. قامت قريش من جانبها بمد قبيلة بني بكر سرا بالسلاح .. كما دفعت بعدد من رجالها المقاتلين منهم عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية ..وقامت قبيلة بني بكر بالهجوم المفاجئ على قبيلة خزاعة فقتلوا منهم عددا .. لذلك أسرعت قبيلة خزاعة بإبلاغ رسول الله ﷺ بما حدث لأن هذا الهجوم يتنافى مع البند الرابع الذي وضع في معاهدة الصلح وطلبوا منه ﷺ أن يساعدهم للأخذ بثأرهم .. علم أبو سفيان بتحرك وفد قبيلة خزاعة وخشي من انتقام المسلمين لحلفائهم .. لذلك سارع إلى المدينة ليفاوض النبي محمدا ﷺ ويقدم إليه الاعتذار.. وأبو سفيان له ابنة صالحة كانت قد أسلمت وهاجرت إلى الحبشة وتنصر زوجها هناك وتزوجها النبي ﷺ وأصبحت من أمهات المؤمنين لها مكانة مرموقة لسابق إسلامها ووفائها لدينها وإخلاصها للإسلام هذه السيدة الفاضلة (أم حبيبة) سمعت طرقا على باب بيتها ففتحت فإذا به أبوها أبو سفيان فلم تحسن استقباله لأنه هو الذي يقود جيش الأعداء ويحارب الزوج الكريم .. لذلك توجه أبو سفيان إلى النبي ﷺ بعد أن رفض أصدقاؤه من الصحابة أن يساعدوه في مهمته حتى قال له عمر بن الخطاب ﷺ (أأنا أشفع لكم عند رسول الله ﷺ .. والله لو لم أجد إلا

الذر لحاربتكم به)[١] .. ثم ذهب إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه وقال له يا على إنك أمس القوم بي رحماً وإني قد جئت في حاجة فلا أرجعن كما جئت خائباً فاشفع لي إلى رسول الله ! ! فقال على .. ويحك يا أبا سفيان .. والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه .. فالتفت أبو سفيان إلى فاطمة الزهراء وقال .. يا بنت محمد هل لك أن تأمري بنيك هذا (يقصد الحسن) وكان غلاماً يدب بين يديها فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر .. قالت .. والله ما بلغ بُنى ذاك أن يجير بين الناس وما يجير أحد على رسول الله ﷺ [٢] .. قال أبو سفيان .. إني أرى الأمور قد اشتدت على فانصحنى / يوجه الكلام إلى الإمام على / قال والله ما أعلم لك شيئا يغنى عنك شيئا ولكنك سيد بنى كنانة قم فأجر بين الناس ثم ألحق بأرضك .. قال .. أو ترى ذلك مغنيا عنى شيئا؟ قال .. لا والله .. ما أظن ولكنى لا أجد لك غير ذلك[٣] ...

الواقع أن هذه النصيحة من الإمام على يمكن أن تفسر على وجوه .. لكنها مع ذلك منحت أبا سفيان بعض السكينة والطمأنينة وقد عاد أبو سفيان إلى مكة وهو واثق من أن أمرا خطيرا يخطط له النبي ﷺ .. ولقد رأى أبو سفيان بعينيه مقدار حب الصحابة لرسول الله ﷺ حتى ابنته أم حبيبة التي لم تسمح له بالجلوس على فراش رسول الله ﷺ فعندما أراد أن يجلس طوت الفراش عنه .. فقال لها أرغبت بى عن هذا الفراش أم رغبت به عنى ؟ فما كان رد ابنته عليه إلا أن قالت .. إنه فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك نجس ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ فقال لها .. والله لقد أصابك يا بنية بعدى شر[٤] .. بعدما رأى أبوسفيان ما يتمتع به الرسول ﷺ من حب وتقدير من أتباعه على اختلاف مستوياتهم لذلك عاد إلى مكة وهو يفكر في أمر لم يفصح عنه...

---

(١) ابن هشام جـ٤ ، صـ٣٧ وما بعدها.

(٢) المرجع السابق صـ٣٨ ، ٣٩.

(٣) المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق.

كان النبي ﷺ يجهز حملة كبيرة على عجل .. والغرض من ذلك مباغته أهل مكة حتى لا يكون هناك حرب .. ولذلك كان هناك تعتيم على الأخبار وتكتم لما يجرى .. وكان التجهيز الذي يتم على أعلى مستوى وفيما كانت عملية حشد الجيش تجرى على قدم وساق وفي تكتم وحذر بلغ النبي ﷺ .. أن حاطب بن أبى بلتعة كتب كتابا إلى قريش يخبرهم فيه بما يجرى في المدينة من الاستعدادات وأن الرسول ﷺ سوف يسير إليهم .. وقد سلم حاطب هذا الخطاب إلى امرأة وأمرها أن تحتفظ به في مكان لا تصل إليه يد أحد حتى يصل الخطاب إلى قريش فجعلته في عقائصها (دفائرها) ثم خرجت من مكة .. ولقد علم النبي ﷺ بهذا الموضوع فبعث النبي ﷺ خلفها (على بن أبي طالب والزبير بن العوام) وقال لهما أدركا أمرأة قد كتب معها حاطب بن أبى بلتعة كتابا إلى قريش يحذرهم ما قد أجمعنا له في أمرهم .. فأدركاها.. فالتمسا الخطاب في رحلها فلم يجداه .. فقال لها على إني أحلف ما كذب رسول الله ﷺ فأخرجي الخطاب وإلا .. فلما رأت الجد منه أخرجت الخطاب ودفعت به إليهما "فلما عادا إلى رسول الله ﷺ دعا حاطبا وقال.. ما حملك على ذلك ؟ قال .. يا رسول الله أما والله إني لمؤمن بالله ورسوله ما غيرت ولا بدلت.. ولكني كنت امرءاً ليس لي في القوم من أصل ولا عشيرة فصانعتهم .. فوقف عمر بن الخطاب وقال .. يا رسول الله .. دعني أضرب عنقه فقال .. لا .. إن حاطبا من أهل بدر وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أصحاب بدر يوم بدر فقال .. اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم.. وحول هذه القصة نزل قول الله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ)[الممتحنة الآية ١] .. اتخذ الرسول ﷺ قراره بالتوجه إلى مكة وبدأ التحرك من المدينة في شهر رمضان من العام الثامن للهجرة .. وفي مسيرة الرسول ﷺ بالجيش انضم إليه بعض القبائل لذلك زاد عدد جيش المسلمين عن عشرة آلاف مقاتل ووصل النبي ﷺ بجيشه إلى (حر الظهران) وهو واد صغير يبعد عن مكة بنحو عشرين

ميلا ولم تشعر قريش بتحرك الجيش الإسلامي حيث كان التكتم الشديد.. كان العباس عم النبيﷺ من الشخصيات العظيمة .. وقد تأخر إسلامه حتى هذه اللحظة.. وقد شرح الله صدره للإسلام فقرر أن يغادر مكة ويتوجه إلى المدينة ليعلن إسلامه بين يدي رسول الله ﷺ .. ولم يكن يعلم بتحرك جيش المسلمين من المدينة إلى مكة . ولهذا فقد التقي برسول الله ﷺ في الطريق .. وقد اغتبط النبي ﷺ لإسلام العباس وعياله .. علما بأن العلاقة كانت طيبة جدا حيث كان العباس يبعث إلى النبيﷺ بكل ما يجري في مكة من أخبار وآراء .. والعباس عندما عرف بوجهة النبيﷺ ساوره قلق شديد وخوف على مصير أهل مكة لذلك استأذن النبي ﷺ أن يبعث إلى قريش من يحذرهم من أي مقاومة بل عليهم أن يستسلموا حتى لا تهلك قريش .. وبينما هو متجه لمكة تقابل مع أبي سفيان الذي خرج ليتحسس الأخبار ولما التقيا قال له ويحك يا أبا سفيان هذا رسول الله ﷺ في الناس .. فقال أبو سفيان .. فما الحيلة ؟ فداك أبي وأمي .. قال العباس والله لإن ظفر بك ليضربن عنقك فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي رسول الله ﷺ فاستأمنه لك .. ودخل أبو سفيان خلف العباس إلى معسكر المسلمين بعد منتصف الليل بقليل .. وكان عمر في هذه الليلة على رأس حراسة الجيش وكان يطوف بالمعسكر لينبه على الحراس أن يكونوا في يقظة تامة وقد رأي عمر العباس وأبا سفيان فوجه الكلام إلى أبي سفيان .. وقال له (عدو الله الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد) ثم اتجه مسرعا إلى خيمة رسول الله ليطلب الإذن من النبي ﷺ بضرب عنق أبي سفيان لأنه العدو الأول للإسلام والمسلمين .. لكن العباس أدرك وأعلن أنه أجار أبا سفيان وفكر النبي ﷺ قليلا ثم طلب منهم الانصراف والعودة في الصباح ...ولقد مرت هذه الليلة على أبى سفيان وهو في حالة توجس وتخوف .. ثم هو رجل قريش الأوحد الذي يحكم مكة الآن وهو سيد قريش وواحد من قادتها وسادتها .. لذلك فهو يحظى باحترام أهلها وإجلالهم له.. لكن.. أتمر عليه هذه الليلة بهذا الوصف.. وفي الصباح ذهب العباس بأبي سفيان إلى رسول الله ﷺ وأبو سفيان الآن في موقف ضعف وتخاذل .. فهو الذي طالما جند الجنود وحزب الأحزاب وقاد الجيوش لمحاربة هذا النبي العظيم .. لذلك وقف

أبو سفيان وهــو في حالــة ذعـر وذل واضطـراب .. لكـن الرسـول ﷺ بلطفـه وحلمـه وتسامحه تلطف بـه .. وقال له (ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله .. فقال أبو سفيان .. بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك .. والله لقد ظننت أنه لو كان مع الله إله غيره ما أغني عني شيئا بعد.. قال ويحك يا أبا سفيان ألم يـأن لك أن تعلم أني رسول الله ؟ قال بأبي أنت وأمي مـا أحلمـك وأكرمـك وأوصلـك .. أمـا هذه والله ففي النفس منها حتى الآن شيئا فقال له العباس ويحك .. أسـلم واشـهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله قبل أن تضرب عنقك ، فشهد شهادة الحـق فأسـلم .. قال العباس : يا رسول الله .. إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئا .. فقال النبيﷺ نعم .. من دخل دار أبى سفيان فهو آمن .. ومن أغلق عليه بابه فهو آمن .. ومن دخل المسجد فهو آمن .. ولقد فرح أبو سفيان بهذا لأنه اعتبر هـذا تكريمـا مـن محمد له .. وسارع أبو سفيان إلى مكة وفي نفسه شئ رغم حلاوة التكريم إلا أنه مازال يذكر أن ابنته (زوجة النبي العظيم) لم تحسن استقباله .. بل رفعت الفرش حتـى لا يجلس عليه وهى تنظر إليه شذرا وتقول له (هذا فراش حبيبي الطاهر) ولا يجـوز لمثلك أن تجلس عليه .. لقد اختلطت الأمور في ذهن أبي سفيان لكنـه أفـاق .. وعندمـا رأى الناس يجتمعون حوله يستطلعون الخبر الذي جاء به من عنـد محمـد .. فصـرخ فيهم بصوت عال (يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به فمـن دخـل داري فهو آمن) ونظر الناس إليه بسخرية وتساءلوا في حيرة .. وما تغني عنا دارك ؟ فأجاب أبو سفيان ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن .. انصرف الناس مسرعين كل يريد أن يصل إلى مكـان آمـن .. إلا هنـداً زوجـة أبـى سـفيان فقـد وثبت عليه كالقط المفترس وصفعته على وجهه بشدة وأمسكت بشاربه ونـادت بـأعلى صوتها (اقتلوا الحميت الدسم الأحمس قُبحَ من طليعة قـوم)[1] ، وذهـل أبـو سـفيان مما سمع من هند زوجته لكنها كانت من الشخصيات الـتي لا يسـتهان بـهـا .. لذلـك تخلص منها بالمراوغـة وأسـرع بـالدخول إلى بيتـه.. إن المسلمين استمعوا إلى صـوت

(١) بتصرف من ابن هشام جـ٤ صـ٤٧.

نبيهم ﷺ وهو ينهاهم عن الحرب ويؤكد على أن اليوم هو يوم الرحمة الشاملة يوم العفو والتسامح ..

وكان الأمل ألا يجد المسلمون مقاومة عند دخولهم إلى مكة .. وقسم النبي ﷺ الجيش إلى أربع فرق كل فرقة تدخل من طريق لأن الطرق الموصلة إلى مكة آنذاك أربعة .. وعلى رأس كل فرقة قائد وقد انضم النبي ﷺ إلى الفرقة التي يرأسها أبو عبيدة بن الجراح .. والفرقة الثانية يقودها الزبير بن العوام .. والفرقة الثالثة يقودها علي بن أبي طالب والفرقة الرابعة يقودها خالد بن الوليد.. وتحركت هذه الفرق وقد أعدوا عدة تستهدف تشتيت العدو وشل حركته ومباغتته لأن المسلمين في نيتهم عدم القتال .. لكن قريشاً كانت قد حشدت حشدا من بعض القرشيين ومن القبائل المجاورة لمكة .. وعلى رأس هذا الحشد عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية

وقد حاول عكرمة وصفوان رسم خطة لتحقيق نصر على المسلمين لكن القدر جعلهما يلتقيان بسرية خالد بن الوليد عند (الخندمة) وعندما رأي خالد .. أعز أصدقائه وأخلص أصفيائه (عكرمة) مع صفوان زوج أخت خالد على رأس هذا الحشد حدث عنده رد فعل .. ماذا يفعل ؟ لكنه سرعان ما تنبه وعرف حقيقة مؤكدة أن الإسلام أبطل كل صداقة أو قرابة بين المسلمين والكافرين وألغى كل علاقة تقوم على غير الدين .. وقضى ألا يكون لغير المسلم حق على أي مسلم كان عليه له فيما مضي من الأيام.. وبينما خالد سابح في فكره إذ بقريش تطلق سهامها وتشهر سيوفها فاستجمع خالد قوته وهجم بسريته على حشد المشركين .. وبعد ملحمة صغيرة تراجعت قريش بعد أن سقط من رجالها اثنى عشر قتيلا مقابل رجلين من المسلمين وألقي عكرمة وصفوان أسلحتهما وهربا من مسرح المعركة ..

من الأمور المؤكدة النبي ﷺ يعلم أن خالداً فيه حدة طبيعية .. ولقد خشي النبيﷺ من أن يخلق خالد معركة .. لذلك عندما عرف بما حدث من خالد وعرف بعدد القتلى من الكفار غضب غضبا شديدا وأرسل إلى خالد وطلب منه تفسيراً لما حدث.. وشرح خالد الأمر على حقيقته وأنه كان في حالة دفاع .. فقبل النبيﷺ تفسير خالد لما فعل .. لأنه كان بصدد صد هجوم كان المسلمون هدفه ... وصحح

النبي ﷺ لخالد عبارته التي قالها اليوم يوم الملحمة فقال النبي ﷺ بل اليوم يوم المرحمة ..

دخل المسلمون مكة وذهب النبي ﷺ إلى الكعبة وطاف بالبيت .. وكانت لحظة رائعة فريدة لأن النبي ﷺ ومن معه من المؤمنين مضت عليهم سبع سنوات في دار الهجرة التي هاجروا إليها وتعقبتهم قريش لترتوي من دمائهم .. وهاهم المسلمون اليوم يقف سيدهم وسيد العالم أجمع "محمد بن عبد الله" تنحني له رؤوس أهل مكة جميعا الذين عمهم الخوف وانتابهم الفزع وقد وقفوا يحنون رؤوسهم.. وهم في حالة ترقب مشوب بالخوف والفزع لأن شريط الذكريات يمر أمام أعين أهل مكة وحلفائهم .. لقد عذبوا المسلمين وحاصروهم حصار مقاطعة اقتصادية واجتماعية وسياسية ولم يكتفوا بذلك بل قتلوا بعض المسلمين وامحوا ديارهم وسلبوا أموالهم ثم تآمروا على قتل النبي ﷺ فكانت الهجرة ثم تعقبوهم في المدينة وجمعوا الجموع لحربهم وحزبوا الناس ضدهم وهاهم اليوم .. انتصر المسلمون رغم قلة العدد والعدة ونظر النبي ﷺ إليهم وهم في صمت .. وقال لهم (يا معشر قريش ما تظنون أني فاعل بكم ؟ .. قالوا .. خيرا أخ كريم وابن أخ كريم.. فقال لهم إذهبوا فأنتم الطلقاء)[1] .. ولقد حطم النبي ﷺ الأصنام التي كانت تحيط بالكعبة وهى حوالى (ثلاثمائة وستون صنماً) قد نحتت من حجر أو خشب .. كانت هناك صورة للنبي إبراهيم وفي يده الأزلام يستقسم بها .. لقد حطم النبي ﷺ كل هذا وهو يقرأ (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً) [الإسراء ٨١] ..

إهدار دم

كان النبي ﷺ قبل دخوله مكة أعلن عن أسماء عشرة أشخاص ستة رجال.. وأربع سيدات .. وطلب ممن يقابل واحدا منهم أن يقتله حتى ولو تعلق بأستار الكعبة لأن هؤلاء العشرة ماضيهم مؤلم .. لأنهم أسهموا بنصيب وافر في تعذيب المسلمين.. وبعضهم كان قد أسلم ثم ارتد .. وبعضهم من الذين خانوا المسلمين .. وهؤلاء نطلق

(١) ابن هشام جـ٤ صـ٥٥.

عليهم بلغة العصر بأنهم (مجرموا حرب) .. وكان على رأس هؤلاء العشرة عكرمة بن أبى جهل وهند زوجة أبي سفيان .. لكن عكرمة عندما انسحب من أمام خالد انسل هاربا إلى اليمن .. لكنه عدل عنها واتجه إلى جدة كي يركب البحر ليذهب إلى الحبشة .. وكانت زوجته قد أسلمت وطلبت من النبيﷺ أن يعفوا عن زوجها فلما استأمنت له لحقت به وعادت به إلى مكة قبل أن يركب السفينة إلى الحبشة وأخبرته بعفو النبي ﷺ عنه .. ولما دخل عكرمة مكة ذهب إلى رسول الله ﷺ فورا ووقف أمامه يقول (يا رسول الله ﷺ إني أسألك أن تغفر لي كل عداوة عاديتها أو سَيْر سِرْتُ فيه ضدك أو مقام لعنتك فيه أو كلام قلته في وجهك أو وأنت غائب عنه) .. فقال رسول الله ﷺ (اللهم اغفر له كل عداوة عادانيها وكل مسير سار فيه إلى موضع يريد بذلك المسير إطفاء نورك فاغفر له ما نال مني من عرض في جهى أو وأنا غائب عنه)[1] .. ولقد حسن إسلام عكرمة وانضم إلى جند الإسلام وأصبح له بعد ذلك شأن عظيم .. أما صفوان بن أمية فلم يكن معدودا من بين مجرمي الحرب ورغم هذا فر هاربا إلى جدة وكان ينوي أن يركب البحر إلى الحبشة .. لكن أحد أصحاب صفوان طلب له الأمن من رسول الله وأمن النبيﷺ صفوان .. وذهب هذا الصديق إلى صفوان في جدة وعاد به .. ولما وقف صفوان أمام الرسول ﷺ قال يا رسول الله .. إن هذا (وأشار إلى صديقه) يزعم أنك قد أمنتني .. فقال رسول الله ﷺ صدق فقال صفوان فاجعلني فيه بالخيار شهرين (يعني لا أريد أن أدخل في الإسلام إلا بعد شهرين) فقال الرسولﷺ (أنت في الخيار فيه أربعة أشهر) .. وهذا يدل على سماحة الإسلام وبعد نظر النبي ﷺ ..

خالد ومهام ما بعد الفتح

استقر الأمر بالنبي ﷺ في مكة .. فبعث بخالد بن الوليد ومعه ثلاثين فارسا إلى مكان يسمى (نخلة) لأنه في هذا المكان صنمان للعزى .. واحد حقيقي والآخر غير حقيقي .. وذهب خالد وحطم الصنم غير الحقيقي وظن أنه أنهى مهمته على خير

(١) الواقدي جـ٢ صـ٨٥٢.

وعاد إلى النبي ﷺ وأبلغه بإتمام مهمته .. فسأله .. هل رأيت شيئا ؟ فأجاب خالد.. لا .. فقال النبي ﷺ فارجع فاهدم الصنم الحقيقي .. وأحس خالد أنه ارتكب خطأ لأنه لم يؤد مهمته بالتمام وذهب إلى (نخلة) حيث عثر على العزى الحقيقية .. وكان سادنها قد علق سيفه حول عنق العزى وطلب منه أن يدافع به عن نفسه .. وقد فر السادن طلبا للنجاة .. ولما دخل خالد المعبد فوجئ بامرأة حبشية عارية تعترض طريقه وهي تصيح وتولول .. وفكر خالد في أمر هذه المرأة .. لماذا تفعل ذلك .. أتريد أن تغويه وتغريه أو لتحمي الصنم من غضبه .. لكن خالدا عُرف عنه حدة الطبع ولم يعرف الطريق الوسط إطلاقا .. لذلك أخرج سيفه من غمده وضرب المرأة ضربة قوية شطر جسدها إلى نصفين .. ثم حطم الصنم وعاد إلى مكة ونقل إلى النبيﷺ ما رآه وما فعله .. فقال النبيﷺ تلك (العزى) ولا تعبد العزى بعد اليوم [1] ..

بعد ذلك أرسل النبي ﷺ سرية تتألف من (ثلاثمائة وخمسين فارسا) على رأس هذه السرية خالد .. وقد وجههم النبي ﷺ إلى تهامة جنوبي مكة .. وكان هدف هذه السرية الوصول إلى (يلملم) .. ولما وصل خالد إلى (الغميصاء) وهي في الطريق إلى (يلملم) كان في المنطقة قبيلة (بني جذيمة) وقد أشهروا سيوفهم لما رأوا المسلمين وقالوا لخالد (نحن من المسلمين .. وعندنا مسجد نقيم فيه الصلاة) فسألهم خالد عن السبب في لجوئهم إلى السلاح ؟ فقال زعيمهم .. بيننا وبين بعض العرب تارات وأن الواجب يفرض علينا أن نكون دائما على أهبة الاستعداد للدفاع عن أنفسنا.. فقال لهم خالد ضعوا السلاح..

لكن أحد رجال بني جذيمة صاح قائلا (ويلكم يا بني جذيمة إنه خالد ووالله ما بعد وضع السلاح إلا الأسر .. وما بعد الأسر إلا ضرب الأعناق ووالله لا أضع سلاحي أبدا)[2] .. لقد كان هناك ثأر قديم بين قبيلة خالد وهذه القبيلة في أيام الجاهلية .. لكن الناس اتجهوا إلى الذي صاح فيهم ودخلوا معه في جدال لماذا يحذرهم من خالد وهم قد أسلموا وقالوا له (أتريد أن نسفك دماءنا ؟ والناس قد

---

(١) تاريخ الطبرى جـ٣ صـ٦٥.

(٢) ابن هشام جـ٤ صـ٧١.

أسلموا ووضعت الحرب أوزارها وأمن الناس على أنفسهم)[1] .. وقد استجاب الناس واستسلموا ووضعوا السلاح ...

لكن أمرا رهيبا حدث لم يعرف سببه بوضوح .. فإن القوم عندما وضعوا سلاحهم أمر خالد بأن توثق أيديهم وأن يقتل الرجال كلهم بحد السيف ولقد قتل عدد لم يتم حصره .. ولقد احتج عبد الله بن عمر الذي كان بين الناس وكذلك أبو قتادة .. لكن خالدا لم يسمع لكلامهم .. لذلك ركب أبو قتادة فرسه وعاد إلى مكة ليخبر النبي ﷺ بما فعل خالد ...

عندما سمع النبي ﷺ بهذا الخبر جزع ورفع يديه إلى السماء وقال (اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد)[2] .. وبدأ النبي ﷺ يضع خطة ترتكز على أمرين :

١- أرسل في طلب خالد على الفور ليبرر أمامه عن سبب فعله هذا .. وعاد خالد الذي برر هذا العمل أنه قتلهم في سبيل الله لأنه لم يقتنع بصدق إسلامهم .. لكن رد على خالد عبد الرحمن بن عوف وقال له عملت بعمل أهل الجاهلية .. وأراد خالد أن يبرر هذا الموقف فرد عليه ابن عوف قائلاً (إنما ثأرت لأبيك) لأن هذه القبيلة كانت قد قتلت أباه .. لذلك رد عبد الرحمن قائلا .. كذبت .. لقد قُتِل قاتل أبي .. لكنك يا خالد ثأرت لعمك الفاكه بن المغيرة .. وكانت هذه القبيلة قد قتلت عم خالد في الجاهلية .. اشتدت المناقشة بين خالد وعبد الرحمن بن عوف وهو له مكانة عند رسول الله ﷺ لأنه أحد العشرة المبشرين بالجنة وله سبق في الإسلام ، لذلك حسم النبي ﷺ الموقف ، وقال بعنف وشدة لخالد الذي رفع صوته على عبد الرحمن (مهلا يا خالد دع عنك أصحابي فوالله لو كان أحدٌ ذهبا ثم أنفقته في سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابي ولا روحة)[3] .. إن خالداً صحابي كذلك .. لكن النبي ﷺ يشير بذلك إلى الصحابة الأوائل السابقون إلى الإسلام .. ولقد تعلم خالد درسا أنه لا يسامي الصحابة الأولين مكانة فالسابقون

---

(١) تاريخ الطبرى جـ٣ صـ٦٧.
(٢) ابن هشام جـ٤ صـ٧٣.
(٣) ابن هشام جـ٤ صـ٧٤.

السابقون ثم إن عبد الرحمن هو من هو في العطاء والبذل والفداء والتضحية .. لذلك بدأ خالد يعيد حساباته ولزم مكانته.. ولقد عفا عنه النبي ﷺ بعد أن لقنه درسا في هذا المضمار ...

٢- أرسل النبي ﷺ عليا بن أبي طالب بمال كثير وكلفه أن يعمل على تهدئة الخواطر وأن يمتص غضب بني جذيمة وأن يهدأ من روعهم ويدفع دية كل قتيل بسخاء .. وقام على بن أبي طالب رضي الله عنه بأداء المهمة على خير وجه وكان كريما في العطاء مبينا للقوم عدم موافقة النبي ﷺ على ما فعله خالد، وبعد أن أرضي القوم رجع إلى النبي ﷺ فأخبره بما فعل ولم يعد من هناك إلا وقد أدخل الأمن على نفوس القوم ورفع على رؤوسهم راية السلام .. لذلك فهو قد اطمأن عليهم وهم الآن آمنون ... وفي التاريخ تبرير لما حدث من خالد.. لكن ذلك حدث وقد اجتازه المسلمون لأنهم يعرفون أن خالدا ربما يكون قد نزع إلى حب الانتقام ومبعث ذلك وفرة في الحماس عنده للإسلام حيث استولى الشك على نفسه بأن هؤلاء ما دخلوا في الإسلام .. المهم عفا الرسول ﷺ عنه وعادت الأمور إلى مسارها الطبيعي ...

خالد وغزوة حنين

استقرت الأمور في مكة المكرمة بعد أن بايع أهلها النبي محمداً ﷺ وعادت الحياة إلى مجراها الطبيعي وانصرف الناس كل إلى عمله .. لكن أخبارا غير مطمئنة جاءت إلى القيادة العظيمة المتمثلة في شخصية سيدنا محمد ﷺ وكان ذلك في شهر شوال من السنة الثامنة للهجرة ...

خلاصة الأخبار

جاءت الأخبار تحمل في طياتها أن قبيلتا (هوازن وثقيف) بدأتا تتجمعان وبدأ يظهر بينهما تحالف على ضرب الإسلام والمسلمين .. ومن المعلوم أن قبيلة هوازن تقطن في المنطقة الشمالية الشرقية من مكة وأن قبيلة ثقيف تسكن الطائف فهما متجاورتان ..

وقد دب الخوف إلى القبيلتين من المسلمين بعد أن انتصر المسلمون على قريش .. لذلك تحركت وفود من القبيلتين إلى القبائل المجاورة وجمعوا منهم بعض العناصر وأصبح هناك تحالف بين الجميع يشبه تحالف الأحزاب أيام غزوة الخندق ، وحدث اجتماع بين كل الأطراف في مكان يسمى (أوطاس) وهو قرب منطقة حنين وبعد التشاور اتفقوا على شن هجوم عاجل على المسلمين ليستفيدوا من عنصر المبادرة .. وقد اختاروا من بينهم (مالك بن عوف) ليكون قائدا ، وقد عرف هذا الشخص بشجاعته وبسالته وقدرته الفائقة في التخطيط الحربي رغم أنه لم يتجاوز الثلاثين من عمره .. وأمر هذا القائد أن على كل جندي يأتي إلى المعركة معه نساؤه وأبناؤه وأمواله حتى الحيوانات التي لا تستعمل في الحرب عليهم أن يجيئوا بها وقد احتشد من الجند حول هذا القائد أكثر من اثني عشر ألف رجل ومعهم النساء والأطفال والأموال والحيوانات ...

المستشار

أثناء اجتماع هؤلاء للتخطيط للمعركة اختار المجتمعون (دريد بن الصمة) مستشارا لأنه كان قائدا محنكا وبطلا مغوارا وشجاعا مقداما إلا أنه كان قد تقدم في السن مما أفقده بعض الحيوية والنشاط والإقدام وهذه أمور لابد منها لقيادة الجيش.. لكن قومه كانوا دائما يحبون منه أن يصحبهم أناً ذهبوا ليسألوه النصيحة والمشورة لأنه كان من الرجال الذين حنكتهم التجارب وعركتهم الأحداث .. وكان هو حليما ذا رأي راجح وكانت آراؤه في شئون القتال حاسمة متفقة مع منطق الواقع وميدان المعركة .. عندما تحرك الجيش ليحتل مكانا في (أوطاس) سمع (دريد) بالجلبة والصخب اللذين يصاحبان عادة أي تجمع .. لكنه سمع نهيق الحمير وبكاء الأطفال الصغار .. فأرسل دريد إلى مالك يسأله .. ما هذا الذي أسمع ؟ رغاء البعير ونهيق الحمير ويعار الشاة وبكاء الصغار ؟ ، فقال مالك نعم ، فقال دريد لم هذا ؟ .. قال مالك أردت أن أجعل خلف كل واحد منهم أهله وماله ليقاتل عنهم .. فقال دريد راعي ضأن والله !!! ..

وهل يرد المنهزم شيئا ؟ إنها إن كانت لـك لـن ينفعـك إلا رجـل بسيفه ورمحـه وإن كانت عليك فضُحت في أهلك ومالك .. إنك لم تصنع بتقديم البيضة بيضة هوازن إلى نحور الخيل شيئا .. ارفعهم إلى متمنع بلادهم وعليا قومـهم.. ثـم ابـق الصباء علـى بطون الخيل فإن كانت لك لحق بك مَن وراءك وإن كانت عليك ألفاك ذلك فقد أحرزت أهلك ومالك ..

اعتبر القائد العام للجند (مـالك بـن عـوف) هـذا الكـلام امتـهانا لشخصه وتلميحاً بعدم قدرته على قيادة الجيش وحطاً من شـأنه ولذلـك كـان رده علـى دريـد أنت رجل قد كبرت وخرف عقلك .. والله لا أفعل وتوقـف عنـد هـذا الحديـث .. ثـم رجع مالك إلى جنده وقال لهم إذا رأيتموهم فاكسـروا جفـون سـيوفكم ثـم شـدوا شـدة رجل واحد[1] لقد كان من عادة العرب أن يكسروا سيوفهم إذا ما انتابهم القنوط .



تواترت الأنباء إلى مكة بهذا التحالف الذي تم .. وجاءت الأنباء كذلـك عـن الجيـش وعدته والمعروف أن الإسلام دين سلام لا يميل إلى استعمال السيف إلا في حالة الدفـاع عن النفس .. وسيدنا محمدﷺ لا يحب أبـدا الدخـول في المعـارك الحربيـة لأن فيـها إراقة دماء البشر .. لكن ماذا يفعل نبي عظيـم في مثـل هـذا الموقـف الـذي بـدأ العـدو يتجمع حوله ويعقد حلفا ضده ويجمع الجموع ويحزب الأحزاب ليكون هنـاك هجـوم على القيادة الإسلامية .. كان علـى النـبي محمـدﷺ إذاً أن يعـالج الأمـور بدقـة وأن يستعمل الحكمة لأن النفوس من حولـه في مكـة كـانت لا تـزال متـأثرة بمـا حـدث.. كذلك القبائل المنتشرة حول مكة كانت ثائرة لسقوط مكة .. فالموقف إذاً عسير ودقيـق والأمر يتطلب اتخاذ قرار سريع وقد اتخذه فعلا وخلاصته (لابـد مـن مواجهـة هـذا التحدي من قبل الأعداء وسحق مقاومتهم) وعندما نـودي حـي علـى الجـهاد تجمع عشرة آلاف رجل من المسلمين وهم الذين دخل بـهم النـبي ﷺ مكـة .. كذلـك انضم إليهم ألفا رجل ممن اعتنقوا الإسلام بمكة.. وكان الألفان الذين انضموا إلى العشرة من

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٨٢ بتصرف .

العتقاء الذين عفى عنهم النبي ﷺ ومن المؤلفة قلوبهم .. وهم لم يعتنقوا الإسلام طواعية وإنما اعتنقوه خوفا لأنه الطريق الأفضل لحقن دمائهم .. وكان من بين هؤلاء أبو سفيان وغيره ..

موقف رائد

من المواقف الرائدة العظيمة التي حدثت أثناء إعداد العدة للمعركة أن (صفوان بن أمية) زوج أخت خالد بن الوليد كان قد طلب من النبي ﷺ إعطاءه مهلة أربعة أشهر ليقرر ما يراه في شأن الإسلام .. وقد أمهله النبي ﷺ .. لكن قلبه تعلق بالنبي ﷺ ومع أنه لم يُسلم بعد إلا أنه كان يقترب من النبي ﷺ دائماً وعندما عرف أن المسلمين يتجهزون للدفاع عن أنفسهم لأن قبيلتي هوازن وثقيف تحزبان الأحزاب للانقضاض على المسلمين .. صفوان هذا ذهب مسرعاً وجاء بمائة درع (وهى ثروة ضخمة عظيمة) ووضعها بين يدي الرسول ﷺ ليستخدمها المسلمون في المعركة .. وهذا يدل على أن صفوان خيِّر بطبعه أصيل في معدنه كريم في عطائه وليس هذا بغريب على زوج أخت خالد بن الوليد فهل يعتبر بذلك أغنياء المسلمين ويساهمون في حل المشاكل الاجتماعية التي يتعرض لها المسلمون اليوم .

موقف صعب

بنوا سليم قبيلة من القبائل العظيمة وقد أسلمت القبيلة وشكل منهم النبي ﷺ كتيبة تعدادها (سبعمائة مقاتل) وأسند قيادتها إلى (خالد بن الوليد) هذه الكتيبة تحركت على الفور وبأمر من النبي ﷺ لتتجه إلى (حنين) .. وهو يبعد عن مكة بأحد عشر ميلا ويقع في الشمال الشرقي من مكة .. وبينما المسلمون يتحركون إلى حنين كانت هناك عيون الأعداء ترقبهم وتتعرف على أخبارهم بدقة .. وكان المسلمون كذلك قد أرسلوا بعيون لهم يستطلعون أنباء العدو ويتعرفون على الأخبار .. ولقد كانت الكتيبة التي يقودها خالد في الطليعة والمقدمة وخلف كتيبة خالد وحدات لتحمي ظهره .. وبدأ خالد يسرع في خطواته .. وكم كان يتمنى أن يفاجئ العدو وعند

قرية تسمى (الضيمة) كان الطريق ضيقا وقد نصب العدو كمينا .. وخالد أراد أن يعبر طريق الضيمة عند ظهور أول شعاع ضوء في السماء وما أن دخل خالد الطريق الضيق عند الضيمة إلا وبدأ الكمين يرمي بالنبل التي تزيد عن المئات وراحت تتساقط على المسلمين وللنبل دوي وأزيز مزق هدوء الفجر فتعالت صيحات الرجال وظهرت صرخاتهم عالية مدوية وأمام هذا الموقف لم يصمد بنو سليم ولم يتريثوا حتى يعملوا فكرهم وإنما استداروا وولوا الأدبار ووقف خالد يصرخ في الرجال فلم يسمعوا وحدث فزع واضطراب وأصيب خالد نفسه بجرح وحُمل مع الرجال والخيل الهاربة وبنو سليم في ركضهم اقتحموا بعض الوحدات العسكرية من المسلمين وقد أدرك أفراد هذه الوحدات أن أمرا خطيرا حدث لذلك فروا مع الفارين وتبعتهم وحدات أخرى من وحدات المسلمين.. ذهبت هذه الجموع الفارة إلى المعسكر الذي به النبيﷺ ... لقد تعرض خالد لهذا الموقف الصعب الذى أثر على نفسه خاصة وأنه سبق له مواقف لم يوفق فيها . من هنا كان الأثر الذى تركه هذا الموقف له أثر في نفسه خلف جرحا عميقاً في مشاعره وأحاسيسه وسوف يذكره حتى يحقق النصر الذى يحلم به فيمحوه .

موقف حرك المشاعر

مالك بن عوف قائد صغير السن إلا أنه استطاع بلباقته أن يرسم خطة حربية ابتكارية خلاصتها أنه سير جيشه خلال الليل ووزعه على أماكن هامة تتحكم في الطريق الذي يسلكه الجند .. وحدد لهم أماكن لا يرها من يسير على الطريق لأنهم اختبئوا خلف الصخور فهيأت لهم هذه المواقع الإستراتيجية القيام بهذا العمل العسكري المبني على التخطيط والتنظيم ، علاوة على أنه قبل أن يحرك جيشه اطمأن على أن الظلام قد حل بالمنطقة .. وهو في رسم خطته كان قد حدد لجنده أماكن يتحركون فيها إن سارت الأمور على غير هواه .. هذه خطة حربية وضعها قائد هو ابن المنطقة ثم هو قد وعد حلفاءه من زمن بعيد بالنصر .. أما النبيﷺ فكان يود أن تهدأ الأمور .. أما وقد سارت الأمور على غير ما كان يتوقع إذاً فلابد من إحكام خطة.. في هذا الموقف العصيب ظهرت مشاعر الحقد الدفين في قلوب بعض المؤلفة

قلوبهم وقد فرحوا بهذه الهزيمة وكان من بين الفرحين (أبو سفيان) الذي أعلن عما يضمره بقوله (لا تنتهي هزيمتهم دون البحر) يقصد أن المسلمين إن لم يموتوا بالسيف ماتوا غرقا في البحر .. وقد وقف صفوان بن أمية الذى لم يقبل ما حدث وكان في غاية الضيق يدير وجهه هنا وهناك .. وكان يقف بجوار أخ له لأمه فقال (ألا بطل السحر اليوم) ولقد انفجر فيه صفوان صائحا (اسكت فض الله فاك .. فوالله لأن يربني رجل من قريش أحب إلى من أن يربني رجل من هوازن)[1] والمعنى لأن يحكمني رجل من قريش خير من أن يحكمني رجل من هوازن وهذا دليل على الانتماء لوطنه وولائه له ولقومه ... ولنا أن نحلل هذا الموقف لنتعرف على معادن الرجال ..

وبعد ... فهذه مواقف تذكر ليعلم الناس أن الإنسان الأصيل الكريم لا تغيره الأحداث ولا يميل مع الهوى ولا يبيع قومه ووطنه بملء الأرض ذهباً لإيمانه القوي بأن كل ذلك إلى زوال .. أما النذل الخسيس فهو الذي يجري وراء المنافع ويبيع صاحبه بأرخص الأسعار .. بل يبيع وطنه وقومه بثمن بخس .. ومع ذلك فهو الخاسر حتى ولو ملك ملء الأرض مالا. وصدق من قال بلادى وأن جارت على عزيزة وأهلي وأن ضنوا على كرام .



اضطرب الموقف في معسكر النبيﷺ حيث أصيب الناس بالفزع فتفرق بعضهم وفر البعض من الميدان .. أما النبي العظيم فقد ظل واقفا وحوله بعض الرجال المخلصين .. وكان ينادي على الناس (أيها الناس هلموا إلى أنا رسول الله محمد بن عبد الله)[2] .. لكن القوم لم يلتفتوا وأصبح الموقف عسيرا وصعبا لأن عناصر من الأعداء خاصة من قبيلة هوازن تقدموا إلى حيث يقف النبيﷺ يريدون قتله لولا أن عليا بن أبي طالب رفع سيفه وقتل مشركا وما أن قتل هذا المشرك حتى ارتد المشركون قليلا وتطلع

---

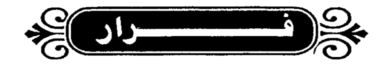
(١) ابن هشام جـ ٤ ص ٨٦.

(٢) تاريخ الطبري جـ٣ ص ٧٤.

النبيﷺ ببصره إلى الميدان الممتد أمامه فرأى أن الموقف لا يبشر بخير .. لذلك غير النبيﷺ نظام الجيش ورتب الموقف بمن حوله .. ثم قال للعباس نادي على المسلمين.. وكان العباس جهور الصوت فنادي على المسلمين قائلا (يا معشر الأنصار يا أصحاب سورة البقرة يا معشر أصحاب بيعة الرضوان هلموا إلى نبيكم وعلى الفور تجمع أكثر من مائة شخص حول النبيﷺ وكلفهم أن يشنوا هجوما على الأعداء الذين كانوا يقفون على مقربة من النبيﷺ وتطلع المسلمون إلى النبيﷺ ومن معه فإذا هم يتقدمون والأعداء يتقهقرون وسرعان ما تنادوا والتفوا حول رسول الله ﷺ وزاد عددهم أكثر من ألف وأحس النبيﷺ بالقوة التي معه فأمر بهجوم شامل على جيش الأعداء .. فتغيرت الصورة واشتبك الطرفان بالأيدي واشتد القتال وتساقط رجال الأعداء قتلي ودب الفزع والهلع في جيش الأعداء الذى فر لا يلوى على شئ بينما صوت النبيﷺ يعلو وهو يردد : أنا النبي لا كذب : أنا ابن عبد المطلب ، ودارت الدائرة على الأحزاب وسقط منهم آلاف القتلى بينما البعض لاذ بالفرار وأصبح النصر حليف المسلمين ...


المصيدة

كان مالك بن عوف قد أحكم توزيع خطته وظن أنه بالأكمنة التي نصبها يستطيع أن يحرز النصر على المسلمين .. لكنه فشل .. فقد دخل إلى المصيدة برجله حيث إن جنوده لم يكونوا على قدر كاف من الكفاءة ويظهر ذلك من عدم تعقبهم للمسلمين بعد الهزيمة الأولى ثم إنهم لم يستطيعوا إحكام الخطة لتطويق النبي محمد ﷺ رغم قلة العدد الذي يحيط به ـ لذلك كان المسلمون إذا ما صاحوا دخل الفزع والرعب إلى قلوب جند مالك .. ولقد استطاع المسلمون بعد أن نادي عليهم العباس وقاموا بهجوم مضاد واشتبكوا بالأيدي أن يستعيدوا المواقع الاستراتيجية وأجلوا العدو عن ساحة المعركة وميدان القتال وكان هذا النصر نصرا رائعا أعقبته انتصارات أخرى تجلى فيها حسن القيادة الإسلامية وصمود الصامدين وإخلاص المحاربين ...



فرار

مالك القائد الصغير الذى ظن أنه أقدر على رسم خطط ابتكارية بدأ يـدرك أن الدائـرة تدور عليه وأن الأرض ضاقت عليه فبدأ في تنفيذ خطة الانسحاب .. وأخذ مالك قبيلة هوازن وانسحب بها إلى الخلف وبقيت قبيلة ثقيف التي تلقت درسا على يدى المؤمنين لذلك لم تصمد وفرت هى الأخرى هاربة وخلفها كتائب القبائل الأخرى وأصبحت أرض المعركة خالية أمام المسلمين ...

الغائب الحاضر

لم يشترك خالد في هذه المعركة بسبب ما أصابه في أول الأمر لكنه استطاع السيطرة على نفسه بعد أن استرد عافيته لكنه تابع المعركة لحظة بلحظة وكان يحاول أن يقف على قدميه ليشارك الأطهار وقد تماثل للشفاء وشارك في اللحظات الأخيرة.. لذلك جمع النبيﷺ كتيبة من المسلمين الصادقين ومن بين أفراد هذه الكتيبة كتيبة بني سليم ونصَّب الرسولﷺ خالدا لقيادة هذه الكتيبة وحدد لهم مهمتهم وهى (أن يعملوا على تطهير المنطقة من جند الأعداء وقال "لا تقطعوا شجرة ولا تقتلوا جريحا ولا وليدا ولا امرأة ولا كبيرا ولا معتزلا بصومعة ولا تغدروا ولا تغلوا" وهذه وصايا رائعة تدل على نُبل الخلق ..وهذا هو الإسلام دين سلام وحب وتعاون وألفة وهذا هو محمد بن عبد الله نبي الله ورسوله يلقي بتعليمات لجند الإسلام وهى تعليمات كلها قيم أخلاقية ويا ليت الإنسانية التي عجزت عن نشر السلام تعيد قراءة تاريخ نبي الإسلام وقادته العظماء ليعرف الغفلاء الفرق بين دعوة الإسلام ودعوة الجهلاء الذين لا يفهمون ولا يريدون أن يفهموا .. وقام خالد بمهمته خير قيام وأشبع رغبته في تعقب الأعداء واستطاع أن يؤلف بين الجيش الذي معه وأن ينسيهم ما وقع لهم في أول الأمر ..



الرسول ﷺ أرسل خالداً في اتجاه معين على رأس كتيبة كبيرة .. في نفس الوقت كان قد جهز جيشاً آخر ليتجه في طريق آخر وأعطى قيادته للزبير بن العوام وسوف يلتقي بجيش خالد في مكان يقع في نهاية الطريقين .. وعند مكان يسمى "الثنية" التقت كتيبة خالد بالجيش العام الذي يقوده الزبير و على بعد النظر عند هذا المكان كان مالك بن عوف يقف مع بعض رجال من جيشه وكأنهم في حالة تجمع ..لذلك تقدم المسلمون إليهم ودارت معركة قصيرة هرب بعدها مالك وجنوده .. وبهذا أصبح الوادى تحت سيطرة المسلمين ...

عند مكان يسمى "أوطاس" عسكرت قبيلة هوازن عنده وعلى رأسهم مالك وبدءوا يجمعون الرجال الهاربين حولهم من جديد فعرف المسلمون بموقعهم وأخبروا النبي ﷺ الذي قرر إيفاد كتيبة على الفور يقودها أبو عامر .. وقد دارت معركة رهيبة بدأت بالمبارزة فقتل أبو عامر تسع رجال بارزهم لكنه قتل على يد المبارز العاشر وتولى قيادة المسلمين من بعده ابن عمه أبو موسى الذي اشتبك بجيشه مع جيش الأعداء ففر جيش الأعداء إلى الصحراء وبهذا خلت المنطقة من جيش الأعداء المتحالف وتشتتت قبيلة هوازن أما قبيلة ثقيف فقد عادت أدراجها إلى الطائف حيث قررت أن تتابع مقاومتها حتى النهاية ومهما كلفهم ذلك من نفس ومال . لأنه العند الذى يورد صاحبه المهالك ويدمر المدن والحضارة لأن المكر السئ لا يحيق إلا بأهله ...

نظرة تحليلية

إن الذي يتأمل في هذه الغزوة يرى أن الله سبحانه وتعالى مع المسلمين فقد أيدهم بنصره .. ووفقهم .. ومدهم بالملائكة لتثبت الذين أمنوا .. وأنزل السكينة في قلب النبي محمدﷺ الذي هو على الحق وإليه يدعو ويقيم العدل ويأمر بالإحسان وينهى عن الفحشاء والمنكر .. ونلحظ ذلك من أن مالك بن عوف وهو قائد صغير السن إلا أنه

وضع خطة كفيلة بأن تقضي على كافة المقاتلين من المسلمين .. لكن هذه الخطة فشلت.. لماذا ؟ لأن رجاله تقاعسوا عن تنفيذ ما أمرهم به .. ولعدم كفاءة جنده ورجاله من ناحية أخرى .. ومع التقاعس وعدم الكفاءة كان بإمكانهم إحراز نصر مؤزر عندما أوجدوا خلخلة في كتيبة خالد التي أخذتها المفاجأة والمباغتة فساد الفزع والهلع في جيش المسلمين .. علماً بأن المسلمين في مكان لم يعرفوا دروبه ولم يتوقعوا أن يظهر فيه هذا العدو ومن هنا كانت هذه ظروف مهيأة لأن ينجح مالك في تطويق جيش المسلمين من كل جانب بعد الذي حدث لكتيبة خالد .. لكن إذا كان هذا تخطيط البشر فإن قدرة الله فوق كل قدرة فلقد ألهم الله نبيه أن يصمد ولا يقبل الهزيمة بل ويصيح بأعلى صوته : (أنا النبي لا كذب : أنا ابن عبد المطلب) ، بل وينادي كذلك (أنا ابن العواتك من سليم)[1].. ثم لا ننسى أن عوامل الهزيمة كانت متوفرة لأن معظم جيش المسلمين كانوا حديث عهد بالإسلام لأنهم من أهل مكة " الطلقاء" وبعض الناس تكلموا بما في أنفسهم بل وأظهروا الشماتة عندما فر المسلمون .. لكن عندما نادي العباس رضي الله عنه بأمر النبيﷺ (يا أصحاب بيعة الرضوان .. يا أنصار رسول الله .. يا أيها المهاجرون .. يا أصحاب سورة البقرة) .. انضم هؤلاء إلى الرسولﷺ فقاد بهم المعركة التي انقلبت إلى نصر بعد هزيمة وإلى قوة بعد ضعف .

من هنا كانت خسائر المسلمين في هذه الغزوة رغم ما أصابهم بسيطة جدا فقد قتل منهم أربعة وجرح عدد ليس بالكثير وذلك راجع إلى الكفاءة والمهارة عند المسلمين..أما في جانب المشركين فقد قتل أكثر من سبعين كان منهم مستشار جيش مالك (دريد بن الصمة) الذي ذهبت حكمته ونصائحه أدرج الرياح .. كما أن المسلمين أسروا من المشركين ستة آلاف امرأة وصبي وغلام واستولوا على الآلاف من البعير والماعز والشاة ما لا يدرى عُدته[2].. فسبحان مغير الأحوال القائل

---

(1) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٤ ص ٣٧٩ : والعواتك اللاتي يفتخر بهن عليه الصلاة والسلام ثلاث هن :
1) عاتكة بنت هلال بنت فالج بنت ذكوان أم عبد مناف بن قصى .
2) عاتكة بنت مرة بن هلال بن فالج أم هاشم بن عبد مناف .
3) عاتكة بنت الأوقص بن مرة بن هلال أم دهب بن عبد مناف جد رسول الله ﷺ أبى أمه .. فالأولى عمة الثانية .. والثانية عمة الثالثة .. لسان العرب جـ ١٢ صـ ٢٥١ .

(2) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٤ ص ٤٠٨ .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ) [محمد الآية ٧: ٩]

في غزوة حنين أنزل الحق سبحانه (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) [التوبة من : ٢٥ : ٢٧]. إن الدارس لهذه الغزوة يتبين له منها أن الفرد المسلم إذا صح إيمانه قويت عزيمته .. وإذا حسنت علاقته بالله شعر بالثقة في نفسه .. وبهذا ينتصر على نفسه وعدوه .. وهذا ما يعبر عنه القرآن في قول الحق سبحانه (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ * الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) [الأنفال : ٦٥ : ٦٦] .

فهل يستفيد المسلمون من هذه الدروس .. ؟ !!! ويعودوا إلى إيمانهم الصحيح الذى يدعو إلى الاستعداد بالقوة التي يتم بها ردع الجهلاء والبالغين المعتدين وصدق الله العظيم (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُمْ مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ) [الأنفال : ٦٠] إن الإيمان القوى يصنع المعجزات لأن السماء تمنح بركتها للعاملين الجادين المخلصين فالله سبحانه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .. إن قطار الزمن يجرى ولن ينتظر الكسالى والخاملين الذين استحبوا العمى على الهدى وعاشوا على هامش الحياة . . .



لا شك أنك لو بحثت في سجل الحكام والقادة والعظماء لن تجد أحسن من سيرة النبي محمدﷺ .. فهو الكمال الخلقي والأدب العالي .. بل هو القرآن الذي يمشي على الأرض .. ولقد أعطانا درسا فى غزوة حنين نستفيد منه ونتعلم خلاصة الدرس.. أن

بعض الناس عندهم طمع وشره وإقبال على الدنيا وحب للمال هـؤلاء لا تنـهض بـهم أمـة .. ولا يقـوم علـى أكتافـهم مجتمـع .. لأن همـهم المال والحصـول عليـه بـأي وسيلة .. لذلك قال القرآن عنهم (فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ) [التوبة : ٥٨] .. والرسول ﷺ يعرف الرجال ووضعهم الاجتماعي ووزنهم الأدبي .. لأن من الرجـال مـن يرضـي بـالقليل مـن المال لكنـه دائمـا يطمـع في العلـم وتحصيله والتفقه في الدين .. ويستثمر وقته في كل ما يرضي الله ورسوله .. إن أقبلـت عليه الدنيا فهو راض .. وإن أدبـرت فـهو راض وإليـه يشـير حديـث رسـول الله ﷺ (عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خـير وليـس ذلـك إلا للمؤمـن .. إن أصابتـه نعمـاء شكر .. فكان خيرا له .. وإن أصابته ضراء صبر فكـان خـيراً لـه) والرسولﷺ كـان يعطي من متاع الحياة الدنيا لأشخاص يعرف عنهم ضعف الإيمان .. لهذا عندما بـدأ يوزع في الغنائم التي حصل عليها بعد غزوة حنين كما يقـول البخـاري عـن زيـد بـن عاصم (لما أفاء الله على رسولهﷺ يوم حنين قسَّم في المؤلفـة قلوبـهم ولم يعـط الأنصـار شيئا فكأنهم وجدوا في أنفسهم إذ لم يصبهم ما أصاب النـاس فخطبـهم رسـول الله ﷺ فقال .. (يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي ؟ وكنتـم متفرقـين فـألفكم الله بي ؟ وعالة فأغناكم الله بي ؟) وكان الرسولﷺ كلما قال شـيئا قـالوا الله ورسـوله أمن .. قالﷺ لو (شئتم لقلتم كذا وكذا) .. فقالوا بماذا نجيبك ؟ المـن لله ولرسـوله .. قال .. والله لو شئتم لقلتم فصدقتم وصدقّتم .. جئتنا طريدا فآويناك وعائلا فآسيناك .. وخائفا فأمناك ومخذولا فنصرناك .. فقـالوا المن لله ولرسوله .. فقـال رسـول الله ﷺ أوجدتم نفوسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قومـا أسـلموا حديثـاً ووكلتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام .. أفـلا ترضـون يـا معشـر الأنصـار أن يذهـب الناس إلى رحالهم بالشاة والبعير وتذهبون برسول الله ﷺ إلى رحالكم فوالـذي نفسـي بيده لو أن الناس سلكوا شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسـلكت شـعب الأنصـار.. ولـولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار اللـهم ارحـم الأنصـار وأبنـاء الأنصـار وأبنـاء أبنـاء الأنصار .. فبكي القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا رضينا بالله ربـا ورسـوله قسـما ثـم

انصرف وتفرقوا) .. هكذا رواه الإمام أحمد[1].. ويذكر ابن إسحاق أن قائلا قال لرسول الله ﷺ ...

يا رسول الله .. أعطيت عيينه والأقرع مائة مائة وتركت جعيل بن سراقة الضمري؟ فقال رسول الله ﷺ (أما والذي نفس محمد بيده لجعيل خير من طلاع الأرض كلهم مثل عيينة والأقرع ولكني تألفتهما ليسلما ووكلت جعيل بن سراقة إلى إسلامه)[2].. لأن الرسول ﷺ عندما قسم الغنائم أعطى ضعاف الإيمان والذين أسلموا حديثاً يتألف قلوبهم .. ولم يعط أصحاب العقيدة القوية لأنه ﷺ تركهم إلى إيمانهم لأن الإيمان في قلوبهم أعظم من المال والثروة فلله در هؤلاء الرجال الذين يقول الله (إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ) [الأنفال:٦٥] يعني الواحد منهم بعشرة من الرجال ويقول عنهم رسول الله ﷺ " الواحد منهم خير من طلاع الأرض " من ضعاف الإيمان الذين همهم المال إن أعطوا رضوا وأن لم يعطوا إذا هم يسخطون والنصر دائماً على يدي أصحاب الإيمان القوى والعقيدة الصحيحة الثابتة .. "

حدث على الهامش

خالد بن الوليد شخصيته عظيمة وكان يدفعه حماسه للإسلام أحيانا أن سيفه يسبق لسانه .. لذلك حدث أن رسول الله ﷺ ومعه بعض أصحابه مروا على امرأة مقتولة وقالوا قتلها خالد بن الوليد .. فأرسل النبي ﷺ بعض أصحابه وقال له (أدرك خالدا فقل له .. إن رسول الله ﷺ ينهاك أن تقتل وليدا أو امرأة أو عسيفا) والعسيف هو الأجير [3]...

---

(١) يراجع البداية والنهاية لابن كثير جـ ٤ ص ٤١٤ وما بعدها.

(٢) المرجع السابق ص ٤١٧.

(٣) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٤ ص ٣٨٩.

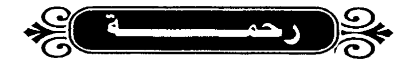
مالك بن عوف شاب متهور .. لكنــه قـائد مخطط اتجـه بقبيلـة (ثقيـف) إلى بلـده الطائف وبدأ يؤلب الناس على رسول الله ﷺ والمسلمين ويجمع حوله كل موتور وقـد عرف النبيﷺ بأخباره.. لذلك سارع النبيﷺ إلى إرسـال الأسـرى والسـبي إلى مكـان يسـمى (الجعرانـة) وأرسـل حاميـة تحميـها وتحرسـها .. ثـم تحـرك النـبيﷺ إلى الطائف وفي نيته أن يأخذ مالكا ومن معه على غرة ويدعوهم إلى الإسلام .. لذلك سـار النبيﷺ إلى الطائف بحذر شديد .. وكان يرسل بعيون تتعـرف لـه الطريـق حتـى لا يقع في فخ كالذي حدث لخالد في أول غزوة حنـين .. وقـد حـول النـبيﷺ مسـاره إلى الطائف من الشمال وكان في نيته أن يدخل الطائف من خلفـها وكـان قـائد الجيـش في هذه المسيرة خالد بن الوليد .. وقد دفع خـالد ببـني سـليم في طليعـة الجنـد .. وعلـى طول الطريق لم يكن هناك أثر لثقيف .. كان النبيﷺ في نيتـه .. ألا يـترك لمـالك بـن عوف أي فرصة يستعيد فيها أنفاسه ويجمع جيشه ويعيد تنظيـم صفوفـه .. في نفـس الوقت قرر مالك ألا يشتبك مع المسلمين في معركة مفتوحة بل يقاتل المسلمين من وراء جدر بتخطيط يضعه هو .. لذلك دخل بجيشه واختبأ وراء أسوار الطائف واستطاع أن يوفر لجيشه المؤونة التي تكفيه للصمود أمام أي حصار قد يطـول .. ووصـل المسـلمون إلى الطـائف في شـوال مـن العـام الثـامن الهجـري ووجـدوا أن ثقيفـا أخلـوا الأمـاكن الخـارجية وأصبحوا خلف الأسـوار وعسـكر المسـلمون بجـوار الحصـن ليحولـوا دون دخوله أو الهرب منه .. وكان أبو بكر رضي الله عنه على رأس قوة الحصـار .. وكـان القتال يدور بين الجيشين بتبادل النبل وكان رماة ثقيف ينالون المسلمين لأن ثقيفـا في أعلى السور وكان المسلمون يتعرضون للرمي .. لذلك غير المسـلمون وضعـهم وابتعـدوا عن السور .. ولقد أصبح الوضع سيئا بالنسبة للمسلمين لأن الجو في هذه الأيـام بـارد جدا بل كان رديئا للغايـة .. وحـاول المسـلمون أن يجـبروا ثقيفـاً للمعركـة لكنـهم لم يستطيعوا لأن (مالكا) وهو القائد الماهر امتنع عن الاشتباك في معركة نتيجتها غـير

مضمونة له .. لذلك تقدم سلمان الفارسي وهو الذي أشار على المسلمين بحفر الخندق وكان على علم بفنون الحرب.. فأشار على المسلمين بإقامة منجنيق يستخدموه في إلقاء الأحجار إلى داخل المدينة والمسلمون لم يكن لديهم علم بهذا الأمر لذلك لم يكن له أثر يذكر .. فأشار سلمان برأي آخر وهو صناعة (الجُنَّة) وكانت على شكل الدبابة وتصنع من دروع أو ألواح خشبية أو من جلد الحيوانات .. وصنع المسلمون منها كثيراً وكانوا يستعملونها لحمايتهم عند تقدمهم من بوابة الحصن وكان مالك قد عبر بها فأعد لذلك عدته لهذا .. لما اقترب المسلمون من البوابة فوجئوا بأن مالكا ورجاله يرمونهم بقطع من الحديد المحمي فاحترقت الجُنَّة وأفزعت من كان تحتها من المسلمين .. لذلك ألقوا بهذه الأداة بعيدا.. ومر أسبوعان دون أن يبدو في الأفق أي بادرة في اقتحام الحصن .. لذلك عقد النبيﷺ مجلس حرب ليستشيرهم في الأمر خاصة وأن هناك الأمور الكثيرة التي تنتظره لأنه لا يستطيع أحد أن يبت فيها إلا هو .. لذلك قال أحد الصحابة .. يا رسول الله (ثعلب في جحر إن أقمت عليه أخذته وإن تركته لم يضرك) واقترح أبو بكر ﷺ العودة إلى مكة ووافقه عمر على ذلك)[1].. لذلك قرر النبيﷺ العودة إلى مكة لأن لديه أعمالا كثيرة هامة عليه أن يعالجها .. ولذلك اقترح رفع الحصار .. لكن بعض المندفعين احتجوا على هذا القرار وصمموا على مواصلة القتال .. ونظرا لأنهم كثرة وخاف النبيﷺ من تفرق الكلمة فقد أمر بالبقاء ومواصلة القتال من الغد، ومع ذلك لم يستطع جيش المسلمين أن يتقدم من الحصن لأن المدافعين عنه يقفون في مكان عال وفي أماكن متعددة .. لذلك رجع المندفعون إلى النبيﷺ وأقروه على رأيه فأمر بفك الحصار ومغادرة المكان في الرابع من شهر ذي القعدة من العام الثامن الهجري بعد أن فقدوا اثنى عشر رجلا وجرح عدد كبير من المسلمين ..

رجع النبيﷺ إلى (الجعرانة) التي بها الغنائم .. وهناك وزعها وأعطى المؤلفة قلوبهم ليألفهم وليبرهن لهم أنه ليس هناك تمييز بين الجنود رغم أن المؤلفة قلوبهم لم يسهموا بالنصيب الوافر أثناء الحرب بل ظهر منهم المتقاعس والمتخاذل .

(١) تاريخ الطبري جـ٣ صـ٨٠ وما بعدها.

ومع ذلك أخذوا النصيب الأوفر علهم يكونوا يدا قوية لحماية الإسلام والدفاع عنه في وقت تتجمع قوى الباطل ضد الإسلام ونبيه ﷺ .



رحمة

يقول النبي محمدﷺ (إنما أنا رحمة مهداة) فهو رحمة للأنس والجن لأهل السماء وأهل الأرض .. رحمة عامة وشاملة .. وصدق الله العظيم (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) [الأنبياء ١٠٧] .. وبهذه الرحمة رد على قبيلة هوازن ما غنمه منهم أثناء الحرب لأنه ما كاد النبيﷺ ينتهى من توزيع النسوة والأطفال والماشية بين المسلمين.. إلا ودخل عليه وفد من هوازن وأعلنوا أن قبيلتهم بأكملها أسلمت وقالوا يا رسول الله (أصابنا من البلاء ما لا يخفى عليك فامنن علينا مما مَنَّ الله به عليك) مطلبهم هذا ليس لهم حق فيه لأن النبيﷺ أخذ منهم ما أخذ.. وهم على الكفر وفي أثناء حرب هم الذين أشعلوها وحزبوا معهم القبائل وجمعوا فلول المنشقين .. ولكن مع كل هذا كان النبيﷺ كريما معهم حفيا بهم لطيفا كعادته في كل الأحوال وسألهم أي أموالكم أحب إليكم ؟ أبناؤكم ونساؤكم .. أم أموالكم .. من الماشية ؟ .. أجابوه .. يا رسول الله خيرتنا بين أموالنا وأحبابنا ونسألك أن ترد إلينا نساءنا وأبناءنا فهم أحب إلينا)[1].. طلب النبيﷺ من أصحابه أن يردوا النساء والأطفال إلى هوازن واستجاب كل شخص على الفور وأعاد ما عنده .. لكن صفوان بن أمية رفض أن يعيد جارية كانت من نصيبه ..

علمت قبيلة ثقيف بما حدث لهوازن وأنها استردت نساءها وأطفالها.. لذلك ذكروا أن مالك بن عوف قد بدأ يستعيد الذكريات أمام عينيه وهو القائد الماهر.. فعرف أن محمدا على حق ، لذلك خرج من الطائف وجاء إلى معسكر المسلمين وأعلن إسلامه وكافأه النبيﷺ مكافأة طيبة وأثني عليه .. وبعد ذلك جاءت قبيلة ثقيف فاعتنقت الإسلام وأصبحت دعامة من دعاماته .. وتوالت القبائل التي كانت تؤيد

---

(١) ابن هشام جـ ٤ ص ١٣١.

ثقيفا وهوازن وقد جاء بعضهم وهو مخلص للدين والبعض الآخر لأسباب سياسية والبعض الآخر لمجرد الاستطلاع والبعض الآخر خوفا من السلاح .. ولكل وجهة هو موليها.. ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود ١١٨ ، ١١٩] .. والنبيﷺ بحلمه وتسامحه وسع كل أصحاب الميول المختلفة .. وصدق الله العظيم .. ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [سورة آل عمران آية ١٥٩] .. وقد رد على كل من أسلم ما أخذ منه أثناء المعركة وهذا هو التسامح بأجلى صوره .



إلى تبوك

في العام التاسع من الهجرة وردت إلى المدينة أنباء مفادها أن الروم حشدوا قوات كبيرة بالشام وأن هذه القوات يقودها هرقل إمبراطور بيزنطة وأنه دفع بطليعة من هذه القوات إلى الأردن .. أما هو بقواته الأخرى فقد توجه إلى حمص ...أثناء ورود هذه المعلومات كان الجو مشتعلا حرارة .. وعلى الفور أمر النبيﷺ بتجهيز حملة لقتال الروم .. وكان النبيﷺ في نيته أن يختبر المؤمنين لأن مثل هذا الجو لا يرحب الناس فيه بحمل السلاح وليس أحب إلى الناس في مثل هذا الجو إلا الاسترخاء تحت ظلال النخيل الرطب وشرب الماء البارد حتى تنحسر موجة الحر الشديد .. لكن عندما أصدر النبي أوامره استجاب المؤمنون الصادقون لهذا الأمر وهم في فرح شديد وكل يقدم ما عنده من مال وعتاد .. بصدق وإخلاص

في مجتمع المدينة كان فيه ما نسميه بالطابور الخامس وهم (المنافقون) فقد راحوا كعادتهم يضعون العراقيل أمام المؤمنين الصادقين ويخلقون المتاعب الكثيرة .. ولما لم يأبه المسلمون لهم قالوا: (لا تنفروا في الحر) فكان الرد عليهم بما يناسبهم جزاء مكرهم وخبث طويتهم وجاء الرد من الحق سبحانه بقوله ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ

حرَاً لوْ كانُوا يَفْقَهُونَ) [التوبة ٨١] .. لقد قعد المنافقون عن الجهاد وفرحوا بتخلفهم عن رسول الله ﷺ لأنهم ظنوا أن المسلمين إن فلتوا من ضربة الشمس فلن يفلتوا من سلاح العدو وكانوا يضحكون لخروج المسلمين كثيراً لذلك أنزل الله على نبيه ما يفضح أمرهم ويهتك سترهم ويعلن عن جريمتهم النكراء ويقول(فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَإِنْ رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ) [التوبة ٨٢ — ٨٣] ...

تحرك الجيش الإسلامي بقيادة رسول الله ﷺ في منتصف شهر رجب من العام التاسع وكان تحت لواء النبي ﷺ جيش قدر بثلاثين ألف رجل [١] .. وكان خالد أحد هؤلاء المؤمنين الذين استجابوا لنداء الله ورسوله .. رغم شدة الحر وقلة المؤنة.

وصول الجيش إلى تبوك

وصل جيش المسلمين إلى تبوك وهناك عرف المسلمون أن القوة المرابطة بالأردن انسحبت إلى دمشق .. والنبي ﷺ ببعد نظره لم يجد حاجة إلى التقدم فعسكر في تبوك وعزم على الاتصال بالقبائل التي تقطن المنطقة للتفاوض معها إما أن تدخل في الإسلام وإما أن تخضع لسلطة الإسلام السياسية .. ونجح النبي ﷺ في عقد المعاهدات مع هذه القبائل .. كانت هناك منطقة هامة تسمى (دومة الجندل) (الجوف) الآن .. وكانت على بعد قليل من تبوك .. وكانت القبيلة التي تقيم بهذه المنطقة على رأسها (أكيدر بن عبد الملك) وكان نصرانيا من قبيلة كندا وكان هذا الشخص معروف عنه حبه للصيد وغرمه بالقنص .. وأراد الرسول ﷺ أن يخضع هذه القبيلة لسلطان المسلمين لهذا جهز فرقة من الجيش قوام عدتها (أربعمائة فارس) وجعل قائد هذه الفرقة (خالد بن الوليد) ونبه الرسول ﷺ على خالد أن يقبض على أكيدر وأن يأتي به حيا وقال له النبي ﷺ (إنك ستجده يصيد البقر)[٢] .. صادف هذا التكليف ليلة النصف

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ٥ صـ٥.
(٢) المرجع السابق صـ٧.

من شعبان وكان القمر يرسل بأنواره والنسمة في الليل رطبة والجو جميل جدا جدا .. لهذا ذهب خالد مع جنده ووصلوا إلى دومة الجندل وعسكروا قرب المدينة وفي الليل وفي ضوء القمر الساحر والهواء البارد انفتحت أبواب المدينة وخرج منها أكيدر مع بعض أصحابه يمتطون الجياد ومعهم أدوات الصيد والقنص وهجم خالد مع جنده على هذه الجماعة واستطاع خالد أن يأسر أكيدر بسهولة أما أخو أكيدر (حسَّان) فقد قاوم حتى قتل وفر بقية الذين كانوا مع أكيدر ودخلوا الحصن وأغلقوه عليهم .. ذهب خالد بأسيره إلى النبيﷺ حيث فك النبي أسره ودفع أكيدر الفدية كما طلب المسلمون ودخل مع النبيﷺ في تحالف ووافق على دفع الجزية .. بعد ذلك غادر جيش المسلمين تبوك بعد أن عين الرسولﷺ لكل قبيلة رئيسا من بينهم يدير شئون الدولة ويعزز العلاقات مع الدولة الإسلامية التي تدعوا إلى الحق ..

خالد في نجران

جهز النبيﷺ حملة حربية بقيادة خالد بن الوليد ووجه الحملة إلى قبيلة بني الحارث كعب بنجران وكانت هذه الحملة في شهر ربيع الثاني في العام العاشر .. وتقع نجران شمالي اليمن وتوجيهات النبيﷺ لخالد محددة وصريحة هي .. أن يدعو القبيلة إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم .. يفعل ذلك ثلاث مرات .. فإن استجابوا فاقبل منهم وإن لم يفعلوا فقاتلهم [1] .. ووصل خالد إلى نجران وطلب من بني الحارث الدخول في الإسلام وقبلوا الدعوة على الفور ..وحقنت الدماء وبقى خالد مع هذه القبيلة يفقههم في أمر دينهم .. وكان خالد قد بعث بكتاب إلى النبيﷺ يبلغه فيه نجاح مهمته .. ورد النبيﷺ بكتاب إلى خالد أعرب فيه عن تقديره له وأمره بالعودة إلى المدينة وأن يكون بصحبته وفد من بني الحارث .. في شهر شوال من نفس العام عاد خالد مع وفد كبير لقى من النبيﷺ استقبالا حافلاً مع مزيد من الترحيب .

كانت هذه آخر مهمة كلف بها خالد في حياة النبيﷺ لأنه بعد ذلك بأشهر

(١) ابن هشام جـ ٤ ص ٢٣٩.

انتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى .. وبانتقاله تولى الخلافة من بعده أبو بكر الصديق الذي كانت علاقته بخالد بن الوليد عظيمة وطيبة ومريحة .. لذلك نرى أن خالداً أدى دورا عظيما ورائعا في خلافة أبى بكر الصديق...

العاصفة

عندما انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى هبت عواصف متعددة وليست عاصفة واحدة على الجزيرة العربية .. لأنه في الأيام الأخيرة من حياة النبي ﷺ حدثت ردة كبيرة باليمن لكن النبي ﷺ قضى عليها وانتهت بنهاية رضي عنها المسلمون، وبعد انتقاله ﷺ إلى الرفيق الأعلى بدأت الردة في اليمن وهناك القبائل الكثيرة التي كانت قد أسلمت خوفا أو هادنت ذُلاً وبدأ الكل يرتد عن الإسلام بل وظهر هناك أدعياء النبوة كما ظهر من يفرق بين الصلاة والزكاة وبين من يزعم أن الأرض له فيها نصيب، لكن قريشا قوم لا يعدلون .. ومن أجل أن نتعرف على أخبار الردة فتعالوا بنا نتابع ما حدث لتكون الحقيقة أمام أعيننا واضحة ..

أول ردة

كانت من (الأسود العنسى) واسمه الحقيقي (عبهلة بن كعب) ولكنه سمي بالأسود لسواد بشرته وكان زعيما لقبيلة عنس وهى قبيلة كبيرة كانت تقطن غربي اليمن .. وكان الأسود كاهنا عرافا متنبئا صفاته خسيسة سلوكه سيئ.. كان يحكم اليمن آنذاك من قبل إمبراطور فارس رجلاً يسمي (باذان) فارس الجنسية ذا محتد عريق .. هذا الرجل اعتنق الإسلام وازدهرت اليمن خلال حكمه بفضل حكمته ودقة تخطيطه ورزانته .. هذا الرجل مات فعين النبي ﷺ ابنه (شهر) واليا على اليمن وفي عهده ساد السلام وعَمَّ الأمان وعاش الناس في رغد من العيش ..

عزم النبي ﷺ أن يؤدي حجة الوداع .. وعلم الأسود العنسى بذلك فنادى بنفسه نبياً لأنه ظن أن النبي ﷺ مشغول بالحج .. وراح يجمع الناس وينشدهم

أشعاره مدعيا أنها آيات من القرآن نزل بها الوحي إليه .. كان للأسود حمار قد دربه على فعل بعض الحركات التي علمه إياها فكان يقول له ابرك .. فيبرك .. اسجد لربك .. فيسجد .. وقد استخدم العنسى هذا الحمار ليقيم به الدليل على قدرته على الإتيان ببعض المعجزات [١] .. لذلك عرف الأسود في المنطقة باسم (ذي الحمار) وهناك بعض المؤرخين يذكر أنه عرف (بذي الخمار) لأنه كان متخمرا معتما أبدا[٢] هذا الشخص كان مولعا بالخمر وشربها لذلك كان في سكر دائم ونادرا ما كان يفيق.. ومع سيرته السيئة ومعرفة الناس بأحواله إلا أن قبيلته صدقته واستطاعوا أن يؤثروا على بعض قبائل اليمن ..

ومن هنا استطاع الأسود العنسى أن يجمع حوله أكثر من سبعمائة فارس ذهب بهم إلى نجران واستولي عليها دون عناء ثم طرد منها حاكمها المسلم وعين مكانه رجلا من رجاله وهناك شربوا كأس الانتصار وتحرك بجيشه إلى صنعاء .. ولما سمع (شهر) الحاكم العام لليمن وهو مسلم أخذ قوة مسلمة صغيرة وتحرك بها إلى الأسود العنسى حيث تقابلت القوتان والتحمتا في معركة قصيرة سريعة انهزم المسلمون وقتل شهر وترك وراءه أرملة شابة جميلة ودخل الأسود إلى صنعاء وأجبر أرملة شهر على الزواج منه واعتبر أن ذلك انتصارا حربيا وسياسيا واجتماعيا حققه لنفسه .. وكانت المسكينة ترفض معانقة ذي الخمار السكير الملعون .. لكن ماذا تفعل والقبائل كلها تعلن ولاءها له.. الأمر الذي قوي من شوكته فأحس بأن لقب النبي لم يعد كافيا فأعلن عن نفسه (رحمان اليمن)[٣].

لقد حاول الأسود بتسمية نفسه (رحمان) اقتحام العتبة الإلهية حيث أطلق على نفسه اسم من أسماء الله الحسنى مع أنه لا يفيق من سكره ولا يقلل من خلاعته ولا يستحي من فحش يرتكبه .. أما آزاد العاثرة الحظ فكان بكاؤها متصلا تسر لأصدقائها بقولها (والله ما خلق الله شخصا أبغض إلى منه)[٤] .. كان الأسود شخص

---

(١) البلاذري القسم الأول ص ١٢٥.
(٢) المصدر السابق.
(٣) الطبري جـ ٣ ص ٢٣٢ والبلاذري القسم الأول ص ١٢٥.
(٤) نفس المرجع السابق.

ضخم الجثة قوي العضلات عرف بوحشيته وشراسـته وكـان يشـك في كـل مـن حولـه لذلك اتخذ لنفسـه قصـرا واختـار الحـراس مـن المؤمنـين بدعوتـه ومـن عـرف عنـهم الإخلاص له .. كان هناك شخص يسمى (فيروز الديلمي) ابن عم آزاد وكـان يعتمـل في صدره عداء شديد للأسود لأنه فوق أنه مدعي النبوة فهو يهين آزاد بصنوف عديدة من المهانة والازدراء ..

كان النبي ﷺ على علم تام بما يفعله هذا الجاهل الأحمق .. فبعـث النـبي ﷺ (بقيس بن هبيرة) ليقتل الأسود الدعي الذي تتطاول على مقام الألوهية وليـنزل بـه من العقاب ما يستحقه .. في صنعاء التي دخلها قيس متخفيا نظم قيس حركـة سـرية كان فيروز أحد أعضائها وتم وضع خطة دقيقة للتخلص من هذا الدعي واتصـل فـيروز بابنة عمه آزاد وشرح لها الخطة التي وضعت بمعرفة قيس وطلب إليها أن تساعده في الدخول إلى القصر لأن حراس الأسود لا تهدأ حركتهم ولا تنام أعينهم .. وقام فيروز بفحص القصر فوجد أن المكان الوحيد الـذي يسـتطيع أن يدخـل منـه إلى القصـر ليـلا وليس به حراس جزء من السور يتاخم مخدع آزاد .. لهذا اتفق الجميع على أن يقـوم فيروز بتسلق هذا الجزء وكان ذلك في ٦ ربيع الأول من السنة الحادية عشـرة .. وقـد حدد الموعد بعد غياب القمر حيث ينشر الظلام ملاءته السوداء على المكـان .. وتسـلق فيروز السور بواسطة حبل مدته آزاد ودخل فيروز إلى مخدع ابنة عمه وبعد منتصف الليل يممت آزاد وجهها شطر مخدع الأسود وكان مجـاورا لهـا وقـد فعلـت ذلـك لأن واحدا من الحراس كان يحرس مخدع الأسود من مكان غير مرئي للعين وعرفـت آزاد أن هذا الحارس يغط في نومه من أثر شرب الخمر وأشارت إلى فيروز الذي مشى علـى أطراف أصابعه ودخل إلى غرفة الأسود بينما وقفت آزاد عند باب الغرفة .. ولما شـهر فيروز سيفه انتصب الأسود بغتة وجلـس في سـريره وراح يتطلـع إلى فـيروز بدهشـة وقبل أن ينهض من فراشه عاجله فيروز بضربة من سـيفه علـى رأسـه وسـقط الأسـود جريحا دون أن يموت ..

لقد علا صوته وهو يترنح كما كان يخور كالثور ولمـا صـرخ مـن أثـر الضربـة استيقظ حارسه وتوجه إلى غرفة النوم فإذا بآزاد واقفة عند الباب فسألها مـا الخـبر؟

فرفعت إصبعها على شفتيها وهمست في أذن الحارس قائلة (صه) فإن النبي يوحي إليه فخمد ونكس الحارس رأسه وغادر المكان دون أن يهتم بصياح سيده [1] .. بعد أن غاب الحارس عن الردهة اندفعت آزاد إلى الداخل فوجدت فيروزا واقفا إلى جانب الفراش ينتظر فرصة أخرى ليضربه الضربة الثانية .. وكان الدعي يتلوى في فراشه ويحرك ساعديه بقوة بينما يتطاير من عينيه الشرر لذلك سارعت المرأة (آزاد) وأمسكت بشعر الأسود وأحنت رأسه إلى أسفل وسدد فيروز سيفه إلى هذا الدعي وبضربات حاذقة جز رأسه وفصله عن بقية جسده .. وبهذا انتهت حياة هذا الدعي الكاذب ذي الخمار الذي قاس الناس من أذاه ، وبموت الأسود ماتت حركته بعد أن قاوم أتباعه مقاومة شديدة .. لكن قتل منهم كثير وفر عدد آخر إلى خارج البلاد وعاد بعضهم إلى الإسلام .. تمت هذه الأحداث قبل وفاة النبيﷺ بستة أيام ووصل إلى المدينة الرسول الذي يحمل هذا النبأ الطيب بعد وفاة النبيﷺ بقليل .. وهذا النبأ عندما وصل كانت المدينة تمر بفترة عصيبة سواء من الناحية النفسية أو الروحية أو السياسية لأن النبي محمد ﷺ كان الرسول الذي يخاطب من السماء.. والقائد الشجاع.. والحاكم العادل والقاضي الأمين والمعلم الرائد والمرشد الصادق والصديق الودود الألوف .. كان المسلمون يعرضون على النبي كل مشاكلهم فيجدون الحلول المريحة ويشعرون عند القرب منه بالأمن والأمان .. لذلك كانت حالتهم النفسية مضطربة فكان هذا الخبر بقتل المدعى الأسود العنسى بردا وسلاما ألقي بعض العزاء في قلوب المسلمين الكثيرة الموجوعة ...

ولم يكن الأسود العنسى وحده هو الذي ادعي النبوة فهناك غيره سوف نتعرض لذكرهم عندما يتطلب الأمر ذلك .. بل زاد الأمر أن امرأة كذلك ادعت النبوة، ومع كل ذلك استطاع (أبو بكر رضي الله عنه) أن يصد تيار الفتنة وأن يعيد الأمور إلى نصابها باعتماده على الله وصدق نيته.. وحسن تخطيطه واختياره للقيادات المعروف عنها الكفاءة وحسن التخطيط والمهارة واليقظة والصدق في الأداء.

---

(١) البلاذري ص ١١٤.





الفصل الرابع

أبو بكر الصديق وحروب الردة

أبو بكر الصديق شخصية عظيمة لا يستطيع أحد من الناس أن ينكر فضله وكرمه وسخاءه .. عندما عرف بالإسلام لم يتردد لحظة .. بذل ماله في سبيل الله.. وزوج ابنته لرسول الله ﷺ وقدمه الرسول ﷺ ليصلي بالناس أثناء مرضه .. كان الوزير الصادق والرفيق الأمين الهادئ الطبع .. لم تكن فيه حدة ولا صرامة .. بل كان وديعا رقيقا دقيق الجسم نحيله .. كان دائما تدمع عيناه لرقة شعوره وطيب قلبه .. لذا كان باهت اللون ذا عينين غائرتين تحت أهداب رقيقة .. كانت قامته المنحنية قد خلقت الشعور بتقدمه في السن وبشيخوخته رغم أنه كان يخضب لحيته بالحناء .. هذا أبو بكر الصديق الذي بايعه الناس خليفة للمسلمين بعد انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى .. والسبب في اختياره أنه هو أول الرجال إسلاما بعد الرسول ﷺ وليس على الساحة الاجتماعية من يسبقه .. كما أنه لم يفارق النبي ﷺ منذ أن أسلم حتى كان رفيقه في الهجرة فهو الأمين على السر .. كان النبي ﷺ يستشيره في كل الأمور ويأخذ برأيه .. لما اجتمع المسلمون لمبايعة أبو بكر الصديق ألقى فيهم خطبة أكدت تواضعه ورقته وعطفه واستبعدت كل شعور يصدر عنه بقسوة .. لذلك قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه (أيها الناس إني قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني .. الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إنشاء الله .. والقوي منكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إنشاء الله لا يدع أحد منكم الجهاد في سبيل الله فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل .. ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء .. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله .. فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم)[1]... كلمات تنم عن قلب طيب رحيم رقيق .. وكل المسلمين يعرفون فضائله وخدماته الجليلة للإسلام .. كانت شجاعته نابعة من أعماق نفسه وتعلقه بالنبي أمر أصيل في أحاسيسه ومشاعره لهذا سماه النبي بالصديق ...

---

(١) الطبري جـ ٣ ص ٢١٠ .



أثناء مرض النبي ﷺ وفى الأيام الأخيرة من حياته .. كان قد أمر بتجهيز سرية كبيرة لغزو الأردن ونبه أن يشترك جميع الناس فيها وقد عين النبيﷺ قائدا لهذه السرية (أسامة بن زيد بن حارثة) وأسامة من عامة الناس..ليس لأسرته شأن يذكر في قريش ..لأن أباه كان عبدا وقد اعتقه النبيﷺ.. وزيد هذا كان من أخلص الناس لسيدنا محمد ﷺ .. وقد ولاّه النبي ﷺ قيادة الجيش الذي توجه لغزو مؤتة وقد استشهد زيد والد أسامة فى أول الأمر هناك ..وكان أسامة يلقب بحب النبي ﷺ وعندما ولاّه النبي ﷺ قال له ..(سر إلى موضع مقتل أبيك فأوطئهم الخيل فقد وليتك هذا الجيش فاغز صباحا ..وحرق عليهم وأسرع السير تسبق الأخبار ..وخذ معك الأدلاء وقدم العيون والطلائع أمامك .. فإن ظفرك الله فاقلل اللبث فيهم[1]... إن أسامة هذا تولى قيادة جيش فيه صفوة ممتازة من الشخصيات العظيمة التي تنتمي إلى قبائل كبيرة وفيهم من هو أكبر منه سنا والغرض من ذلك تدريب الشباب على القيادة وفتح المجال أمام أصحاب الكفاءات والمواهب ليحتلوا أماكن القيادة بغض النظر عن السن .

والانتماء القبلي أو الأسري ... كانت هذه الحملة آخر شيء يأمر به النبيﷺ وكان الغرض منها تأديب الروم وتفريق جمعهم حيث يهددون أطراف الدولة الإسلامية والنبي ﷺ فى آخر لحظات حياته جعل يردد (أنفذوا بعث أسامة)[2] .. ولقي النبي ﷺ ربه وكان جيش أسامة لا يزال بمعسكره غرب جبل أحد .. وكان ذلك في ربيع الأول العام الحادي عشر .. ويومها بويع أبو بكر خليفة لرسول اللهﷺ وقائداً وحاكماً للدولة الإسلامية .. فى اليوم التالي من توليه الخلافة أصدر أبو بكر أمره لجيش أسامة بالاستعداد للتحرك والسير إلى الجهة التي حددها رسول الله ﷺ ونبه على صفوة الصحابة أن ينضموا إلى الجنود ويقاتلوا تحت إمرة الشاب الصغير تنفيذاً لتعليمات النبى ﷺ .

---

(١) طبقات ابن سعد بتصرف جـ ٢ ص ١٣٦.

(٢) نفس المصدر السابق.

أثناء الإعداد لهذه الحملة هبت رياح عاتية تريد أن تقتلع شجرة الإسلام من الجزيرة العربية فما كاد خبر انتقال الرسولﷺ إلى ربه إلا ووردت الأنباء بقيام ثورة في بلاد العرب .. حيث تمردت كل القبائل وتحللت جميعها من قسم الولاء والطاعة الذي أقسموه من قبل .. يزاد إلى ذلك أن بعضا من رؤساء القبائل والمتقدمين في السن التفوا حول أدعياء النبوة وبدأت نواياهم الخسيسة تظهر .. فهم يريدون العودة إلى نظام الاستقلال القبلي الذي كان سائدا أيام الجاهلية .. ولقد ظهر أنبياء كاذبون وزعم بعضهم أن محمداً أشركه في النبوة .. وأدعياء النبوة كانت لديهم أغراض شخصية وطموحات سياسية فأرادوا أن يستفيدوا من هذه القلاقل وأن يحولوها لمصلحتهم حتى يظفروا بما في نفوسهم .. والدارس للتاريخ يتبين له .. أن السبب الرئيسي في الردة هو :

١- أن الإيمان الصادق لم تتشربه نفوس القبائل .. فقد كان إيمانهم ضعيفا وفي مثل هؤلاء يقول الحق سبحانه (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ * يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ) [الحج : ١١، ١٢].

٢- أن معظم القبائل في العامين الأخيرين من حياة النبي ﷺ اعتنقت هذه القبائل الإسلام لأسباب سياسية وافقت هواها ورأوا في محمدﷺ زعيما سياسيا قويا فوافقوه ولم يتشربوا الإيمان الصادق ...

٣- أن بعض القبائل اعتنقت الإسلام تبعا لزعيمها أو رئيسها أو لنوع من صداقة بينها وبين قبيلة أسلمت ...

٤- هؤلاء جميعا كانوا ينظرون إلى محمد ﷺ باعتباره شخصية قوية تتمتع بمزايا ليست في أحد سواه فلما انتقل إلى الرفيق الأعلى أرادت أن تتحلل من هذا الولاء الذي أعطته لهذه الشخصية بالذات

٥- بعض القبائل أرادوا أن يتحرروا من بعض الأنظمة التي جاء بها الدين الجديد مثل .. الصلاة .. الزكاة .. الصيام .. تحديد عدد الزوجات .. إلى غير ذلك من الأمور التي زعموا أنها قيودا فرضها عليهم محمد ومادام قد غاب عن الساحة فهم أحرار من حقهم أن يفعلوا أي شيء دون أن يتقيدوا بنظام الإسلام ... هذه هي الرياح التي بدأت تهب على عاصمة الدولة الإسلامية (مكة والمدنية) وثقيف بالطائف .. وكانت هذه الرياح تعني التمرد على سلطة المدينة الدينية والسياسية.. ولقد زاد قلق المسلمين الأصفياء وأحسوا بالأخطار محدقة بهم وبالاضطراب يتزايد من حولهم .

ثقة واطمئنان

وردت أنباء القلاقل الموحية بالاضطراب والخلخلة والتصدع إلى المدينة وجيش أسامة معسكر في خارجها وأبو بكر يصر على تسيير جيش أسامة فذهب إليه جماعة من كبار القوم يقولون له (إن هؤلاء جل المسلمين والعرب على ما ترى قد انتفضت بك فليس ينبغي لك أن تفرق عنك جماعة المسلمين) فكان رد أبي بكر (والذي نفس أبي بكر بيده لو ظننت أن السباع تتخطفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله صلي الله عليه وسلم)[1].. إن أبا بكر يتكلم بلغة الواثق المطمئن.. لكن المسلمين في معسكر أسامة خاصة أصحاب الرأى والمشورة بل وانضم إليهم أسامة واتفقوا على أن يرسلوا بعمر بن الخطاب إلى أبي بكر رضي الله عنه يحمل هذه الرسالة .. وكانت من شقين.. الأولى من أسامة يقول فيها إإذن لي أن أرجع بالناس فإن معي وجوه الناس وحدهم ولا آمن على خليفة رسول الله والمسلمين من حوله أن يتخطفهم المشركون) والثانية من الزعماء أصحاب الرأي الذين قالوا لعمر أن ينقل إلى الخليفة رأينا بعدم السير (فإن أبى إلا أن نمضي فأبلغة عنا واطلب إليه أن يولي أمرنا رجل أقدم سنا من أسامة .. وحمل عمر الاقتراحين وتوجه إلى أبي بكر الذي وجده في داره يجلس على

(١) الطبري جـ ٣ ص ٢٢٥.

الأرض وهو يفكر فى هذه الأعباء الثقيلة التي انحطت على كاهله وقد بدى عليه الجهد والأعياء .. وجلس عمر أمام الخليفة ونقل إليه الرسالة الأولى والثانية .. وإذا بأبي بكر ينتفض ويتحدث بصوت الرجل الشجاع وينظر إلى عمر ويقول له (ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني أن أنزعه .. ؟[1] وخرج عمر مسرعا وتوجه إلى المعسكر وصاح فى وجوه الناس (أمضوا ثكلتكم أمهاتكم ما لقيت في سبيلكم من خليفة رسول الله)[2]

هكذا تكون القيادة الحكيمة شجاعة وبسالة وقيادة حكيمة متزنة وتقدير للمسئولية وشعور بالواجب وعدم التردد فى قرار اتخذ ...



تواضع

أصر أبو بكر رضي الله عنه على تسيير جيش أسامة مهما كانت الظروف والملابسات لأنه منفذ لأوامر الرسول ﷺ لذلك خرج فى أول شهر ربيع الثاني من السنة الحادية عشرة ليودع جيش أسامة .. وكان يمشي وأسامة راكب على دابته وأراد أسامة أن ينزل احتراما للخليفة وتقديرا لمكانته .. فرفض أبو بكر .. فقدموا إليه فرسا ليركبها فرفض .. فقال أسامة (يا خليفة رسول الله .. والله لتركبن أو لأنزلن) فرد أبو بكر بقوله (والله لا تنزل ووالله لا أركب .. وما على إلا أن أغبر قدمي فى سبيل الله ساعة فإن للغازي بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له وسبعمائة درجة ترتفع له وترفع عنه سبعمائة خطيئة)[3] .. ولك أن تتأمل فى مثل هذا الموقف العظيم وتعجب أكثر عندما يستأذن أبو بكر (الحاكم العام) من أسامة (قائد جيش) يستأذنه ليستبقي عمر ليعينه على أداء المهام الموكولة إليه .. فأذن أسامة لعمر ليبقي مع الخليفة .. عندما نقرأ مثل هذه الأمور نري أن الإسلام ربي رجالا يقدرون الأمور بقدرها ولا يعتدي أحد على حق الآخر مهما كان الوضع فليس للوزير أن يلغى قرار

---

(١) المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر .

(٣) الطبري جـ ٣ ص ٢٢٦.

الوكيل . ولا لوكيل الوزارة أن يلغي المدير العام . ولا للمدير أن يلغي الموظف الأصغر وهكذا .. أصدر أبو بكر رضي الله عنه أوامره لقائد الجيش فى أمور محددة أهمها قوله (اصنع ما آمرك به نبي الله ﷺ إبدأ ببلاد قضاعة ثم ات آبل ولا تقصر فى شيء من أمر رسول الله ﷺ)[1] ..

تؤكد الحقائق أن أبا بكر رضي الله عنه التزم بإنفاذ جيش أسامة تحقيقا لأمر النبي ﷺ كما أن تسيير الجيش فى هذه الظروف كان الغرض منها إظهار قوة المسلمين أمام المرتدين .. وكانت تتطلبه الأوضاع الاستراتيجية والسياسية ...

كان المرتدون قد ارتاحوا لتولي أبي بكر منصب الخلافة وأيقنوا أنهم سيحققون هدفهم ويطيحون بالدولة الإسلامية وسعدوا أكثر لأن الظروف مهيأة أمامهم فإن أبا بكر رجل طاعن فى السن وأن المدينة قد خلت من القيادات الحربية فالظروف إذاً مهيأة ، فبدأ اتصالهم ببعضهم يعدون العدة ويسابقون الأيام لينقضوا على الدولة ويبيدوها ...لكن القدر كان يخبيء بعض المفاجآت التي سوف تصيب المرتدين بصدمات شديدة تلقوها على يد (الرجل الطاعن فى السن الرقيق الودود) هذه الصدمات علق عليها أحد زعماء المرتدين وقد تمكن من الإفلات من قبضة جيش أبي بكر .. علق بقوله (ويل للعرب من ابن أبي قحافة)[2]

تخطيط مع توفيق

بعد خروج جيش أسامة بعث زعماء الردة بوفد إلى أبي بكر يعرضون عليه أنهم (سيقيمون الصلاة فقط ولن يدفعوا الزكاة) فرد عليهم أبو بكر (والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة) ومنح أبو بكر الوفد يوما واحدا ليفكروا فى الرد .. لقد كان فى نية الوفد شئ آخر خلاصته أن يتصرفوا على من بالمدينة من القيادات والمؤن الحربية والجنود وكان أبو بكر رضي الله عنه يعرف نية الوفد لذلك أمهلهم حتى يتمكنوا من بحث الأمر ومعرفة أسرار المجتمع المدني . لهذا أخذ الوفد بتفحص المدينة بعين

---

(١) تاريخ الطبري جـ ٣ ص ٢٢٧.
(٢) البلاذري ص ١٠٤.

فاحصة فلاحظ خلوها من المقاتلين لذلك استبشروا وفرحوا وذهبوا مسرعين إلى أقوامهم وذكروا لهم أن المدينة خالية ويمكن الانقضاض عليها بسهولة ولن تكون هناك مقاومة أبدا لذلك تجمع المرتدون فى منطقتين :

١- (الإبرق) وهى تقع شمالي شرقي المدينة بنحو سبعين ميلا ..

٢- فى (ذي القصة) وتقع شرقي المدينة بنحو أربع وعشرين ميلا ..

كان المرتدون على صلة بمن ادعوا النبوة مثل (طليحة بن خويلد) (مسيلمة بن حبيب) (امرأة تسمى سجاح بنت الحارث) ..

وكان أخطر هؤلاء الأدعياء طليحة لأن القبائل التي آمنت به وهو منها تقطن منطقة الوسط فى غرب وشمال بلاد العرب وتسكن هذه المنطقة قبائل غطفان وطئ وهوازن وبني أسد وبني سليم .. وهذه قبائل لها وزنها وثقلها..

وكان طليحة الدعي يقيم (بسميراء) وقد دعم جيش المرتدين بكتيبة من الرجال وضع على رأسها أخاه (حبال) وكان قائدا داهية واسع الحيلة وعندما وصلتهم الأنباء من خلو المدينة من المقاتلين ورقة أبي بكر وضعفه تملكهم الغرور وعزموا على شن حملة على المدينة وتحركت جيوش المرتدين من ذي القصة حيث تمركزت فى ذي الحصة وأقامت قاعدة قوية وخرجت بعض القوات ليعسكروا بالقرب من المدينة تمهيدا لشن هجوم عليها...

عرف أبو بكر بهذه الأخبار واستطاع أن يشكل قوة مقاتلة من شخصيات لهم قدرة وكفاءة وهم الذين تخلفوا بالمدينة من الأسرة الهاشمية القرشية حيث كانوا فى حزن على وفاة الرسول ﷺ ولم يخرجوا فى جيش أسامة ..

كان المرتدون يشعرون بالهدوء فى المدينة لذلك استكانوا وهدأت حركتهم قليلا وإذا بجيش المسلمين يفاجئهم بقوة وعزم وإصرار فتقهقر المرتدون وانسحبوا إلى الخلف .. وأرسل المسلمون إلى أبي بكر يخبرونه بالانتصار فأمرهم بالبقاء فى أماكنهم وكان أبو بكر يبحث عن (جمال) فلم يجد إلا الجمال التي يُحمل عليها وليست معدة للحرب .. ولما وصلت هذه الجمال إلى جيش المسلمين ركبوها ليطاردوا عليها العدو .. وكان الأعداء قد تجمعوا فى مكان يسمى (ذي حسَي) ولما اتجه

المسلمون إليه كان العدو قد جمع جموعه وأعدوا عدة لم يشعر بها المسلمون إلا وهم فى حالة غير طبيعية لأن المرتدين صنعوا قربا من جلد الماعز ملؤوها بالمياه ورموا بها أمام الجمال فعاقت السير ثم راح المرتدون يرفعون عقيرتهم بصورة مفزعة ويدقون على الطبول .. فخلق هذا الجو الفزع والخوف عند الإبل لأنها لم تدرب على القتال.. لذلك ولت مدبرة ولم يستطع المسلمون إيقافها .. اغتبط المرتدون لهذه النتيجة خاصة وأن (حبال) أخو طليحة هو الذي يخطط .. لذلك فرح المرتدون وما عرفوا أن الذي حدث ليس ضعف المقاتلين وإنما هو فزع البعير التي لم تكن تعمل إلا فى حمل الأثقال ...

جـــرأة

عاد المسلمون إلى المدينة واتفقوا على أن يقوموا بتصحيح الأوضاع التي حدثت .. ولقد قرر أبو بكر رضي الله عنه أن يقود الجيش بنفسه وسار فى الجزء الأخير من الليل وشكل جيشه على هيئة جناحين وقلب ومؤخرة .. احتفظ أبو بكر لنفسه بقيادة القلب وأمر على الجناح الأيمن النعمان وعلى الجناح الأيسر عبد الله وعلى المؤخرة سويد وكانوا جميعهم من أبناء (المقرن) ومع خيوط الفجر الأولى هجم المسلمون بسيوفهم على معسكر المرتدين الذين أسكرهم نصر الأمس ويغطون الآن فى نومهم ويحلمون بدخولهم المدينة فى الغد .. لكنهم فوجئوا بسيوف المسلمين ففروا من المعسكر وابتلعتهم الصحراء وما أن اجتمعوا إلا وكانت روحهم المعنوية قد هبطت إلى الصفر...

كانت هذه أول مرة يقوم فيها المسلمون بالحرب ليلا وكان الغرض من ذلك قصد المبادأة لأن جيش المسلمين قليل جدا .. وكانت خطة محكمة بل كان عملا جريئا حقق انتصارا ساحقا .. وفكر أبو بكر فى ألا يترك للعدو فرصة يلتقط فيها أنفاسه لذلك تحرك بجنده عندما أشرقت الشمس متجها إلى ذي القصة واستعمل نفس الأسلوب حيث كان المرتدون قد تجمعوا بكثرة هناك ففاجأهم لكنهم لم يصمدوا أمامه وفروا هاربين وانتصر عليهم انتصارا ساحقا وطهر المكان من هؤلاء الأنجاس وأرسل

بكتيبة صغيرة بقيادة طلحة بن عبيد الله لتطارد العـدو وتتعقبـه .. وأصبح الهـاديء المسن .. فارسا مغوارا وشجاعا مقداما ومقاتلا بارعـا .. وقد حققت انتصاراتـه رفـع الروح المعنوية عند المسلمين كذلك أعربت بعـض القبـائل المرتـدة عـن ندمـها وأسـفها وعادت إلى الإسلام وأرسلت إما بالزكاة أو بالجزية وامتلأت خزائن الدولة الإسـلامية بالمال الذي يسد به المسلمون حاجتهم .. وكان من رأي أبي بكر أن الظـروف الحاليـة غير مواتية لشن حرب هجومية عامة ..

عودة جيش أسامة

عاد جيش أسامة إلى المدينة بعد أن أحرز نصرا بـهذه المنطقـة " منطقـة الأردن " ومـا حولها واستطاع بحماس الشباب وجرأته أن يكتسـح القبـائل الـتي اعـترضت طريقـه ولقد تسمعت القبائل هناك بهذه القوة فبدءوا يعيدون حسابهم وعاد إلى المدينة ومعـه مال وفير وعدد كبير من الأسرى وقوبل جيش أسامة من أهل المدينة بالترحيب لأنـه بوجود هذا الجيش يشعر المواطنون بالأمن والاطمئنان .. وقد تغيب هذا الجيـش عـن المدينة حوالي أربعين يوما.

انتقام المهزومين

بعد أن انهزم المرتدون الذين سولت لهم أنفسهم الخروج على الدولة وإعلان العصيـان عليها عاد الشيطان فسول لهم ففكروا فـي أن يحشـدوا حشـودهم ويجمعـوا جموعـهم ويحزبوا الناس من كل فج لأنهم ظنوا أن أبا بكر هين لين يخدع ويؤخذ علـى غـرة .. لكن الأحداث أثبتت أنهم أمام أسد هصور ورجل شجاع تربي فى مدرسة الإسلام فهو ليس بالغر الذي يخدع .. لذلك رجع المرتدون إلى بلادهم وكل قبيلة انقضت علـى مـن بقي فيها على إسلامه وقضوا على المسلمين بصورة فظيعة بشعة .. حيث قامت بعـض القبائل بحرق المسلمين وهم أحياء ورمي بعضـهم مـن قمـم الجبـال.. وأصبحـت هـذه المناظر المؤلمة مصدر رعب وفزع لكل المسلمين .. فما كان من أبى بكر رضي الله عنـه إلا

أنه وقف أمام الناس وقال وبأعلى صوته (أقسم على أن يقتل كل من اشترك فى قتل مسلم بنفس الأسلوب الذي قتله به) وقد ظهر الغضب على وجهه والجد فى كلامه.. ولهذا عزم أبو بكر رضي الله عنه على أن يلقي عبئا كبيرا على كاهل المسلمين سواء كانوا قادة أم جنودا وطلب منهم أن يستعدوا للجهاد لأنهم سيواجهون أخطارا جسيمة .. ثم أعلن أنه سوف يتقدم الجند وسيكون فى الطليعة..ولما أراد المسلمون أن يثنوه عن رأيه رد عليهم بقوله (لا والله لأواسينكم بنفسى..)[1] وفعلا قاد أبو بكر الجيش واشتبك مع المرتدين فى مواقع متعددة.. حيث طرد المرتدين من (الإبرق) مع بعض القبائل التي تعيش فى المنطقة واستسلمت القوات فى هذه المنطقة لأبي بكر .. الأمر الذي دفع (بطليحة) الدعي الكذاب بأن ينتقل من سميراء إلى بذاخة .. وتوقف أبو بكر عند هذا الحد وعاد إلى المدينة يصرف الأمور هناك .. ثم وضع خطة خلاصتها تقسيم جيش المسلمين إلى عدة ألوية ليتوجه كل لواء إلى منطقة يؤمنها .. وقد اعتمدت خطة أبي بكر على التقسيم الجغرافي مع مراعاة مواقع الجبال والموانع المائية وهكذا لتكون المهمة كله وحتى تؤدي هذه الخطة إلى قيام قاعدة كبيرة تؤدي الغرض وتخدم الهدف الذي يرمي إليه أبو بكر الصديق رضي الله عنه وتؤمن المنطقة: لهذا فقد عقد هذه الألوية ليواجه :

١- طلحة الدجال فى البذاخة ..

٢- مالك بن نويرة بالبطاح ..

٣- مسيلمة الكذاب فى اليمامة ..

٤- حركة الردة الواسعة على ساحلي بلاد العرب الشرقي والجنوبي ..

٥- هناك كذلك فى البحرين وعمان وحضرموت واليمن قلق واضطراب ضد الزعامة السياسية فى المدينة ..

٦- هناك حركة ردة ظهرت فى المنطقة التي تقع جنوبي مكة وشرقها ..

٧- قبيلة قذاعة عادت إلى شمالي بلاد العرب وبدأت تثير القلاقل ..

---

(١) الطبري جـ ٣ ص ٢٢٧.

أصبح المسلمون فى وضع لا يحسدون عليه فهم مهددون من كل جانب والمرتدون كـثرة وأبو بكر يحاول بكل ما أوتي أن يحافظ على المصباح الـذي يحملـه يضـيء لـه الظـلام الذي كان يخفي وراءه الخطر المحدق بالمؤمنين .. وأبـو بكـر مصمـم علـى أن يحتفـظ بالشعلة وأن يبدد بها الظلام وأن يقضي على الشر مهما كانت قوته .. كـانت سياسـة أبي بكر الاستراتيجية للمعارك الحربية يمليها عليه الوضع الـذي وجـد نفسـه فيـه وكانت ثقته فى الرجال المخلصين من حوله لاحدود لها .. تطلع بفراسته إلى خالد بن الوليد الذي سماه الرسولﷺ بسيف الله .. وهنا قسم الجيش إلى عدة ألوية . أهمها...

١- لواء عسكري قائده خالد بن الوليد .. مكلـف بمحاربـة .. طليحـة ببذاخـة.. ثـم مالك بن نويرة فى البطاح ..

٢- لواء عسكري قائده عكرمة بن أبي جهل..وكلف بمواجهة مسيلمة فى اليمامة..

٣- لواء حربي بقيادة عمرو بن العاص .. وكلف بمواجهة المرتدين فى منطقـة تبـوك ودومة الجندل ..

٤- لواء حربي بقيادة خالد بن سعيد وكلف بمواجهة المرتدين على حدود الشام.

٥- لواء حربي بقيادة المهاجر بن أمية وكلف بمواجهة المرتدين فى اليمن وحضر موت.

٦- لواء حربي بقيادة سويد بن مقرن وكلف بمواجهة المرتدين فى المنطقـة السـاحلية شمال اليمن ..

٧- لواء حربي بقيادة طريفة بن حاجز وكلف بمواجهة المرتدين فى المنطقـة الواقعـة شمال المدينة ومكة ..

٨- لواء حربي بقيادة العلاء بن الحضرمي وكلف بمواجهة المرتدين فى البحرين.

٩- لواء حربي بقيادة عرفجة بن هرثمة وكلف بمواجهة المرتدين بمنطقة مهرة.

١٠- لواء حربي بقيادة حذيفة بن محصن وكلف بمواجهة المرتدين بعمان .

١١- لواء حربي بقيادة شرحبيل بن حسنة وهذا اللواء ينتظر فى المدينة حتى تصـدر إليه تعليمات الخليفة ..

تقسيم رائع وعمل ابتكاري مجيد يؤمن به المنطقة كلها ويبث الرعب في قلوب المرتدين وكان من حكمة أبي بكر أنه قبل أن تغادر هذه الألوية المختلفة بعث بالرسائل إلى القبائل يدعوها إلى العودة في الدخول إلى الإسلام والخضوع العام للقيادة السياسية في المدينة وفي رسائله وعد بالعفو والتسامح عن كل شيء صدر من القبيلة أثناء الردة .. أما من يقاوم ولا يستسلم فالقتال .. كما صدرت أوامره صريحة بأن على جيش المسلمين أن يؤذن في الناس بالصلاة ويطالبهم بإخراج الزكاة .. فإن وافقت القبائل على ذلك فيتوقف الحرب تماما .. ثم أصدر أوامره إلى قواد الألوية بأمور محددة أهمها :

١- عدم التعرض لأي قبيلة لم يحددها أبو بكر وإنما الالتزام بما حدده.

٢- على القائد أن يكف عن مهاجمة القبيلة إذا استجابت لآذان الصلاة ودفعت الزكاة أو الجزية ..

٣- مقاتلة كل من لا يستجيب لنداء الإسلام .. أو من لا يعلن خضوعه التام للإسلام..

٤- عدم التعرض لمن يستسلم بأي إزعاج أو مضايقة ..

٥- قتل المرتدين الذين قتلوا المسلمين من قبل .. وأن يكون القتل بنفس الأسلوب الذي قتلوا به المسلمين .. إحراق من أحرق .. والرمي من قمم الجبال لمن رمي[1] بهذه الأوامر زود أبو بكر قواد الجيش والجيوش .. ثم صدرت الأوامر إلى خالد بن الوليد بالتحرك فورا ودون إبطاء وفي اليوم التالي تحرك عكرمة وفي اليوم الثالث تحرك عمرو .. أما بقية الألوية لا تتحرك إلا بعد صدور تعليمات حيث كان في انتظار رد الرسائل من هؤلاء...

كان أبو بكر وهو يرسل بخالد إلى طليحة يضع في اعتباره أن طليحة كذاب أفاك له أعوان .. تلتف من حوله قبائل قوية إذًا لابد من وضع عمل تظهر فيه الدبلوماسية الإسلامية بأجلي معانيها .. فإن فشلت فالحرب . والقيادة حكيمة وقادرة وشجاعة .

---

(١) الطبري جـ ٣ ص ٢٥٢.

لقد كان من بين القبائل التي تؤيد طليحة قبيلة طيء .. وكان رئيس هذه القبيلة (عدي بن حاتم) وهو مسلم ورع وكان قد ترك القبيلة عندما ارتدت وانضم إلى نفر من اتباعه المخلصين ويعيش في المدينة .. فأرسل أبو بكر إلى قبيلته وألحقه بكتيبة خالد .. وقام عدي بدور عظيم حيث دل خالدا على الطريق وكان أول لقاء مع طيء ونادى عدي على أفراد قبيلته وأنذرهم مغبة عملهم وتماديهم في الباطل وحذرهم من جيش المسلمين .. فقال أفراد القبيلة لعدي .. امنع عنا جيش المسلمين قليلا لأن لنا كتيبة عند طليحة .. إن تركناهم عنده قتلهم أو إرتهنهم .. وعاد عدي إلى خالد وأخبره بذلك .. لكن خالدا لم يكن فى حالة تسمح له بتضييع الوقت لأنه مصمم على أن يعامل المرتدين بالشدة لكن عديا ناشد خالدا وقال .. يا خالد (أمسك عني ثلاثا يجتمع لك خمسمائة مقاتل تضرب بهم عدوك وذلك خير من أن تعجلهم إلى النار)[1]

ووافق خالد على مهلة القوم ثلاثة أيام .. كان بالقرب من طيء قبيلة (جديلة) لم يذكرها الخليفة لخالد فى خطته الحربية .. وهنا أراد خالد ألا يضيع الوقت فأراد أن يشن حربا هجوميا على هذه القبيلة .. وهنا تقدم عدي وطلب من خالد أن يقوم بدور الوساطة كذلك عند هذه القبيلة .. وذهب عدي إلى القبيلة التي استجابت له وقدمت ألف محارب من خيرة جنودها ليكونوا قوة مع خالد .. كما أن قبيلة طيء استجابت واستسلمت دون حرب وقدمت من عندها خمسمائة مقاتل.. فأصبح جيش خالد قويا وتقدم به إلى (بذاخة) التي يعسكر فيها الدعي طليحة .. وقد دفع خالد برجلين من خيرة رجاله كعيون له على الطريق يتعرفان على ما فيه .. وتقدم الجندان وهما (عكاشة بن محصن) وصحابي آخر .. وفى الطريق تقابلا مع رجلين من المرتدين أحدهما (حبال أخو طليحة) ودارت معركة بين الأربعة قتل فيها (حبال) أما صاحبه فقد رجع إلى طليحة وأخبره بالخبر فغضب غضبا شديدا وخرج بنفسه مع بعض جنده ولحق بعكاشة وصاحبه فقتلهما.. نقف هنا وقفة نتعرف على :

---

(١) الطبري جـ ٣ ص ٢٥٣.

هو طليحة بن خويلد أحد المتنبئين الكذبة .. كان سيدا لقبيلة بني أسد.. أبدي عداءه للإسلام وظل يقاوم النبي ﷺ بعد غزوة أحد بثلاثة أشهر جمع قبيلته ليغير بها على المدينة (مكان القيادة السياسية للمسلمين) ظنا منه أن المسلمين انكسروا فى هذه المعركة وأراد أن يستغل هذه الفرصة ليحقق مصالحه الشخصية .. وعرف النبي ﷺ بما نوي عليه هذا الكذاب فأرسل إليه بعض الجند فشتتوا شمل قبيلة طليحة الذين فروا من سيوف المسلمين وتركوا ماشيتهم غنيمة للمسلمين .. كما أن طليحة تعاون مع اليهود أثناء غزوة الخندق وجاء بكتيبة من بني أسد قادها بنفسه شكل جزءا من الأحزاب الذين حاصروا المدينة .. كما أن طليحة قاد معركة فى العام السابع الهجري ضد المسلمين حيث كان يتعاون مع يهود خيبر ...

كان لكل هذه الأحداث أثر سيء على طليحة مما أثر فى نفسه لأنه فقد هيبته عند قومه .. بل أصبح وليس له أثر يذكر عند الناس ...

فى العام التاسع الهجري والذي يعرف بعام الوفود .. جاء وفد من قبيلة بني أسد يعلنون اعتناق القبيلة كلها للإسلام .. كما تظاهر طليحة معهم بالإسلام .. وهذا التحول فى العقيدة من جانب هذه القبيلة كان مبعثه الخوف لأن المسلمين قويت شوكتهم وعظم أمرهم وأصبحت سياستهم هى النافذة فى المنطقة ولما كان طليحة يزعم بأنه يرى أشياء غير منظورة فقد أصبح يتنبأ بالمستقبل وبدأ يتكهن ويزعم أنه عرافا وينظم الشعر .. عله بذلك يسترد مجده الضائع وسلطانه الذي ذهب أدراج الرياح .. شاءت الأقدار أن النبي العظيم محمدا بن عبد الله ﷺ انتقل إلى الرفيق الأعلى وذاع خبر انتقاله بين الناس ..

هنا حدث عند طليحة لوثة نفسية وأعلن عن نفسه نبيا وحاول أن يستقل بنفسه وبذل جهودا مضنية ليقنع قبيلته بالإيمان به حتى انضمت تحت لوائه وآمنت به نبيا .. وبدأ على الفور فى طرد من أرسله الرسول ﷺ لجمع الزكاة وهو (ضرار بن الأزور) ويعني هذا قطع العلاقة الدبلوماسية مع القائد العام وقوة المدينة..

وقد بدأ طليحة بعد أن منع الزكاة أن يعدل من طريقة الصلاة فأمر أتباعه بعدم السجود وقال لهم (إن الله لا يصنع بتعفير وجوهكم وتقبيح أدباركم شيئا اذكروا الله أعفة قياما)[1] ... ولقد استجابت القبيلة وصلت معه بدون سجود ولقد زاد عدد أتباع طليحة باتساع موجة الردة .. لذلك حصل على تأييد أغلب القبائل التي تقطن وسط الجزيرة العربية مثل (غطفان ، طيء ، هوازن ، بني سليم علاوة على بني أسد) ويستنتج من قراءة التاريخ أن تأييد هذه القبائل كان فاترا .. كان عيينة بن حصن رئيس قبيلة بني فزارة إحدي بطون قبيلة غطفان .. وكان عيينة هذا على رأس كتيبة غطفان في غزوة الخندق .. وكان من أقوى المؤيدين لطليحة وكان يقول للناس (والله لأن نتبع نبيا من الحليفيين أحب إلينا من أن نتبع نبيا من قريش وقد مات محمد وبقي طليحة ..[2] هذا هو طليحة الذي كلف خالد بمواجهته ... ولا شك أن طليحة كان يبعث برجاله هنا وهناك ينشرون أكاذيبه ويرددون القصص عن أمجاده وبطولاته وهو لم يفعل ذلك من تلقاء نفسه وإنما نزل عليه الوحي الذي كلفه بذلك كما يزعم .. من هنا كان طليحة فتنة وشرا وليس إلا خالد يرده إلى الصواب ويعلمه الأدب ...

المعركة

في أواخر شهر جمادي الآخرة من العام الحادي عشر تهيأ الجيشان لمعركة تدور رحاها عند (البذاخة) كان جيش خالد يقترب عددا من ستة آلاف لأنه جاء من المدينة بأربعة وانضم إليه ألف من قبيلة جديلة وخمسمائة فارس من طيء وبعض الأشخاص الذين انضموا إليه .. جيش خالد يتمتع بالثقة في قيادته .. وحسن الصلة بالله .. والاعتماد على الله ... أما جند طليحة فلم يعرف عددهم بالضبط إلا أنه كان يزيد عن جيش المسلمين بآلاف .. عين طليحة (عبينة بن حصن) قائدا عاما لجيشه أما الدجال طليحة فقد نصب لنفسه خيمة أقام فيها وعصب رأسه والتف بكساء زاعما أنه في انتظار جبريل الذي سينبئوه عن سير المعركة ...

---

(١) تاريخ ابن الأثير جـ ٢ ص ٣٤٤.
(٢) تاريخ الطبري جـ ٣ ص ٢٥٧.

قاد خالد جيش المسلمين بنفسه وشن هجوما على طول الجبهة .. واستطاع خالد أن يفتح ثغرات في جيش العدو الذي رجع القهقرى وفروا في الصحراء .. وذهب عيينة بن حصن إلى الدجال وهو جالس في هيئة المتأمل .. والفزع والخوف يتملكان عيينة وقال بلهجة صارمة لم لم تنزل علينا الملائكة .. هل جاءك جبريل ؟ أجاب الدجال .. لا .. وعاد عيينة إلى أرض المعركة وهاله ما حققه المسلمون من نصر وما حصلوا عليه من مكاسب .. فارتد على عقبيه إلى الكذاب وهو يسأله بانفعال وصوت مرتعش (هل جاءك جبريل بعد؟ فرد الدجال وقال .. نعم يا عيينة .. فقال له .. وماذا قال لك.. ؟ ورد طليحة بهدوء وقال .. قال لي إن لك رحا كرحاه وحديثا لا تنساه) وهنا انفجر عيينة قائلا (أظن أن علم الله أنه سيكون حديثا لا ننساه) ثم عاد إلى قبيلته وصاح فيهم يا بني فزارة انصرفوا فهذا والله كذاب)[1] ... ولما رجعت فزارة عن أرض المعركة وتخلوا عن طليحة وهم عصبة بدأت القبائل الأخرى تغادر أرض المعركة وسيوف المسلمين في رقابهم .. وذهب إلى طليحة جماعة من الفارين يسألونه ماذا يصنعون وبماذا تأمرنا ؟ فرد عليهم من استطاع منكم أن يفعل مثل ما فعلت وينجوا بأهله فليفعل[2] .. ونهض طليحة ووضع زوجته على ناقة كانت معدة له وامتطى هو صهوة جواده واختفي الاثنان في الصحراء حيث حجبتهما سحب كثيفة من الغبار.. حقق خالد نصرا عظيما في موقعة البذاخة والتي انتهت بانهزام ثاني عدو قوي للإسلام وتشتت قواته التي أصبحت مثلا يذكر بشر هزيمة على يد بطل عظيم هو سيف الله المسلول خالد بن الوليد في موقعة البذاخة ...

خاتمة سعيدة

هام طليحة على وجهه ولم يدر أين يذهب وقادته قدماه إلى حدود الشام وهناك عاش مع قبيلة (كلب) ولم يذكر شيئا عن نبوءته الكاذبة وفيما هو هناك يعيش حياته العادية ويتسمع أخبار قبيلة (بنو أسد) عرف من الأخبار أنهم عادوا إلى الإسلام مرة

(١) الطبري جـ ٣ ص ٢٥٦.

(٢) الطبري جـ ٣ ص ٢٥٧.

ثانية .. فسارع طليحة وعاد إلى الإسلام هو الآخر وذهب إلى قبيلتـه وأخبرهـا بـأمره ثم ذهب إلى مكة معتمرا ومنها إلى المدينة .. ولكن أبا بكر رضي الله عنـه لم يأبـه بـه ولا بمقدمه .. بعد انتقال أبي بكر إلى ربه تولي عمـر رضـي الله عنـه الخلافـة فذهـب طليحة بعد مرور سنة أو أكثر إلى المدينة وقصد عمر ولم يكن عمر الذي يغفر الإسـاءة بسهولة فلما رآه قال له أنت قاتل عكاشة بن محصـن ورفيقـه ثـابت .. والله لا أحبـك أبدا .. كان طليحة شديد الذكاء فـرد بقولـه (يـا أمـير المؤمنـين مـا تـهم مـن رجلـين أكرمهما الله بيدي ولن يهنى بأيديهما) فقال له عمر .. يا خدع ما بقي من كـهانتك ؟ قال نفخة أو نفختان بالكير)[1] ..

عاش طليحة بين المسلمين إلى أن تطوع مع جيـش المسـلمين فـى غـزو العـراق وأبدي مواقف عظيمة ومهارة نادرة وبسالة رائدة .. ولقد اشترك فى موقعة القادسية وموقعة نهاوند حيث سقط شهيدا فى المعركة الأخيرة ومات على الإسـلام ودافـع عـن الإسلام الذي كان يعاديه .. ولكن الله غفور رحيم ...



مطـــاردة

بدأ خالد بن الوليد يطارد فلول المرتدين ويتعقبـهم واسـتطاع خـالد أن يطـهر المنطقـة وبدأت القبائل تدخل فى دين الله وتعود إلى حظيرة الإسلام وأرسل وحدة مـن وحـدات جيشه تتعقب عيينة الذي ظل على معاداته للإسلام وتحديه لخالد رغم معرفتـه بمـا حدث لطليحة ، ولقد أدركه خالد عند مكان يسمى (الغمـرة) ودارت معركـة رهيبـة قتل فيها كثير من المرتدين وأسر عيينة وأرسلوا به إلى المدينة أسـيرا ومـا أن رآه أبـو بكر حتى مر شريط الذكريات أمام عينية .. فهذا الرجل سيد مـن سـادات غطفـان لـه مكانة مرموقة فيها .. أراد النبيﷺ فى غزوة الخندق أن يجـري معـه مفاوضـات .. ويا سبحان الله ها هو الآن أسير فى الأغلال .. بل إن الصبيان يطوفون بـه وينخسـونه بأطراف سعف النحل (لأنه كان أعورا) ويقولون له يا عدو الله أكفرت بعـد إيمـانك ؟

---

(١) الطبري جـ ٣ ص ٢٦١.

ويرد عليهم بصوت غير مسموع لأن الأطفال من حوله أحاطوا به وهم يتصايحون ... ويقول هو ... والله ما كنت آمنت بالله قط .. وهذا أمر حقيقي .. لذلك يعد عيينة من المشركين وليس من المرتدين .. نظر إليه أبو بكر وتجاوز عنه وحقن له دمه وأسلم بعد ذلك ورجع إلى قومه .. ثم زار المدينة مرة أخرى فى خلافة عثمان وذهب إلى دار الخليفة وزاره بعد غروب الشمس .. وقد طلب عثمان من عيينة أن يتناول معه طعام العشاء فاعتذر بأنه صائم .. ولما علت الدهشة وجه عثمان قال عيينة يا أمير المؤمنين: وجدت صيام الليل أيسر على من صيام النهار[1]...

القصاص العادل

عندما كانت معركة (البذاخة) قائمة كانت القبائل المحيطة بالمنطقة ترقب الموقف.. وعرفت القبائل ما انتهت إليه المعركة وهروب طليحة وأسر عيينة .. لذلك أسرعت هذه القبائل إلى خالد تعلن ولاءها وتقول له (ندخل فيما خرجنا منه)[2]... بدأت القبائل تستسلم ويعلنون ندمهم على ما فعلوا .. لكن خالدا رفض .. وتذكر أمر الخليفة له .. وهو .. أن يقتص من كل مرتد قتل مسلما.. والقصاص بالعدل .. وبنفس الأسلوب الذي حدث وأعلن خالد على القبائل أنه لن يقبل عودتهم إلا إذا سلَّموا القتلة .. ووافقت القبائل على هذا الأمر .. وسلموا القتلة فعلا .. وبدأ خالد يسأل القاتل على رؤوس الناس عن الأسلوب الذي اتخذه مع المسلم عند قتله .. فمن حرق بالنار حرقه .. ومن رضخ رأس المسلم بالحجارة رضخ رأسه .. ومن رمى بالمسلم من فوق قمم الجبال رماه .. ومن نكس رأس المسلم فى البئر نكس رأسه .. المهم أن العدالة أخذت مجراها على رؤوس الأشهاد فالعين بالعين.. والسن بالسن .. والبادي أظلم[3]... وصدق الله العظيم (وَلَكُمْ فى الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) [البقرة : ١٧٩].

---

(١) ابن قتيبة ص ١٣٢.

(٢) الطبري جـ ٣ ص ٢٦٢.

(٣) بتصرف من المرجع السابق.

كتب خالد إلى أبي بكر يخبره أنه قام بأداء كل ما كلف به ونجح في مهمته ووصف له ما حدث بالتمام .. وجاء رد الخليفة على خالد .. يقره على ما فعل ويهنئه على النتائج ويدعو له بمزيد من النجاح...



بنو سليم

قبيلة لها مع خالد ذكريات .. فإن رجالها حاربوا تحت قيادته أثناء فتح مكة وفي غزوة حنين وغزوة الطائف .. ولاشك أن خالدا من الرجال الذي يعرف قدر جنده .. وكانت أيامه معهم طويلة .. لكن هذه القبيلة ارتدت عن الإسلام ورغم أنها تسكن هذه المنطقة وسمعت بما حدث ، إلا أنها للأسف احتشدت وجمعت بعض فلول الهاربين وعسكروا في مكان يسمى (النكراء) وجعلوا قيادتهم إلى (عمرو بن عبد العزى) وكان سيدا في قومه .. ويظهر أنه لم يستوعب الدرس الذي تلقاه طليحة والقبائل المحيطة به ويبدو أنه متهور .. لذلك .. أخذ يشجع رجاله على الثبات في تحد ظاهر لسلطان المسلمين .. وكان الناس يطلقون عليه (أبو شجرة) وعندما أخذه الحماس أنشد شعرا وقال فيه :

فرويت رمحي من كتيبة خالد : وإني لأرجو بعدها أن أعمرا[1]

علم خالد بتجمع قبيلة بني سليم ، فاتجه فورا إلى النكراء ودارت هناك معركة رهيبة واستطاعت القبيلة أن تقاوم مقاومة شديدة ولذلك سقط بعض الشهداء من المسلمين .. لكن خالدا بحيلته العسكرية وابتكاره في أساليب الكر والفر استطاع أن يهزم هذه الجموع التي كانت في يوم ما تقاتل تحت إمرته ووقع قائدهم (أبو شجرة) أسيرا وأرسل به خالد إلى أبي بكر في المدينة الذي عفى عنه بعد أن أبدى ندمه وأعلن توبته وعاد إلى الإسلام ...

---

(١) الطبري جـ ٣ ص ٢٦٦



الأيـام دول

أبو شجرة القائد هو (عمرو بن عبد العزى) الذي كان سيد قومـه وقـائد قبيلتـه فـى الحرب تبدلت أحواله وتغيرت ظروفه .. لذلك ذهب إلى المدينة فـى خلافـة عمـر بـن الخطاب عله يصيب أي مال يقيم به أوده .. وشاءت الأقدار.. أنه دخل المدينـة وعمـر يوزع على فقراء المسلمين نصيب كل واحد منهم من بيت المال .. وذهب أبو شجرة إلى بيت مال المسلمين .. وعمر يوزع على الفقراء .. فقـال .. يـا أمـير المؤمنـين.. أعطـني فإني ذو حاجة .. ونظر إليه عمر .. ولم يعرفه .. لأن سحنة وجهه تغيرت عـن أيـام الردة .. وسأله عمر .. من أنت ؟ قال : أبو شجرة.. وتذكر عمر هـذا الرجـل وردتـه وقصيدته التي هجا بها المسلمين .. وكان عمر شديدا فـى الحـق لا تـأخذه فيـه لومـة لائم.. فرفع درته ونزل بها على رأس الرجـل الـذى أخـذ يتقـي ضـرب عمـر بيديـه ويقول له.. يا أمير المؤمنين (لقد محا الإسلام ذلك)[1]...

وأدرك أبو شجرة ألا جدوي من سؤال عمر .. لذلك أسرع إلى ناقته فارتحلـها وعاد إلى بني سليم .. ولم يدخل المدينة بعد ذلك...



سـلمـى

قبيلة بني غطفان .. قبيلة قوية لها شأن فى المنطقة .. كان رئيسها مـالك بـن حذيفـة (والد سلمى) وكان يحتل مكان القيادة والريادة فى هذه القبيلة .. مـات هـذا الرجـل وليس له عقب إلا سلمى .. فتزعمت قومها وأصبحت سيدة مطاعة لأنها ورثـت العـز من ناحتين :

١- الأب .. مالك بن حذيفة .. سيد مطاع .. شجاع مقدام .. يحظى باحترام الجميع.. لما له من فضل ورأي ... وشجاعة وإقدام .

---

(١) البلاذري بتصرف من القسم الأول ص ١١٧ .

٢- أمها ..أم قرفة..ذات حسب ونسب تحظى من قبيلتها بكل الاحترام والتقدير..

هذه المرأة كانت شجاعة مقدامة.. اشتركت مع المشركين في قتال المسلمين أيام النبي ﷺ وقد أسرت..ثم قتلت بعد ذلك.

هذه مكونات أسرة سلمى .. وكانت هى الوحيدة التي ورثت هذا المجد في هذه الأسرة .. كما ورثت العداء للمسلمين .. لماذا ؟ ..

٣- لأن أمها أسرت عند المسلمين .. ثم قتلت في معارك دارت رحاها بين قبيلتها والمسلمين .

٤- سلمى هى الأخرى شاركت في حرب المسلمين أيام النبي ﷺ وأسرت وسيق بها إلى المدينة .. وقدمها النبي ﷺ جارية لزوجته عائشة رضي الله عنها .. وقد اعتقتها السيدة عائشة ورجعت المرأة إلى قومها .. كان طبيعيا أن يمتلئ قلب سلمي بالحقد والكراهية على الإسلام خاصة وأنها لم تحاول مرة واحدة أن تستمع إلى القرآن الكريم أو أن تسأل عن أهداف الدين فمنذ اللحظة الأولى وهى تكن العداء للمسلمين الذين يرفعون شعار التسامح والسلام .

كانت سلمى هذه وكنيتها (أم زمل) ابنة عم لعيينة بن حصن وقد تجمع عليها نفر من المرتدين ومن الذين شرد خالد صفوفهم .. لذلك استطاعت تكوين جيش كبير واستطاعت أن تجهزه بأنواع السلاح .. وتقوي روحه المعنوية .. وعنفت الهاربين من المعارك على انهزامهم وعلى تخليهم عن عيينة .. وأعدت هذا الجيش لمعركة تقودها هى .. وبلغت الأخبار إلى خالد وتوجه إليها عند مكان يسمي (ظفار) التي تقع عند مشارف جبال سلمى الغربية .. ودارت معركة بدأها خالد وأخذ زمام المبادرة واستطاع أن يرد جناحي العدو إلى الخلف أما قلب جيش العدو فكانت تقوده سلمي بنفسها وقد أحاط بها أشجع المقاتلين في جيشها بعد أن صمموا على بذل أرواحهم في سبيل الدفاع عنها وكانت سلمى في هودج مصفح أقيم على ظهر ناقة أمها التى كانت تركبها قبل قتلها .

خالد رأى صمود جيش الأعداء وأيقن أن المعركة ستطول لأن المقاتلين مع سلمي يستمدون قوتهم المعنوية من شخصية سلمى .. لذلك ركز على قلب المعركة

والهجوم على الناقة التي استطاع أحد الجند إصابة هدفه فيها فسقط الهودج براكبته وقتلت سلمى وقتل معها مائة رجل قاتلوا عنها بشجاعة وصمدوا دفاعا عنها .. لكن لكل شيء نهاية وجاءت النتيجة لصالح المسلمين .. وتفرق جيش سلمى بعد ذلك في الأودية والجبال .. وبقيت ذكرى سلمى على سلسلة الجبال التي تقع جنوب شرقي حأيل ..

بعد هذه المعارك الساخنة والحروب المتواصلة سمح خالد لرجاله بالراحة لفترة قصيرة قبل أن ينطلق من جديد تبعا لأمر خليفة رسول الله .

وقبل أن نواصل رحلتنا مع خالد نتعرف على هؤلاء الذين كلف بقتالهم ..

مالك بن نويرة

كانت قبيلة بني يربوع من أقوى بطون بني تميم التي تقطن المنطقة الشمالية الشرقية من بلاد العرب فوق البحرين .. هذه المنطقة تجاور فارس لذلك اعتنق بعض رجال هذه القبيلة ديانة زرادشت أما معظم القبيلة فكانت تعبد الأوثان...

كان مالك بن نويرة سيد هذه القبيلة وكان ينحدر من أسرة عريقة .. كان جميل الخلقة .. حسن الصورة .. مليح الوجه .. على رأسه شعر كثيف (وكان وجهه فلقة قمر)[1]... كان مالك شاعرا بليغا رقيقا .. وكان خبيرا في استعمال السلاح مشهورا بشجاعته وفروسيته .. وفوق كل هذا كان كريما ومن شدة كرمه أنه كان يوقد النار ويتركها مشتعلة طول الليل ليأتي الضيوف على ضوئها .. بل كان أحيانا يأتي بالعود الطيب والخشب العطري (البخور) ويضع ذلك على النار لتنتشر الرائحة في الآفاق فيشمها من يكون خلف الجبال ويتعرف على مكان مالك ليجد القرى والأمن والأمان .. هذا مالك بن نويرة الذي كان يتحلى بمكارم الأخلاق .. وكان يمتلك كل شيء إلا الإيمان ...

---

(١) البلاذري القسم الأول ص ١١٨.



ليلى

عرفت ليلى بأم تميم .. ابنة المنهال .. كانت ذات حسن مفرط بل أذيع أنها من أجمل فتيات بنات العرب .. كان معروفا عنها جمال عينيها ودقة ساقيها .. وقد اشتهرت بنظراتها القاتلة ولعلها المقصودة بقول القائل:

إن العيون التي فى طرفها حول : قتلننا ثم لم يحيين قتلانا .

كان من ترتيب القدر أن اجتمع مالك مع ليلى وتزوجا وعاشا حياة سعيدة .



إسلام مالك

فى عام الوفود اعتنق مالك الإسلام مع قبيلته ونظرا لمكانته المرموقة ولما كان يتحلى به من مواهب وخصائص أقامه النبي ﷺ رئيسا على بني حنظلة وكان من مهام وظائفه جمع مال الزكاة والجزية والصدقة وإرسال كل الذى جمعه وتحت يديه إلى بيت مال المسلمين ... بالمدينة .. واستطاع مالك أن يجمع الكثير وقبل أن يرسل بالمال انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى وارتد مالك عن الإسلام متجاهلا يمين الولاء الذى أقسمه أمام النبي ﷺ أن يكون أمينا لنظام الدولة ووفيا للمبدأ الذى أقسم عليه اليمين ومحافظا على المال العام لكنه لم يلتزم بذلك وخان الأمانة ولم يكن وفيا للرئاسة ولا مع الدولة كما أنه استولى على مال الزكاة والجزية وكل ما تحت يديه مما يتعلق بحق بيت المال .



سجاح

سجاح ابنة الحارث .. كانت عائلتها من أشرف الناس .. وكانت هى شخصيا تتمتع بذكاء مفرط مع بعد نظر .. كانت تتكهن بالمستقبل .. وتقول الشعر أحيانا .. كانت تعرف باسم (أم صديرة) وكانت تلتقى مع مالك بن نويرة بصلة قرابة قوية من جهة أبيها .. أما من جهة أمها فكانت تتبع قبيلة (تغلب) وهى واحدة من

مجموعة القبائل التي عرفت باسم ربيعة وكانت تقطن العراق .. وكانت قبيلتها تعتنق النصرانية .. لكن هذه الديانة لم يكن لها تأثير فى نفسها .. ولما ظهرت حركة الردة واتسعت وظهر المتنبئون صور لها خيالها أنها تستطيع هى الأخرى أن تدخل فى مجال إدعاء النبوة وأن تزعم أنها نبية .. واستسلمت المرأة لخيالها وغامرت بنفسها وأعلنت أن الوحي يأتيها وبدأت تعزز فكرتها بكثير من الشعر .. وما عرفت هذه المرأة ولا الذين اتبعوها أن الله لم يبعث بأنثى نبية أبدا لكن المعهود فى جميع الشرائع أن الأنبياء رجال وصدق الله العظيم (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ) [سوره يوسف آية١٠٩] .. لكن الغريب أن يصدقها أغلب عشيرة أمها وتعاهدوا فيما بينهم على إطاعة أوامرها بوصفها نبية واستطاعت أن تجمع حولها مع المؤمنين بها بعض قطاع الطرق ممن يستهويهم السلب والنهب .. وتحركت بهذه المجموعة ووصلت إلى (الحزن) وهذا المكان يقع بين سميراء والبطاح وكانت مزهوة بنجاحها عندما رأت كثرة المؤيدين لها والملتفين حولها .. وبعثت إلى صهرها مالك بن نويرة واقترحت عليه عقد حلف يعملان بمقتضاه ضد القبائل التي تعاديهما خاصة زعامة المسلمين السياسية بالمدينة .. ولكي تؤكد لمالك أنها حسنة النية وليس عندها أي نوايا عدائية فقد قالت لمالك فى رسالة منها إليه (فإني إنما أنا امرأة من بني يربوع وإن كان ملك فالملك ملككم)[1] .. وقبل مالك اقتراح سجاح ثم أخذ يعمل على تهدئة روعها والتقليل من حماسها وأقنعها بعدم الدخول مع المسلمين الآن فى حرب .. وانضم مالك بقوته إلى سجاح وبدأ فى الاشتباك مع القبائل المجاورة .. وكان الباعث لهذا الاشتباك الرغبة فى الانتقام والشهوة فى السلب والنهب ...

وأذيع بين القبائل بأن مالك بن نويرة لم يشترك فى أعمال السلب والنهب ولم يقر ذلك . وما حدث إنما هو من أتباع سجاح التى واصلت السير ... بجيشها إلى (النباج) وتعرف الآن باسم (النبجية) وراحت تنهب وتسلب فتصدت لها القبائل التى تسكن المنطقة حيث دارت معركة رهيبة مبعثها الخوف من هذه المرأة الخطيرة وقد منيت سجاح بهزيمة منكرة وأصيبت بخسائر جسيمة وأسر عدد كبير من كبار

---

(١) الطبري جـ ٣ ص ٢٦٩ .

قادتها ورفض خصومها إطلاق سراح قادتها إلا بعد مغادرتها للمنطقة ووافقت سجاح على ذلك .. وقد التف من حول سجاح القيادات التي تبعتها وسألوها ما تأمريننا بـه فقالت اليمامة .. قالوا لها إن شوكة أهل اليمامة شديد.. وقد غلظ أمر مسيلمة فيها فأعادت قولها (عليكم باليمامة ، ودفوا دفيف الحمامة فإنها غزوة صدامة لا يلحقكم بعدها ملامة)[1]... وقد تحركت فعلا بجيشها إلى اليمامة .. وكان لقاؤها مع كذاب اليمامة.

مسيلمة الكذاب

مسيلمة بن حبيب .. الكذاب .. كان أول ظهوره على مسرح التاريخ فى أواخر عام الوفود (العام التاسع الهجري) وذلك أن وفدا من بني حنيفة توجه إلى المدينة المنورة وبين الوفد مسيلمة الكذاب وعندما وصل الوفد إلى المدينة ترك الوفد بعيره فى معسكر للمسافرين وبقي مسيلمة ليرعى الدواب ويسقيها .. ودخل الوفد المدينة حيث بايع النبي محمداﷺ على الإسلام بعد أن اعتنقوه برضا نفس وعدم إكراه من أحد وقدم النبي ﷺ على عادته هدايا للوفد لكن القوم ذكروا لرسول الله ﷺ بأنهم تركوا صاحبا لهم فى المعسكر ليرعى الإبل ويحرسها .. وقالوا .. يا رسول الله .. إنا قد تركنا صاحبا لنا فى رحالنا وفى ركابنا يحفظها لنا .. فأمر له الرسولﷺ بمثل ما أخذ القوم .. وقال .. أما إنه ليس بشركم مكانا .. وكانت هذه الكلمة وسيلة لمسيلمة ليخدم بها قضيته فيما بعد ...

كان من بين الوفد رجلان لهما أثرهما فى القبيلة .. وعندما استمعا هذه الكلمة من فم النبي العظيم استخدماها لصالح فكر مسيلمة هذان الرجلان هما (نهار الرجال بن عنفوة) و (مجاعة بن مرارة) هذان الرجلان لهما أثر كبير فى حركة مسيلمة وساعداه فى الوصول إلى مركز القوة وفى إنقاذ القبيلة من الإبادة .. كانت قبيلة بني حنيفة قد بنت مسجدا فى اليمامة وأخذوا يقيمون الصلاة فى مواعيدها وثبتوا دعائم الدين الجديد فى بيئتهم المحلية ...

---

(١) الطبري جـ ٣ ص ٢٧٢.

بعد عدة شهور من عودة الوفد ظهر مسيلمة وأعلن عن نفسه نبيا وقال للناس من حوله (إني قد أشركت في الأمر معه) أي مع النبي محمدﷺ وجمع مسيلمة الكذاب الوفد الذى كان معه عند مقابلة النبي ﷺ أمام الناس وسألهم (ألم يقل لكم محمد حين ذكرتموني له (أما إنه ليس بشركم مكانا)!!!ما ذاك إلا لما كان يعلم أني قد أشركت في الأمر معه ..وكان يعني بالأمر النبوة[1].. وزاد خطر مسيلمة وذاع سلطانه ..لأنه بدأ يأتي بحيل بارعة ..كأن ينتف ريش طائر ثم يلصقه به ليطير من جديد ..وكان ذكيا بارع الحيلة وقد استخدم كل ما لديه من مهارة ليقنع الناس أن الله قد اصطفاه حقا نبيا ..وكان يخاطب الناس على أنه رسول .. ومن الغريب أن الناس أعجبوا بحكمة مسيلمة وتجمعوا حوله واعترفوا به على أنه شريك لمحمد ﷺ في النبوة ..فكأنهم يؤمنون بنبيين في وقت واحد .. وكان ينظم الشعر ويتلوه على أتباعه على أنه وحي من الله إليه كالقرآن إلى محمد.. وكان في شعره مديحا لقبيلة بني حنيفة مفضلا إياها على قريش ..وكان بين شعره الذي يدعو إلى الضحك قوله (لقد أنعم الله على الحبلى أخرج منها نسمة تسعى من صفاق وحشا) ثم ازدادت وقاحة مسيلمة بأن بعث برسالة إلى رسول الله ﷺ يقول فيها (من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ..سلام عليك.. وإني قد أشركت معك في الأمر وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ولكن قريشا قوم يعتدون) ..ورد النبي ﷺ على مسيلمة برسالة يقول فيها (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب..سلام على من اتبع الهدى ..أما بعد ..فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين)[2]..

"نهار الرجال" الذي كان يصحب وفد قبيلة بني حنيفة عند مبايعة النبي ﷺ (سبق الإشارة إليه) كان هذا الرجل قد بقي بالمدينة ..تعلم الدين وتفقه في الشريعة وأصبح على درجة عالية من المهارة في الحوار والكفاءة في الخطب لذلك عندما جاءت الأنباء إلى النبي ﷺ تشير إلى اتساع دعوة مسيلمة الكذاب وأعماله المشينة لم

---

(١) ابن هشام جـ ٣ ص ٦٤.

(٢) الطبري جـ ٣ ص ١٤٦.

يجد النبي ﷺ أحسن من نهار الرجال ليبعث به إلى بني حنيفة ليبين لهم كذب هذا الرجل ويجتهد فى إزالة الآثار الضارة التى نجمت عن تصرفات مسيلمة.. وقد اختار النبي ﷺ هذا الرجل لما له من قدم ثابت فى القبيلة وأن هذا الاختيار تم لأن الرجل أصبح على درجة عالية من العلم والقدرة على إقناع الغير بالحكمة وحسن الحوار .. وهذا حق لأن النبيﷺ (ما زاغ بصره وما طغى) لكن نهار الرجال كان فى نفسه شيء آخر فما أن وصل إلى قبيلة بني حنيفة إلا وقال لهم (أنه سمع محمدا يقول) إن مسيلمة قد أشرك معه فى الأمر)[1]. وأراد الرجال بهذا أن ينضم مع مسيلمة ليكونا شركة نصب واحتيال من خلالها يستطيعان تحقيق منافعهما الشخصية ولقد ساعد نهار الرجال على تعزيز مكانة مسيلمة الذي قام بإباحة الخمر لقبيلته وكان الرجال يخطب فى الناس ويبين لهم أن مسيلمة له كرامات وأحوال واستطاع بهذا الأسلوب وبلاغته وحكمته أن يؤكد مركز مسيلمة ..

قبيلة بني حنيفة كان بعض أفرادها لا يؤمنون بمسيلمه والذي آمن به كان مدفوعا بأسباب سياسية أو أسباب شخصية أو البحث عن زعامة مخفية يريد أن يصل إليها ..وقد اتخذ مسيلمة مؤذنا له هو (حجير بن عمير) وكان هذا الرجل يشك فى نبوة مسيلمة وكان المفروض أن يقول فى آذانه (أشهد أن مسيلمة رسول الله)لكنه كان يرفع صوته ويقول (أشهد أن مسيلمة يزعم أنه رسول الله)[2] وهكذا سارت أمور مسيلمة الذى استفحل أمره وانتشر خبره وذاع صيته وصار حديث الجماهير...



ملحة

فى يوم من الأيام توجه رجل لزيارة مسيلمة فى بيته ومسيلمة كان قميء الصورة قصير القامة ...عيونه ضيقة وأنفه أفطس ..وبشرته صفراء ..كان قبيح الصورة كعادة الأشرار ... ومع هذه الصورة القبيحة كان شغوفا بالنساء وهن ينجذبن إليه ولم تفلت امرأة اختلى بها من اعتدائه عليها وكانت تفقد مقاومتها لتحقيق رغباته..والرجل

---

(١) الطبري جـ ٣ ص ٢٨٢ .

(٢) البلاذري القسم الأول ص ١٠٩ .

الذي ذهب لزيارته يعرف بهذا فلما اقترب من باب داره سأل حراسه..أين مسيلمة ؟ فقالوا له ..رسول الله فقال الرجل : لا ..حتى أراه ..ولما جاء مسيلمة ..سأله الرجل ..أنت مسيلمة ؟ قال..نعم ..قال من يأتيك؟قال.. رحمان..قال الرجل..أيأتيك في نور أم في ظلمة؟ قال مسيلمة ..في ظلمة ..قال الرجل ..أشهد أنك كذاب وأن محمدا صادق ..ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر)[1]..

هذا الرجل أيد مسيلمة وقاتل معه حتى قتل ومات على الباطل ..

اللقاء المرتقب بين مسيلمة وسجاح

عندما تحركت سجاح بجيشها إلى اليمامة كانت قد جمعت كل شيء عن شخصية مسيلمة .. أما مسيلمة فكان لا يعلم عن نواياها أي شيء .. لذلك أراد أن يوقفها على الحياد لاسيما وهو يعرف كيف يتعامل مع المرأة فهو الخبير بعواطف النساء وكيف يتغلب عليهن .. لذلك سارع في إرسال رسالة إليها عندما اقتربت من حدود قبيلته طلب منها أن تأتي إليه بمفردها للتحدث معها ورسم خطة عمل مشتركة..

وأمر بإعداد خيمة على هيئة قبة كبيرة في حرم داره وزودها بالنار لتدفيء الجو البارد كما أشعل بعض أعواد البخور لينعش نفسها ويزيل من نفسها أي أثر للخوف ويحرك مشاعرها .. وجاءت سجاح فأدخلوها إلى الخيمة وحدها.. وبعد قليل دخل عليها في أبهى حلة .. وعندما جلس معها بدأ الحديث .. عن الله.. ووحيه .. وعن السياسة ومتاعبها .. وعن قريش وشدة بأسها .. ولما انتهى من حديثه سألها .. ماذا أوحي إليك ؟ فردت في دلال .. هل من عادة النساء أن يبدأن الحديث ؟ قل لي أنت .. ماذا أوحي إليك ؟ وكان مسيلمة داهية .. فجاء بكلام يحرك فيها مشاعر الأنوثة خاصة وأن الجو مهيأ بالدفء والبخور والشعور بالأمن والسكينة .. وكان من كلامه الذي يزعم أنه وحي .. (ألم تر إلى ربك كيف فعل بالحبلى أخرج منها نسمة تسعى من بين صفاق وحشى) الصفاق هو الشيء الذي تحت الجلد .. فقالت له وماذا

---

١) ابن هشام جـ ٣ ص ٢٨٦.

أيضا أوحي إليك ؟ قال أوحي إلى (إن الله خلــق النسـاء أفراجـا وجعـل الرجـال لهـن أزواجا فنولج فيهن قعسا إيلاجا ثم نخرجها إذا نشـاء إخراجـا فينتجـن لنـا سـخالا إنتاجا) وبهتت سجاح وقالت له .. أشهد أنــك نـبي ثـم أنشـدها شـعرا خليعـا كلـه مجـون لكنـه يحـرك مشـاعر المـرأة .. وعـرف الخبيـث بخبرتـه أن المـرأة تحركـت مشاعرها فاقترب منها وقال لها .. هل أتزوجك فـآكل بقومـي وقومـك العـرب؟قـالت نعم[1] ... وبقيت سجاح مع مسيلمة الذي حقــق مأربـه وطوعـها لإرادتـه وضمـها إلى صفه .. ولما توجـهت إلى معسـكر قومـها تجمـع القـادة حولهـا وسـألوها فقـالت لهـم (رأيته على الحق فاتبعته وتزوجته) فسألوها .. هل أصدقك شيئا ؟ يعـني دفـع لـك مهرا .. فقـالت .. لا .. فقـالوا لهـا .. ارجعـي إليـه فقبيـح بمثلـك أن تـتزوج بغـير صداق.. وركبت سجاح مع أربعين من رجالها وعادت إلى اليمامة وما أن رآها مسـيلمة حتى أغلق باب الحصن عليــه .. فنـادت عليـه وهـو بداخلـه .. ورد عليـها والغضـب يساوره : .. مالك؟ قالت: أصدقني صداقا .. وأطرق مسيلمة برهة.. ثم قال لها: أيـن مؤذنك ؟.. فقالت هو ذا .. فقال له .. أذن فى الناس بأن مسيلمة بن حبيب رسول الله جعل صداق ابنتكم سجاح أن وضع عنكم صلاتين مما آتاكم به محمـد .. صـلاة العشـاء الآخرة وصلاة الفجر .. ورجعت سجاح وهى فرحـة بـهذا الصـداق .. ثـم إن مسـيلمة أرسل برسالة إلى سجاح يطلب منها أن تقبل ربع إنتاج اليمامة مـن الحبـوب علـى أن تؤيده وتكون معه حلفا..

وذهبت بعد ذلك هــى إلى العـراق ووضعـت هـى بنفسـها نهايـة لاشـتغالها بالسياسة وتركت ادعاء النبوة ثم اعتنقت الإسلام فيما بعد ....



قرار ناجح

عندما عقد الخليفة أبو بكر ﷺ اللواء لخالد بن الوليد لم يكن من توجيهات أبى بكر لجيش خالد أن يسير إلى البطاح التي يعسكر فيها مالك بن نويرة لذلك اعترض كثـير من الصحابة على خالد عندما أمر الجيش بـالتحرك إلى البطـاح وذكـروا خـالدا بقـول

(١) الطبري جـ ٣ ص ٢٧٣ .

الخليفة بأنه (عهد إلينا إن نحن فرغنا من البذاخة واستبرأنا بلاد القوم أن نقيم حتى يكتب إلينا) فرد عليهم خالد بقوله (إن يكن عهد إليكم هذا فقد عهد إلى أن أمضي وأنا الأمير .. وإنه لو لم يأتني منه كتاب ولا أمر لكنني رأيت فرصة فأردت أن انتهزها .. كما أننا لو أبتلينا بأمر لم يعهد إلينا به فإننا نعمل بما هو أفضل .. وها هو مالك بن نويرة بحيالنا وأنا قاصد إليه ومن معي .. ولست أكرهكم)[1] ... ومع أن حديث خالد فيه كل الوضوح أن السير إلى مالك فى البطاح فرصة لكن بعض الأنصار تخلفوا حيث أرادوا أن يتمسكوا بنص كلام الخليفة ..لكن خالدا تحرك .. وبعد تحرك جيش خالد ندم الذين تخلفوا وأرسلوا إلى خالد لينتظرهم .. وانتظرهم خالد فلحقوا به .. وكان الجيش على أهبة الاستعداد التام للمعركة .. وكان ذلك فى منتصف شهر شعبان من العام الحادي عشر .. ووصل خالد البطاح فلم يجد لعدوه أي أثر .. ذلك لأن مالك بن نويرة شعر بخطئه عندما قبل الدخول فى عهد سجاح .. كما أدرك الجريمة التي ارتكبها يوم أن ارتد عن الإسلام .. وبدأ مالك يقلب الرأي ويستشير الأصحاب .. وعول على أن يكفر عن جرائمه بالندم والاستسلام لأنه لم يجد أمامه طريقا غير هذا .. وجمع مالك عشيرته وقبيلته .. وقال لهم (يابني يربوع إنا كنا قد عصينا أمراءنا إذ دعونا إلى هذا الدين وبطأنا الناس عنه فلم نفلح ولم ننجح وإني قد نظرت فى هذا الأمر فوجدت الأمر يتأتي لهم بغير سياسة وإذا الأمر لا يسوسه الناس فإياكم ومناوءة قوم صنع لهم فتفرقوا إلى دياركم وادخلوا فى هذا الأمر[2])... وعند هذا الأمر تفرق المقاتلون وعاد مالك إلى داره حيث لقي المواساة من زوجته الجميلة .. ولكى يدلل مالك على صدق توبته جمع كل الأموال التي كان عليه أن يبعث بها إلى المدينة فى أواخر حياة النبيﷺ وأرسل مالك بالأموال إلى خالد.. وسأل خالد رسولى مالك إليه .. ما حملكما على موادعة هؤلاء القوم (يقصد سجاح وعشيرتها) فقالا (ثأر كنا نطلبه فى بني ضبة وكانت أيام تشاغل وفرص) .. كان خالد تساوره الشكوك لأنه ظن أنه ربما يكون وراء هذين الرجلين مع هذه الأموال

---

(١) الطبري جـ ٣ ص ٢٧٦.

(٢) المصدر السابق ص ٢٧٧ .

حيلة يسعيان من ورائها إلى أن يعطياه شعورا كاذبا بالأمن والأمان وأن يجره إلى كمين ويؤخذه على غرة .. وهذه الشكوك استولت على فكر خالد.. لذلك واصل المسير إلى البطاح التي وجدها مدينة خالية من وسائل الدفاع حتى جند الحراسة ليس منهم أحد .. هدأت حدة خالد الذي أرسل بفصيلة على رأسها (ضرار بن الأزور) لدار (مالك بن نويرة) الذي جاء به هو وزوجته .. ليلى .. وبعض القيادات من بني يربوع.. وعقدت محاكمة لمالك بقيادة خالد الذي بدأ يذكر الرجل بجرائمه التي ارتكبها والأضرار التي ألحقها بنظم الإسلام .. وبدأ مالك يرد على أسئلة خالد .. وكان إذا جاء ذكر النبيﷺ يقول مالك (صاحبكم) وكان مالك فى أثناء المحاكمة يظهر بصورة المعتز بنفسه وأنه سوف يواجه كل أمر بكبرياء لأنه سيد قبيلة له عليها الرئاسة والقيادة .. لذلك .كان يفاخر الناس بآبائه وأجداده و نظرا لأنه لم ينطق باسم النبي ﷺ وتعاليه فقد اقتنعت هيئة المحكمة بأن الرجل لا زال على شركه .. وكان خالد قد غضب بطبيعة الحال من مسلك الرجل خاصة وأنه فى موقف الاتهام .. وكان من كلامه (صاحبكم) أي أن النبيﷺ ليس له بصاحب وهذا ما يؤيد ما استقر عليه ضمير المحكمة التي قضت بحبسه ليلة ثم تنظر فى أمره فى صباح اليوم التالي ونظرا لأن الليلة باردة جدا فقد قال خالد لرئيس الحرس ضرار بن الأزور ادفئوا صاحبكم .. وهذه الكلمة تحمل معنى القتل فى بعض لهجات العرب لذلك قام ضرار بإعدامه . ولما علم خالد بذلك قال ما أمرت بهذا .. ولكن قدر الله وما شاء فعل.. وبعد إعدامه أصبحت ليلى الجميلة أرملة .. وبعد انقضاء العدة أعلن خالد بن الوليد رغبته فى الزواج من ليلى .. وتم الزواج الذي أصبح مثار جدل كثير فى التاريخ الإسلامي لأن البعض من المسلمين لم يوافقوا على هذا الزواج زاعمين أن مالكا استجاب للآذان وأدى الصلاة وعاد إلى حظيرة الإسلام قبل أن يؤخذ أسيرا .. كما أن هذا الزواج أوجد فريق معارضة وكان على رأس هذا الفريق الصحابي الجليل أبو قتادة وله مكانة عظيمة فى نفوس الصحابة .. لذلك ركب فرسه فى اليوم التالي بعد تصريح خالد رغبته فى الزواج من ليلى وأسرع إلى المدينة وأخبر أبا بكر أن خالدا قتل مالكا وهو مسلم حقا وقتله ليتزوج من أرملته الجميلة .. وليس هذا الموقف بجديد

على أبي قتادة فهو الذي اشتكى خالدا إلى النـبي ﷺ بعد فتح مكـة بعد قتـل بـني جذيمة بلا رحمة رغم أنهم استسلموا للمسلمين ودخلـوا فـى الديـن .. لكـن أبـا بكـر رضي الله عنه بدل أن يناقش أبا قتادة فى أمر الزواج عنفه على أنه ترك الجيـش دون أن يحصل على إذن من قائده وأمره بالعودة إلى البطاح .. وشاع الخبر فى المدينة فهرع عمر إلى أبي بكر يقول له (بعثت رجلا يقتـل المسـلمين ويعـذب بالنـار)[1] ... وكـان عمر يلمح إلى أن خالدا عذب من عذب المسلمين . وقتل بالنار من قتل المسلمين بالنار.. وحدث ذلك بناء على توجيه الخليفة عندما وجه خالد لقتال المرتدين . لذلك فأن أبـا بكر لم يأبه لكلام عمر لعلمه بأن بينهما حب مفقود،وكان أبو بكر يؤمن فى أن مالكا ارتد عن الإسلام وبعثر أموال الجباية بعد مـوت رسـول اللهﷺ وتحـالف مـع سـجاح لذلك قال أبو بكر لعمر :.. خالد تأول فأخطأ فارفع لسانك عن خالد يا عمر فلـم أكـن لأقصف سيفا سله الله على الكافرين ، وألح عمر على الخليفة قائلا إن فى سيف خـالد رهقا فإن يكن هذا حقا حق عليك أن تقيده.. وطالب عمر بعزل خالد قائلا لأبـي بكـر "عدو الله عدا على امرئ مسلم فقتله ثم نزا على امرأته[2]".. وهنا قـرر أبـو بكـر بـأن يبحث الموضوع وبعث فى طلب خالد الذي أحس بأن أبا بكر سـيبحث معـه مـا تـردد حوله ..وكان خالد من الشخصيات التي لا تأبه بنقد أو لوم لكنـه أمـام الحـاكم العـام للمسلمين يشعر بالرهبة ..هذا تصوير الموقف من وجهة نظر أبـي قتـادة وعمـر ومـن أيدهما..

لكن الرأي الصحيح الذي نميل إليه بعد قراءة متأنيـة فـى العديـد مـن كتـب التاريخ ومناقشة العديد من الآراء هو أن خالدا لم يأمر بقتل مالك وإنما عملية القتـل تمت بسبب سوء فهم من الكلام الذى تردد فى المجلس .. فلقد كـان أثنـاء المحاكمـة الجو باردا جدا وقال خالد لمن حوله عندما قاموا من الجلسة (أدفئـوا أسـراكم) وهـى كلمة معناها فى بعض اللهجات (أقتلوا أسراكم) وقـد أسـاء ضـرار فـهم معنـى أمـر خالد وقتل مالكا فالإعدام تم بسبب سوء الفهم . وخالد لم يقصد ذلك . فهو بـرئ مـن

---

(١) البلاذري القسم الأول ص ١١٧.

(٢) الطبري جـ ٣ ص ٢٨٠ .

دم مالك .. وأيا كان الأمر الذي لا شك فيه أن مالكا يستحق الإعدام جزاء خيانته للمهمة التي كلف بها من قبل رسول الله ﷺ .. ثم إهداره للمال العام والذي كان من المفروض أن يبعث به إلى بيت مال المسلمين بالمدينة المنورة ثم تحالفه مع الأعداء .. زد على ذلك أنه تسترا على سجاح التى أدعت النبوة وتحالف معها وأعلن مبايعتها وشجعها عندما قامت بالسلب والنهب وقتل المستضعفين من المسلمين .. وقد قال الله تعالي (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) [البقرة : ١٧٩] ..والسن بالسن .. وتصوير هذه الواقعة على ما ارتأيناه يريح النفس الإسلامية ويجعلنا نطمئن إلى قيادة خالد الرائدة الناجحة.

مواجهة مسيلمة

عندما تولى الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه عقد لواءً لعكرمة بن أبي جهل وأمره أن يسير مع قواته إلى اليمامة التي يعسكر بها مسيلمة الكذاب وكانت تعليمات القائد لعكرمة عدم الأشتباك مع مسيلمة حتى صدور تعليمات أخرى لأن أبا بكر رضي الله عنه كان يعرف قوات مسيلمة .. لكن أبا بكر قصد من وراء تسيير عكرمة إلى اليمامة أن يشغل مسيلمة حتى لا يلتحق بمن معه إلى طليحة فى ذى القصة أو بذاخة .. وقد أتاحت هذه الخطة لخالد أن ينتصر بسرعة على طليحة الذي فرَّ مع جنوده .. كان عكرمة قد تقدم بجنده وعسكر بالقرب من اليمامة واستطاع أن يفرض رقابته على قوات مسيلمة الذي بقي معسكرا فى اليمامة .. كان عكرمة قائدا شجاعا مقداما ذا طبيعة حارة لا تعرف اليأس .. ووصل إلى خالد لواء .. شرحبيل بن حسنة الذي كان قد استبقاه الخليفة معه فى المدينة ولكن وصلت تعليمات أن ينضم هذا اللواء إلى جوار عكرمة وتوالت أخبار خالد بالانتصارات لذلك تحركت عزيمة عكرمة وأراد أن ينال شرف الجهاد وهو صفو خالد فما الذي يمنعه لهذا صمم على أن يلتحم بمسيلمة فى معركة يحقق فيها نصرا كما حقق خالد وفعلا قام بالدخول فى المعركة دون إذن من الخليفة وكان ذلك فى أواخر شهر رجب من العام الحادي عشر، ونظرا لعدم معرفة عكرمة بإستراتيجية المكان استطاع مسيلمة أن يهزم عكرمة فى

هذه الموقعة وسارع عكرمة وكتب إلى أبي بكر يخبره بما قام به مـن عمـل ومـا حـدث لـه.. فغضب أبو بكر لهذا العمل المتهور ولعدم إطاعة عكرمـة للأوامـر الـتي أصدرهـا إليه فكتب أبو بكر لعكرمة يقول لـه (يـا ابـن أم عكرمـة لا أرينـك ولا ترانـي .. لا ترجع إلى هنا فتوهن الناس امض على وجهك وألحق بحذيفة وعرفجة فقـاتل معـهما أهل عمان ومهرة وإن لم تتمكن فسير بجندك على من مررتم به حتـى تسـتبرؤا ممـن مررتم عليه لعلكم تلتقون والمهاجر بن أبي أمية باليمن وحضرموت) [1] سـار عكرمـة بقواته إلى عمان والألم يعتصر فؤاده والشعور بالخجل والتقصير مـن الـذى جـاءه فـي خطاب أبي بكر ..

كان خالد قد ذهب إلى المدينة ليقابل الخليفة للتحقيق فى أمر مالك بن نويرة والخليفة مقتنع بأن خالدا على حق إلا أنه فعـل ذلـك مـن بـاب تهدئـة الـرأي العـام بسبب ما أثاره أبو قتادة وما تكلم به عمر ، وبعد أيام قليلة أسند أبـو بكـر رضـي الله عنه إلى خالد ليقوم بالقضاء على مسيلمة الكذاب باليمامـة وقـام خـالد بـإعداد جيـش عظيم فيه نفر من الأنصار والمهاجرين كما أن أبا بكـر كتـب إلى شـرحبيل بـن حسـنة لينضم بقواته مع خالد ويضع نفسه تحت إمرته .. سار خالد إلى البطاح حيـث كـانت قواته مرابطة هناك .. كذلك كتب إلى عمـرو بـن العـاص ليقـوم مـن جانبـه بالمناوشـة والصد .. هذا .. وهناك أمر وجده خـالد فـي انتظـاره لم يعـرف بـه الخليفـة هـو أن شرحبيل بن حسنة كان قد التحم مع مسيلمة الكذاب فى معركة انتصر فيها مسـيلمة كذلك .. لذلك عنف خالد شرحبيل وكتب إلى أبي بكـر يخـبره بمـا حـدث ويطمئنـه على أنه سيعالج هذه المشاكل ...



مواجهة خالد بعدوه

تحرك خالد إلى اليمامة وكـانت إقليمـا كبـيرا وعاصمـة هـذا الأقليـم الحجـر.. وبلـغ مسيلمة تحرك جيش خالد وأراد ألا يترك فرصة للمسلمين لذلك تحرك بجيش كبـير

---

(١) الطبري جـ ٣ ص ٢٨١ .

حتى وصل إلى مكان يسمى "جبيلة" وعسكر الجيشان وكان جيش مسيلمة فى مكان يستطيع منه المقاومة بسهولة .. وكان يتكون من أربعين ألف مقاتل فى نفس الوقت كانت الأنباء التي وردت لمسيلمة مفزعة ومخيفة لإن المسلمين قد أمسكوا بفصيلة من جند مسيلمة تعدادها حوالي أربعين فارسا قائدها مجاعة بن مرارة وقتل خالد هذه الفصيلة بأكملها إلا مجاعة الذي استبقاه أسيرا واحتفظ به كرهينة لأنه من الشخصيات المرموقة وكان من وفد بني حنيفة الذين بايعوا النبي محمدا ﷺ علما بأن خالدا سأل الكتيبة قبل أن يقتل أفرادها من هو نبيكم ؟؟ فأصروا على أن مسيلمة هو نبيهم .. هذه الأخبار أفزعت مسيلمة الذي عبأ جيشه للقتال وقسمه إلى جناح أيمن وآخر أيسر وقلب وكان لمسيلمة ابن يسمى "شرحبيل" الذي ركب فرسه وسار يقوي الكتائب ويستنهض هممها وينادي على الجند قائلا (يا بني حنيفة اليوم يوم الغيرة.. اليوم إن هزمتم تستردف النساء سبيات وينكحن غير خطيبات فقاتلوا عن أحسابكم وامنعوا نساءكم)[1] قرر مسيلمة وهو يعبيء الجند ويثير فيهم الحمية ألا يبدأ الهجوم إلا إذا بدأ به خالد فى نفس الوقت كان المسلمون يدركون أنهم يواجهون أكبر قوة معادية للإسلام تتعصب لرجل هو قائدها وكله مكر ودهاء .. لذلك بدأ خالد ينظم جيشه وقسمه كذلك إلى جناح أيمن وآخر أيسر وقلب .. لكنه وقع فى خطأ هو أنه جعل الأفراد حسب تواجدهم ولم يجمع كل قبيلة مع بعضها وكان لهذا الاختلاط أثره السئ فى سير المعركة .. خطأ آخر أنه بدأ بالهجوم وأصبح خصمه فى موقف الدفاع لقد كان خالد يعلم بأن هذه المعركة مريرة ودامية لأن الأعداء يتفوقون عليه عددا وعدة وقدرت النسبة بثلاثة للعدو لواحد لخالد .. لكن الذي يطمئن خالد أن فى جيشه قيادات عظيمة رائعة مثل زيد أخ عمر بن الخطاب وعبد الله ابنه وأبو دجانة وعبد الرحمن بن أبي بكر ومعاوية بن أبي سفيان .. وأم عمارة (وهى من هى إنها نسيبة بنت كعب) وكل من هؤلاء له سجل حافل ببطولات نادرة فى مواقع سابقة .. المهم أن المعركة بدأت فى أوائل شهر شوال من العام الحادي عشر والتحم الجيشان وكبر المسلمون وقاموا بأعمال بطولية خارقة وسقط كثير من المشركين أمام هجمات

---

(١) الطبري جـ ٣ ص ٢٨٨.

المؤمنين إلا أنه في لحظات اندفع المرتدون إلى الإمام كالموج الصاخب لأن مسيلمة أمر بشن هجوم مضاد على طول الجبهة لذلك تملك المسلمون حالة من الفزع ... فقد ظنوا بأن إمدادات وصلت لجيش العدو .

ولقد كان مسيلمة يصرخ بأن الجنة ستكون مثوى لكل من يسقط قتيلا بين المسلمين ، فاندفع جند العدو بمهارة وقدرة فتقهقر المسلمون وتركوا معسكرهم.. وبدأ جيش الأعداء يسلب وينهب حتى دخلوا خيمة خالد ووجدوا زوجته ليلي والأسير مجاعة بن مرارة مكبلا بالحديد وأراد بعض المرتدين ممن أحس بالزهو والنصر أن يقتل ليلى زوجة خالد لكن مجاعة ردهم عن ذلك قائلا (مه أنا لها جار فنعمت الحرة عليكم بالرجال)[1].. وفي زحمة السلب والنهب نسى المرتدون أن يفكوا قيد زعيمهم مجاعة بن مرارة لأنه كان من قاداتهم .. والمرتدون أخذوا كل شيء قدروا عليه من معسكر المسلمين والشيء الذي لم يستطيعوا حمله دمروه ومزقوا الخيام بالسيوف ..

وقف المسلمون ليستعيدوا أنفاسهم .. وقد تساءلوا فيما بينهم .. كيف حدث ما حدث .. وظهر الغضب على وجوههم .. وقد حدث ذلك لعدم الترابط القبلي بين الجند وتوزيع الجند حسبما اتفق لهذا بدأت كل قبيلة ترمي باللوم على القبيلة الأخرى تتهمها بالعجز والتقاعس .. كما اتهم سكان الحضر سكان البادية ويقولون (نحن أعلم بقتال أهل القرى يا معشر البادية منكم) ويرد عليهم أهل البادية قائلين (إن أهل القرى لا يحسنون القتال ولا يدرون الحرب فسترون إذا امتزن من أين يجيء الخلل)[2]..لا شك أن خالدا أدرك الأخطاء التي وقع فيها أولا لذلك قرر إعادة تنظيم الجيش من فصائل قبلية وأيقن خالد أن الخلل الذي حدث كان ناتجا من شعور الفرد بعدم وجوده بين أفراد قبيلته أثناء المعركة لأن الشعور القبلي كان لا يزال سائدا بين الأفراد هو مصدر قوة للرجل أثناء الحرب ، لأن الفرد القبلي يزداد حماسة وبسالة ومهارة عندما يشعر بنظرة الكبار من قبيلته إليه .. لذلك وضع خالد كل قبيلة في

---

(١) الطبري جـ ٣ ص ٢٩٠ .

(٢) نفس المصدر السابق ص ٢٩٢.

كتيبة واحدة وهنا بدأ التنافس بين القبائل الأمـر الـذي سـيكون لـه ثمـرة طيبـة ولا شك.. وقد اختـار خـالد بعـض الرجـال الأقويـاء وشـكل منـهم فصيلـة تكـون حولـه وأفهمهم أن ذلك لحراسته لكنه قصد أن هؤلاء الرجال سيرونه وهو يندفع إلى المعركة فيقتدون به وقد برهن هذا العمل على بعد نظر خالد ثم إن كبار المقاتلين أقسموا علـى أن يحاربوا بقوة واقتدار حتى ولو استعملوا أسـنانهم بـدل النبـل والرمـاح ، وبـهذا التشكيل عادت الروح القوية إلى جند المسلمين لذلك تحركوا لملاقاة العدو الذي وجدوه فى انتظارهم وعلت صيحة المسلمين .. الله أكبر .. وامحمداه ، بل إن بعـض المسـلمين أخذ ينادي على المرتدين ويقول (الله .. الله .. فو الله لقد تركتم الدين .. فعودوا إليه.. وإن الذي أدعوكم للعودة إليه فهذا أشرف وأعز وأكرم لكم فى الدنيا والآخـرة) لكـن ذهب الصوت عبر الصحراء .. والتحم الجيشـان فـى معركـة ضاريـة وراح كـل واحـد يتقدم ويتراجع وثار الغبار من تحت أقدام آلاف المقاتلين وارتفع فـوق رءوسـهم مثـل السحاب وامتلأ الوادي والسهل بالسيوف والرماح المكسورة وسـقطت أجسـاد الرجـال الواحد فوق الآخر على أرض خضبتها الدماء ومع ذلك لم يتحدد مصير المعركة بعد ..

أدرك خالد أن سبب القوة المعنوية عند العدو تكمن فى مسيلمة الكذاب لذلـك راح يفكر كيف يتمكن من إخراج مسيلمة من وسط صفوفه .. لذلك تقدم خـالد وأخـذ ينادي على مسيلمة وطلبه أن يتحدث إليه .. فخرج مسيلمة من بـين صفـوف رجالـه ظاهرا لخالد لكنه فى مكان لا يمكن خالدا من مبارزته .. فعرض خالد علـى مسـيلمة أشياء مما يشتهيها لكن مسيلمة أعرض بوجهـه والتفت إلى جانبه كأنـه ينصـت إلى حديث شخص غير مرءى وكان مسيلمة يقصد بـهذا أن يقـوي الثقـة فـى رجالـه أنـه يتلقى الوحي .. ولما رآه خالد على هذه الصـورة تذكـر قـول النـبيﷺ (أن مسـيلمة لا يكون وحده أبدا وأن معه شيطانا لا يعصيه فإذا اعتراه أزبـد كـأن شـدقيه زبيبتـان لا يهم بخير أبدا إلا صرفه عنه)[1] لم يكن اقتراح خالد بإجراء حديثه مع مسـيلمة إلا طعما ألقاه إليه ليجذبه ، لذلك ألقى خالد سؤالا بسرعة على مسيلمة الذي عاد يلـوي رأسه إلى جنبه ليستمع إلى الصوت ، وهنا هجـم خـالد وبسـرعة علـى مسـيلمة إلا أن

---

(١) الطبري جـ ٣ ص ٢٩٣.

مسيلمة كان أسرع منه فقد استطاع أن يدور إلى الخلف ويحتمي برجاله .. هذه الحركة من خالد أضعفت الروح المعنوية عند المرتدين لأن هرب نبيهم وبهذه الصورة المخزية أمر يضعف شخصية قائدهم ، لذلك كبر على المرتدين هذا الموقف وأثر فى روحهم المعنوية .. أما المسلمون فقد ارتفعت روحهم المعنوية واندفعوا بقوة إلى جيش العدو وهم يهللون ويكبرون فتقهقر العدو أمام جند المسلمين وتخلى أفراد جيش مسيلمة عن مواقعهم ولاذوا بالفرار وسقط الكثير منهم قتلي واختبأ الفارون خلف الحصون العالية وأغلقوا الأبواب عليهم ، ووقف المسلمون أمام أبواب الحصن وكلهم رغبة فى أن يقتحموه لكن تقدم (البراء بن مالك) وهو مقاتل عظيم وقال للجند احملوني على الجدار حتى تطرحوني عليه ، فرفض الناس هذا الأمر لأن البراء واحد من الصحابة المرموقين الذين يحتلون مكانة رفيعة من الاحترام بين الناس ، لكنه أصر وهنا حملوه على أكتافهم وطرحوه فوق الجدار، فقفز منه إلى داخل الحديقة، وقبل أن يعترضه أحد أزاح المزلاج الثقيل من خلف الباب الذي انفتح ودخل المسلمون وهم يزأرون ويهدرون وعندئذ بدأت معركة أشد ضراوة وأكثر دموية من المعركة السابقة وكان المسلمون يعملون سيوفهم فى الأعداء وهذه الحركة من البراء هى أعلى أنواع الفدائية وهى قريبة بمن يفجر نفسه بين الأعداء .. لأن الفدائي يستعمل أي وسيلة ليتحقق النصر لبقية الجنود والوصول إلى الهدف المنشود .. ولقد بدأ مسيلمة يواصل قتاله ويدفع برجاله وكان الضغط من جانب المسلمين على المرتدين ومسيلمة يدفع برجاله بلا هوادة وقد امتلأت الأرض بالجثث المشوهة أو الأجزاء المبتورة والقتلى وكان مسيلمة شريرا بطبعه وقد عزم على أن يجر قبيلته معه إلى الهلاك وكان المتعصبون له يتحلقون حوله يدافعون عنه وبعض الناس يسأله وهم فى حالة يأس : أين ما كنت تعدنا ؟ فيرد عليهم قائلا: قاتلوا عن أحسابكم[1].

---

(١) الطبري جـ٣ ص ٢٩٤ .

دارت الحرب وبقوة وجيش المسلمين يتقدم وله الغلبة وكان من بين جند المسلمين (وحشي) وهو من مجرمي الحرب وهو قبل إسلامه قتل حمزة عم النبي ﷺ وكان وحشى قد أهدر النبي ﷺ دمه يوم فتح مكة لكنه هرب إلى الطائف وعاش بين بني ثقيف وفى العام التاسع اعتنق الإسلام وأدرك وحشي فيما بعد أنه قتل واحدا من أنبل وأشجع الرجال ، وكان وحشي إذا قص قصته على أحد لم ترق لمستمعيها حتى النبي ﷺ عندما رآه قال له بحزن عميق (ويحك غيب عني وجهك فلا أرينك)[1] ولقد أيقن وحشي أنه لن يكون بمأمن عن الأذى ، لذلك عاش فى عزلة بعد ذلك واختفى عن الناس وقضى حياته عاملا فى عدة أعمال حول الطائف . وأمضى أيامه فى ندم وعذاب ضمير وشقاء إلى أن قامت حروب الردة ، وأراد وحشي أن يكفر عن خطئه فانضم إلى الجند المقاتل دفاعا عن الإسلام ، ووحشي كان فى مقدمة الجند الذين دخلوا الحصن فرأى مسيلمة الكذاب الذي يقاتل بوحشية وعنف ويتقدم حراسه ليصدوا المهاجمين من المسلمين الذين يحاولون الوصول إليه .. وعول وحشي على قتل مسيلمة وتقدم بمهارة المقاتل إلى الأمام حتى أصبح على بعد يسمح له بتسديد حربته إلى هدفه وتعامي وحشي وتصامم عن صرخات السب والقذف وعن العرق الذي يتصبب من وجوه المقاتلين ومنظر الدماء الذي يلطخ وجوه من يلتف حول مسيلمة .. كان وحشي يفكر كيف يصيب هدفه .. ووقع نظر وحشي على (أم عمارة.. نسيبة بنت كعب) وهى مقاتلة شجاعة لها فى غزوة أحد مواقف رائدة .. رآها وحشي مجردة من كل أثر للأنوثة لا فى هيأتها ولا فى أعمالها كانت متقدمة تحمل سيفها فاعترض أحد المرتدين طريقها وقطع يدها بسيفه لكن ابنها كان من خلفها فضرب المرتد ضربة قضت عليه ولقي مصرعه فى الحال وأخذ الابن أمه وأبعدها قليلا وهى تشعر بالأسى واللوعة لعدم تحقيق هدفها المنشود .. تقدم وحشي إلى مسيلمة الذي أصبح أمامه يتفرس فى وجهه، وهنا برز أمامه وجه حمزة الذي

---

(١) ابن هشام جـ٢ ص ٨١.

قتله ورأي أن الفارق كبير فحمزة وجه جميل وأنوار تحيط به أما مسيلمة فهو شخص قميىء الصورة أصفر اللون له أنف أفطس تغطي وجهه أمارات الغضب والكراهية ، كان منظره مخيفا لأن كل الشرور التي تتفاعل فى دخيلة نفسه قد ارتسمت على وجهه.. هم وحشي أن يرمي مسيلمة بحربته لكنه رأى أبا (دجانة) الرجل الذي وقي النبيﷺ بجسده يوم أحد وقد أمسك السيف بيده وهو يتجه إلى مسيلمة وكان أبو دجانة متمرسا فى أعمال السيف .. وتخيل وحشي أن أبا دجانة على وشك أن يصل إلى مسيلمة قبله لذلك قذف حربته بسرعة فأصابت مسيلمة فى بطنه وسقط يتلوى من الألم وهنا انقض عليه أبو دجانة وبضربة شديدة من سيفه قطعت رأس الكذاب ووقف أبو دجانة ليعلن النبأ السار ففاجأه أحد المرتدين بضربة قوية ، المهم أن الأصوات تعالت فى الحديقة قتل مسيلمة .. قتل مسيلمة .. لقد كان موته للصالح العام لأن المرتدين انكسرت شوكتهم وأصبح بعضهم فى حالة قنوط واتجه بعضهم إلى أعمال العنف الشديدة وبعضهم كان يتمني الموت وينتظر سيف أي مسلم ليضع نهاية لمتاعبه .. بعد غروب شمس هذا اليوم عاد الهدوء إلى المنطقة وخيم على حديقة الموت سكون رهيب ، وكان المسلمون فى حالة تعب شديد فأخلدوا إلى الراحة تلك الليلة فى هذا المكان وأزالوا من نفوسهم كابوس المعركة وراحوا يغطون فى نوم لا يتمتع به إلا المنتصرون...

أشرقت شمس اليوم التالي على خالد وهو يتنقل فى ميدان القتال ويرى زعماء المرتدين ذوي الشأن أجسامهم مبتورة وعلاهم التراب وحل الخراب بواديهم فما كان أغناهم عن ذلك لو أنهم وفوا بعهد رسول الله ﷺ ...



خدعة

كان خالد وهو يمر فى ميدان القتال يشعر بالارتياح لما وصلت إليه المعركة وبينما هو يطوف تقدم منه مجاعة بن مرارة وكشف له عن القتلى وتعرف على مسيلمة وقال مجاعة لخالد : هذا صاحبكم قد فرغتم منه ، فقال له خالد : هذا صاحبكم الذي فعل بكم ما فعل .. قال مجاعة : قد كان ذلك يا خالد وإنه والله ما جاءك إلا سرعان الناس

وإن جماهير الناس لفي الحصون ... تطلع خالد بنظرة حادة نافذة وهو لا يصدق ما سمع وقال له : ويلك يا مجاعة ما تقول؟ فأجابه مجاعة .. هو الحق والله .. فهلم إلى الصلح على ما ورائي فصالحه على كل شيء دون النفوس.. لكن مجاعة اقترح على خالد اقتراحا وقال له :انطلق إلى الناس أشاورهم وأنظر فى هذا الأمر .. أراد خالد أن يكتب فى شروط الصلح بعد أن وافق الرجال المتحصنين على الصلح .. لأن الشروط لصالح المسلمين حيث كانت الشروط هى:

١- الاستيلاء على الصفراء (الذهب) ..

٢- الاستيلاء على البيضاء (السيوف والسلاح) ..

٣- نصف السبي للمسلمين ..

ذهب مجاعة بهذه الشروط إلى قومه فرفضوا .. وكان خالد يتطلع إلى المدينة (اليمامة) وقد أخذته الدهشة ، فقد شاهد على رأس الحصون رجالا يلبسون حديدا يلمع تحت أشعة الشمس وتذكر خالد رجاله الذين يدفنون الشهداء وهم فى حالة إعياء وتعب وليس فى مقدورهم الآن أن يقوموا بأي قتال ، ثم إن الجيش الإسلامي سوف يلتقي برجال كانوا فى راحة لم يدخلوا فى معركة قط .. لذلك أراد أن يستعمل الأسلوب الدبلوماسي فقرر أن يعيد الحديث مع مجاعة الذي قال لخالد بعد حديث طويل: إن شئت صنعت لك شيئا فعزمت على القوم .. فقال خالد ما هو ؟ قال.. تأخذ مني ربع السبي .. قال خالد.. قد فعلت.. قال .. مجاعة قد صالحتك .. قال .. خالد بلهجة صارمة .. أنتم بالخيار ثلاثا .. والله لإن تتموا وتقبلوا أو لأنهن إليكم ثم لا أقبل منكم خصلة أبدا إلا القتل ..

وعاد مجاعة إلى الحصن ثم رجع إلى خالد بعد قليل وهو يبتسم وقال له بعد شد وجذب رضوا وكتب عهدا ووقع عليه خالد عن المسلمين ومجاعة بن مرارة عن بني حنيفة[1] ..

---

(١) الطبري جـ٣ ص ٢٩٨.



شيء غير متوقع

بعد التوقيع على المعاهدة عاد مجاعة إلى الحصن .. وبعد قليل فتحت الأبواب ودخل خالد ومعه محاربوه الجرحى على خيولهم وفوجئوا بغير ما كانوا يتوقعون فلم يروا بداخل الحصن غير النساء والصبيان والكهول والمرضى والعجزة فالتفت خالد إلى مجاعة وسأله عن المقاتلين ، فأشار إلى النسوة فغضب خالد لهذه الخدعة، وقال لمجاعة: ويحك خدعتني وهز مجاعة كتفيه وقال قومي ولم أستطع إلا ما صنعت..[1]

في هذه الأثناء وصلت رسالة من الخليفة يقول فيها أبو بكر لخالد (أقتل كل المرتدين من بني حنيفة) ولم يكن أبو بكر قد عرف بعد بانتهاء معركة اليمامة ، لكن خالدا بعث برد إلى الخليفة يعتذر عن عدم استطاعة تنفيذ أوامره ، لأنه عقد عهدا مع مجاعة بعد انتهاء المعركة والوفاء بالعهد من شيم المسلمين، فرد أبو بكر بالموافقة على وجوب احترام نصوص المعاهدة ..

قبيلة بني حنيفة تعد بعشرات الآلاف وكانت فلول جيوش المرتدين جاءوا إلى هذه المنطقة وأقاموا حول اليمامة .. لذلك فإن الذين شملهم نص المعاهدة هم الذين في الحصن فقط .. أما الهاربون الفارون من جيش المرتدين فهم لم يشكلوا أي خطر على الاسلام بعد موت مسيلمة، إلا أنهم كانوا مصدر متاعب كثيرة للمسلمين وللتجار وعلى ذلك وجبت إبادتهم .. وعزم خالد على أن يقضي على كل مقاومة حتى يسود المنطقة سلام كامل .. لذلك بعد أن استراح المسلمون أعد خالد جيشا قسمه إلى ألوية بعث بها إلى المنطقة المحيطة باليمامة لتخضع أهلها ومن يقاتل يقتل أو يؤسر..؟ وذهبت الألوية إلى كل مكان فقضت على المتمردين وأمنوا المستسلمين وبدءوا ينشرون الإسلام بالرفق واللين ويشرحون للناس تعاليم الدين الإسلامي وقيمه وعباداته ..

الواقع أن موقعة اليمامة كانت أعنف موقعة وأكثرها وحشية في تاريخ الإسلام ، وقد برهن المسلمون على صلابتهم وقوة إيمانهم وأثبتوا شجاعة نادرة

---

(١) المرجع السابق .

تحت قيادة عظيمة .. كما أن حشود قبيلة بني حنيفة كانت قوية وتحارب تحت قيادة رجل عرف بجبروته وكذبه ، وأيا كان فقد قتل من المرتدين أكثر من عشرين ألف رجل وكان ذلك بسبب العند الذي ركبه مسيلمة .. أما المسلمون فقد كانت خسائرهم طفيفة فقد استشهد منهم ألف ومئتا رجل ، وكان نصف الشهداء من الأنصار والمهاجرين ومن الشخصيات التي تذكر ولا تنكر مثل أبو دجانة وأبو حذيفة وزيد أخ عمر بن الخطاب .. أما عبد الله بن عمر فقد نجا ولما عاد إلى المدينة، وذهب إلى أبيه ليراه قابل عمر ولده بعدم ترحيب بل قال له .. ما جاء بك وقد هلك زيد؟، ألا واريت وجهك عني !!! فأجاب الشاب الباسل وقال لأبيه.. عمي سأل الله الشهادة فأعطيها وجاهدت أن تساق إلى فلم أعطها[1]...

بانتهاء معركة اليمامة فاز المسلمون بهذا النصر الذي بمقتضاه تحررت معظم بلاد الجزيرة العربية من نقيصة الردة وإن كان قد بقي البعض في أطراف البلاد إلا أنهم لم يشكلوا خطرا على الإسلام والمسلمين...

لقد رفرف علم السلام على البلاد بعد هلاك الكذاب مسيلمة وعاد الأمن للمنطقة التي بدأت في الاستقرار وممارسة شعائر الإسلام حيث عادوا إليه ودخل الناس في دين الله أفواجاً وهذا النصر الذي تحقق على يد المسلمين بقيادة خالد بن الوليد سيف الله المسلول على كل متكبر باغ أثِم كان أمنا وأماناً للجميع ولقد فرح المسلمون في كل مكان بهذا النصر العظيم وشكروا ربهم القائل (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) [غافر:٥١].



(١) الطبري جـ ٣ ص ٢٩٢.



الفصل الخامس
لحظة صفاء

كان خالد مع رجال جيشه يستريحون من عناء ما مر بهم من تعب وإرهاق ، وبداية للفتوحات العظيمة وفي ليلة من الليالي القمرية وبعد أن فتحت اليمامة أبوابها جلس خالد أمام فسطاطه في المساء ، وكان مجاعة إلى جانبه وحيدين والقمر يتوسط كبد السماء وقد أضفى على الكون جمالاً ساحراً يجعل الإنسان يحلق في الكون ويسبح في الفضاء كأنه يطير من فنن إلى فنن ونسمة عليلة ترطب الجو وتنعش النفس .. نظر خالد إلى مجاعة فجأة وقال له : زوجني ابنتك !!! ودُهش مجاعة لما سمع من خالد وتصامم... لكن خالدا كرر الكلام قائلاً زوجني ابنتك .. ورد عليه مجاعة الذي أدرك أن خالدا جاد في سؤاله.. وقال له مهلا يا خالد إنك قاطع ظهري وظهرك معي عند صاحبك.. وكان يعني أبا بكر .. لكن خالدا أعاد طلبه واعتدل خالد في جلسته وقال بجد أيها الرجل زوجني ابنتك[1].. لكن الرجل تصامم بعد ذلك وأظهر عدم الرضا ، وفي هذه الأثناء جاءت تعليمات من أبي بكر إلى خالد يأمره بأن يسير إلى العراق حتى يدخلها ، وكان هذا الأمر خطيرا لأن أبا بكر قد عزم على أن يستولي على أكبر إمبراطورية في التاريخ وهي دولة فارس ، وكان العالم يعاني عدم الاستقرار منها لمدة زادت عن ألف عام .. لتدخلها في شئون الدول الأخرى ومحاولة سيطرتها على الدول وتغير النظم ونظام الحكم إلى غير ذلك من أمور كانت السبب المباشر في ظهور الفساد الاجتماعي والانحلال الخلقي على المستوى الداخلي والخارجي . لذلك اتجهت إليها العيون لمحوها من الوجود . (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) [هود:١٠٢] .. وتلك سنة الله في خلقه (وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً) [الأحزاب:٦٢]

---

(١) يراجع الطبري جـ٣ ص ٢٠٠ .

كان أبو بكر الصديق ﷺ معجبا أشد الإعجاب بخالد بن الوليد ، وكان دائما يقول لجلسائه سمعت رسول الله ﷺ يقول (نعم عبد الله وأخو العشيرة .. خالد بن الوليد.. سيف من سيوف الله سله الله على المنافقين والكافرين)[1]

وصدقت فراسة أبى بكر ﷺ في خالد فلقد كان نعم الرجل في حرب الردة واستطاع خالد بتخطيطه الدقيق وقيادته المنضبطة وشجاعته وإقدامه بقيادة المسلمين للقضاء على كل أثر للردة وتمكنوا من تقليم أظافر المارقين واستطاعوا القضاء على المتنبئين ، ومع ذلك لم يخل الأمر من بعض الأشياء التي ينتهزها البعض ليشوهوا صورة خالد أمام القائد العام ، خاصة عندما قتل مالك بن نويرة واصطفى خالد امرأته لنفسه ، ولذلك أرسل أبو بكر الصديق إلى خالد بن الوليد ليوضح له الأمر وحتى يمنع الألسنة من الخوض فيه .. وعندما قدم خالد إلى المدينة كان قد لبس درعا من حديد وقد صديء من كثرة الدماء وغرز في عمامته النشاب المخضب بالدماء، فلما دخل المسجد قام إليه عمر بن الخطاب فانتزع الأسهم من عمامة خالد فحطمها .. وقال : أرياءً قتلت امرءا مسلما ثم نزوت على امرأته والله لأرجمنك بالجنادل[2] وخالد لا يكلمه .. يظن، أن رأى الصديق فيه كرأى عمر حتى دخل على أبي بكر فاعتذر إليه.. فعذره وتجاوز عنه ما كان منه في ذلك وودي[3] مالك بن نويرة " أي تحمل ديته وأرسل بها إلى عشيرته ثم إن خالدا خرج من عند أبى بكر فإذا بعمر مازال جالسا في المسجد فقال خالد (هلم إلى يا ابن أم شملة) ناداه باسم أمه من باب تقدير شخصية عمر لأن النداء بالأم تذكير بالرحم ومثل هذا قال هارون لموسى عليهما السلام " يا بن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى " فلم يرد عليه عمر وعرف أن الصديق قد رضي عنه واستمر أبو بكر بخالد على الإمرة)[4]..إن أبا بكر رضي بتصرفات خالد

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ٦ ص٣٨٧ .
(٢) أي لاجعلن عظمك بالمقابر .
(٣) أي دفع الدية .
(٤) البداية والنهاية لابن كثير جـ٦ ص ٤١٩ .

وتأول ما حدث منه لذلك سَيَّره إلى العراق وأمره أن يبدأ بفرج الهند (وهى الأبلة) ويأتي العراق من أعاليها وأن يتألف الناس ويدعوهم إلى الله عز وجل ، فإن أجابوا وإلا آخذ منهم الجزية فإن امتنعوا عن ذلك قاتلهم وأمره ألا يكره أحدا على المسير معه وألا يستعين بمن ارتد عن الإسلام وإن كان عاد إليه...[1] وسار خالد إلى العراق.. وهذا الأمر (فتح فارس) محفوف بالمكاره، لأن العراق في فارس وفارس هى أم المدائن فأبو بكر بهذا يريد أن يستولي على أكبر إمبراطورية في التاريخ لأنها استطاعت أن تمد حدودها أيام الإخمينيين الأوائل من شمال اليونان في الغرب إلى البنجاب في الشرق وقد عاشت مزدهرة فترة طويلة والتاريخ لم يعرف إمبراطورية مثل هذه عاشت كل هذه السنين في عظمة بالغة كان لها تأثيرها الكبير في الثقافة وفي الحضارة فضلا عن قوتها الحربية .. لقد شاهدت فارس آخر عصورها الذهبية في القرن السادس الميلادي حين أعاد أنو شروان العادل الإمبراطورية إلى سابق عهدها من العظمة .. لأنها كانت تمر في بعض الفترات بنكسات إلا أنها كانت تخرج من هذه النكسات لتضيف مجدا إلى مجدها .. والعراق جزء من أثمن ممتلكات إمبراطورية فارس لما كانت تتمتع به من حضارة وثروة ووفرة .. وقد سكنها العرب منذ أيام نيو خذ نصر في القرن السادس قبل الميلاد ولم يكن لهم سلطة على هذه البلاد إلى أن حدثت هجرة جديدة من اليمن.. وكان من أعظم زعماء العرب المهاجرين إليها مالك بن الفهم الذي أعلن عن نفسه ملكا على الجزء الغربي من العراق واستمر الحكم للعرب وأسست أسرة اللخميين (قبيلة لخم بيت المنذر) وتولى ملوك هذه الأسرة حكم هذه المنطقة عدة أجيال ومع هذا كانوا خاضعين للإمبراطورية الفارسية وكان آخر بيت المنذر .. للنعمان بن المنذر) الذي أعلن عصيانه وعدم ولائه (لكسرى ابراويز) فحكم كسرى على النعمان بن المنذر بالقتل ونفذه فيه بصورة وحشية ، إذ جاء بفيل دهسه وقتله ، ثم عين كسرى على العراق ملكا جديدا هو (إياس بن قبيسه) من قبيلة طيء .. وقد تمتع هذا الملك الجديد بدرجة من الحكم الذاتي وأدى عملا رائعاً على تهدئة الثورة التي كانت بين عرب العراق .. ولما هدأت النفوس واستتب الأمن سلبت معظم سلطات الملك وأسندت إلى قادة وإداريين من فارس وظل

إياس ملكا رمزيا فقط .. كانت العراق مدينة متألقة تنبض بالحركة والنشاط .. وكانت (الأبلة) ميناءا هاما في إمبراطورية فارس تأتيها السفن من الهند والصين .. وكان هناك نهر دجلة والفرات .. ولا شك أن الزراعة قامت على شط النهرين مما كان له أثر كبير في استتباب الوضع السياسي والاقتصادي والحضاري ، إذاً ففارس تقطن جزءا من هذه الإمبراطورية (وجزء من هذه الإمبراطوية) يقطنه العرب لكن الحكم للبلاط الفارسي .. كان المثني بن حارثة رئيسا لقبيلة بني بكر التي كانت تقطن الجزء الشمالي الشرقي من شبه جزيرة العرب .. جنوبي العراق .. وكان المثني رجلا شجاعا مقداما .. وكان بينه وبين فارس مناوشات.. وقد حول المثنى اهتمامه إلى العراق وبدأ في الإغارة عليه ولقد شجعه على ذلك تدهور الأحوال السياسية في إمبراطورية فارس .. وكانت غاراته كلها بمنطقة (الأبلة) وكان يعود من كل هذه الغارات بغنائم تبهر أعين عرب البادية وتستولي على مشاعرهم...

في أواخر العام الحادي عشر الهجري اتصل المثنى بأبي بكر وقدم له صورة باهرة لدولة العراق التي يمكن للمسلمين أن يغزوها وهناك الثروات الضخمة التي تنتظر من يحميها وينميها وشرح له في خطابه الأزمة السياسية التي يعاني منها بلاط فارس...

لقد أعطى أبو بكر اهتمامه لخطاب المثنى وسرعان ما تحول الاهتمام إلى عزم وتصميم على فتح العراق وأبو بكر يعلم أن العرب يهابون الفرس ويخافونهم لأن الفرس دائما كانوا ينظرون إلى العرب باحتقار...

أصدر الخليفة أوامره لخالد بأن يغزو العراق .. وأمره أن يضم إليه الرجال الذين كانوا معه في قتال المرتدين وألا يستكره أحدا على المضي معه ويأذن لمن يشاء من الجند أن يرجع .. وما كاد خالد يعلن عن خطاب أبي بكر إلا وقد أصيب بالدهشة حيث فوجيء بالآلاف من المقاتلين يتركون أماكنهم ويعودون منصرفين .. وكان جيش خالد قبل ذلك يتألف من ثلاثة عشر ألف مقاتل ، لكنه في الصباح وجد أن الجيش يتكون من ألفين فقط ، وكتب خالد للخليفة يخبره بحقيقة الموقف ويطلب منه إرسال إمدادات .. وقرأ أبو بكر خطاب خالد بصوت عال على أصحابه ومستشاريه ثم أرسل

في طلب شاب عرف بالشجاعة والبسالة اسمه (القعقاع بن عمرو) وحضر الشاب على الفور وهو يرتدي لباس الحرب فأمره أبا بكر أن يسير على الفور إلى اليمامة ليعزز جيش خالد .. وامتطى القعقاع صهوة فرسه واتجه إلى مكان خالد .. لقد تطلع جلساء الخليفة إليه يسألونه .. أتمد رجلا قد ارفض عنه جنوده برجل ؟ فتطلع أبو بكر إلى القعقاع وقال (لايهزم جيش فيه مثل هذا)[1] ثم قام أبو بكر فكتب خطابا إلى المثنى ابن حارثة .. وآخر إلى .. "مذعور بن عدي" وكان رئيسا ذا مكانة مرموقة في المنطقة الشمالية الشرقية من بلاد العرب وقد أمرهما أبو بكر في كتبه .. أن يجمعا رجالهما وأن يضعا نفسيهما مع رجالهما تحت إمرة خالد بن الوليد .. بعد ذلك أحس أبو بكر بالراحة بعد أن أوكل إلى خالد مهمة غزو العراق ووضع تحت إمرة خالد كل القوات التي استطاع أن يحشدها ولم يكن باستطاعة أبي بكر أن يفعل أكثر من هذا.. أما خالد ابن الثماني والاربعين سنة فعليه أن يطلّع بالمهمة التى أوكلت إليه وأن يكون عند حسن الظن به فهو القائد المحنك لذلك سار خالد على بركة الله ولم يتردد أبداً ..



تحرك خالد ونزل في مكان يقال له (بانقيا وباروسما) وهما على شاطيء نهر الفرات فصالح أهلها بعد معركة خفيفة على ألف دينار وكان الذي صالحه (بصبهري بن صلوبا) وكتب لهم خالد كتابا بهذا)[2]... ثم نزل الحيرة فخرج إليه أشرافها مع (قبيصة بن إياس بن حيد الطائي) وكان قد أمره عليها كسري بعد النعمان بن المنذر .. فقال لهم خالد أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام .. فقال له قبيصة .. نقيم على ديننا ..قال فادفعوا الجزية وإلا فالحرب .. فقال قبيصة بل نعطيكم الجزية .. وكتبت معاهدة بالجزية على مائتي ألف درهم .. تقابل خالد مع (عمرو بن المسيح بن حبان بن بقيلة) وكان من نصاري العرب .. فقال له خالد.. من أين أثرك ؟ قال من

---

(١) الطبري جـ٣ ص ٣٤٦ وما بعدها.

(٢) البداية والنهاية لأبن كثير.

ظهر أبي .. قال ومن أين خرجت ؟ قال .. من بطن أمي .. قال ويحك على أي شيء أنت ؟ قال .. على الأرض .. قال ويلك وفي أي شيء أنت ؟ قال في ثيابي .. قال ويحك تعقل ؟ قال نعم وأقيد .. قال إنما أسألك قال وأنا أجيب.. قال أسلم أنت أم حرب ؟ قال .. بل سلم قال .. فما هذه الحصون التي أرى ؟ قال بنيناها للسفيه نحبسه حتى يجيء الحليم فينهاه .. !!! كتب خالد كتابا وبعث به إلى أمراء كسرى بالمدائن ووزرائه ونصه (من خالد بن الوليد إلى مرازبة أهل فارس سلام على من اتبع الهدى.. أما بعد فالحمد لله الذي فض خدمتكم وسلب ملككم ووهن كيدكم وإن من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلكم المسلم الذي له مالنا وعليه ما علينا.. أما بعد فإذا جاءكم كتابي فابعثوا إلى بالرهن واعتقدوا مني الذمة وإلا فو الله الذي لا إله غيره لأبعثن إليكم قوما يحبون الموت كما تحبون الحياة)[1]...

ذات السلاسل

كان خالد قبل أن يتحرك من اليمامة عرف أنه سيقاتل هرمز الحاكم العسكري وكان رجلا مخضرما ذا خبرة وكياسة .. وكان الإمبراطور يضع ثقته فيه لشجاعته وإقدامه.. وكان قد عينه حاكما لهذه المنطقة ليدافع عنها بوصفها منطقة ذات أهمية لما تتمتع به من حيوية ولرواج الحالة الاقتصادية فيها ولموقعها الإستراتيجي .. وكانت هذه المنطقة كثيرا ما يحدث فيها قلاقل واضطرابات نتيجة إغارة العرب بقيادة المثنى بن حارثة لأنها منطقة غنية في مواردها الطبيعية وفي الحركة التجارية التي تزدهر يوما بعد يوم .. وكانت (الأبلة) بدورها هى البوابة التي يتفرع منها عدة طرق برية تصلها ببلاد العرب وبغربى العراق ووسطها وبفارس نفسها ، كما أنها كانت تتصل بدجلة والفرات.. لكل هذه الأسباب نصب الإمبراطور هرمز عليها ليحكمها إداريا ويدافع عنها كقائد.. فأدرك خالد منذ اللحظة الأولى صعوبة الموقف خاصة وأن الخليفة حدد له الأبلة هدفا .. فهو إذاً سيلتحم مع الفرس في معركة

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ٦ ص٤١٩ وص ٤٢٠ وما بعدها .

ساخنة لأن جيش الفرس حول هرمز قد زود بالعدد والمهمات .. لكن خالدا بذكائه وفطنته يعرف أن الجندي الفارس بطيء الحركة .. فالحركة الطويلة العاجلة عسيرة عليه تهد حيله ، أما جند خالد فكانوا يقاتلون من فوق ظهور البعير ومن على صهوة الخيل وهم بارعون في الحركة السريعة ، فوق أي تربة ، لذلك بدأ خالد يشجعهم وكان اسمه يجذب إليه المقاتلين ليكونوا تحت قيادته .. في نفس الوقت يرهبه العدو لما حقق من انتصارات .. ولقد أرسل خالد بكتاب إلى هرمز (أما بعد فأسلم تسلم أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة واقرر بالجزية وإلا فلا تلومن إلا نفسك.. فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة)[1]...

لكن هرمزا استقبل كتاب خالد بغضب واحتقار .. وبعث هرمز إلى الامبراطور في فارس برسالة يبلغه بتهديد خالد ، وعقب بأنه سيلقن العرب الأجلاف درسا لن ينسوه وأن هذا المغرور المحدث النعمة سوف أجرده من جيشه وأكبله بالحديد...

كان المجتمع الفارسى تسوده عنجهية أرستقراطية شأنه في ذلك شأن أي مجتمع يقوم على نظام طبقي يتميز فيه فريق من الناس وكان قدر الرجل في هذا المجتمع يتميز بالقلنسوة التي يضعها على رأسه فهي كشارة ترمز إلى مكانته الاجتماعية وما يتمتع به من قربة من الإدارة الحاكمة .. وكان هرمز نفسه من دعاة التوسع الاستعماري ذا طبيعة متعجرفة ينظر إلى العرب باحتقار ظاهر ، في نفس الوقت كان العرب يبادلونه نفس الشعور لذلك كان لابد للتخطيط الجيد لهذه المعركة[2]...

من اليمامة إلى ذات السلاسل

سميت ذات السلاسل لكثرة من سلسل بها من فرسان فارس... لأن قائد الفرس خاف أن يفر جنده إذا سمعوا باسم خالد لذلك ربط الجند في سلاسل ..[3] بدأ خالد في

(١) الطبري جـ ٣ ص ٣٤٧ وما بعدها.
(٢) المصدر السابق ص ٣٤٩ وما بعدها.
(٣) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٦ ص ٤٢١ .

اليمامة قبل أن يسير في تقسيم جيشه إلى ثلاث مجموعات وذلك رغبة منه ألا يجهد قواته أو يضيع وقته إذا فوجيء بحشد من قوات العدو وأمر كل مجموعة أن تسير في يوم وفي اليوم الثاني تتحرك الكتيبة الثانية وفي اليوم الثالث تتحرك الكتيبة الثالثة التي كان خالد فيها واتفقوا على أن يجتمع (الجيش بأثره قرب الحفير ...[1] وكان على كل كتيبة قائد محنك .. فعلى الكتيبة الأولي المثنى بن حارثة .. والكتيبة الثانية قائدها عدي بن حاتم وعاصم بن عمر ودليلهما مالك بن عباد وسالم بن نصر.. والكتيبة الثالثة على رأسها خالد ودليله رافع[2]... علم هرمز من خلال عيونه أن الجيش الإسلامي توعد باللقاء عند الحفير التي كانت تبعد عن موقعه بخمسين ميلا فحرك جيشه على عجل وهذا التحرك أرهق الجيش المثقل بمعداته الكثيرة وقد أحس الجندي الفارسي بتعب شديد وأنه منهك القوي ومع ذلك كان هرمز يستحثهم ..

أما خالد فلم يكن قلقا ولا منزعجا لأن العيون أخبرته أن هرمزا مع جيشه في (كاظمة) وموقعه هناك لم يكن يشكل أي خطر ضد خالد .. في نفس الوقت اندفع خالد إلى الحفير وجاءت دراسة العارفين باستراتيجية الأرض ومواقعها تخبر خالدا بأن الجيش إذا اتجه إلى الحفير ليدخل الأبلة فإن هرمز بجيشه يستطيع أن يخلق متاعب شديدة للقوات المتقدمة إلى ما وراء الحفير .. فعزم خالد على أن يغير اتجاهه إلى الحفير ليتجنب الخطر الذي يواجه جيشه، لأنه ليس بالساذج كما يظن الفرس.. فهو يتحلى بالمهارة القتالية الفائقة والمواهب المتعددة .. لذلك اتجه إلى كاظمة ولكنه لم يتوغل في البادية كثيرا حتى لا ترقبه عيون الفرس .. واتجه إلى الكاظمة ولم يشأ أن يستولى عليها حتى لا يدخل في عراك من ناحيتين .. أهل الكاظمة من ناحية وهرمز مع جيشه من الخلف .. وعرف هرمز بأن خالدا غير خطته فأمر بالتحرك من جديد وهذه المرة كسابقتها بالنسبة للفرس فرغت عليهم حالة من التذمر ، خاصة من بين تابعيهم من العرب الذين راحوا يسبون ويلعنون هرمز الفارسي الذي سبب لهم كل هذه المتاعب .. ووصل هرمز مع جيشه إلى كاظمة في حالة من الاجهاد الشديد

(١) تاريخ الطبري جـ ٣ ص٣٤٨

(٢) البداية والنهاية لأبن كثير جـ ٦ ص ٤٢١.

وخوفا من تفلت جنوده بـدأ يسـتخدم السلاسـل في تقييـد رجالـه الواحـد مـع الآخـر ليثبت الجميع في القتال .. وكانت السلسلة الواحدة عبارة عن أربعة أطوال تربط فيما بينها إما ثلاثة رجال أو خمسة أو سبعة أو عشرة[1]... وكانوا يستخدمونها في تقييد الجنود خوفا من أن يفروا من الميدان وحتى يقـف جنـود الفـرس أمـام أي هجـوم مـن المسلمين صامدين كالصخرة .. وكان لهذه السلاسل عيوبها فقـد كـان طبيعيـا أن تقيـد حركة الجنود وتجعلهم يتعرضون للقتل من جانب المـهاجمين كمـا أن العـرب الذيـن كان يعملون في جيش فارس استنكروا هـذه السلاسـل وقـالوا للفـرس (قيـدتم أنفسـكم لعدوكم فلا تفعلوا فإن هذا طائر سوء ..) ورد الفرس علـى العـرب قـائلين "أمـا أنتـم فحدثونا أنكم تريدون الهرب"...

خرج خالد من البادية وتجمع رجاله من حوله واقترب من الفرس وعزم على أن يقاتلهم في هذا الموقع قبل أن يتمكنوا مـن اسـتعادة أنفاسـهم ، لكـن المسـلمين كـان ينقصـهم المـاء وشـكوا إلى خـالد فـرد عليـهم بقولـه (ألا انزلـوا وحطـوا رحـالكم ثـم جالدوهم على الماء فلعمري ليصيرن الماء لأصبر الفريقـين وأكـرم الجنديـن) .. عندئـذ ذهب القلق والفزع من نفوس المسلمين لثقتهم في قائدهم ولكن لحظات وهطلت الأمطار فشرب المسلمون واغتسلوا وملؤا قرابهم وما إن طلعت شمس اليـوم التـالي حتـى تـهيأ الجيشان للقتال وكان كل قائد قد قسم جيشه وحدث ذلك في الأسبوع الثالث من شـهر الله المحرم من العام الثاني عشر الهجري .. بدأت المعركة بصورة رائعة حيث بـدأت بمبارزة بين قائدي الجيشين .. كان هرمز محاربا قويـا بطـلا مغـوارا وكـان الكـل لا يجرؤ على مبارزته.. وقد نزل هرمز من على حصانه ووقف ينادي رجل لرجـل أيـن خالد؟[2].. وخـرج خـالد مـن صفـوف المسـلمين ونـزل مـن علـى صـهوة جـواده وبـدأ يتصاولان بالسيف والدرع وأبدى كل منهما مهارة فائقة ، وكان هرمـز بعـد ذلـك قـد رمي بسيفه إلى الأرض واقترح على خالد أن يتصارعا وقبل خالد هذا التحدي.. لكن.. كانت هناك مؤامرة للغدر بخالد.. وخالد لم يتنبه لها .. كيف ؟

---

(١) الطبري جـ ٤ ص ١١٩.

(٢) الطبري جـ ٣ ص ٣٤٨ .



كان هرمز قبـل أن يخـرج للمبـارزة اختـار بعـض القيـادات والشـخصيات المحاربـة وأفهمهم بأنه سـيبارز خـالدا وجـها لوجـه وسيطلب إليـهم في اللحظـة المناسـبة أن يتقدموا ويهجموا ويحيطوا بهما ثم يقتلوا خالدا بعد أن يكون قد أمسك بـه وحذرهـم مغبة التأخير .. لذلك وقف هؤلاء القاتلون يرقبون الموقف ولما بدأ القائدان يتصارعان صرخ هرمز في رجاله فاندفعوا إليه وعلى وجوههم أمارات العنف والشراسـة ، وهنـا أدرك خالد حقيقة الموقف وكان بدون سيف ودرع ، وبدا لخالد ألا مخرج له من هـذه الورطة لأن هرمزا يشدد من قبضته عليه ، فما كان من خـالد إلا أن اتخـذ مـن هرمـز ترسا يحول دون تسديد أي ضربة من جانب الفرس إليه .. التحـم الجيشـان وتعـالت أصوات الجند .. كانت قيـادات فـارس يركـزون انتباهـهم علـى المتصـارعين ، وكـان القعقاع قد شاهد القتلة الفرس وهم يحيطون بخالد وأدرك لتوه الحيلة والغدر اللذيـن عمد إليهما قائد العدو وأدرك أن خـالدا في خطـر .. ولم يضيـع القعقـاع وقتـه فنخـس فرسه وقفز به قفزة جنونية ووصل إلى حلبة المصارعـة في آخـر لحظـة وأطـاح بسـيفه الفرس الذين كانوا يحيطون بخالد وقتلهم القعقـاع وهنـا تمكـن خـالد مـن هرمـز ولم تمض أكثر من دقيقتين حتى سقط هـزم علـى الأرض بـلا حـراك ووقـف خـالد وبيـده خنجر يقطر دما .. أصدر خالد أمره لجيشه بشن هجوم عام ، لأن مؤامرة الغدر التي دبرها قائد العدو في بداية المعركة كفيلة بأن يكون الانتقام شاملا على الجيش كلـه .. أصيب جيش الفـرس بنكسـة معنويـة لأن قـائدهم قُتـل ، وتفـوق المسـلمون وظـهرت مهاراتهم وبسالتهم في القتال ونجحوا في سحق مقدمة الفـرس وتقـهقر العـدو .. أمـا الذين قيدوا بالسلاسل فقد عاقتهم عن الحركة فسـقطوا فريسـة سـهلة أمـام المسـلمين المنتصرين .. كان هناك قائدان فارسيان (قباذ وأنو شجن) لمـا شـعرا بالهزيمـة أمـرا بانسـحاب الجنـد إلى المؤخـرة لكـن الهزيمـة أدركتـهم وواصـل المسـلمون ضرباتـهم العنيفة.

بدأ المسلمون في اليوم التالي يقومون على رعاية المصابين وجمع الغنائم من أسلحة ودروع ومخازن وملابس ثمينة وخيول وأسرى ، ووزع خالد على رجاله أربعة أخماس ماغنم ، وقد بلغ نصيب كل فارس ألف درهم وكل جندي من المشاة ثلث هذا الرقم ، ثم أرسل خالد بخمس الغنائم للخليفة نصيبا للدولة وكان من بينه قلنسوة هرمز والتي بلغت قيمتها مائة ألف درهم ، ولكن أبا بكر أعادها لخالد لأنها من حقه فقد حصل عليها في مبارزة وكان للمبارز المنتصر أن يجرد المنهزم من كل ما كان يضعه على جسده .. لكن خالدا باع القلنسوة لتوفر له المال الذي يوفر به الحاجات لجنوده الأوفياء ..

ومن الأشياء الطريفة أن المسلمين استولوا على فيل وبعثوا به إلى المدينة مع الأسلاب ولم تكن المدينة (مدينة الرسول ﷺ) قد رأت فيلا قبل ذلك فأثار ذلك دهشة واضطرابا بين الناس لمرآه (فلما رآه نسوة أهل المدينة جعلن يقلن أمن خلق الله هذا أم شيء مصنوع ؟ فرده الصديق إلى خالد[1] ..

أمضي خالد بضعة أيام قام خلالها بتنظيم بعض الأعمال الإدارية في نفس الوقت وجه بعض رجاله لعمل مسح شامل للمنطقة ، وحتى لا يتجمع فلول الهاربين ويثيرون أي شغب بالمنطقة بعد ذلك . ثم أصدر خالد أمره إلى المثنى بالتحرك إلى نهر صغير يقع شمال المنطقة على أحد شاطئيه حصن يعرف باسم (حصن المرأة) وكان قد سمي بذلك لأنه كان تحت حكم سيدة .. وقام المثنى بفرض حصار على هذا الحصن .. ولما وجد أن الحصن منيع ترك (أخاه المعنّي) وتحرك مع بعض مئات من الجند ليشرف على عملية الحصار وتحرك المثنى في أتجاه الشمال يستكشف المنطقة ويتعرف على الأحوال وقد أمّن الفلاحين على مزارعهم.. أما (المعنّي) فبعد ثلاثة أيام دار بينه وبين سيدة الحصن مفاوضات انتهت باستسلامها ولم يتعرض الحصن لأي عملية حربية واستسلم من كان يدافع عن الحصن واعتنقت المرأة الإسلام هي ومن معها وتزوجت من المعني... وقد بدأ خالد يتحرك بجيشه يواصل مسيرته حسبما أمره الخليفة...

---

(١) البداية والنهاية لأبن كثير جـ ٦ ص ٤٢١.

كان خـالد يقـوم بنفسـه بعمليـة استكشـاف لمواقـع الفـرس .. وكـان يتحـين الفرصـة ويستعجل الزمن ليدخل في معركة مع جيش الفرس يسحقه ويقـهره خاصـة وأن أثـر موقعة الكاظمة مازال عالقا في رؤوس الفرس ، وكان خالد عندما غادر الكاظمة اتجـه شمالا إلى أن وصل إلى مشارف مدينة الزبير الحاليـة وكـانت علـى بعـد عشـرة أميـال جنوب غربي الأبلة في هذه المنطقـة وصـل إليـه رسـول مـن المثـني يخـبر خـالدا بـأن التحاما مع الفرس يقع عند الضفة الجنوبية لنهر (المقبـل) .. ولذلـك سميـت الموقعـة بوقعة النهر .. واتجه خالد على الفور إلى هذه المنطقـة فوجـد أن الفـرس تجمعـوا في هذه المنطقة وجعلوا ظهورهم إلى ناحية النـهر فليـس هنـاك احتمـال لتطويـق جيـش الفرس من هذه الناحية لأن النهر يحميهم لذلك حاول خالد أن يحركهم عن موقعـهم كما فعل مع هرمز سابقا، لكنه لم يتمكن ، فقرر أن يقاتلـهم في معركـة محـدودة ثـم وضع خالد أمام عينيه أنه حتى إذا انتصر عليهم فإن النهر سيحول بينه وبين دخول العراق لأنه ليس معه مراكب أو قوارب ليتمكن بذلك من عبور النهر .. وكـان الـذي رسـم هـذه الخطـة قـائد الفـرس المحنـك ولـه خـبرة طويلـة في الحـروب ومعرفـة باستراتيجية المواقع وتحصين الجند هو القائد (قارن) وهو جندي شـجاع وقـد اتخـذ النهر ستارا له يحمي بـه ظهره كما أوقف فيه عددا من القوارب أعدهـا لاسـتخدامها إذا دعت الضرورة .. في نفس الوقت خالد هو الآخر بعيد النظر وحصيـف لذلـك قسم جيشه بدقة ومهارة وبما يناسب الحالة أمامه . ولقد بدأت المعركة بثلاثـة مبـارزات كان قارن أول المبارزين فخرج إليه خالد بفرسه لكـن أحـد المسلمين وهـو (المقـل بـن العشي) خرج من مقدمة الصفـوف واتجـه إلى قـارن فوقـف خـالد ينظـر وكـان المقـل شجاعا مقداما فهجم على خصمه قارن فأرداه قتيلا فخرج بعد ذلـك قـائدان فارسـيان هما (قباذ وأنوشجن) يتحديان المسلمين ويطلبان المبارزة فخرج إليهما عاصم بن عمرو وعدي بن حاتم من المسلمين فقتل عاصم أنو شجن وقتـل عـدي قبـاذ .. بعـد ذلـك أمـر خالد بشن هجـوم عـام وبـدأ الفـرس يتقـهقرون وازداد الارتبـاك في صفوفـهم وعمـت

الفوضى فاختلت صفوفهم وسادهم الارتباك ، وفقد الجيش الفارسي توازنه تحت عنف هجوم المسلمين المتواصل ، وألقى الفرس بأنفسهم في القوارب في محاولة يائسة للنجاة وقد شملهم خوف ورعب فأصبحوا يهيمون على وجوههم .. وقد ذكر المؤرخون أن عدد من قتل في هذه المعركة (ثلاثون ألف فارسى)[1] وقد غنم المسلمون غنائم كثيرة جدا ، وانتشر خبر نصر المسلمين الساحق لذلك فإن كل المنطقة خضعوا لخالد ووافقوا على دفع الجزية على أن تضمن الدولة الإسلامية حمايتهم ، وشكل خالد هيئة من العاملين لجباية الخراج على رأسها (سويد بن مقرن) الذي اتخذ من الحفير مقرا له ، وقد اهتم خالد بتنظيم الشئون الإدارية مع إرسال كتائب من جنوده على طول نهر الفرات لاستكشاف أي تجمعات أو تحركات أو حشود لجيش الامبراطورية المنهزمة...

قدوة محبوبة

كان للصورة الكريمة التي يتعامل بها خالد مع جنوده من التواضع ورعاية أمرهم.. وأنه كان يقاتل بنفسه معهم وفي مقدمتهم أثرا عظيما على رفع الروح المعنوية عند الجنود وينعكس ذلك على سير المعركة ، الأمر الذي جعل نجاحه وانتصاراته من عوامل التشجيع لرجاله ، فانعكس ذلك عليهم لأنهم رأوا فيه الأمين مع نفسه الأمين على الغنائم .. لا يستأثر بشيء دونهم .. ولا يحجب أي معلومة عنهم يشاورهم في أي أمر ويناقشهم ويقيم بينه وبينهم حوارا ، ومع كل هذا كان يتبسط معهم يمازحهم ويسألهم عن أحوالهم .. لكل هذا وغير ذلك كثير أحبه الجند وذاع صيته وانتشر خبره فهفت إليه النفوس وتعلقت به القلوب وأحبه الجميع بلا استثناء لأنه حقق نصرا عظيما وبعث بمال وفير إلى الدولة التي يرأسها أبو بكر الصديق الرجل الشجاع المقدام الذي كان سمعه على أخبار خالد وعينه على الخريطة التي يتحرك عليها .. فهل لقادتنا قواد جندنا أن يجعلوا من خالد رائدا للأبطال على طريق الخير ؟؟ هذا ما نرجوه...

---

(١) الطبري جـ ٣ ص ٣٥٣.

انتصر المسلمون انتصارا باهرا وبصورة رائعة وتطايرت الأخبار هنا وهناك خاصة وأن الجيش الامبراطوري هزم هزيمة منكرة على يد هؤلاء العرب الذين أطلق عليهم الفرس (الأجلاف) وكان هذا الانتصار أمرا بعيد التصديق .. إذا كيف تنهزم جيوش فارس ويقتل قادته بيد هؤلاء الأجلاف الذين لا يعرفون أي نظام حربي كما يزعم الفرس لكن هذا ما حدث ولله في خلقه شئون .. إن النبي العظيم محمدا ﷺ ربى أمة وقد استطاع أن يوحدهم بعد أن كانوا متفرقين وأن يؤلف بين قلوبهم بعد أن كانوا متنافرين وأن يعلمهم أدب السلوك وأدب التعامل فنظموا أمورهم وطبقوا تعاليم الإسلام وحفظوا القرآن وفهموا ورتبوا الأمور العقلية وبدءوا بالأوليات لذلك تحولوا من رعاة غنم إلى قادة أمم وتلك عظمة الإسلام في النهوض بالرجال والنساء لبناء مجتمع فاضل يشع بالخير ليهتدي به الحيارى في دنيا الناس وصدق الله العظيم (أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا) [الأنعام:١٢٢] .. هذا ولقد كان الامبراطور أرد شير بدأ يجهز جيشين آخرين لملاقاة العرب .. وكأنه لم يستفد من الأحداث التي مرَّت عليه .. المهم أنه بدأ في التجهيز حيث احتشد المقاتلون الفرس استجابة لأوامر الإمبراطور .. كان الفرس يزعمون أنهم يفهمون عقلية العرب.. ويعتقدون أنه ليس باستطاعة أي جيش عربي أن يبتعد عن البادية ، طالما أنه كانت هناك قوات معادية .. نصَّب الإمبراطور قائدا عاما لقيادة الجيوش هو (اندرزغر) وبدأ الامبراطور يشرح للقائد الجديد عقلية العربي وأنه سرعان ما يعرقل مسيرته مادام قد جرّ بهِ بعيدا عن البادية .. كان أندر زغر حاكما عسكريا لولاية خراسان وكان محل تقدير من الفرس وهو قد ولد بين عرب العراق ، لذلك كان يكن لهم حبا وتقديرا وقد بادلوه ذلك .. لهذا كان تعيينه قائدا محل رضا من الجميع .. أصدر الامبراطور أوامره لزغر أن يتوجه مع جيشه إلى الولجة وهناك سوف ينضم إليه الجيش الثاني، وسار فعلا وكان يبعث ببعض رجاله إلى عدة قبائل عربية كان يعرفها ، واستطاع فعلا أن يجمع آلاف العرب الذين قبلوا

أن يقاتلوا تحت رايته .. كذلك التقى ببعض فلول الجيش الفارسي الهارب من المعارك السابقة فضمها إليه كذلك .. كان (بهمن) قائدا لجيش فارس الثاني وكان من أبرز الفرسان المحاربين وكان يلبس قلنسوة ثمنها مائة ألف درهم . وكانت أوامر الإمبراطور أن (بهمن) يتولى قيادة الجيش عندما يلتقيان وعلى الجيشين أن يعملا سويا وبكفاءة على سحق جيش المسلمين...

أقلق خالد ما رآه من كثرة جيش الفرس لأن المعارك الماضية فر منها فرسان كثيرةمن أمام خالد وانضموا إلى جيش زغر وأقلق خالد أنه يخشى أن الفرس تحشد جيشا آخر وتبعث به .. إلا أنه سرعان ما تذكر أنه اشتبك مع جيشين فارسيين في معركتين دمويتين .. وكان النصر له والهزيمة لأعدائه .. ثم تذكر أنه أول قائد مسلم يخرج إلى هذه البلاد لنشر الإسلام وهو دين سلام وآمان وأن يخوض الحرب وهو كاره لأن الإسلام من تعاليمه صيانة الإنسان وعدم قتله والحفاظ عليه . لكن إذا فرضت الحرب فالمسلم مطالب بالدفاع . إنه بحكم الوضع الحالي فقد أصبح خالد يتولى حكم كل الأراضي التي غزاها المسلمون وهو يحكم نيابة عن الخليفة العظيم (أبو بكر الصديق) ، ومع أنه قائد حربي فقد أصبح زعيما سياسيا أيضا ، لأن حكام الولايات يلجؤون إليه طلبا للمشورة في المسائل السياسية والإدارية .. إذا لابد أن يحافظ على هذا المجد.. لأنه أولا وأخيرا .. جندي مسلم .. يعمل تحت لواء حاكم له السمع والطاعة .. ويؤمن بدين إلهى حمله نبي عظيم ، وهو مكلف أن يبلغه إلى الناس ما استطاع إلى ذلك سبيلا .. إن خالدا نظر إلى رجاله فرآهم يتمنون أن يخلدوا إلى الراحة حيث أحسوا بالتعب من أثر المعارك الماضية فسمح لهم خالد ببضعة أيام يخلدون فيها إلى الراحة .. لكن خالدا نفسه أخذ يخطط للمعركة والتي أدرك أنها سوف تعترض عليه قريبا لذلك بدأ يراسل العرب أهل المنطقة ويستميلهم إليه.. وكانت معاملته لهم حسنة حسبما تأمر تعاليم الإسلام .. لذلك سرعان ما جاءوا إليه وبدءوا يبلغوه عن جيش فارس وعن القيادات التي تقوده وشكل خالد شبكة على كفاءة كبيرة من العرب المحليين الذين كانوا يكرهون الفرس لسوء معاملتهم لهم .. ومن هذه الشبكة استطاع خالد أن يتعرف على الطرق وأحسن الأماكن وعن جيش العدو

ومعداته .. وإزاء المعلومات التي كانت تصل إلى خالد قرر .. ألا يترك الفرصة لأي جندي من جنود فارس أن يهرب من سيوف المسلمين، ثم عليه أن يعجل بالدخول في معركة حربية مع الجيش الذي يقوده (زغرب) قبل أن يصل الجيش الذي يقوده (بهمن) .. لقد كان خالد عبقريا موهوبا بارعا ذكيا .. لذلك أصدر أوامره (لسويد بن مقرن) بأن يتولى أمر إدارة المناطق التي فتحوها كما اختار له من يعاونه في ذلك .. ثم وضع بعض الفصائل لحراسة الجزء الأدنى من دجلة وحمايته من أي حركة قد يلجأ إليها العدو بعبوره وبعد أن انتهى خالد من هذه التدابير سار بجيش تعداده خمسة عشر ألف مقاتل .. ولقد فوجيء (اندر زغرب) قائد الجيش الأول للفرس بجيش المسلمين يظهر في الأفق قرب الولجة.. ولم يداخله الفزع لأن معه جيش كبير .. علما بأنه كان يتمني ألا يشترك مع المسلمين قبل أن يصل (بهمن) ، لكن .. كانت الأحداث أسبق من تخيلاته فلقد التقى الجيشان وفرض عليه المسلمون أن يخوض المعركة لذلك بدأت عمليات الاستطلاع وبدأ كل فريق يَعُد عدته .. وكان الميدان أمام المقاتلين عبارة عن سهل يمتد بين حافتين منخفضتين تبعد إحداهما عن الأخرى بنحو ميلين .. وكانت الصحراء جرداء ، ويجرى على بعد بسيط وراء الحافة الشمالية الشرقية فرع من الفرات يعرف الآن باسم (النهر الخسيف) ، وقد وضع خالد جيشه أمام الحافة الشرقية في مواجهة الفرس ، أما جيش العدو فكان عند سفح الحافة الشمالية الشرقية .. بهت (أندر زغرب) لمرأى الجيش الإسلامي وبدأ بعينيه يتفحص جيش المسلمين وقدره بما لا يزيد عن عشرة ألف رجل ، ولم ير لفرسان المسلمين أي أثر ، بل رأى أن جيش المسلمين أغلبه يسير على أقدامه.. المهم أن هذه الرؤيا البصرية من (زغرب) رفعت معنوياته وأيقن أنه سيسحق قوة المسلمين ويطهر أرض العراق من هؤلاء الأجلاف .. ولذلك قرر أنه لن يبدأ بالهجوم وإنما يكون هو في موقع صد هجوم المسلمين ليستنزف قوتهم ثم يشن عليهم هجوما بعد أن يرهقهم .. ويا سبحان الله .. إن المسلمين عندما نظروا إلى جيش (زغرب) رأوا بأعينهم أن الجيش قليل العدد وليس كما تواردت الأنباء من أن جيش (زغرب) أكثر عددا بكثير.. وتلك إرادة الله .. فهو القائل لحبيبه ومصطفاه (إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ

قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) [سورة الأنفال الآيات ٤٣ - ٤٤]... في صباح اليوم التالي دارت معركة في جو مشحون بالجنون والغضب وتقابل الجيشان والتحما ببعضهما بعض الوقت وتعالت أصوات قرقعة السيوف وليس للزمن حساب أمام الرجال وإنما عليهم أن يحاربوا بعنف وشدة .. وبدأ الجيشان يشعران بالتعب ..

وكان المسلمون أكثر تعبا .. كانوا أقل عددا من الفرس .. ثم إن الفرس عندهم قوة احتياطية فكانوا يدفعون بسرية مكان أخرى من الصفوف الأمامية .. ولكن مع كل هذا احتفظ المسلمون بالروح المعنوية العالية لأن خالدا يتقدم الصفوف ويضرب بالسيف في مهارة فائقة وقدرة بروح معنوية عالية ..

كان بجيش فارس رجل يسمى (حضر مرد) ومعنى هذه الكلمة بالفارسية أنه بـ (ألف رجل) كان هذا الرجل أحد أبطال الفرس يتمتع بجسم ضخم مليء وكان عملاقا محاربا شديدا تحدّى المسلمين وطلب المبارزة .. وهنا تقدم إليه خالد وبارزه.. وسكتت السيوف وتطلعت العيون إلى هذا الشخص الذي يتقدم إلى (حضر مرد) في ثقة واطمئنان. كتم المسلمون أنفاسهم خوفا على خالد أما جنود الفرس فقد فرحوا لهذه المبارزة لأنها ستقوي من الروح المعنوية لديهم .. لكن رفع خالد سيفه بثقة وسدده بقوة إلى العملاق فأرداه قتيلا ، وأعلن خالد عن استهانته بهذا الوغد وأمثاله فأنكفأ خالد على صدر الجثة الضخمة وجلس عليه ونادى على خادمه أن يناوله رداءه وشيئا من الطعام لأنه جائع .. وبعد أن جلس على هذا المتكأ المخيف بدأ يتناول غداءه الشهي[1]...

في هذه الأثناء كان (أندر زغرب) ورجاله يتطلعون إلى المسلمين فرأوا أن التعب والإجهاد ظاهران على وجوه المسلمين فانتهز هذه الفرصة وأصدر أوامره لجنده الذين شددوا من هجماتهم ، لكن المسلمين صمدوا وصدوا الفرس وقد توترت أعصابهم فتقهقروا ببطء إلى الخلف ، فنزل خالد وهو كالأسد الهائج مطالبا رجاله أن

---

(١) الطبري جـ ٣ ص ٣٥٤.

يكونوا مثله ..وبدأ (أندر زغرب) ينظر إلى تقهقر المسلمين وبدأ يحلم بالنصر الذي سيحققه وشيكا ، ووضع على رأسه قلنسوة ثمنها مائة ألف درهم وهى أعلى وسام حربي يوضع على رأس الأبطال ، وساعتها يصل إلى السلم الاجتماعي الراقي في فارس.. أما المسلمون الذين تقهقروا فقد نظروا إلى خالد فإذا به في المقدمة ، لذلك بدءوا يقاتلون بصورة انتحارية وبذلوا أقصى ما يحتملون لأنهم أيقنوا أنه لن يمر وقت طويل حتى تكون جبهتهم قد تحطمت وصفوفهم تمزقت ومن لم يمت بالسيف مات في الصحراء عطشا تنهبه السباع فأولي أن يموت شهيدا في معركة الحق..

كان المسلمون ينظرون إلى خالد باعتباره الرمز والقائد المقدام ، ونظروا إليه وهو يعطى إشارة لأحد القادة الأبطال من حوله والمسلمون لم يعرفوا معناها ولا هدفه..وغاب القائد الذي فهم إشارة خالد فقد خرج من بين صفوف المسلمين ثم عاد بعد أن لاحظوا أن كتيبتين من فرسان المسلمين ظهرتا في الأفق طوقت واحدة منهما مؤخرة الفرس من اليسار والثانية طوقت مؤخرة الفرس من اليمين، ودوت في الأفاق كلمة (الله أكبر)..واهتز سهل الولجة تحت حوافر خيل العرب التي راحت تهدر كالرعود .. وما هى إلا لحظات حتى أصاب جيش الفرس فزع ورعب وبعد أن كانوا يصيحون صيحات الطرب والسرور راحوا يصرخون من الخوف والذعر .. وساد جيش الفرس لغط وضوضاء وبدأ جيش المسلمين يقوى ويستأنفون هجومهم ووقع جيش (أندر زغرب) في المصيدة ولم يعرف كيف يتخلص منها ووقعوا فريسة لسيوف المسلمين وأصيبوا بالارتباك وعجزوا عن استعمال الأسلحة .. وراح كل مقاتل من الفرس يطأ زميله بقدميه وهو يحاول الفرار بعد أن تملكه الخوف ، بل أخذ البعض منهم يقتل الآخر وضاقت الحلقة على الفرس فعجزوا عن الصمود وأصبح ميدان المعركة جحيما بالنسبة لهم واستطاع بعضهم أن يفلت من الميدان وأن يفر إلى الصحراء وبهذا اختفى جيش فارس وكأن الأرض انشقت وابتلعت كل الجنود .. والذي يثير الدهشة أن (أندر زغرب) القائد العام ، الذي كان يحلم منذ لحظات بوسام النصر يوضع على رأسه، هرب في اتجاه البادية فرارا من جحيم الولجة ودلت المعلومات على أن القائد المنكوب مات عطشا على رمال الصحراء ..

انتهت المعركة بسلام وكان خالد على يقين من أن هذه المعركة سببت لرجاله الكثير من التوتر والتعب ، فقد كانت معركة عنيفة ، وأراد أن يرفع من روحهم المعنوية فألقى فيهم خطبة بدأها بحمد الله والصلاة والسلام على سيدنا محمد الرسول الكريم ثم قال (ألا ترون إلى هذا الطعام كرفع التراب وبالله لو لم يلزمنا الجهاد في الله والدعاء إلى الله عز وجل ولم يكن لنا إلا المعاش لكان الرأي أن نقارع على هذا الريف حتى نكون أولي به)[1].. إن خالدا يرغب العرب الذين عاشوا في بلاد العجم أن يلتحموا بهم رغم أن البيئة الاجتماعية تختلف عن العرب الذين جاءوا يحملون إليهم مشعل الهداية من خلال الإسلام ومنهجه القرآني الكريم وهدى نبيه العظيم وكان ذلك أفضل لهم ولقد وافق جنوده على ما قال .. كان خالد وهو يخطط لأرض المعركة والالتقاء بجيش العدو لم يغفل عن الأرض المحيطة بأرض المعركة من كل الأطراف .. لذلك كان من الخطط التي رسمها أنه كلف اثنين من ضباطه هما (يسر بن أبي رهم)، (سعيد بن مرة) وعيَّن كلا منهما قائدا لقوة ضاربة زاحفة تتألف من ألفي فارس.. وكلفهما بالآتي:

١- أن يخرجا بالجنود في ظلام الليل وأن يتجولا حول الناحية الجنوبية من معسكر الفرس ..

٢- أن يخفيا رجالهما عن العيون .. وأن يتعرفا على آخر الحافة التي تمتد وراء معسكر الفرس ..

٣- أن يبقي الفرسان على خيولهم عندما تنشب المعركة في الصباح .. ولا يدخلا المعركة .

٤- أن يكونا على أتم الاستعداد للتقدم والالتحام بالمعركة .. إذا صدر إليهما الأمر.

٥- أن يكلفا بعض الفرسان بتركيز أبصارهم على أي إشارة تصدر من خالد .. ساعتها تهجم القوتان كل مجموعة على جناح العدو ..

إن خالدا عندما أعطى هذه الأوامر لم يفصح لأحد عنها إلا لمن يقوم بتنفيذها، وبقيت هذه الخطة سرا حتى في آخر لحظة ، وأعطى خالد الإشارة وجاءت الكتيبتان وكان

---

(١) الطبري جـ ٣ ص ٣٥٤.

الخير فيما فعل .. فلقد أمنَّ ظهر المسلمين وأجرى مسحا شاملا للمنطقة حتى لا يأخذ على غرة ، ثم زج بالقوتين إلى المعركة في الوقت المناسب فتحقق نصر الله المبين.. أن هذه العملية هى حركة التفاف قوية وقد نفذت بدقة.. لهذا نقول لكل من يحاول الاعتداء على المسلمين لو كان هنا خالد لم يكن ما كان .. والمؤمن دائما ينظر بنور الله القائل (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) [غافر:٥١] .. هذه الموقعة حدثت في شهر صفر من العام الثاني عشر الهجري وأصبح المسلمون غرة في جبين الزمن.

مشاكل يوجدها العدو

عرف الفرس بالموقعة المريرة فور وقوعها لأنهم كانوا قد وضعوا نظاما للمراسلات الحربية ..فقبل البدء في أي معركة ، كانوا يضعون صفا من الرجال ذوي الأصوات المرتفعة يبعد الواحد عن الآخر بما يسمح له بسماع صوته وكان هذا الصف يبدأ من ميدان القتال وينتهي في العاصمة ، وكانوا يستخدمون في هذه العملية مئات من الرجال ينقلون ما يحدث في ميدان المعركة عبر هذه السلسلة من الأصوات تبدأ من الرجل الذي يشاهد أرض المعركة وما يجرى فيها وتنتهى بالخبر إلى قصر الإمبراطور ..من هنا كان الإمبراطور يعيش المعركة ساعة بساعة ويلم بما يجرى أثناء القتال [1]...

من هنا بعد أن حقق المسلمون النصر على الفرس أصبح الطريق سهلا أمام خالد ليحقق هدفه الأخير من فتح (الحيرة) وبدأ خالد يفكر ..إن الفرس متعجرفون وأن وصوله إلى (الحيرة) سيتسبب في إزهاق أرواح كثيرة ..لكن ..لابد من تحقيق ما كلف به ..من أجل هذا منح خالد رجاله بضعة أيام يلتقطون فيها أنفاسهم ، وفى أثناء ذلك قام بتوزيع الغنائم في نفس الوقت كان يرسم خطة للأمر الذي ينويه ويخطط بدقة ويجتهد على أن يجنب جنده أي مخاطر ..كان هناك عدة آلاف من

---

(١) الطبرى بتصرف جـ٣ صـ٥٥٠.

جنود الفرس نجحوا في الفرار من موقعة الولجة وكان أغلب هؤلاء من عرب الحيرة خاصة قبيلة بنى بكر ، والتي ينتمي إليها المثنى بن حارثة ، وهى قبيلة لم تدخل في الإسلام ، وكانوا يعيشون في العراق كرعايا فارسيين ، وكانوا يقاتلون مع (أندر زغرب).. وهم لم يستفيدوا من الدرس ولم يتعلموا مما جرى ، لذلك تجمعوا مع بعضهم وعبروا من الولجة فرارا واتجهوا إلى نهر الخسيف وساروا في المنطقة التي تتوسطه مع نهر الفرات ووصلوا إلى مكان يسمى (إليس) ، وهناك شعروا بشيء من الأمان لأن (إليس) تبعد عن الولجة بنحو عشرة أميال .. والموقع الذي وصلوا إليه كان منظره رائعا ويتعذر الاقتراب منه ، إلا من جهة واحدة هى الناحية الجنوبية الشرقية ..كان الموقع يقع بين الفرات ونهر الخسيف [1]...

جاءت الأخبار إلى خالد بأن العرب المعادين له يعسكرون في (إليس)، وأنهم سوف يخلقون له مشكلة حربية للثأر من معركة الولجة فهم الذين فروا منها .. وخالد يريد لرجاله أن يستريحوا ..لكن ..بلغه أن الفرس بدأوا يدفعون بقوة من الجند إلى العرب الأمر الذي ينذر بحدوث معركة كبيرة ..لأن الحشود المعادية شكلت جيشا قويا كامل العدد والعدة..لذلك غادر خالد الولجة مسرعا إلى (إليس) التي لم يستطع الوصول إليها بسبب وجود النهرين ..لذلك أخذ خالد يفكر في العبور ليحقق هدفه من القضاء على الأعداء .. وكان لإبادة جيش (زغرب) في معركة الولجة أثر في الإمبراطورية وهزّها بعنف من أساسها لأن هذه الهزيمة أظهرت أن الذين خرجوا من البادية ، وهم أجلاف كما يسميهم الفرس، ليس هناك قوة تقف في طريقهم أو تعرقل مسيرتهم ..ولم يحدث في تاريخ الإمبراطورية أن منيت بمثل هذه الهزائم الحربية في تتابع سريع من أناس ينظر إليهم باحتقار ..إذاً لابد من أن يعدل الفرس من نظرتهم إلى العرب لأن (الإسلام الذي آمن به العرب قد حولهم من قوة متخلفة لا تعرف النظام ..إلى قوة فاتحة بالعدل والرفق متماسكة الصفوف تعمل حسب نظام دقيق ..وأن خالدا القائد أصبح اسمه يتردد على كل لسان في كل بيت من بيوت فارس ، لذلك أصبح الكل يخاف من ذكر اسمه لأنه يخشى بطشه وسطوته ..

---

(١) الطبرى جـ٣ صـ٣٥٥

لكل هذا أصبح جيش المسلمين في نظر الفرس يتمتع بكثير من صفات العبقرية والمهارة .. لهذا بدأ الإمبراطور يفكر في الإمبراطورية التي عاشت اثني عشر قرنا وهى لم تهزم أبدا بهذه السهولة ..وقد ظهر منهم النوابغ في العلوم والتخطيط الإداري والحكام والقادة الذين ارتقوا سلم المجد فكيف نهزم بهذه الطريقة؟، وبينما الإمبراطور غارق في تفكيره جاءه بعض العرب وطلبوا أن يعينهم بجيش من المقاتلين الفرس لأنهم وجدوا العون من إخوانهم العرب الذين يسكنون مابين (إليس والحيرة) ..ووافق الإمبراطور فورا على هذا العرض وبعث بأوامره إلى (بهمن) الذي كان لايزال مرابضا شمال الفرات حيث توقف عن المسير عند سماعه بأنباء الولجة وما جري في ساحتها...

الدم الجاري

كان بهمان قائداً مراوغاً وشعر بالخوف ولم يشأ أن يفصح عن ذلك ، لذلك استدعي قائدا صغيرا عنده تحت قيادته يسمى (جابان)..وسلمه أوامر الإمبراطور وزاد عليها قوله له (كفكف نفسك وجندك عن قتال القوم حتى ألحق بك إلا أن يعجلوك [1] .. أما (بهمن) فقد عاد إلى المدائن ولم يفصح عن سبب رجوعه ..سار جابان بجيشه إلى (إليس) فوجد في انتظاره الحشود الكثيرة من العرب الذين قدموا من (الحيرة) ومن (أمغيشيا) ، وقال العرب لجابان إن خالدا لن يتمكن من الوصول إلى الحيرة لأنهم يترصدونه وقد أصبحوا قوة ولا بد من استرداد هيبتهم.. وهم قوة لا يستهان بها ، وأنهم يريدون الثأر لدماء آبائهم وأولادهم ويريدون استعادة من تم أسره لذلك فهم سوف يحاربون حتى الموت ..وكان على رأس عرب الحيرة رجل يسمى (عبد الأسود) كان قد فقد ولديه في معركة الولجة وأصبح متلهفا للانتقام من المسلمين ..لذلك اتحد العرب بالفرس وعسكروا جنبا إلى جنب جاعلين الفرات إلى يسارهم والخسف إلى يمينهم أما في الخلف فكان التقاء النهر بروافده...

---

(١) الطبرى جـ٣ صـ٣٥٥.

عرف خالد بهذه الجموع الكثيرة وأنه سيواجه بجيش كبير ..وكان (المثني) قد اشتبك مع العرب وأراد أن يثنيهم عن الاشتراك مع الفرس إلا أنهم أصروا على موقفهم ..ولقد تحرك خالد عندما وصلته الأنباء لأن الجيش كان قد استراح وقرر أن يشتبك مع جيش الفرس فور وصوله ، حتى لا يطلب جيش الفرس الإمدادات من الإمبراطور ..وقد أعد خالد للمعركة عدتها وعين (عدي بن حاتم وعاصم بن عمرو) قائدين للجناحين وعندما وصلوا بالقرب من الأعداء كان جيش فارس قد أعد له الطباخون وجبة ساخنة وبدأ (جابان) الذي بلغه تحرك خالد ووصوله يتطلع إلى المعسكر وهو يرى هذه الأواني المغرية التي يسيل لها اللعاب تخرج من المطابخ وتوضع على البسط وجنود الفرس يمدون أيديهم لتناول هذه الأطعمة ، وجابان يصيح فيهم إن جنود العرب تقترب منكم ، لكنهم كانوا قد قذفوا في أفواههم لقمة أو لقمتين وهم يقولون بعد أن نأكل نقوم للقتال .. لكن المسلمين اقتربوا على عجل في تشكيلهم الحربي الدقيق والانضباط في صفوفهم وهجموا على الفرس الذين تركوا طعامهم الشهي وفروا عندئذ دفع (جابان) بالعرب الذين جعلهم جناحي جيشه تحت إمرة (عبد الأسود والأبجر) ودارت معركة رهيبة فاقت في شدتها وقعة الولجة.. وقد برز عبد الأسود يطلب المبارزة ولكن كانت هجمات المسلمين قوية وشديدة المراس ..الأمر الذي جعل الجيش الإمبراطوري يتساقط رجاله أمام هجمات المسلمين... وقد وقف العرب يقاتلون بشدة من بقي من جند الفرس ..الذين كانوا يتنادون لنقاتل حتى نحفظ للسلاح الفارسى شرفه وكرامته .. واستمر القتال عنيفا وقد تملك الغضب من المسلمين لأنهم لم يستطيعوا تحقيق غرضهم في صد جيش الفرس ولفشلهم في فتح ثغرة في جيش الأعداء .. اتجه خالد إلى ربه ورفع كفيه إلى السماء متوجها إلى الله متضرعا له بالدعاء يطلب نصره قائلا (اللهم إن لك عليَّ إن منحتنا أكتافهم ألا أستبقي منهم أحدا قدرنا عليه حتى أجري نهرهم بدمائهم) ثم عاد خالد إلى القتال وتقدم الصفوف وشدد المسلمون هجماتهم ومنحهم الله النصر وفر جيش الفرس من الميدان بعد أن امتلأ الميدان بالألوف من قتلاهم خاصة في قاع النهر والذي احمرت مياهه من كثرة الدماء التي اختلطت بها ..وأمر خالد فرسانه بتعقب

الفارين ووصاهم بقوله (الأسر .. الأسر .. لا تقتلوا إلا من امتنع)[1] .. وبدأ المسلمون يركضون وراء الفارين وقد عبروا (الخسيف) وقد تمكن المسلمون من رد الآلاف إلى ساحة القتال من الفرس والعرب التابعين لهم ، وتمكن المسلمون من نزع سلاح الأعداء ودفع بهم إلى النهر حيث ضربت رقاب كل مقاتل .. وهكذا وفى خالد بوعده لله رب العالمين .. وتطلع خالد مع جنوده إلى النهر لكنه لم يجر بالدماء فنظر القعقاع إلى خالد وقال له (إن الدماء لا تزيد على أن ترقرق منذ نهيت عن السيلان ونهيت الأرض عن نشف الدماء فأرسل عليها الماء تبر بيمينك .. وقال غير القعقاع .. بلغنا أن الأرض لما نشفت دم ابن آدم نهيت عن نشف الدماء ونهي الدم عن السيلان إلا مقدارا برده)[2] .. وهنا أمر خالد بفتح السد واندفعت المياه إلى قاع النهر تسوق أمامها دماء القتلى ولذلك سمي هذا النهر بنهر الدم...

رزق الله

قد تكون اللقمة في يد إنسان لكنها مقسومة للغير .. فالطعام الشهي الذي أعده الفرس وسال لعابهم بسببه ولم يأكلوه بسبب الهجوم من المسلمين .. ولهذا كان هذا الطعام من نصيب المسلمين الذين جلسوا على نفس البسط في آخر الليل وأكلوا هذا الطعام وأبدوا إعجابهم به ودهشتهم لحسن صنعه...

انتهاء المعركة

صور المؤرخون هذه المعركة بأنها كانت رهيبة لأن الفرس قتل منهم أكثر من سبعين ألف مقاتل ومعهم كذلك بعض العرب الذين عادوا المسلمين[3] .. ويطلقون على مكان المعركة (إليس) .. أو معركة (نهر الدم) وأيا كان الأمر فإن سكان المنطقة أقبلوا على خالد يعاهدونه على دفع الجزية ووضع أنفسهم تحت حماية المسلمين ، الذين

(١) نفس المصدر السابق.
(٢) الطبرى جـ٣ صـ٣٥٧.
(٣) الطبرى جـ٣ صـ٣٥٨.

اشترطوا عليهم بندا جديدا في المعاهدة أن يكونوا عيونا للمسلمين إذا عرفوا أي تجمع يبلغونهم.. هذه المعركة التي تمت بالفوز والنصر العظيم ظلت ذكراها محفورة في ذهن خالد بن الوليد ولم يزل أثرها منه أبدا فكان يحدث أصحابه بقوله (لقد قاتلت يوم مؤتة .. فانقطع في يدي تسعة أسياف وما لقيت قوما كقوم لقيتهم من أهل فارس وما لقيت من أهل فارس قوما كأهل إليس)[1]...

جاءت الأخبار بموت (أردشير) إمبراطور فارس فأصبح بلاطها يهتز ويتهاوى ، ولم يعد باستطاعة الإمبراطورية أن تجهز جيشا آخر لتواجه سيف الله.. وكانت (إليس) قرة عين (أردشير) حفيد حفيد أنو شروان..وبهذا سجل التاريخ صفحة كتب الله فيها النصر للمؤمنين بقيادة خالد بن الوليد.



اعتاد الخليفة العظيم أبو بكر الصديق ﷺ وأرضاه من لحظة توجيه خالد على سماع أخبار طيبة عن الانتصارات التي يحققها المسلمون بقيادة خالد .. ومع هذه الأخبار كانت الغنائم وأموال الجزية تأتي كذلك مع الأخبار .. فكانت ثروة الدولة تزيد .. الأمر الذي أسعد الجميع في عصر الخلافة الأولى .. ومع هذا فإن خالدا خرج من (إليس) قاصدا قرية كبيرة قريبة جدا تسمي (أمغيشيا) وقد وصلها بعد ساعات من تحركه (هذه القرية واحدة من كبرى مدن العراق) .. مساحتها شاسعة وأهلها في ثراء فاحش .. يدل على ذلك البضائع والسلع المعروضة في الأسواق وصلها المسلمون فلم يجدوا أية مقاومة لأن معظم رجالها كانوا في (إليس) وهو إما قتل أو فرَّ هاربا في الصحراء .. ولم يكن بالمدينة سوي النساء والشيوخ والأطفال والعجزة .. وعندما علموا بمقدم خالد إليهم سارعوا بمغادرة المدينة وفروا إلى المناطق المجاورة .. وقد استولى عليهم الخوف والرعب.. دخل المسلمون قرية (أمغيشيا) فلم يجدوا أي مقاومة ووجدوا ثروة أذهلت الجنود فاستولوا عليها بيسر وسهولة .. ثم قام خالد بتوزيع

---

(١) الطبري جـ٣ صـ٣٦٦.

الغنائم وأرسل الخمس إلى المدينة .. وعندما رأي أبو بكـر الصديـق ﷺ هـذه الغنـائم ازداد سروره وإعجابه بخالد ، لذلك خطب في المسلمين فقال (يـا معشـر قريـش عـدا أسـدكم علـى الأسـد فغلبـه علـى خراذيلـه أعجـزت النسـاء أن ينسلـن مثـل خــالد[1] وخراذيله) أي (قطع اللحم) .. هذا التمجيد من أبي بكر لخـالد تحيـة طيبـة ووسـام فخر على صدره .. لأن أبا بكر يعرف الرجال ويعـرف أقدارهـم ويضـع كـل واحـد في منزلته...

سمع حاكم (الحيرة) بالنكبة التي حلت بجيش فارس وأصبح اسم خالد أمـام عينيه يثير فيه الفزع ومنه يتملكه الخوف ، وكان هذا الحاكم يسمى (أذاذبه)، وهو من أكبر موظفي الإمبراطورية وكان يضع على رأسه قلنسوة بخمسين ألف درهم وكان يتمني أن يصل إلى أعلى الدرجات ولكن كيف وخالد في الطريق .. لذلـك استولي علـى هذا الحاكم الهـم والغـم لأن جيشـه قليـل العـدد معنوياتـهم محطمـة لـما سمعـوه مـن أخبار.. هذا الحاكم كان تحته حاكم عربـي لأن المنطقـة يسـكنها عـرب بكـثرة وكـان الملك العربي يسمى (إياس بن قبيصة) لكنه ملك بالاسم فقط فلم يتمتع بأي سلطة في يوم من الأيام ، وإنما نصبوه ليكون واسطة بين الفرس والعرب .. ومهمة الدفـاع عـن الحيرة هى من اختصاص الحاكم التنفيذي الذي هو من أبناء فارس ويتطلـع إلى لبـس القلنسوة الغالية الثمن والـتي تمنـح مـن يرتديـها مكانـة اجتماعيـة مرموقـة .. أراد (أذاذبه) أن يغير من الوضع الاستراتيجي في معسكرات جيشه ليضلـل المسـلمين فـهم ربما يكونون قد جمعوا معلومات عنه .. لذلك أمـر بتغيـير المعسـكر ثـم بعـث بابنـه قائدا على مجموعة من الفرسان وأمرهـم أن يسـدوا نـهر الفـرات إذا مـا حـاول خـالد القدوم إليه بواسطة القوارب .. وذهب الضابط الصغير واحتل مكانا يلتقي فيه (النهر العتيق بالفرات) وكان يبعد باثني عشر ميلا عن مجري النهر أسفل الحيرة .. واتخذ من هذا المكان قاعدة له .. ثم بعث ببعض رجاله لتحتل مكانا آخـر يعلـو هـذا المكـان الذي اتخذه القائد قاعدة واسم النهر (بادفلي وهو يصـب في الفـرات .. فـوق أمغيشـيا بقليل) والواقع أن ابن (أذاذبه) لم يكن كيسا فطنا ولم يقدر الموقف حق قدره لأنـه ظن

(١) الطبرى جـ٣ صـ٣٥٩.

أنه حصن نفسه وأن هذا الموقع سيكشف له عن جيش المسلمين وأنه من أماكنه التي اتخذها يستطيع أن يوقع الخسارة بالمسلمين .. لكن قدر الله أن الضابط الصغير ابن (أذاذبه) فوجئ بجيش المسلمين يتقدمه خالد ينقض عليه بلا سابق إنذار .. لأن خالدا عندما استأنف مسيرته إلى الحيرة قرر أن يستخدم النهر في عمليات النقل وجهز القوارب التي جرت على طول الشاطئ بمساعدة العرب المحليين الذين كانوا يعانون من الفرس مر المعاناة .. ولقد أحس خالد بأن مياه النهر بدأت في الانحصار وجنحت السفن لأن ابن (أذاذبه) قد سد النهر عملا بوصية أبيه .. ترك خالد الجيش وأخذ معه فصيلة من الفرسان وتقدم إلى (بادقلي) وهناك وجد مجموعة من الفرس يافعين ليسوا في كفاءة المخضرمين من المسلمين ، لذلك انقض خالد مع فرسانه على ابن أذاذبه ومن معه فأفنوهم عن آخرهم إلا جماعة من الخيالة ذوي الحركة السريعة تمكنوا من الهرب ونقلوا الأخبار المؤسفة إلى أذاذبه .. بعد ذلك فتح خالد السد وانسابت المياه من جديد في مجراها الطبيعي ورجع خالد مع فرسانه إلى الجيش ليقوده إلى (الحيرة)...



عرف (أذاذبه) بما حدث لولده وبالخسارة التي لحقت بكتيبة الفرسان.. وقد تزامن هذا الخبر مع وصول النبأ بموت (أردشير) الإمبراطور العام .. هذه الأخبار أدمت قلب (أذاذبه) وشعر بالمسئولية الكبيرة التي لا يستطيع أن يتحملها وحده لذلك صمم على فكرة تتلخص في :

١- تخليه عن الدفاع عن الحيرة ضد أي هجوم يقوده خالد الذي أصبح اسمه مصدر خوف ورعب لجميع الجند والجمهور كذلك .

٢- يعبر الفرات مع جيشه وينسحب إلى المدائن ..

٣- يخبر (بهمن) القائد العام السابق الذي ترك الجيش ورجع إلى العاصمة ليخبر القائد العام بحقيقة الموقف محاولا أن يشرك الجميع في الموقف الذي لا يستطيع أن يتحمله وحده ..

هذه الأخبار بلغت خالدا فأعاد خطته بناء على ذلك ترك خالد القوارب وعلى الجيش أن يحمل أمتعته ويسيروا على البر حتى يدخلوا الحيرة ووصل خالد (الخورنق) ، وهى مدينة مزدهرة تقع شمال غرب الحيرة ، ولم يجد خالد أي مقاومة في الحيرة وإنما فوجئ بداخلها بقلاع أربع وكل قلعة بها كتيبة قوية من العرب على رأس كل قلعة زعيم عربي وهم على أتم استعداد للدفاع والقتال .. وكان بكل قلعة قصر يعيش فيه زعيم القبيلة .. فكان في قلعة قصر يسمى (القصر الأبيض) يقطنه إياس بن قبيصة ملك العراق .. وقصر (العدسيين) الذي كان يسكنه عدي بن عدي .. وقصر (بني مازن) وفيه ابن عقل.. وقصر (ابن بقيلة) وفيه عبد المسيح بن عمرو بن بقيلة .. أمام هذا الأمر الذي فوجئ به خالد ولم يكن يتوقعه لذلك كان لابد من وضع خطة سريعة قام بها خالد تتلخص في :

١- محاصرة كل قلعة على حدة ..

٢- وضع كتيبة مع قائد متميز أمام كل قصر ..

٣- كلف خالد ضرار بن الأزور مع كتيبة من الفرسان لمحاصرة القصر الأبيض ..

٤- كلف خالد ضرار بن الخطاب مع كتيبة من الفرسان لمحاصرة قصر العدسيين.

٥- كلف خالد ضرار بن مقرن مع كتيبة من الفرسان لمحاصرة قصر بني مازن ..

٦- كلف خالد المثني بن المنذر لمحاصرة قصر بن بقيلة ومعه كتيبة من الفرسان..

وقد أعلن خالد مَنْ بالقلاع .. إما أن تدخلوا معنا في الإسلام وإما أن تدفعوا الجزية وإما الحرب بيننا وبينكم .. وقد مُنِحت هذه القلاع بمن فيها يوماً ليتمكن من فيها بتقرير المصير .. رفض العرب عرض المسلمين .. فأمر خالد القواد الأربعة بالتحرك ومحاصرة القلاع .. وفي حالة الرضوخ للتعليمات يوقف القتال فورا .. كان ضرار بن الأزور أول من شن هجومه على القصر الأبيض لأنه وجد القوة المدافعة عن هذه القلعة قد وقفت في الشرفات ترمي المسلمين بالنبل ، كما أنهم استخدموا المنجنيق يقذفون منه على المسلمين كرات من الطين الجاف .. وكان ضرار محاربا شجاعا مخططا مقداما، فتقدم مع جماعة من الرماة وبدأ في تسديد سهامه القوية مع فرسانه مرة واحدة فقتل بذلك كل من كان على المنجنيق، وانسحب الرماة من

مواقعهم لشدة الهجوم عليهم .. ونفس الشيء حدث في بقية القلاع .. لذلك استسلم من فيها ووافقوا على شروط المسلمين واختاروا عبد المسيح بن عمرو ليكون مفاوضا عنهم مع خالد ، عبد المسيح هذا أشهر رجل في العراق العربية، فقد احتل مكانته بين الناس لحكمته .. ولكبر سنه .. (فلقد كان شيخا كبيرا سقط حاجباه على عينيه)[1] .. عبد المسيح هذا لم يكن موظفا في البلاط الرسمي إلا أن العراقيين أحبوه لأنه كان له أثر كبير في مجريات الأحداث العامة .. وكان يتمتع إلى جانب ذلك بروح مرحة .. وكان حذرا يتعامل في بعض الأحوال بالخبث والدهاء .. ذاع صيته بين العرب لأنه حذر الإمبراطور (أنو شروان العادل) من أن إمبراطوريته ستتداعى بعد وفاته .. أردنا أن نبين ذلك لنعلم من هي الشخصية التي ستتفاوض مع خالد ؟ لأن العرب ليسوا بأغبياء فاسم خالد يجعل كل شخص يعيد حساباته .. ويختار الأسلوب الأحسن في التعامل مع خالد ...

خالد والمفاوض

تقدم عبد المسيح بن عمرو إلى مجلس خالد وهو يمشي ببطء لان السنين الطويلة التي مرت عليه يحملها فوق كتفيه وحيا وجلس .. وقد دار حوار عجيب لم نقرأ مثله فيما جرى من مفاوضات...

كان السؤال الأول من خالد حيث قال : يا عمرو كم أتت عليك من السنين؟...

قال عمرو: مائتي سنة...

قال خالد : فما أعجب ما رأيت ؟...

قال عمرو .. رأيت القرى منظومة ما بين دمشق والحيرة تخرج المرأة من الحيرة فلا تتزود إلا رغيفا .. كان عمرو يشير بذلك إلى ما كان يسود البلاد من نظام وأمن وتكافل اجتماعي أيام أنو شروان .. لكن خالدا لم يفهم ما يقوله هذا الرجل وظن أنه معتوه .. فعاد خالد بصوت هادئ وهو يسير .. يقول للرجل .. هل شيخك إلا عملك.. أي أنك لم تصل إلى كهولتك إلا بعد أن تخطيت عمرك لذلك خرفت يا عمرو ،

---

(١) كتاب الخراج لأبي عبيدة صـ١٤٣.

ثم أقبل خالد على أهل الحيرة فقال لهم .. ألم يبلغني عنكم أنكم خبثتم خدعة ومكرا؟ فما لكم تتناولون حوائجكم بخرف لا يدري من أين جاء ؟ واحتج الكهل الحكيم وقال .. وحقك أيها الأمير إني لأعرف من أين جئت .. قال خالد.. فمن أين جئت ؟ قال : أقرب أم أبعد ؟ قال .. ما شئت .. قال : من بطن أمي .. قال : فأين تريد ؟ قال .. أمامي .. قال : وما هو ؟ قال .. الآخرة .. قال : فمن أين جاء أثرك ؟ قال .. من صلب أبي .. قال : ففيم أنت ؟ قال : في ثيابي .. خالد بدأ ينفذ صبره .. لكنه سأل الرجل .. أتعقل ؟ قال .. أي والله وأقيد ، قال خالد : أنا لا أريد إلا إلقاء بعض الأسئلة عليك .. ورد الرجل : وأنا أحب إعطاء الأجوبة .. غضب خالد وثار لهذا الحوار الممل وقال .. قتل جاهل أرضه .. وقتلت أرض عالمها والقوم أعلم بمن فيهم ، ورد عبد المسيح قائلا .. أيها الأمير .. النملة أعلم بما في بيتها من الجمل بما في بيت النملة [1] .. أدرك خالد أنه أمام رجل يتمتع بذكاء، وكانت إجاباته على الأسئلة في محلها ، ومع المعني في الإجابة بشاشة ، لذلك احترم خالد الرجل وطلب منه أن يحدثه عما يختزنه في عقله من ذكريات.. سرح الرجل بخياله وراح يتطلع إلى أبراج الحصون ، ثم قال ونظرته ساهمة ويسترجع شريط الذكريات : إن سفن الصين جاءت إلى هنا وكانت تمخر العباب وراء هذه القلاع .. قطع خالد ذكريات الرجل وقال له.. أنتم جميعا بالخيار بواحدة من ثلاث .. إما أن تدخلوا في ديننا فلكم ما لنا وعليكم ما علينا ، إن نهضتم وهاجرتم وإن أقمتم في دياركم أو تدفعوا لنا الجزية .. أو المنابذة والمناجزة.. فقد والله أتيتكم بقوم هم على الموت أحرص منكم على الحياة .. فقال واحد منهم بل نعطيك الجزية [2] .. وتوصل الطرفان إلى اتفاق...

مفاجأة غريبة

انتهي الحديث ، وكان خالد على وشك أن يأذن لعبد المسيح بالانصراف ، وبنظرة فاحصة رأى خالد كيسا صغيرا معلقا في رقبة خادم كان يصحب عبد المسيح ، ويقف

(١) الطبرى جـ٣ صـ٣٦٣.

(٢) الطبرى جـ٣ صـ٣٦٢.

على بعد خطوات منه وأسرع خالد إلى الخادم وانتزع الكيس منه ونثر ما فيه ، وتعجب خالد وقال .. ما هذا يا عبد المسيح؟ قال عبد المسيح .. هذا وأمانة الله سم ساعة .. قال خالد .. ولم تحتقب هذا السم ؟ ورد عبد المسيح .. خشيت على أن تكونوا غير ما رأيت .. والموت أحب إلى من مكروه أدخله على قومي وأهل قريتي[1] .. تم التوقيع على الوثيقة التي تنص على أن يدفع أهل الحيرة جزية للدولة الإسلامية قدرها (مائة وتسعون ألف درهم سنويا) كما تضمن الاتفاق أيضا بعض البنود التي تقضي بوجوب تقديم مساعدة للجيش الإسلامي كسرج الخيل وخلافه وأن يكون أهل الحيرة عيونا للمسلمين في هذه المنطقة .. ثم فتحت الحصون أبوابها وعاد السلام إلى الحيرة وتحقق الهدف الذي حدده الخليفة .. وصلى خالد لله شكرا ثماني ركعات...

نبوءة النبي ﷺ تتحقق

الأحداث التي مرت وقعت في شهر ربيع الأول من العام الثاني عشر الهجري ونعود إلى الوراء قليلا .. لنرى النبي محمدا ﷺ وهو يتحدث إلى المسلمين ذات يوم في المدينة.. وكان من بين الصحابة الذين يستمعون إلى النبي ﷺ رجل من البسطاء الأميين اسمه (خريم)[2] .. هكذا ذكره البلاذري أما الطبري.. فيسميه (شويل)[3] وأيا كان الاسم المهم أن واحدا من الصحابة في هذا المجلس العظيم سمع النبي ﷺ وهو يتكلم عن أن المسلمين سيفتحون (الحيرة) .. وقف هذا الصحابي الجليل أمام رسول الله ﷺ وطلب منه أن يمنحه (كرامة) وكرامة هذه بنت لعبد المسيح يتحدث الناس جميعا عن جمالها الرائع وأنها فريدة في نسق جسمها وتتميز بطول شعرها إلى غير ذلك من أوصاف الجمال .. وضحك النبي ﷺلهذا الطلب لكنه رد وبصريح الكلام على هذا الرجل قائلا (هى لك إذا فُتحت عنوة)[4].. كان الحديث على مسمع ومرأى من الصحابة ، ولما فتحت الحيرة وقبل التوقيع على المعاهدة تقدم (خريم)

(١) المصدر السابق.
(٢) البلاذرى صـ٢٤٥.
(٣) الطبرى جـ٣ صـ٣٦٦.
(٤) الطبرى بتصرف جـ٣ صـ٣٦٦.

أو (شويل) من خالد بن الوليد وكان يعمل تحت إمرته في الجيش وقال : يا خالد إن النبي ﷺ وعدني إن فتحت الحيرة أن أعطى (كرامة) ، فقال خالد .. ومن (كرامة)، قال : أميرة من بيت عبد المسيح .. وقال خالد : من يشهد لك على وعد النبي هذا؟، فقام رجل من الصحابة وقال : أنا يا خالد .. حدث هذا أمامي وفي جمع من الصحابة .. وهنا طلب خالد إضافة بند إلى المعاهدة نصه (تعطى كرامة بنت عبد المسيح لشويل أو الاسم الآخر)...

جنازة حارة

خالد منفذ جيد لتعاليم الإسلام متبع لنبيه ينفذ تعليماته مهما كانت الظروف .. وقد قامت الحجة وظهرت البينة أن الرسول ﷺ قال هذا ووعد .. وخالد عليه السمع والطاعة .. لكن ماذا يصنع ؟ وقد قامت جنازة حارة في بيت عبد المسيح وقد علا صوت النساء بالبكاء والنحيب في كل القصور عندما سمعن بهذا الخبر المزعج.. وكان السؤال الذي يتردد .. كيف تعطى أميرة عاشت كل حياتها في عز ونعيم إلى جلف من أجلاف عرب البادية (على حسب زعمهم) .. لكن خالدا أصر على التنفيذ ولو أدى إلى نقض المعاهدة .. لأن النبي ﷺ صادق فيما قال ولابد أن ينفذ قوله ...

شئ غير متوقع

كانت كرامة من أجمل بنات جنسها يوم أن كانت في صباها وشبابها .. وهاهي اليوم وقد بلغت الثمانين من عمرها فذهب الجمال وولى وحل الشيب بهذه المرأة التي وقفت تقول لقومها .. خذوني إلى الرجل لأنه لو كان قد رآني في شبيبتي فغلب على ظنه أن الشباب يدوم .. وبهذا الرأي الحكيم حلت الأميرة بنفسها هذه المشكلة .. ووافق قومها على رأيها .. وأخذت المرأة إحدى الخادمات وغادرت قصر أبيها .. علم شويل أن حبيبته في الطريق إليه وكان يتحرق شوقا للقائها فهي حبيبة القلب وقرة العين وخيالها لم يفارقه .. وما أن وصلت إلى مكانه ورآها حتى صُدم وانهلع قلبه.. فقد رآها وقد ارتسمت التجعدات على وجهها وتكور جسدها وتقصّف شعرها وسقط

حاجباها فوقف مشدوها صامتا .. فتكلمت كرامة قائلة : ماذا تريد من عجوز كما تراني .. هل لك في فدية وتتركني .. انتهز شويل هذه الفرصة وطلب منها أن تدفع له شيئا مقابل إخلاء سبيلها ، فقالت له على حكمي ؟ .. قال لها لا على حكمي أنا.. قالت : فلك حكمك مرسلا .. فقال لها : لست لأم شويل أن نقصتك من ألف درهم .. كانت المرأة ذكية فرسمت على وجهها علامات الفزع وأبدت دهشتها من فداحة المبلغ الذي طلب (وهى تخدعه بذلك) لكن الرجل صمم على طلبه ودفعت المرأة ألف درهم وعادت إلى قومها مرتاحة إلى ما وصل إليه الأمر .. أما شويل فقد ذهب إلى صحبه فرحان مغتبطا لكن أصحابه قابلوا قصته بالضحك وصارحوه بأنه كان في إمكانه الحصول على مبلغ أكبر .. لكن رد عليهم بقوله (ما كنت أرى أن عددا يزيد على ألف) عندما علم خالد بهذا ضحك كثيرا ومن أعماق قلبه وقال .. (أردت أمرا وأراد الله غيره)[1]...

تنظيم الشئون

اهتم خالد بتنظيم الشئون الإدارية في المناطق التي تم فتحها وبدأ يستقبل (الدهقان) وكبار رجالات المنطقة .. وخلال هذه الفترة كانت الأحوال بفارس تسير من سئ إلى أسوأ ، فقد اختلفت فيها الآراء حول مسألة اعتلاء العرش .. في نفس الوقت ساد المنطقة خوف من الفارس العربي وأدرك خالد أن ليس بقدرة المدائن أن تشن أي هجوم مضاد .. ولم يشأ هو أن يجازف بقواته ويسير إلى وسط العراق لذلك اتخذ الحيرة قاعدة لعملياته ..ودفع بفرسانه عبر الفرات ووصلوا إلى وسط العراق ، وعبروا إلى دجله وقضوا على كل مقاومة وحصدوا الكثير من الغنائم وعقدوا الصلح مع من رضى بدفع الجزية ، وقد بعث خالد برسالة إلى البلاط الفارسي جاء فيها (بسم الله الرحمن الرحيم ..من خالد بن الوليد إلى ملوك فارس أما بعد ..فالحمد لله الذي حل نظامكم ووهن كيدكم وفرق كلمتكم ولو لم يفعل ذلك بكم كان شرا لكم فادخلوا في

(١) نفس المصدر السابق.

أمرنا ندعكم وأرضكم ونجزكم إلى غيركم وإلا كان ذلـك وأنتـم كـارهون علـى غلـب علـى أيدي قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة) ووجه كذلك خطابـا إلى شعب فـارس لكنـه زاد في خطاب الشعب تعهده لهم بفرض حماية المسلمين عليهم إن قبلوا دفع الجزية[1]

تخطيط دقيق

خالد بحاسته القتالية لا يهدأ بل هو يفكر ويستشـير .. وبعـد دراسـة متأنيـة وجـد على الخريطة أن أهم المدن هى الأنبار وهى مـن مـدن منطقـة (سـاباط)وهـى المنطقـة التي تقع فيما بين النهرين .. دجلة والفـرات غربـي المدائـن ..لأن خـالدا قـام بعمـل دراسة سريعة لمنطقة العراق .. وأصبحت نقطـة الارتكـاز هـى وسـط العـراق وهـى في أيدي المسلمين..وأصبح عند خالد اقتناع من أن النشاط الفارسي أصيب بشـلل لا يسـمح لـه بـأن يتدخـل في عمليـات حربيـة الآن إذاً ..فـإن المدائـن لم تعـد تشـكل أي عقبـة أمامه..وبالتإلى ..فليس هناك مصدر تهديد للقاعدة التي أقامها في الحـيرة أو لخطـوط مواصلاته مع البادية ..وقد ظهر أمامه علـى الخريطـة بـأن المنطقـة الشـمالية لم تقـم جيوشها بأي مغامرة فيها .. وهناك مدينتان هامتـان (الأنبـار .. وعـين النمـر) وقـد تبين أن بهاتين المدينتين حاميات فارسية..ومحاربون من العرب ..وقرر خالد السير إلى الأنبار باعتبارها الأهم والأقوى...

حاكم أنبار

كانت الأنبار مدينة محصنـة ومركـزا تجاريـا تمـر عليـها القوافـل التجاريـة..وكـان حاكمها (شيرزاد) وقد عرف عن هذا الحاكم أنه صاحب فكر وعقل وعلم ..وليـس لـه خبرة بالحرب وفنونها ، لكن عندما قرر خـالد أن يستولي علـى الأنبـار كـان هنـاك تكليف لشيرزاد بأن يقوم بمهمة الدفاع عن المنطقة ضد الجيش الإسلامي .. علما بـأن هذا الحاكم ليس معه إلا حامية من الفرس وعدد كبـير مـن العـرب الذيـن كـانوا مـن قبيلة (بنو إياد) وإقامة العرب في هذه المنطقة من زمن (بنو خذنصر)...

(١) الخلفاء الراشدون لعبد الوهاب النجار صــ٧٦ وما بعدها.

كان خالد قد تحرك من الحيرة في منتصف شهر ربيع الثاني من العام الثاني عشر الهجري وقد اصطحب معه من الجند حوإلى (تسعة آلاف) وبقية الجيش بالحيرة وبعض الكتائب بعث بها إلى وسط العراق .. وقد اتخذ طريقه على طول الضفة الغربية للفرات وعبر هذا النهر وبعث بعيونه إلى الشرق ليؤمِّن نفسه من ناحية المدائن ..ثم توجه هو مع جيشه للأنبار ، وهناك فرض عليها حصارا لأن المسلمين وجدوا أن المدينة يحميها حصن من المقدمة وخندق مليء بالماء من الخلف فأي محاولة للعبور ستبوء بالفشل لأن جنود الفرس مع العرب في حالة استعداد تام ورماة النبل يقفون على أعلا الجدار ..كما أن الفرس قد دمروا القناطر التي كانت مقامة فوق الخندق...

خالد لم يضيع الوقت وإنما أخذ يدور حول المدينة في دراسة استطلاعية ليتعرف على ثغرة يستطيع أن ينفذ منها بلباقة ..وقد لاحظ خالد أن الفرس والعرب اصطفوا حول المدينة في جماعات يتطلعون إلى المسلمين بدون اهتمام .. ودهش خالد لهذا المنظر ..كيف يقف هؤلاء بهذا المنظر كأنهم يشاهدون شيئا مألوفا..لذلك رجع إلى جنده وعقد مجلس الحرب وقال لهم (إني أرى أقواما لا علم لهم بالحرب)[1] .. لذلك بادر خالد برسم خطة تتلخص في :

١- اختار خالد ألف رام من أمهر رماة النبل من جنده..

٢- اتفق معهم على أنه عند صيحته بقوله (الله اكبر) يطلقون بنبلهم مرة واحدة..

٣- يرشقون بنبلهم الحامية بصورة جماعية ولا يتوقفون عن الرمي حتى يصيح مرة أخري ..

٤- قال لهم بالنص (أرموا عيونهم ولا تتوخوا غيرها)[2]..سارت الفرقة التي اختارها خالد إلى الحصن .. وكان الفرس والعرب ينظرون ببلاهة ويقول بعضهم لبعض .. ما عساهم يفعلون .. أحاط جند المسلمين بالخندق وصاح خالد صيحته وتطاير النبل بصورة مفاجأة..وبعد لحظات قليلة كان جنود الحامية قد فقدوا ألف

---

(١) الطبرى جـ٣ صـ٣٧٤.

(٢) نفس المرجع.

عين وعلت صرخات هؤلاء الذين ذهبت عيونهم لذلك يقولون عن هذه الواقعة بأنها (ذات العيون)[1]...

لما سمع شيرزاد بما حل بالحامية ، بعث لخالد يعرض عليه استسلام الحصن على شروط..فرفض خالد العرض وقال استسلام الحصن بلا شروط عزم شيرزاد على المقاومة ..وقرر خالد أن يقتحم الحصن .. ولكن كيف والخندق واسع وعميق ..ليس معه قوارب علاوة على أن جنده لا يعرفون السباحة .. وخالد لا يضحي برجاله أبدا لذلك وضع خطة تتلخص في:

١- بدأ يبحث إلى أن عثر على مكان ضيق في الخندق كان بالقرب من بوابة الحصن الرئيسية..

٢- اختار الرماة بدقة ووضعهم في أماكن يستطيعون منها أن برشقوا منها العدو..

٣- على هؤلاء الرماة أن يقوموا بعمل تغطية للجند أثناء العبور..

٤- فرقة أخرى للمناوشة وشغل العدو..

٥- قام بذبح الإبل العجاف المتهالكة وساقها إلى حافة الخندق وتحت غطاء من سهام المسلمين نحروها وقذفوا بجثثها في الخندق وتكومت الجثث حتى سارت معبرا قويا متماسكا..

٦- أمر خالد الجنود بالعبور فوق جثث الإبل..

عبر المسلمون إلى الجانب الآخر وخاف الفرس من عبور المسلمين ففتحوا باب الحصن ، واندفعوا بقوة إلى المسلمين ودارت معركة رهيبة عنيفة بين الطرفين نجح المسلمون في رد هذا الهجوم المضاد .. وخاف الفرس من أن يقتحم المسلمون بوابة الحصن ، لذلك فر الفرس إلى الداخل وأغلقوا الباب وراءهم وقد نجح المسلمون في مواصلة رمي رماة الفرس والعرب الواقفين على أعلى الجدار الأمر الذي شل حركة الفرس وتبين عجزهم وعدم قدرتهم على المقاومة..

كان خالد ينظر دائما إلى الحصن ويدرك أن أخذه بالقتال ليس أمرا سهلا وبينما هو مستغرق في رسم خطة إذ سمع رسل شيرزاد عند بوابة الحصن يعرضون

---

(١) البداية والنهاية جـ٦ صـ٤٢٧ .

استسلامهم .. ووافق خالد .. واغتبط شيرزاد .. وفي اليوم التالى غادر جنود الفرس وعائلاتهم المكان قاصدين المدائن ودخل المسلمون الحصن وليس به إلا العرب الذين ألقوا سلاحهم ووافقوا على دفع الجزية...



محو الأمية

من الأمور المعلومة المؤكدة أن الرسول ﷺ هو أول من دعا إلى تعلم العلم وكرم العلماء ورفع أقدارهم .. كما أنه أول من طالب بمحو أمية الجاهل وتعليم القراءة والكتابة للكبار وقد حدث ذلك في غزوة بدر عند افتداء الأسرى .. وخالد بن الوليد تلميذ عظيم نجيب من المدرسة المحمدية .. عندما تسلم الأنبار ونزلها واطمأن بها وجد أن قبيلة بني إياد يعرفون القراءة والكتابة .. لذلك أصدر أمرا بأن يتعلم كل الجيش الذي معه الكتابة العربية من قبيلة بني إياد .. لأن خالدا عندما دخل إلى المدينة أنشده أحد شعرائها :

قومي إياد لو أنهم أمم ... أو لو أقاموا فتهزل النعم

قوم لهم باحة العراق إذا ... ساروا جميعا واللوح والقلم[1]

يؤكد ذلك أن العرب ليسوا متعطشين إلى إراقة الدماء ولم ينشروا الإسلام بالسيف وإنما كانوا ينشرون الأمن ويعملون على إحقاق الحق والعلم هدفهم والحكمة ضالتهم.. فإن وجدوا الأمن أخمدوا سيوفهم .. وإن وجدوا العلم عكفوا على تحصيله. لأن دينهم يأمرهم بذلك فالقرآن الكريم يقول (الَّذِينَ إن مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) [الحج : ٤١]

واقعة عين التمر

عين التمر مدينة كبيرة تحوطها أشجار النخيل من كل جانب لذلك سميت بهذا الاسم لكثرة النخيل فيها .. وكان بها حامية من جند فارس وعرب العراق الذين

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ٦ صـ٤٣٧.

يقيمون بها كانوا من قبيلة (نمر) وهى قبيلة معروفة بشراستها واعتزازها بنفسها وتساميها عن كل ما عداها من قبائل وترفعها عليهم .. كان من بينهم شخص يدعى.. (مهران بن بهرام) قائد هذه المنطقة .. وهو قائد ماهر ذو ذكاء ودهاء استطاع أن يتحالف مع بعض العرب المقيمين حوله وانضموا في تحالف مع بعضهم ضد المسلمين، وجعلوا قائدهم الأعلى زعيم عربي معروف بالسياسة والذكاء يسمى (عقة بن أبى عقة) .. كان خالد قد عين على الأنبار عاملا وأخذ معه بعض الجند وعبر الفرات واتجه إلى الجنوب ولما اقترب من عين التمر وجد جيشا كله من العرب وهو مهيأ للقتال يعترض طريقه .. لقد أكدنا مرارا أن الفرس ينظرون إلى العرب كلهم نظرة استخفاف ، حتى إن شيرزاد قائد الفرس على الأنبار عندما غادر حصنه مع جنده من الفرس وذهب إلى المدائن تعرض لتعنيف شديد وتأنيب لأنه لم يتصرف بحكمة تمليها عليه مكانته .. كان شيرزاد يلقي باللوم على جيشه المكون من العرب ويقول (إني كنت في قوم ليست لهم عقول وأصلهم من العرب)[1] .. ونفس الخطأ وقع فيه عقة القائد العربي الذي تحدثت عنه بعض الكتب بأنه سياسي ماهر وزعيم معروف.. هذا القائد ذهب إلى القائد الفارسي وقال له ..(إن العرب أعلم بقتال العرب فدعنا وخالدا) ووافق القائد الفارسي على هذا الرأي وقال له صدقت لعمري لأنتم أعلم بقتال العرب وإنكم لمثلنا في قتال العجم [2] انخدع عقة بهذا الثناء وأدرك القائد الفارسي أن كلماته أحدثت وقعها في نفس عقة لذلك قال له (دونكموهم وإن احتجتم إلينا أعناكم)[3] .. كان يقف بجوار القائد الفارسي عدد من ضباط الفرس.. وما أن غادر عقة المكان حتى قال الضباط للقائد (ما حملك على أن تقول هذا القول لهذا الكلب؟) ورد القائد على ضباطه : دعوني فإني لم أرد إلا ما هو خير لكم وشر لهم ، إنه قد جاءكم من قتل ملوككم وفل حدكم فاتقيته بهم .. فإن كانت لهم على خالد فهى لكم ، وإن كانت الأخرى لم تبلغوا منهم حتى يهنوا فنقاتلهم ونحن

---

(١) الطبرى جـ٣ صـ٣٧٤.

(٢) الطبرى جـ٣ صـ٣٧٤.

(٣) المرجع السابق.

أقوياء وهم مضعفون)[1] .. ويتبين من هذا الحديث وما ورد به من ألفاظ غطرسة الفرس وتعاليهم .. وعندما التقى خالد بجيش الأعداء تعجب لأنه رأى الجيش عربيا ولم يجد أي أثر لأي جندي فارسي .. إن خالدا حارب في كل المعارك التي خاضها في العراق وكانت قوات الأعداء خليطا من الفرس والعرب.. لكن الشيء المؤسف أن جيش الأعداء كله عربي .. وتناوش الجيشان وقال خالد لمن حوله (احفظوا مكانكم فإني حامل) وأمر حُماته أن يكونوا من ورائه وحمل هو على عُقّة وهو يسوي الصفوف فاحتضنه وأسره وانهزم جيش عقة من غير قتال فأكثر المسلمون فيهم الأسر وقصد خالد حصن عين التمر)[2] .. إن عُقّة كان مقاتلاً باسلاً متمرساً عنيداً لكنه وقع أسيراً في يد الأسد لأنه شعر بالرعب والفزع عندما تواجه مع خالد .. علمت حامية الفرس مع قائدهم بما حدث ولم يضيعوا وقتهم وفروا هاربين متجهين إلى المدائن .. لكن بعض العرب دخلوا الحصن وأغلقوا الأبواب عليهم وأخذوا يترقبون ويتأملون في حظهم العاثر ، لقد أصبح زعيمهم عُقّة أسيراً مع الأسرى خارج الحصن وهنا طلبوا الاستسلام بشروط لكن خالدا رد عليهم الاستسلام دون شروط .. وأخيرا وجدوا أن الاستسلام أخف وطأة من المضي في قتال لا يتيح لهم أي فرصة للنجاة .. واستسلم المدافعون عن الحصن.. وفتحت عين التمر أبوابها لخالد الذي أمر بقطع رؤوس كل من كان يحمل السلاح وكل من قاتل المسلمين في الطريق إلى الأنبار بما فيهم القائد عُقّة بن أبى عقة [3]..

عندما غنم المسلمون غنائم عين التمر وجدوا كنيسة فيها أربعين غلاما يتعلمون الإنجيل كلهم من العرب ، فأخذوهم أسري وبعثوا بهم إلى المدينة ، وكان من هؤلاء الغلمان (سيرين) الذي أنجب محمد بن سيرين فيما بعد .. كذلك كان منهم (نصير) الذي ولد له فيما بعد (موسى بن نصير) الذي اكتسب شهرة في الفتوحات في شمال أفريقيا والذي بعث بطارق بن زياد لغزو أسبانيا [4].

---

(١) المرجع السابق صـ٣٧٦.
(٢) البداية والنهاية لابن كثير جـ٦ صـ٤٢٨.
(٣) الطبرى جـ٣ صـ٣٧٧.
(٤) يراجع في ذلك البداية والنهاية جـ٦ صـ٤٢٨ / والطبرى جـ٣ صـ٣٧٧.

استقر بخالد الأمر وبدأ يعالج الأمور بحكمة وروية كما نظم الأمور الإدارية وكاتب القبائل المنتشرة في المنطقة وهادنهم.. ولقد فرحوا بحكمه واستبشروا بقدومه لأنهم عانوا الأمرين من الفرس وذاقوا المُرَّ في التعامل معهم...

وها هم اليوم يشعرون بالعدل والإحسان في معاملة العرب لذلك أحبوهم واختطلوا معهم وبهم .



دومة الجندل

كان خالد على وشك الرحيل بعد أن فرغ من عين التمر وبينما هو يستعد جاءه طلب استغاثة من شمالى بلاد العرب .. فعكف خالد على بحثه وبعد مدة وجيزة عدل من خط سيره وحدد هدفه إلى دومة الجندل .. وهى واحدة من كبريات المدن التجارية ببلاد العرب .. ولقد عرفت هذه البلاد بكثرة أسواقها الزاخرة بكل ما أنتجته الأيدي البشرية ... الغنية بكل ما في أسواق العالم ، لأن موقعها الإستراتيجي هيأ لها طرق المواصلات التي تلتقي عندها من الجزيرة العربية والعراق والشام إلى غير ذلك من الأماكن العامة والهامة وكان أبو بكرﷺ قد أرسل (عياض بن غنم) ليبلغ كلمة الله إلى أهل دومة الجندل وكان ذلك أثناء إرسال خالد بن الوليد إلى اليمامة .. وكان المعتقد ساعتها أن الخليفة أبا بكرﷺ بعث بعياض للعراق لمؤازرة خالد وتعزيز قواته بعد الانتهاء من مهمته .. إلا أن عياضا عندما وصل إلى دومة الجندل وجدها في حماية قبيلة عربية كبيرة من عرب النصارى (قبيلة كلب) وكانت تسكن هذه المنطقة التي هى على حدود الشام الشمالية .. وعياض وضع رجاله أمام واجهة الحصن الجنوبي وأصبح الموقف من وجهة النظر الحربية موقفا غير متزن .. لأن النصارى اعتبروا أنفسهم في حالة حصار مع أن عندهم الناحية الشمالية منطقة مفتوحة أمامهم لكنهم لم يستطيعوا التفكير .. وقد اقترب المسلمون من الحصن وألزموا أنفسهم بعدم مغادرته خوفاً من مطاردتهم وحصارهم .. لذلك اعتبر كل طرف أنه في حالة حصار تحت الطرف الآخر .. وكان القتال بين الطرفين بالتراشق واستمر الحال على ذلك

عدة أسابيع إلى أن شعر كل من الجانبين بالجهد والملل والركود .. وفي أحد الأيام قال أحد المسلمين لعياض (الرأي في بعض الحالات خير من جند كثيف ابعث إلى خالد فاستمده) ووافق عياض على ذلك وكتب لخالد كتابا شرح له فيه الموقف بدومة الجندل وطلب منه العون .. ووصل الكتاب لخالد عندما كان يهم بمغادرة عين التمر إلى الحيرة [1]... قرأ خالد الكتاب وعرف مغزاه فعلى الفور اتخذ قرارين :

١- بعث بكتاب إلى القعقاع بالحيرة وفيه عينه عاملا وقائدا لهذه الجبهة أثناء غيابه وحذره في هذا الخطاب من الاسترخاء والغفلة لأن الوضع وإن كان مستقرا الآن إلا أنه لابد من الحذر فربما يشن العدو هجوما من المدائن على المسلمين...

٢- أرسل برسالة إلى عياض وفيها من خالد إلى عياض إياك أريد ..

لبس قليلا تأتك الحلائب يحملن أسادا عليها القشائب كتائب يتبعها كتائب [2].

وعلم المدافعون عن دومة الجندل بقدوم خالد قبل أن يصلها فأصيبوا بالذعر والخوف .. خالد بن الوليد له علاقة بدومة الجندل ، فلقد كان النبي ﷺ أرسله إلى هذه المنطقة بالذات وكلفه على أن يقبض على (أكيدر بن عبد الملك) وفعلا جاء خالد وأسر هذا الرجل الذي سبق ذكره في موضعه وكان أكيدر قد استسلم واقسم يمين الولاء للنبي محمد ﷺ ،أن يحافظ على عهد الولاء للمسلمين لكن قومه وهو ارتدوا عن الإسلام وكان الخليفة أبو بكر ؓ قد أرسل بعمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة في حروب الردة إلى هذه المنطقة لأن أكيدر نقض عهده وتحلل من قسمه هو وقومه .. لذلك كان خالد يريد أن يؤدب هؤلاء الناس الذين تمادوا في غيهم ونقضوا عهدهم ...

لما علم أهل دومة الجندل بقدوم خالد عقدوا مؤتمرا كبيرا تحت رئاسة (أكيدر بن عبد الملك والجودي بن ربيعة) وقد ضم هذا المؤتمر رؤساء العشائر الذين يقيمون بالمنطقة وخطب فيهم أكيدر فقال (أنا أعلم الناس بخالد .. لا أحد أيمن طائرا منه في حرب ولا أحد منه ولا يري وجه خالد قوما أبدا قلوا أو كثروا إلا انهزموا عنه .. فأطيعوني وصالحوا القوم)[3]...

(١) الطبري جـ٣ صـ٣٧٧.
(٢) البداية والنهاية جـ٦ صـ٤٢٩.
(٣) البداية والنهاية جـ٦ صـ٤٢٩.

لكن زعماء العشائر لم يأبهوا بنصيحة أكيدر وصمموا على مواجهـــة خـالد..
وفقد أكيدر أعصابه وعول على ألا يواجه سيف الله مـرة أخـري .. وذات ليلـة انسـل أكيدر من الحصن وتوجه خفية إلى الأردن وأرسل خالد في أثره عاصم بـن عمـرو الـذي اعترض طريقه وقبض عليه .. وسيق أكيدر مرة أخرى ليقف أمام خـالد.. كـل منـهما ينظر إلى الأخر نظرة ذات معنى ومغزى .. فخالد ينظـر إلى هـذا الرجـل الـذي نقـض عهد الرسول ﷺ وأخل بيمين الولاء الذي أقسم عليه ودخل في زمـرة المرتديـن .. أمـا أكيدر فقد ظن أن خالدا سيرحمه ، لأنه سوف يتذكر المقابلة الأولى ولم يقتله فيـــها ، وبينما أكيدر مسترسل في تخيلاته وأوهامه أفاق على قرار خـالد يتلـي علـى مسـامعه (الحكم بإعدام أكيدر)[1] .. ثم تحرك خالد بالجيش وكلف عياضـا أن يطـوق الحصـن من الخلف لأن خالدا أدرك أن حصن دومة الجندل يقع تحت حماية قويـة لذلـك أمـر بوقف القتال وقرر أن ينتظر بعض الوقت مع شدة الحصار على من بداخل الحصـن .. فإن أصابهم الملل قد يخرجون ويستسلمون وإلا فإن الحصار يضعف من قوة الحامية .. كان الجودي قد تولي قيادة الحصن بعد أكيدر وتبين له أن خالدا وجنـده لـن يـهجموا على الحصن وكان الجـودي تـواقا إلى أن يلتحم مع خالد .. فلما نفد صبره أمـر بشـن هجوم وقد فرق جيشه إلى جماعات وقسمهم .. جماعة تهاجم خالدا والثانيـة تـهاجم عياضا من الناحية الخلفية وكانت الجماعة التي ستواجه خالدا بقيادة الجودي الـذي اعتقد أنه يستطيع أن يريح الناس من خالد ، وأن يخلي المنطقـة مـن المسـلمين ، لكـن الجودي تلقى من خالد ضربة عنيفة سريعة عاجلة قللت من حركته ، وكان جنده من حوله يتساقطون فمن قتل قتل ومن أسر أسر ، ولاذ الباقون بالهرب والرعب يسودهم بعد أن اختل نظامـــهم وتفرقت صفوفـهم أمـام ضربـات المسـلمين المتلاحقـة .. فأسـر المسلمون المئات وقتلوا المئات ولاذ البعض بالفرار .. وهنا تذكر القـوم نصيحـة أكيـدر لكن الوقت قد فات .. كان الفارون قـد لجـأوا إلى الحصـن وأغلقـوه عليـهم مـن جديـد وبدأوا في الدفاع عن أنفسهم .. فأراد خالد أن يفت في عضدهم ، فأعلن بمن ينادي على من بداخل الحصن بـأن أكيـدر قـد قتـل وانظـروا مـن داخـل الحصـن لـتروا مـا يفعـل

(١) المرجع السابق.

بالأسرى وفيهم الجودي الذي وجدوه بينهم ، وأمر خالد بحز رؤوس الجميع بما فيهم الجودي .. ورأى من بداخل الحصن هذا المشهد إلا أنهم لم يستسلموا وزاد تصميمهم على المضي في القتال وحاصر خالد الحصن عدة أيام وذات يوم قرر الهجوم بنفسه على الحصن ، وقد قوبل بمواجهة شديدة لكنه استطاع التغلب بحيله الحربية وخططه الرائعة وفتح الحصن بالقوة وقتل معظم أفراد الحامية ومن بقي حيا أخذ أسيرا مع النساء والأطفال والكهول ، بعد ذلك قضى خالد عدة أيام بدومة الجندل يصرف أمورها ويرتب أحوالها ويخطط لنظمها كي تسير الأمور منضبطة لا خلل فيها ولا اضطراب ... ثم رجع خالد إلى الحيرة (وتلقاه أهلها (بالتقليس) وهو نوع من الغناء وسمع خالد رجلا يقول لصاحبه مر بنا فهذا يوم فرح الشر)[1] وعندما قدم خالد إلى الحيرة لاحظ أن الفرس قد هيئوا أنفسهم لقتال جديد ...

وقعتي الحصيد والمضيح

ما كاد يبتعد عن عين التمر بضعة أيام حتى وصل الخبر إلى بلاط فارس ، وكانت المدائن قد ظنت أن خالدا قد عاد إلى بلاد العرب بصحبة جزء كبير من جيشه ولذلك أخلدوا إلى الراحة .. لكن .. راحة لم تدم لأنهم كانوا يتشوقون إلى مطاردة المسلمين واستعادة الأرض التي فقدوها والمجد الذي بدأ يغيب عن الإمبراطورية ، كان الفرس بطبيعة حالهم وبما جرى لهم قد عزموا على ألا يقاتلوا خالدا وجها لوجه .. لكنهم على أتم الاستعداد لدخول أي معركة مع المسلمين بدون خالد .. وكان (بهمن) القائد السابق الذي فر من مواجهة خالد عندما عرف بأن خالدا قد عاد إلى بلاده جهز جيشا كبيرا يتألف من :

١- ممن نجا من وقعة إليس...

٢- من المحاربين القدماء وتم اختيارهم من عدة حاميات في شتى أنحاء الإمبراطورية...

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ٦ صـ٣٢٩.

٣- فريق من المجندين...

وبرغم أن هذا الجيش كبير في عدده إلا أنه لم يكن يتحلى بالمواهب الحربية علاوة على أن روحهم المعنوية منهارة جداً والخوف يسيطر عليهم .. لذلك قرر خالد ألا يدْفع بجيشه لملاقاة هذا الجيش .. في نفس الوقت أجرى البلاط الفارسي محادثات مع العرب لينضموا إلى جيش بهمن ونظرا لأن عرب العراق موتورون من خالد ويريدون أن ينتقموا منه لمقتل الكثير من زعمائهم علاوة على رغبتهم في استعادة الأرض التي استولى عليها المسلمون .. ولعلهم يتمكنون من إطلاق سراح إخوانهم الأسرى عند المسلمين.. كل هذه العوامل يجب علينا أن نراعيها ونحن نتجه إلى الحصيد والمُضَّيحَ .. بدأ العرب في تجمعهم .. ونظرا لأن (بهمن) هو القائد العام لقوات فارس والعرب فقد قسم الجيش .. الفرس وحدهم وقسمهم إلى قسمين واحدة تحت قيادة (روزبه) ويتجه مع فرقته إلى الحصيد والثانية تحت قيادة (زرمهر) وكلفهم أن يتجهوا إلى (الخنافس) ، وكلفهما أن كل فريق يعسكر في مكان قريب من الآخر وطلب إليهما ألا يتخطيا موقعهما إلا بعد أن يهيئ العرب أنفسهم للمعركة .. كان العرب الموالين للفرس قد تهيئوا للقتال وقلدوا الفرس في تشكيل أنفسهم حيث انقسموا إلى جماعتين واحدة تحت قيادة (الهزيل بن عمران) وتعسكر في المضيع والثانية بقيادة (ربيعة بن بجير) ويتجمعان في مكانين قريبين من بعضهما مكان يسمى (المثنى) والآخر (الزميل) وعلى هاتين الجماعتين أن تنضما إلى جيش الفرس بعد الاستعداد...

هكذا كانت تجري الأحوال وكان (بهمن) يظن أنه في غياب خالد نام المسلمون ورضوا بما هم فيه .. لكن ..(القعقاع) كان يقظا وقد بعث على الفور بفصيلتين واحدة إلى الحصيد والثانية إلى الخنافس حيث يعسكر الفرس وطلب القعقاع من قائدي الفصيلتين أن يناوشا قوات فارس ليعوقا تقدمهما إذا ما فكرت في التقدم وأن يكونا على اتصال دائم به يبلغانه عن تحركات جيش فارس...

كان الوضع العام يهدد بأبعاد خطيرة إذا نجحت قوات الإمبراطورية الأربع في الاندماج مع بعضهما ، وقاموا بشن هجوم على الحيرة .. وكان على المسلمين أن

يضعوا خطة يواجهون بها هذا التجمع المسعور .. وأرسل القعقاع إلى خالد يخبره بالأمر وبدأ خالد على الفور يعد لمعركة أصبحت صورتها واضحة أمامه ذلك بأنه سيبدأ بالهجوم .. لذلك قَسَّم جيش المسلمين بالحيرة إلى وحدتين وضع واحدة تحت قيادة القعقاع والثانية تحت قيادة (أبي ليلى) ، وأمَّر من كان معه في دومة الجندل أن يأخذوا قسطا من الراحة أما هو فسوف ينضم إلى الجيش الزاحف، وكلف خالد القعقاع بأن يذهب إلى الحصيد .. وأبا ليلى إلى الخنافس .. واتجه القعقاع إلى الحصيد ولما اقترب منها سارع (روزبه) قائد الفرس في هذه المنطقة في طلب العون من (زرمهر) قائد الفرس في الخنافس.. لكن (زرمهر) تقاعس عن أن يبعث بجيش إلى الحصيد لأنه لابد أن يحصل على موافقة من (بهمن) القائد العام .. لكن (زرمهر) تحرك بنفسه وذهب إلى الحصيد وكان القعقاع قد اشتبك مع (روزبه) في المعركة ، وكان جيش فارس يفوق جيش المسلمين عددا وعدة .. كان (روزبه) يختال زهوا وغرورا وينادي على المبارز ، فخرج إليه القعقاع وقتله وبعد لحظات خرج (زرمهر) متحديا فانبرى له أحد ضباط المسلمين فقتله .. وبقتل القائدين ضعفت الروح المعنوية عند جنود الفرس الذين تراجعوا وابتعدوا عن الميدان وتركوا وراءهم عددا كبيرا من القتلى ، تولى قيادة الجيش الفارسي في الخنافس قائد يسمى (المهبوزان)وقد كان رجلا حكيما وعى الدرس من الهزيمة التي حلت بنظرائه في الحصن ..لذلك غادر الرجل ومن معه الخنافس وانضموا إلى جيش عرب العراق في (المثني)أو مكان آخر يسمى (المزية)..وصل أبو ليلى إلى الخنافس فوجد أن الفرس غادروها فاستولي على المدينة بيسر وسهولة وكتب إلى خالد يخبره بذلك ..وكان على خالد بعد أن وصلته هذه الأنباء أن يضع أمامه أحد الاختيارات الثلاثة ..إما أن يقوم بالهجوم على العاصمة الإمبراطورية لأن المدائن أصبحت أمامه مفتوحة ..وإما الهجوم على الجيش الإمبراطوري في المزية.. وإما الهجوم على جيش العرب في الثني والزميل .. واتجه تفكيره على شن هجوم على المدائن ..ولكنه استبعد الفكرة لسببين :

١- أنه لم يستشر الخليفة ومثل هذا القرار لا يأخذه وحده..

٢- إن قام بالهجوم على المدائن سيعرض جناح جيشه ومؤخرته للقوات القوية التي تعسكر في المزية ..لأن باستطاعة هذه القوات أن تهجم على مؤخرة الجيش حين يكون منهمكا في هجومه على المدائن .. وإما أن جيش المزية يستولي على قاعدة خالد في الحيرة ..الأمر الذي يقطع خط مواصلاته مع البادية ..تروى خالد في الأمر ..وفضل الهجوم على المزية ..وحدد أعوان خالد له الموقع الذي عسكر فيه جيش الإمبراطورية..ووضع خالد خطة للهجوم لأنه وجد أن مثل هذا الجيش الذي سيهاجمه كثير العَدد كثير العُدةْ ، فلابد أن يهاجم هذا الجيش من جهات ثلاث على أن يتم الهجوم في وقت واحد ..وفعلا قام بتقسيم جيشه إلى فرق ثلاث وحدد لهم الزمان كما حدد لكل فرقة خط سيرها ونفذ الخطة بدقة وانضباط ..والواقع أن خالدا وضع جيشه بهذا العمل أمام اختيار دقيق صعب.. فهى لم تكن تنفذ إلا بواسطة أداة حربية على مستوى كبير من الخبرة والكفاءة العسكرية . وكان الهجوم بعد منتصف الليل..وكان جيش الفرس ومن معه من عرب العراق يغطون في نوم عميق ولم يك مستيقظا منهم إلا رجلا يسمى (حرقوص بن النعمان النمري) وكان حوله أولاده وامرأته وقد وضع لهم جفنة من خمر ، وكان الأولاد يقولون لأبيهم ..أأحد يشرب هذه الساعة وهذه جيوش خالد قد أقبلت ، فقال أشربوا شرب وداع فما أري أن تشربوا خمرا بعدها فشربوا وجعل يقول :

ألا يا اسقياني قبل نائرة الفجر لعل منايانا قريب ولا ندري[1]...

فهجم الناس عليه وضربه رجل في رأسه فوقعت في جفنته وأخذ بنوه وامرأته أسرى [2]...

وكانت هذه الليلة هى آخر ليلة قضاها الفرس ومن معهم في المزية..لقد ساد الفزع جيش الإمبراطورية ..وهذه جرأة من العرب حيث لم تجر العادة أن يتحرك الجيش في مثل هذه الساعة ولهذا جاءوا بغتة وفي حلكة الظلام ..وقتل المسلمون من

---

(١) نائر : أى ظهور نور النهار / المنايا : الموت.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير جـ٦ صـ٤٣٠ وما بعدها.

هؤلاء الآلاف ومن نجا من السيف فَرَّ إلى الصحراء..وأشرقت شمس اليوم التالى من وراء الأفق تحمل في أشعتها بشريات هذا النصر العظيم الذي خطط له خالد وقاده بنفسه .. أما القائد الفارسي (مهبوزان) لم يُعْرَف مصيره .. أما قائد جيش عرب العراق (الهزيل ابن عمران) فقد فَرَّ مع الهاربين وانضم إلى الجيش الذي كان يعسكر في الزميل...

حدث غير متوقع

قتل في وقعة المزية رجلان من المسلمين كانا قد أسلما ومعهما كتاب من الصديق بالأمان .. ولم يعلم بذلك المسلمون .. وهما (عبد العزى بن أبى درهم بن قرواش) قتله جرير بن عبد الله البجلي .. والآخر الذي قتل (لبيد بن جرير) قتله بعض المسلمين ..فلما بلغ خبرهما الصديق وادهما [1] .. وبعث بالوصاة بأولادهما .. وتكلم عمر بن الخطاب في خالد بسببهما ، كما تكلم فيه بسبب مالك بن نويرة .. فقال له الصديق : كذلك يلقي من يساكن أهل الحرب في ديارهم .. أي أن الذنب عليهما في مجاورتهما المشركين .. وهذا كما في الحديث (أنا بريء من كل من ساكن المشرك في داره) وفي الحديث الأخر (لا تري نارهما) أي لا يجمع المسلمون والمشركون في محلة واحدة [2] .. إن أبا بكر كان دائما يقبل العذر لخالد لأنه لابد من أخطاء في الحرب .. وعذر خالد أنه لا يعلم بوجود هذين المسلمين .. كما أنه ليس لديه معرفة بأن أبا بكر أعطاهما كتاب أمان .. لذلك عندما نَدَّدَ عمر بن الخطاب والغضب يساوره بما أسماه ببغي خالد . .تجاهل أبو بكر هذا الاتهام.. ودفع الدية ثم قال .. (لم أكن لأشيم سيفا سلّه الله على الكافرين)...

تحرك جديد

تحرك خالد وبسرعة إلى الثني والزميل ..وقد اتخذ الثني هدفه لأنها أقرب إلى المزية، وكان نفس التخطيط الذي رسمه في المزية هوهو ..وهجمت قوات خالد معسكر

---

(١) أى دفع ديتهما.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير جـ٦ صـ٤٣١.

الثني ولم ينج من جند الفرس هذه المرة إلا عدد قليل من عرب العراق .. وأخذت النسوة والأطفال مع بعض الشبان الباقين أسرى ، وكان بين الأسرى فتاة جميلة هي ابنة (ربيعة بن بجير) قائد العرب .. هذه الفتاة الأسيرة كانت عند توزيع الغنائم من نصيب علي بن أبي طالب ، فاستولدها عمر ورقية رضي الله عن الجميع[1]..ثم تحرك خالد إلى الزميل بنفس التخطيط وهناك راح عرب العراق ضحايا الهول الذي فوجئوا به فزلزلت الأرض تحت أقدامهم وأصبحوا في خبر كان كما حدث في المزية والثني ...

مناورة فاشلة

عقة بن أبي عقة القائد الذي سبق ذكره والذي قتل على يد العرب الشجعان كان له ولد يسمى (هلال) أراد أن يأخذ بثأر أبيه ، فكان يمشي في قبائل العرب يحرضهم ويشجعهم على الأخذ بثأر من قتل منهم بيد هؤلاء العرب المسلمين .. واستطاع هلال أن يجمع حوله بعض الموقرين وتجمعوا في مكان يسمى (الرضاب) وبلغ خالد خبر هؤلاء فأسرع إليهم ، لكن هلالا ومن معه عندما عرفوا أن خالدا تحرك إليهم سادهم الرعب وولوا مدبرين في الصحراء حيث تاهوا في متاهات البادية واختبؤا في كهوفها ولم يعرف بالضبط المصير الذي آلوا إليه...

ذكريات

لم تكن طبيعة خالد تعرف الهدوء ولا الراحة .. لكنه جلس مع جنده ليأخذوا قسطا من الراحة .. وراح الجند في نوم عميق .. أما خالد فقد سرح ببصره في الأفق المتد .. وأخذ يسترجع ذكريات المعارك التي خاضها في أقل من شهر واحد .. استطاع بلباقته وكفاءته أن يسحق جيوش إمبراطورية كبيرة في أربع معارك منفصلة خاضها في ميدان يبلغ طوله مائة ميل .. وكانت انتصاراته باهرة.. لكنه وهو يفكر جال بخاطره .. أن

---

(١) المرجع السابق.

هذا النصر الذي حالفه من الله لأنــه .. اعتمـد عليـه أولا .. وكـان أمينـا دقيقـا في كـل خطوة يخطوها .. منضبطا على القيم الأخلاقية التي تعلمها من النـبي العظيـم محمـد ﷺ ..والنصائح التي زوده بها الخليفة الأول ..كما أنه يسـتنفذ كـل قدراتـه العقليـة والذهنية والتخطيطية .. وكان يستمع إلى رأي الناصحين ويستشير كل الجنـد ويـنزل على رأي أقل شخص فيهم.. كما أنه كان يتقدم الجند ، لم يصدر قـرارا ويتـأخر عـن تنفيذه ، وكان جنـوده مـن حولـه يتميزون بالحركـة السـريعة والجـرأة والإقـدام ، ويتعاونون معه لمباغتة العدو والقيام مع خالد بالهجوم العنيـف بـالليل أو النـهار .. إنه مع المعارك الكبيرة كانت هناك انتصارات بـاهرة في المواقـع الجانبيـة .. و هـاهو اليوم .. والحمد لله أصبح الجند يحيطـون بـه كإحاطـة النجـوم بـالقمر يأنسـون إليـه ويحاولون إدخال السرور على نفسه وهو يقابلهم مع ذلك بسخاء النفس ولين الجانب وكرم اليد .. لأنه رغم ما حصل عليه من غنائم لم يستأثر لنفسه بشـيء .. ولم يبخـل على جنده بشيء رغب فيه .. وعاد خالد إلى نفسه بعد هذه الرحلـة الفكريـة لينـادي على جنده : حي على الصلاة ، حي على الفلاح .. طبيعة خالد لا تعرف الهـدوء ولا الراحة .. وبعد جولته الفكرية وبعد أن أيقظ الجند لصلاة الفجر .. بـدى عليـه بعـد الصلاة أنه يتطلع إلى إحراز المزيد من الفتوحات .. لذلك عليه مواصلة الكفاح والنضال إلى أبعد الآفاق .. لكن إلى أين .. فقد أصبحت الإمبراطورية الفارسـية عـاجزة عـن أن تروى عطشه لمعركة جديدة .. فليس هنــاك جيـوش في فـارس تسـتطيع أن تنازلـه .. وبينما هو في فكره هذا تقدم منه أحد الناس ليخبره بأن هنـاك حاميـة قويـة لفـارس ترابض في مكان يسمى (الفراض)...



الفـــراض

سر خالد من هذا الخبر وأسرع في إصـدار أوامـره بـالتحرك ..كـانت الفـراض تقـع في نـهاية حدود الإمبراطورية الفارسية ملاصقة لحدود إمبراطورية الروم .. وكانت هذه الحامية الفارسية هى التي تركت غربي المدائن . لذلك تحرك إليها وكان التحـرك في

منتصف شهر رمضان من العام الثاني عشر الهجري وكان هو وجنوده قد أفطروا رمضان لأن حركتهم دائمة ومعاركهم متواصلة ، وعند الفراض وجد خالد حاميتين.. واحدة فارسية .. والثانية رومانية ، وهنا وقف خالد يراجع نفسه إن أوامر الخليفة له أن يحارب الفرس فقط .. وماذا يصنع الآن .. وهداه تفكيره إلى أن يعسكر بجنوده على الضفة الجنوبية من نهر الفرات والفرس والروم على الضفة الشمالية .. ومعسكره إذا يقع على أرض فارس فهو لم يخالف للخليفة أمرا.. ومن المؤكد أن الفرس والروم أعداء طالما حدثت بينهما معارك واشتباكات ، وكل منهما يغير على حدود الآخر .. لكنهما الآن اتحدا مع بعضهما ليقاتلا معا قوات المسلمين ، وانضم إليهما بعض العشائر من عرب العراق سكان هذه المنطقة وبعض الذين فروا هاربين من المعارك السابقة...عسكر خالد في موقعه حوالي ستة أسابيع لم يحدث خلالها شيء ، لكن الجيشين كل منهما يرقب الآخر وخالد يتحرق شوقا لملاقاة العدو .. (وفي يوم قالت الروم لخالد اعبر إلينا .. وقال خالد للروم بل اعبروا أنتم .. فعبرت الروم مع الفرس وذلك فى النصف الأول من شهر ذي القعدة عام اثنتي عشرة للهجرة فاقتتلوا هناك قتالا عظيما بالغا .. ثم هزم الله جموع الروم وتمكن المسلمون من إقفائهم فقتل في هذه المعركة مائة ألف ، وأقام خالد بعد ذلك بالفراض عشرة أيام..ثم أذن بالقفول إلى الحيرة لخمس بقين من ذي القعدة)[1]...

والواقع أن هذه الوقعة لم تكن فاصلة ولا كبيرة وبعدها كانت مدائن الفرس معرضة للخطر ..وأهمية هذه المعركة أنها الأخيرة في حلقة سلسلة الحملات العظيمة الرائعة التي قام بها المسلمون على أرض فارس...

جرأة وشجاعة

حرك خالد جيشه ليتجه إلى الحيرة وقد قسمه إلى ثلاثة فرق..فرقة في المقدمة أمر عليها عاصم بن عمرو وسماها كتيبة الحراسة الأمامية وكتيبة في الوسط تسمى القلب وكتيبة في المؤخرة تسمى الحراسة المؤخرة ، وأمر على هذه الكتيبة (شجرة بن

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ٦ صـ٤٣١.

الأعز) وأعلن أنه سيسير في المؤخرة وتحرك الجيش .. ثم انتحى خالد بشجرة بن الأعز وأسر إليه كلاما وسار خالد مع الكتيبة وعن طريق لم يسلكه أحد قبله قط لأنه غير مطروق ..سلكه خالد وحده مع قلة قليلة من فرسانه كان قد أسر إليهم بكلمات.. وسار مع صحبه في طرق غير معروفة ولم يمر بها أحد من قبل (حتى اللصوص)[1] .. فقد كانوا يخشون الدخول إليها ..إنها منطقة شديدة الوعورة لم يعرفها المرشدون أو الأدلاء وساروا فيه حتى وصلوا إلى مكة فأدوا فريضة الحج ولم يفصحوا هناك عن هويتهم ثم عادوا بعد الحج إلى العراق وأدركوا الكتيبة قبل أن تدخل الحيرة وانضموا إليها ودخلوا معها ، ولم يعرف بسر خالد إلا قائد الكتيبة ومن كان معه ولم يعلم أبو بكر الصديق بذلك أيضا إلا بعد انتهاء موسم الحج لقد ذهب خالد إلى مكة فأدى الحج ولم يشعر بذلك إلا القليل من الجند ممن أسر إليهم بذلك . وتلك ثقة متناهية ثم إن الجند .. لاحظوا أن خالدا أصبح حليق الرأس وبعد أيام تسلم خالد خطابا من أبي بكر ففتحه وقرأ فيه (سر حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك فإنهم قد شجوا وأشجوا وإياك أن تعود لمثل ما فعلت فإنه لم يشجع الجموع من الناس بعون الله شجاك ولم ينزع الشجي من الناس نزعك) .. وهنا توقف خالد عن القراءة ولاحظ بين السطور أن أبا بكر يعتب عليه في مفارقته للجيش لذلك ظن أن بعد هذه الجمل سيكون من أبي بكر أن ينزل درجة خالد ، وخشى أن يكون عمر قد نجح في إغارة صدر الخليفة ضده.. وقال في نفسه .. (هذا عمل الأعسر بن أم شملة حسدني أن يكون فتح العراق على يدي) ولكن سرعان ما ذهب خوفه وتبدد عندما قرأ بقية الخطاب وفيه.. (فليهنئك أبا سليمان النية والخطوة فأتمم يتم الله لك ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل وإياك أن تدل بعلمك فإن الله له المن وهو ولي الجزاء)[2].. وعلى هذا الأساس نرى أن أبا بكر الصديق نصب خالدا قائدا عاما على جيوش المسلمين وجعله أميرا على جميع الأمراء لمهاراته وكفاءته الحربية وأمره أن يتوجه إلى الروم لمقاتلتهم وحدد له أن يأخذ نصف الجيش بالتمام والكمال وأن يترك النصف الثانى

---

(١) الطبرى جـ٣ صـ٣٨٤.
(٢) الطبرى جـ٣ صـ٣٨٤ / والبداية والنهاية جـ ٦ صـ٤٣٢.

بالحيرة تحت قيادة المثنى بن حارثة ليؤمن المنطقة ممن تسول له نفسه الخروج على الدولة وكان من كلام أبى بكر لخالد (لا تأخذن نجدا إلا خلفت له نجدا فإذا فتح الله عليكم فارددهم إلى العراق وأنت معهم ثم أنت على عملك)[1].

من هنا يتبين أن خالدا أصبح قائدا عاما لقوات المسلمين بالشام وقبل أن يتحرك خالد إلى الشام كانت هناك بعض القبائل قد أظهرت التمرد فتحرك إليهم خالد وأدبهم واستقرت الأمور بالعراق .



(١) الطبرى جـ٣ صـ٤١١ .





الفصل السادس

تحرك خالد إلى الشام

ترك خالد أرض العراق التى كان فَتْحُها عملاً ناجحاً عظيماً رائعاً .. فلقد حارب المسلمون في العراق عدة معارك ضد جيوش فارسية كانت تفوق جيوش المسلمين عدداً وعدة .. وهذه المعارك إذا قلنا بأنها انتصار للمسلمين فهى كلمة لا تفى بالمعنى المراد.. لأن الحقيقة أن المسلمين ألحقوا بالفرس وبمن كان يتبعهم هزائم نكراء فى وقت كان يُعد فيه جيش فارس من أقوى الأجهزة الحربية على الساحة الدولية التى تخيف وترعب كل من تسول له نفسه الاقتراب من حدود الإمبراطورية الفارسية..

لكن الحقيقة المُفرحة أن خالداً انتصر مع قلة من جيشه وقلة عُدته ومؤونته.. فهو انتصر بقوة إيمانه .. وكان خالد مع هذا الإيمان الراسخ فى قلبه يضع خططه الاستراتيجية للمعركة .. وكان من عناصر خططه احتفاظه دائماً بطريق مفتوح من ميدان المعركة إلى البادية والصحراء من ورائه ليستطيع استخدام هذا الطريق إذا ما حدثت له أى نكسة .. وعندما نلاحظ خط سير المعارك يتبين لنا أن خالداً لم يتوغل فى أعماق الطرق إلا بعد أن فقد جيش فارس قدرته وتهديده لخطوط مواصلات خالد مع البادية .. وكانت استراتيجية الفرس الحربية قد فرضتها عليهم الضرورة السياسية التى حتمت عليهم الدفاع عن حدود الإمبراطورية .. وكان من نتيجة ذلك أن الفرس قاتلوا المسلمين فى معارك دارت عند الحدود التى كانت تفصل البادية عن الحضر .. الأمر الذى حرص عليه خالد.. وكان الفرس يتبعون فى نطاق حدودهم السياسية طرقاً سليمة استطاعوا أن يحشدوا من خلالها قوات ضخمة اشتركوا بها فى معاركهم وبسبب هذا كان من المحتمل أن تكون نتيجة هذه المعارك على غير ما انتهت إليه .. ويرجع ذلك إلى حركة خالد السريعة وخططه التى وضعها للاشتباك مع مختلف الجيوش فى معارك دارت الواحدة بعد الأخرى وتنفصل كل منها عن سابقتها من حيث الزمان والمكان .. هذا فضلاً عن أن شخصية خالد كان لها أثرها فى سير المعركة الأمر الذى حقق النجاح فى ظروف صعبة قاسية ، وكان خالد أول مسلم بارع استطاع أن يغزو أرضاً أجنبية وبذلك استطاع أيضاً أن يعيد رسم خريطة العالم

سياسيا ودينيا.. وإذا كان خالد قد اكتسح العراق كاكتساح العاصفة العاتية وأن يقهر جيوش إمبراطورية متعجرفة .. فعليه الآن أن ينطلق إلى الشام ليحقق نصرا تفخر به الأجيال ويسحق إمبراطورية أخرى متعجرفة هناك...

ومن أحسن ما يؤثر لخالد من المحاسن خلال غزوه للعراق وقهره لجيوش الإمبراطورية أنه لم يكن مغيرا ناهبا ولم يتعرض للفلاحين بسوء .. ولم يلحقهم منه أذى بل كان يعاملهم بالرأفة والرحمة ويشملهم بالرعاية ، فيمنع عنهم أى أذى ويلبى مطالبهم وكان بهم رؤوفا ، لأنه يؤمن أن الفلاحين هم مادة الأمة وبهم قوام الدولة .. لذلك خفف عنهم ما كانوا يدفعونه للدولة من ضرائب مبالغ فيها فما كان من خالد إلا أن عمل على راحتهم فأحبوه وصاروا له عيونا لأنهم وجدوا فى حكمه العدل فأنسوا به ، وقبل خالد كانوا يعاملون بالعصى والكرباج ويعاملون بالغلظة والإهانات ، لأن الفرس استعبدوهم وذلوهم .. لهذا وجدوا المعاملة بالعكس تماما .. فلقد تعامل المسلمون معهم على أنهم بشر لهم حقوق فمنحوهم السيادة والعزة لذلك وقفوا بجوارهم وقابلوا هذه المعاملة الكريمة بالشكر والامتنان للمسلمين (وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان)..

إن أبا بكر رضى الله عنه وأرضاه عندما عرف أن خالدا ترك جنده وذهب إلى الحج فأداه ، أكبر ذلك منه وأعتبره إعجابا من خالد بنفسه ، وبما أتيح له من النصر على العدو .. واعتزازا وثقة بمن معه من الجند واستضعافا لشأن عدوه .. لذلك أراد أن يرمى الروم بمثل ما رمى به الفرس .. وأن يرمى غرضين بحجر فأمر أبو بكر خالدا بالتوجه إلى الشام ليكون مددا لمن هناك ومعه نصف الجند، وأن يبقى المثنى بن حارثة ومعه نصف الجند بالعراق فكان كتاب أبو بكر الذى سبق...

إعداد العدة

على الفور أبلغ خالد المثنى بأوامر الخليفة وقسم الجيش إلى قسمين وأخذ خالد بعض صحابة الرسول الكريم ﷺ من المهاجرين والأنصار الذين كانوا يحتلون فى قلوب الجند مكانة مرموقة بالحب والإكبار .. لكن المثنى عارض هذه القسمة وطلب إلى

خالد إعادة القسمة وقال (والله لا أقيم إلا على إنفاذ أمر أبى بكر الصديق كله فى اصطحاب نصف الصحابة أو بعض النصف وبالله لا أرجو النصر إلاّ بهم فأنى تعريني منهم)[1] .. وقد قبل خالد هذا الاحتجاج وأعاد تقسيم الجيش من جديد فأخذ نصف الصحابة وترك نصفهم مع المثنى...

خطة

كان من عادة أبى بكر رضى الله عنه أن يحدد لقادته مهامهم ومناطق عملهم والمواد التى يستعينون بها لتنفيذ ما أوكل إليهم .. كما كان يحدد لهم بعض الطرق .. ثم يترك لهم حرية التنفيذ حسبما يرون أمامهم على الواقع .. وكانت المهمة التى كلف بها خالد واضحة إذ كان عليه أن يسارع بالذهاب إلى الشام على رأس القوات الإسلامية وأن يقاتل الروم كما قاتل الفرس ، أما الطريق الذى يسلكه فله حرية الاختيار لأن الخطاب الذى وصل من أبى بكر إلى خالد لم يحدد له مواقع قوات الإسلام بالشام ، وإن كانت المنطقة محددة بمنطقتى (بصرى والجابية) لكن كيف الطريق؟

بدأ خالد يجمع المعلومات ويعقد مجلس حربه وقد شرح لهم الموقف على حقيقته ، وكان مما قاله للمجلس (كيف لى طريق أخرج فيه من وراء جموع الروم فإنى إن استقبلتها حبستنى عن غياث المسلمين)[2].. وتكلم المتكلمون وبينوا لخالد أن أمامه طريقان يوصلانه إلى الشام .. الأول طريق الجنوب ويمر بدومة الجندل وهو طريق مطروق تمر عليه القوافل المعتادة وهو أسهل لأن المياه تتوفر عليه وليس على جانبيه ما يعوق مسيرته .. لكنه طريق طويل يستغرق وقتا من الأيام .. وفكر خالد ونظر إلى كتاب الخليفة فإذا به الأمر فى الإسراع .. إذا هناك أمر خطير يهدد المسلمين لذلك استبعد خالد هذا الطريق بعد إعمال الفكر فى كتاب الخليفة..

فقال العارفون باستراتيجية الصحراء وطرق التنقل عليها. وهناك طريق آخر يمتد من الشمال على طول الفرات حتى يصل إلى شمال شرق الشام .. وهذا الطريق وأن كان مطروقا سيباعد بين خالد وبين الجيوش الإسلامية الأخرى علاوة على أن فى

---

(١) تاريخ الطبرى جـ٣ صـ٤١١

(٢) المرجع السابق .

الطريق حاميات للروم تعسكر على الفرات .. وهذه الحاميات ستتعرض له فتعوقه عن التقدم إلى بغيته وأن خالداً على يقين من أنه ورجاله يستطيعان سحق هذه المقاومة .. إلا أن ذلك يؤخر مسيرته ، وهو يريد أن ينفذ أوامر أبى بكر فى أسرع وقت .. لذلك أعاد السؤال إلى مساعديه فرد عليه أحدهم قائلاً (لا نعرف إلا طريقاً لا يحمل الجيوش يأخذه الفذ الراكب فإياك أن تغرر بالمسلمين)[1]... وسكت خالد برهة ثم طرح السؤال مرة أخرى فوقف أحد الضباط المقاتلين واسمه (رافع بن عميرة) وقال لخالد هناك حقيقة طريق ثالث وهذا الطريق يخترق أرض (سماوة) وشرح رافع طريق السير على هذا الطريق بقوله (يسير الجيش من الحيرة إلى قراقر .. عبر .. عين التمر والمزية .. وأن المسيرة قد تنتهى بيسر وراحة ، وكانت قراقر واحة بها ينابيع ماء وتقع غربى العراق وكان يصلها (بسوى) طريق لا يعرفه أحد كان يخترق جزءاً من البادية قاحلاً ليس به ماء .. أما فى (سوى) فقد كان فيها المدد والماء متوفران .. كما يوجد ينبوع ماء فى مكان آخر على بعد مسيرة يوم واحد.. وكان أخطر جزء فى هذا الطريق هو الجزء المتد من قراقر إلى هذا النبع ، وكان طوله حوالى مائة وعشرين ميلاً ، ثم عقب رافع بعد ذلك بقوله (والله لا يسلك هذا الطريق إلا مغروراً يقطع فى خمسة ليال لا يصادف سالكه ماء مع فضلتها .. وأن الراكب المفرد يخاف على نفسه فى هذا الطريق).. وأبدى ضباط الجيش موافقتهم على هذا التحذير من سلوك هذا الطريق لأنه من المحتمل أن يموت الجيش عطشاً وهذا أمر لا يقره أى إنسان .. لكن خالداً رد بصوت هادئ وقال : (ويحك إنه والله قد بدا لى بُدُّ من ذلك) أى أن خالدا رأى أن يسلك هذا الطريق .. لذلك ارتسمت علامات الفزع والهلع على وجوه مساعديه فقال لهم بهدوء (لا يختلفن هديكم ولا يضعفن يقينكم وأعلموا أن المعونة تأتى على قدر النية والأجر على قدر الحسبة وأن المسلم لا ينبغى له أن يكترث بشيء يقع فيه مع معونة الله له)[2] ... كان لهذه الكلمات أثرها السريع فى تغيير الموقف لأنه ما إن انتهى خالد من كلامه حتى قال الرجال بصوت

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الطبرى جـ٣ صـ٤٠٩ وما بعدها.

واحد (أنت رجل قد جمع الله لك الخير فشأنك)[1] .. وتهيأ الجيش للسير إلى الشام وروحهم المعنوية عالية وقد تأكدوا من أن خالدا سيسلك بهم الطريق الذى صوره رافع بن عميرة .. وقد أصدر خالد قرارا بمنع النساء والأطفال من مصاحبة الجيش وأمر بإرسالهم إلى المدينة حتى إذا ما استقر الجيش فى مكان فى إمكانهم أن يلحقوا بهم.. وتحرك الجيش وصحب المثنى خالد بن الوليد وسار معه إلى قراقر .. ثم عاد المثنى إلى الحيرة ليستأنف إشرافه ومراقبته على الأماكن المفتوحة بالعراق .. بات الجيش فى قراقر وأخذوا ما استطاعوا حمله من الماء والزاد .. والجيش يخطو خطواته الأولى على الطريق جاء رافع إلى خالد والقلق باد على وجهه .. ووجه نفس الإنذار الذى وجهه إلى خالد فى المجلس الحربى ، وقال له (إنك لن تطيق السير فى هذا الطريق بالخيل والأثقال ووالله إن الراكب المفرد ليخافها على نفسه وما يسلكها إلا مغروراً) ، لكن خالدا رد على رافع بحدة وغضب وقال له (ويحك إنه والله إن بدا لي من ذلك .. إنه قد أتتنى من الأمير عزمة بذلك فمر بأمرك)[2] .. رجع رافع إلى قيادة الجيش وركب الجند الجمال وقادوا الخيول ورائها .. وكان الجو شديد الحرارة .. وليس على الطريق أى سمة من سمات الحياة فالطريق قحل والسير فيه عذاب ومشقة .. ومضت الثلاثة أيام الأولى بدون حادث يذكر ثم بدأ يظهر على الجند الإرهاق والتعب من وهج الشمس وشدة الحرارة .. ولقد نفذ الماء منهم من كثرة استعماله لأنه كان مقدراً للماء أن يدوم خمسة أيام لكنه نفذ في ثلاثة أيام ، لهذا فإن على الجند أن يقضوا اليومين الأخيرين بلا نقطة ماء .. وواصل الجيش مسيرته فى اليوم الرابع وكان الجو قاسياً والحرارة شديدة وعلى آخر نهار اليوم الرابع أصبح الجند وليست لديهم القوة لأن يتحدثوا مع بعض لعدم وجود الماء ولما يقاسونه من قسوة الجو وحرارة الشمس .. وساد شعور عام بالخوف والقلق لما هم فيه والنوم جافاهم وتورمت ألسنتهم فى أفواههم لقلة الماء وأحسوا بالعجز والضعف فأكثروا من ترديد قول الله عز وجل (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا

---

(١) المرجع السابق.

(٢) الطبرى جـ٣ صـ٤١٥ .

الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذاباً أَلِيماً وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُون اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً) [سورة النساء الآية ١٧٣] وقوله سبحانه (حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) [سورة آل عمران الآية ١٧٣] ،في اليوم الخامس بدأ الجيش يتحرك بخطى متعبة فوق رمال شديدة الحرارة وتحت شمس ملتهبة لا ترحم وأصبح كل جندى وقد أحناه التعب وأمَّضه الجهد ولم يعد الجيش نظيفاً ولا منظماً وقد وصل الأمر إلى أن الجندى لا يستطيع أن يتجاوز الجندى الذى أمامه .. وخالد أضرت أشعة الشمس الملتهبة بعينيه لأنه كان يشكو قبل أيام من رمد فيهما .. فأصبح لا يرى أى شئ أمامه .. أما رافع فقد غطى عينيه بجزء من عمامته وأوقف بعيره لعدم القدرة على الحركة ، وساد بين الجميع شعور بالخوف والقلق من أن يكون رافع قد ضل طريقه أو عجز عن الحركة بسبب ما هم فيه.. لذلك أصاب الجند الهلع وراحوا إلى رافع يتوسلون إليه أن يدلهم على النبع لأنهم شارفوا على الموت .. لكن رافعاً لم يستطع أن يبصر أمامه لالتهاب عينيه .. وبصوت منخفض قال رافع لأصحابه (أنظروا جبلين وكأنهما ثديان .. وسار الرجال إلى هذا المكان .. ورافع بصحبتهم فقال لهم هناك هل ترون شجرة من عوسج كأنها قاعدة الرجل؟ ومضى بعض الرجال للكشف عن موقع هذه الشجرة لكنهم لم يعثروا عليها وقالوا لرافع ما نرى شيئاً فقال (إنا لله وإنا إليه راجعون هلكتم والله وهلكت معكم .. انظروا ..وراح بعض الجند يتطلعون من جديد وتطلع الجند فرأوا جزع شجرة عوسج اختفى منها بقيتها .. وقال لهم رافع احفروا فى أصلها .. وحفر الرجال عند أسفل جذورها فحفروا (وإذا الماء قد طلع كالبحر)[1] وشرب الرجال حتى ارتووا وحمدوا الله ودعوا لرافع بالمثوبة .. وأخذ بعض الجند ماء وذهبوا به إلى إخوانهم الذين تخلفوا فى الطريق بسبب ما أصابهم من إرهاق .. كان خالد على يقين من أن السير فى هذا الطريق خطر وأنه كان يمكن أن ينتهى بكارثة رهيبة .. لكن الأمر الذى هون على خالد أن رافعاً اعتذر إليه وقال لخالد وهو يبتسم (أيها الأمير والله ما وردت هذا الماء منذ ثلاثين سنة وما وردته إلا مرة وأنا غلام مع أبى)[2] .. لقد

---

(١) فتوح الشام للواقدى جـ١ صـ٢١.

(٢) الطبرى جـ٣ صـ٤١٠ وما بعدها.

انتهت المسيرة الخطرة بسلام ووصل الجند إلى حدود الشام بأمان وقاموا بعمل لم يعمله غيرهم من قبل وأصبحوا فى مواجهة إمبراطورية الروم الشرقية وعلى مسيرة يوم واحد من (سوى) حيث تنتهى حدود البادية مع الفرس ويبدأ عمران الشام....



الشام أرض طيبة وهى أحسن إقليم فى إمبراطورية بيزنطة جوها جميل يلطفه هواء البحر الأبيض المتوسط لذا فهو يوفر الراحة للنزلاء ويزيل العناء عن المسافرين بخلاف البادية التى تشتد فيها الحرارة فى أوقات والصقيع فى أوقات أخرى .. وكانت (انطاكية) وهى الآن (تركيا) عاصمة الإقليم الأسيوى من إمبراطورية بيزنطة ولم يكن يفوقها فى الأهمية السياسية إلا القسطنطينية .. كانت بلاد الشام مثل حلب وحمص ودمشق تموج بحركات تجارية واسعة كما كانت هذه البلاد مهداً لحضارة ومركزا لثقافة ولذلك كان أهلها يتمتعون بثروات ضخمة .. وكان هناك على البحر الأبيض المتوسط بلاد مثل .. اللاذقية وطرابلس وبيروت وصيدا .. وعكا .. ويافا .. فكانت السفن من جميع بلاد العالم تأتى إلى موانى هذه البلاد ، لذلك كانت زاخرة بالحركات مليئة بالنشاط ثرية بالتجارة .. طلب أحد الخلفاء من أحد العلماء المرموقين أن يصف له طبيعة بلاد الشام .. فقال عنها .. (عذبة الماء .. باردة الهواء.. صلبة الموطأ .. قليلة الأدواء .. تربة حمراء وسنبلة صفراء .. وشجرة خضراء)[1]..

كان إقليم الشام منقسماً إلى منطقتين الأولى .. الشام الأصلية .. وتمتد من.. انطاكية وحلب فى الشمال .. إلى أعلى البحر الميت .. والثانية فلسطين وتقع غربى وجنوب البحر الميت وبها بيت المقدس الذى تقدسه الأديان الثلاثة .. وكان هناك مدن لا تقل ثراءً ولا تقل مجداً عن أى مدينة فى العالم.. كما أن العرب فى هذه الأيام (أيام الفتح الإسلامى) تحدثوا كثيراً عن إقليم الأردن الذى يقع فيما بين الشام وفلسطين وله وضع جغرافى خاص به ومع ذلك فقد كان جزءاً من إمبراطورية الروم

(١) مروج الذهب للمسعودى جـ٣ صـ٣٠٩.

الشرقية .. من هنا كان التحرك إلى بلاد الشام هو غزو للروم .. وهذه الإمبراطورية بدى عليها التدهور وكانت فى طريقها إلى الانحلال لأن الحكم عندهم لم يكن بيد أسرة كما هو الحال فى الفرس وإنما كان الحكم فى الروم ينتقل عند موت الحاكم إلى أكثر القادة قدرة وتفوقاً أو أحد الساسة عنده مراوغة ودهاء أو أحد المتآمرين يتفوق شدة وبطشاً... وجيش الروم كان أقل من جيش فارس من حيث الإعداد الحربى ، كما أنه لم يكن متمتعاً بالكفاءة العالية حيث لم يكن مؤلفاً من قومية واحدة بل من قوميات غير متجانسة.

وبلاد الشام يقطن على بعض أجزائها أقوام من العرب .. فى شمالها وجنوبها وقد سكنوها قبل أن يحكمها الروم وقد اعتنقوا المسيحية فى أوائل القرن الرابع الميلادى ، ولم يكن للعرب أثر يذكر فى هذه الأماكن حتى هاجرت قبيلة غسّان من اليمن ، وكان الغسانيون يتمتعون بروح حربية قوية لذلك استطاعوا أن يقيموا حكماً ذاتياً على البلاد التى تحت أيدى العرب وعينوا عليهم ملكاً من بينهم، وبهذا شعرت القبائل العربية بالعزة .. كما أصبحت الأسرة الغسانية واحدة من الأسر الحاكمة العزيزة الجانب .. وكما أصبح ملك غسان حاكماً على عرب الأردن وجنوبى الشام يصرف أمورهم من عاصمة ملكه (بصرى) وكان آخر ملوك غسان الذى كان يحكم البلاد أيام أن وصل خالد بن الوليد إلى هذه الأرض (جبلة بن الأبهم) وقد كان عملاقاً تلمس قدماه الأرض إذا اعتلى صهوة جواده)[1]... هذه هى بلاد الشام والحالة التى كانت عليها يوم أن قدم إليها جيوش المسلمين فى الشهر الأول من .. السنة الثالثة عشر هجرية...

تخطيط غزو الشام

عاد أبو بكر من حجته واجتمع بالمسلمين فى المسجد النبوى ودعاهم إلى حمل السلاح لغزو الشام بعد أن بَيَّن لهم الانتصارات العظيمة على الفرس، وأن الأمور الآن هادئة على جبهة العراق وبَيَّن لهم أن بيت المال ملئ بالثروات والأموال وأن الميدان الآن فى

(١) ابن قتيبة صـ ٦٤٧ .

حاجة إلى رجال .. واستجاب الرجال من مختلف القبائل لنداء القائد العام .. وجاءوا إلى المدينة بحماس زائد وتجمعت وفود كثيرة من أنحاء الأماكن الإسلامية وكلهم على استعداد لخوض المعركة خاصة وأن قوة الإمبراطورية الرومية العسكرية لم تصل فى قدرتها وتنظيمها وعدتها وعتادها كما وصلت إليه قوات الفرس .. علاوة على أن على المسلمين أن يعملوا على نشر دينهم الذى يدعو إلى الرحمة والعدل والإحسان .. وأن كل مسلم مطالب أن يدعو إلى دينه الذى آمن به.. بالحكمة والموعظة الحسنة فإن قبل الناس فلهم الأمن وإذا لم يؤمنوا دفعوا الجزية مساهمة في نشر الاستقرار والسلام وإلا فالحرب . هذه هى الدعامات الأساسية التي من أجلها جمع أبو بكر رضي الله عنه هذه الجموع التي قام بتقسيمها إلى قوات أربع كل واحدة تتألف من سبعة آلاف مقاتل عين على كل واحدة قائداً وحدد له أهدافه .. والقادة وهم ..

١- عمرو بن العاص .. وأمره أن يذهب إلى فلسطين وأن يسير إليها من طريق إلياء ووادى عربة..
٢- يزيد بن أبى سفيان .. وكلفه أن يتجه إلى دمشق ماراً بالتبوكيه..
٣- شرحبيل بن حسنة .. وكلفه بالذهاب إلى الأردن وأن تكون مسيرته خلف يزيد عن طريق تبوكية..
٤- أبو عبيدة بن الجراح .. وطلب إليه أن يمضى إلى حمص وأن تكون مسيرته خلف شرحبيل عن طريق التبوكية..

أبو بكر يريد أن تبلغ رسالة الله إلى الناس لأن الإسلام دعوة عالمية وهو خاتم الأديان وأتباعه مكلفون بنشره لذلك قرر أن يغزو الشام وأن يفتح أكبر جزء منها .. ولكن ليس عنده علم عن حجم جيش الروم ولا عن تفاصيل تنظيماته وتشكيلاته .. ولكنه يدرك تماماً أن الروم يستطيعون حشد جيش كبير على أى مسرح من مسارح العمليات الحربية .. لهذا كان من توجيهاته لقادة الوحدات أن يظلوا على اتصال ببعضهم وأى واحد يحتاج إلى عون على إخوانه أن يساعدوه .. وإذا اقتضت الضرورة تجميع الوحدات الأربعة لخوض معركة كبيرة يكون (أبو عبيدة بن الجراح) هو قائد هذه الجيوش والكل يعمل تحت إدارته.

وصدرت التعليمات بالتحرك في أول صفر من العام الثالث عشر للهجرة.. وكان أول من تحرك بجنده يزيد بن أبي سفيان وقد مشى أبو بكر أكثر من ميلين وهو يودع الجند .. وقبل أن يعود إلى المدينة خطب فيهم خطبة بدأها بتوجيه النصح للقائد حيث قال له:

(إذا سرت فلا تضيق على نفسك ولا على أصحابك في مسيرك .. ولا تغضب على قومك ولا على أصحابك .. وشاورهم في الأمر .. واستعمل العدل .. وباعد عنك الظلم والجور فإن الله لا يفلح قوماً ظلموا أنفسهم .. ولا ينصرهم على عدوهم .. وإذا لقيتم القوم فلا تولوهم الأدبار .. ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير.. وإذا نصركم الله على عدوكم فلا تقتلوا ولداً ولا شيخاً ولا امرأة ولا طفلاً ولا تعقروا بهيمة إلا بهيمة المأكل ولا تغدروا إذا عاهدتم ولا تنقضوا إذا صالحتم وستمرون على قوم في الصوامع رهبان يزعمون أنهم يرهبون في الله فدعوهم ولا تهدموا صوامعهم وستجدون قوماً آخرين من حزب الشيطان وعبدة الصلبان قد حلقوا أوساط رؤوسهم حتى كأنها أناحيض الغطاء فأعملوهم بسيوفكم حتى يرجعوا إلى الإسلام أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون وقد استودعتكم الله)[1].. ذلك هو منتهى النبل من خليفة لنبي عظيم وحاكم ينفذ بعثاً لفتح بلد ويعمل على نشر الإسلام .. كان أبو بكر يقول هذا وهو يمشي أمام يزيد وكان يركب وأراد أن ينزل فرفعه الخليفة وقال لا .. لا تنزل إني سمعت رسول الله ﷺ يقول (من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمهما على النار)[2]...



سير القوات

أول من تحرك من المدينة وسار بجيشه (يزيد بن أبي سفيان) وبعده بيوم تحرك (شرحبيل بن حسنة) وبعده بيوم واحد تحرك (أبو عبيدة بن الجراح) وهذه القوات تسير وراء بعضها في خط واحد .. أما عمرو بن العاص فقد اتجه مع وحدته

---

(١) فتوح الشام للواقدي جـ٣ صـ٥.
(٢) الخراج لأبي يوسف صـ٦.

إلى إلياء فى الطريق الغربى .. وسارت القوات خلف بعضها .. والجماهير تودعها بالدعاء لله أن يكون عونهم وأن يمدهم بمدده ويوفقهم لتحقيق النصر ونشر الإسلام الذى يدعو إلى التنمية وتدعيم العدل ونشر السلام وتحقيق المساواة هذا هو الغرض الأساسى من هذه الفتوحات .. لأن الإسلام دعوة عالمية وهو أمانة فى عنق المسلمين عليهم أن يعملوا على إبلاغه إلى الناس أجمعين بالرفق والتسامح...

مناوشات

كان يزيد مع وحدته أول من تحرك .. وقد وجدوا عند (التبوكية) وحدة من العرب النصارى وكان الروم قد بعثوا بهم فى عملية استكشاف واستطلاع .. وبعد مناوشات صغيرة انسحب العرب النصارى ثم اتجه يزيد بعد ذلك إلى (وادى عربة) عند المكان الذى يلتحم فيه مع الجزء الجنوبى من (البحر الميت) فى نفس الوقت كان عمرو بن العاص قد وصل إلى (إلياء) وكان للروم قوتان تقابلت واحدة مع يزيد والأخرى مع عمرو.. كان الروم قد بعثوا بالقوتين للحيلولة دون دخول المسلمين أراضى فلسطين.. وكانت القوات فى حجم بعضها .. لذلك انتصر المسلمون وانهزم الروم .. ثم أن يزيد بعث بكتيبة تتبع فلول المنهزمين وحدد للكتيبة مكاناً وهو (داسين) وهو منطقة تبعد عن غزة بمسافة قصيرة ثم عادت الكتيبة بعد أن حققت نصراً لتنضم إلى وحدتها مع يزيد .. هذه المناوشات والاشتباكات تمت خارج الهدف الذى حدده الخليفة .. وما إن انتهت حتى تحركت الجيوش إلى الأماكن التى حددها أبو بكر رضى الله عنه.. كانت وحدة شرحبيل ووحدة أبو عبيدة قد وصلتا إلى (معان بمؤتة بعمان) وهذه المنطقة تقع بين بصرى والجابية أما يزيد فقد عسكر شرق الأردن .. وأما عمرو فقد عسكر عند وادى عربة ...

بدأ هرقل .. إمبراطور الروم فى قصره بحمص يحرك جناحيه لمقاومة المسلمين ، وبدأ يضع خططاً مدروسة لمقاومة المسلمين الذين تجرأوا على أن تطأ أقدامهم بلاده .. خاصة أنه سبق أن هزم خالد بن سعيد .. فأحس هرقل بقوته .. وإذا كان العرب قد هزموا الفرس فإنهم هنا لن يتمكنوا ، ولابد من إبادة جيش

المسلمين مهما كان .. وعلى الفور .. أصدر تعليماته بأن تتحرك الفيالق الرومانية وأن تعسكر فى (أجنادين) .. وهذا إجراء احتياطى لمواجهة المسلمين ومنعهم من دخول فلسطين أو الأردن .. كان وهو يضع هذه الخطط يشعر أن الموقف خطير جداً وبلغته أنباء الهزيمة التى حلت بالكتائب التى كان قد أرسلها لتستكشف الطريق وتتعرف على ما يجرى أمام الجيش الإسلامى .. لذلك عزم هرقل على أن يقتص من هؤلاء المعتدين وأن يرمى بهم فى الصحراء ليكونوا طعاماً للطيور .. استطاع هرقل أن يجمع عدداً كبيراً من جنود الروم فاق بكثير ما قدره المسلمون عندما فكروا فى فتح الشام .. كان على المسلمين أن يخططوا تخطيطاً دبلوماسياً قبل أن يشتبكوا مع الروم .. لذلك قام المسلمون بعقد صلات طيبة مع الأهالى المحليين ، وبهم استطاعوا أن يقيموا جهازاً قوياً للاستطلاع ومعرفة ما يجرى على الجبهة الرومانية ولما عرف المسلمون بحقيقة الموقف الرومانى أرسل قواد الألوية إلى أبى عبيدة يبلغونه خبر هذه التجمعات الرهيبة من الرومان .. وعلى الفور قرر أبو عبيدة وضع هذه القوات تحت إمرته .. لكن عمرو بن العاص كان فى الناحية الجنوبية منعزلاً وقد أرسل إلى أبى عبيدة يطلب منه العون .. فما كان من أبى عبيدة بن الجراح إلا أن بعث برسالة إلى الخليفة يشرح له فيها حقيقة الموقف ويعلمه بأن جيش الروم يتكون من مائة ألف مقاتل .. وكان التفكير بين المسلمين أن ينسحبوا لأنه بهذه الصورة تكون المعركة خاسرة .. لكن الخليفة أصر على المضى فى تنفيذ الخطة لأنه مادام المسلمون قد بدأوا فتح الشام فالواجب أن يمضوا ويثبتوا ولا يتقهقروا .. لكن الوساوس عند أبى بكر بدأت تزداد لذلك فكر فى اختيار قائد محنك له خبرته وذكاؤه وشجاعته وإقدامه .. إن أبا بكر عيّن أبا عبيدة لتولى قيادة الجيش إذا لزم الأمر ذلك .. وأبو عبيدة لا يشك أحد فى حكمته.. فضلاً عن أنه يتمتع بمكانة سامية عند المسلمين جميعاً .. وله شجاعته المعروف بها وبلاؤه فى غزوة أحد شئ معروف ويتمتع بذكاء .. لكن أبا عبيدة مع كل هذا يتسم بهدوء الطبع .. ليست لديه تجربة فى قيادة قوات مقاتلة فى معارك كبيرة إذاً لابد من اختيار قيادة أخرى .. واتجه تفكير أبا بكر إلى خالد بن الوليد فهو القائد المحنك الذكى الشجاع .. وما إن انتهى أبو بكر إلى هذا القرار حتى

أحس بأنه أزاح حملاً ثقيلاً عن كاهله وقال لمن حوله (والله لأُنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد)[1] ... وكان أبو بكر قد أرسل رسالته إلى خالد حيث تحرك خالد بنصف جيشه وكان ما جرى له فى الطريق الذي سار فيه وما لاقاه من متاعب .

وصول خالد إلى الشام

خمسة أيام قطعها خالد من العراق إلى (سوى) أقرب موقع من حدود الشام ولقد كان جيش خالد على وشك الهلاك بصورة لم يكن يتوقعونها .. وبعد أن مرت هذه الأزمة.. ظن الجنود أن خالدا سيتركهم يخلدون إلى الراحة يوما بعد هذه التجربة المريرة .. لكن بدأ خالد فى حملة تفتيش على الجند وهو يمتطى صهوة جواده ويلبس درعاً مصنوعاً من السلاسل المعدنية .. ويتمنطق بحزام من الجلد عريض يتدلى منه سيف رائع .. ويتعمم فوق خوذته بعمامة حمراء يضع تحتها قلنسوة حمراء بها خطوط سوداء .. وكانت هذه الأشياء من نصيب خالد فى حرب اليمامة من ممتلكات مسيلمة الكذاب .. لهذا كان خالد يعتز بهذه الأشياء وكان يمسك بيده لواءاً أسود .. أعطاه له النبى محمدﷺ وكان هذا اللواء يعرف باسم (العُقاب) كان خالد أثناء التفتيش عاملاً على إذكاء شعلة الحماس ورفع روح الجند المعنوية لذلك أنساهم ذكرى الساعات الرهيبة المضنية التى قضوها فى المسيرة الخطرة .. ولقد أصبحوا على أعلى درجة للتضحية خلف قائدهم المظفر وهم أشد سعادة إذا أريقت دماؤهم فى سبيل الله .. كان جيش خالد تسعة آلاف مقاتل .. لكن الواحد منهم يقدر بألف .. لأنهم ذاقوا طعم النصر فى المعارك التى خاضوها مع البطل الشجاع .. والخوف لا يعرف أى طريق يسلكه للتسرب إلى نفوسهم .. وكان من بين أفراد هذا الجيش :

١- عبد الرحمن بن خالد .. لم يتجاوز الثامنة عشر من عمره....

٢- عبد الرحمن بن أبى بكر .. شاب دون العشرين...

٣- رافع بن عميرة .. مرشد القوم أثناء المسيرة الخطرة .. وهو مقاتل رهيب..

---

(١) الطبرى جـ٣ صـ٤٠٨ .

٤- القعقاع بن عمرو .. الذى بعث به الخليفة بمفرده ليعزز به جيش خالد فى العراق .. شجاع مقدام .. بطل صبور .. متمرس صمود..

٥- ضرار بن الأزور .. شاب متحمس .. نحيل الجسم صبوح الوجه .. لا يعرف التعب ولا الكلل ولا يخمد إلى الراحة .. قام فى معارك الشام بمغامرات جريئة.. مع مهارة فائقة .. واستهانة بالخطر .. اتخذه خالد ساعده الأيمن لحركته السريعة وانضباطه التام.

هؤلاء هم القيادات الأساسية فى جيش خالد الذى تحرك ووصل إلى (سوى) وهذه المنطقة عبارة عن واحة تحيط بها منطقة عشبية كانت تستخدم لرعى الأغنام وقد حاول من فيها مقاومة جيش خالد إلا أنهم هزموا.. وتزود الجيش من هذه المنطقة وعبأ تموينه معه وتحرك إلى (أرك) وكان الروم قد أقاموا حامية من العرب النصارى تحت قيادة ضابط رومانى للدفاع عن هذا الموقع .. وقد تحصنت هذه الحامية بالحصن خاصة عندما عرفوا أن القائد هو خالد لأن شهرته فى الحرب عرف بها أهل هذه المنطقة لأنه ما قاتل أحدا إلا انتصر عليه...



عجيب

كان يعيش فى (أرك) رجل من حكماء الروم .. عندما حاصر المسلمون أرك قال هذا الحكيم لمن حوله .. من أى جهة جاء هذا الجيش؟ قالوا من البادية..قال «اقترب الوقت وحق دينى» وتعجب الناس من هذا الكلام وسألوه ماذا تعنى بهذا؟

قال لهم .. عندى (ملحمة) أى كتاب قديم فيه ذكر هؤلاء .. وأنه تتقدمهم راية تشرف على خيلهم وهى الراية المنصورة وقد دنى هلال الروم!!! ثم قال لمن حوله (إن كانت رايتهم سوداء وأميرهم عريض اللحية طويل ضخم بعيد ما بين المنكبين واسع الهيكل فى وجهه أثر جدرى .. فهو صاحب جيشهم فى الشام وعلى يديه يكون الفتح)[1].. وبدأ الناس ينظرون من الحصن فرأوا أن الصفات التى ذكرها الحكيم هى هى التى فى خالد .. لذلك استسلم قائد الحصن وتفاوضوا مع خالد بن

---
(١) فتوح الشام للواقدى جـ١ صـ٢٢.

الوليد الذى عرض عليهم إما أن يدخلوا فى الإسلام .. وإما أن يدفعوا الجزية .. فدفعوا الجزية ودهشوا عندما رأوا أنهم يتعاملون مع قوم عندهم عدل ومروءة وسعة صدر وحلم بخلاف ما كان الرومان يتعاملون معهم...



جيش الزحف

وواصل خالد رحلته حتى أصبح على مقربة من جيوش المسلمين حيث أمره الخليفة أبو بكر الصديق بالانضمام إليها ، وكان خالد قد أرسل برسول يحمل رسالة منه إلى أبي عبيدة بن الجراح، وقد وصل رسول خالد إلى أبي عبيدة الذي عرف منه أنه سيعمل تحت إمرة خالد، وأراد أبو عبيدة أن يظهر عملاً حربياً قام به ليوفر على خالد جهداً .. لذلك أصدر قراراً إلى (شرحبيل بن حسنة) صاحب لواء يعمل تحت إمرته .. وأرسله في أربعة آلالف مقاتل .. وكلفه أن يفتح (بُصرى) وهي المكان الذي اختاره خالد للاجتماع .. وأبو عبيدة لم يفتحها بعد .. رغم أنه صاحب لواء .. ومعه (يزيد بن أبي سفيان) صاحب لواء، و(شرحبيل بن حسنة) كذلك صاحب لواء .. ورغم أن هذه القوات تحت إمرته إلا أنه لم يشترك في معركة حربية أو يستولي على أي مدينة .. عسكر أبو عبيدة رضي الله عنه حول (بُصرى) التي كانت في حماية من أعداد كبيرة من جنود الروم ومن عرب النصارى الذين يعملون تحت قيادة ضباط من الروم .. علاوة على أنها (قاعدة ملك الغساسنة) .. فلما حرك أبو عبيدة لواء شر حبيل بأربعة آلاف مقاتل وجد أن المدينة محصنة .. فعسكر في غربها ثم وزع جنوده على جوانب الحصن ..

مرت أيام دون أن يحدث فيها أي حادث .. ثم بعد ذلك خرجت حامية من الحصن لتقاتل المسلمين خارجه .. وجرت مفاوضات بين شرحبيل وقائد الروم حيث تم العرض من المسلمين على الروم .. إما أن تدخلوا في الإسلام .. وإما دفع جزية .. وإما السيف .. لكن الروم اختاروا السيف .. وبدأت المعركة ..

كانت المعركة غير متكافئة لأن الروم دفعوا بأعداد كثيرة، وتحولت المعركة لصالحهم وأحاط الروم بجند المسلمين الذين أدركوا أنهم وقعوا في خطر ولا مناص من

إبادتهم وأحسوا بالدمار والخسارة في رجالهم .... فأخذوا يقاتلون بعنف شديد .. لكن الرومان نجحوا في التقدم عليهم وفرقوا جمعهم مع حصار شديد .

كان خالد على مقربة من (بُصرى) فحملت إليه الرياح أصوات المعركة.. فأمر رجاله بامتطاء صهوة جيادهم وجرى بهم ناحية أصوات المعركة .. وشاهد الرومان مقدم خيل المسلمين .. وعرفوا خالدا من هيئته وزيّه فتوقفوا عن القتال وأسرعوا عائدين إلى الحصن وأغلقوه عليهم .... أحّس جنود الإسلام الذين رأوا الموت على أسنة رماح الروم بأن ظهور خالد معجزة أنقذتهم من الهلاك..كان خالد يدير بصره في جند الروم وجند المسلمين.. فرأى أن جند الروم يتفوق عددا وعُدة على جنود المسلمين..لذلك وجه خالد عتاباً إلى شرحبيل.. وقال له أما علمت يا شرحبيل أن هذه هي مدينة الشام والعراق وفيها عساكر الروم وبطارقهم.. فكيف غررت بنفسك وبمن معك من المسلمين .. فرد شرحبيل قائلاً .. يا خالد .. كله بأمر أبو عبيدة .. فقال خالد .. أما أبو عبيدة فإنه رجل خالص النية وليس عنده غائلة الحرب ولا يعلم بموقفها [1]...

معرفة قديمة

كان شرحبيل في منتصف الستين من العمر .. وهو من الأتقياء الأنقياء.. كان من الصحابة المقربين إلى رسول الله ﷺ وهو واحد ممن كتبوا الوحي .. وكان يلقب (بكاتب رسول الله ﷺ) وكان الناس ينادونه بهذا اللقب كثيراً .. كان شجاعاً مقداماً.. أما من حيث كفاءته الحربية فقد كان قائداً ماهراً تعلم الكثير من فنون الحرب على يد خالد بن الوليد .. فلقد كان يعمل تحت قيادته في حرب اليمامة وفي حملة العراق .. فخالد يعرفه تماماً ويعرف شجاعته وبسالته .. إلاّ أن الكثرة تغلب القلّة في حالة التطويق .. وكان جيش الروم قد طوّق لواء شرحبيل.. لذلك كان هذا العتاب الخفيف الذي يكون بين القائد ورجاله الذين يقدر مواهبهم .. والحمد لله نجا جيش الإسلام بفضل الله ومعونته ...

---

(١) فتوح الشام للواقدي جـ١ صـ٢٥ .



مواجهة أخرى

فرح جيش الروم بما حقق مـن نصـر أمـس .. واسـتطاع ضبـاط الـروم أن يخففـوا أثـر الصدمة في نفوس الجند من مقدم خالد .. ثم رفهوا عن جنودهـم وقدمـوا لهـم الطعـام الشهي .. وقال ضباط الـروم للجنـد .. إن باسـتطاعتنا أن نلحـق هزيمـة بالمسـلمين .. لأنهم لم يأخذوا قسـطا مـن الراحـة .. وهـم متعبـون بسـبب سـيرهم الأيـام والليـالي الطويلة وعلينا أن نقابلهم غدا لنقضي عليهم .. واستعدوا للقتال في الصباح .. هذا مـا كان يجري داخل الحصن .. أما في الخارج .. فقد كـان خـالد يـهيئ جيشـه للمعركـة ونسى موعده مع أبي عبيدة .. لأن طبيعة خالد أن يأخذ بزمام المبادرة .. وقسم خـالد جيشه إلى ثلاثة أولوية .. وعين ..

١- رافع بن عميرة قائدا على ميمنة الجيش ...

٢- ضرار بن الأزور قائدا على ميسرة الجيش ...

٣- احتفظ خالد لنفسه بقلب الجيش ...

٤- وضع أمام القلب كتيبة صغيرة على رأسها عبد الرحمن بن أبي بكر ...

خرجت كتائب جيش الروم من الحصن في الصباح وفوجئوا علـى أنـهم كـانوا على خطأ لجهلهم بمعرفة أحوال جنود الإسلام الذين لم يعتادوا على الراحة ماداموا في حالة قتال ...

المقاتل العاري

بدأت المعركة في الصباح بالمبارزة .. حيث تقدم قائد جيش الروم وطلب المبارزة فـبرز إليه عبد الرحمن بن أبي بكر الذي لم يتجاوز العشرين من عمره .. فنظر إليه القـائد باستخفاف ونسى هذا القائد أن الشاعر العربي قديما قال ..

ترى الرجل النحيف فتزدريـه ∴ وفي أثـوابـه أسـد هصـور

وقول الآخر : إذا بلـغ الرضـيع لنـا فطيمـا ∴ تخر لـه الجبـابر سـاجدينا

وانتهت المبارزة بأن القائد فر من أمام الشاب محـاولا النجـاة بنفسـه وقـد انـدس في صفـوف جنـد الـروم الأمـر الـذي رفـع مـن معنويـات المسـلمين وأوجـد خلخلـة

وبلبلة في صفوف جند الروم .. وكان يوم المعركة شديد الحـرارة .. وأمـر خـالد بشن هجوم على طول الجبهة وأبدى الروم مقاومة باسلة .. ولكن .. فجـأة .. خلـع ضـرار بن الأوزر قميصه وأصبح عـاري النصـف الأعلـى ممـا أتـاح لـه حركـة رائعـة وخفـة ومهارة وشنّ الهجمة وراء الهجمة وهو على هذه الهيئة وقضى على كـل مـن تعـرض له الأمر الذي سـاعد المسـلمين علـى التقدم فانسـحب جيـش الـروم ثانيـة إلى داخـل الحصن.. وقد انتشرت بعد ذلـك قصـص كثـيرة عـن (البطـل العـاري) وذاعـت هـذه القصص في كل أنحاء الشام ...

مواجهة

كان خالد لم يلتق بأبي عبيدة حتى هذه اللحظة التي انسـحب فيـها جيـش الـروم إلى داخل الحصن .. وكان خالد يقاتل راجلاً يتقدم الجيـش .. وقـد اسـتدار في موقـف إلى الخلف ليعطي أوامره بفرض الحصار علـى الحصـن .. فتقـدم منـه شـخص خـرج مـن صفوف المسلمين .. وهو فارس ملثم .. طويل القامة نحيل الجسـم في أوائـل الخمسـين من عمره يظهر عليه أثـر انحنائـه بسـيطة في ظـهره .. نحيـل الوجـه عينـاه تشـعان بالرقة والذكاء .. لحية صغيرة .. تقاطيعه جميلة تجذب إليه من يراه .. يحمل بيده علماً أصفر اللون .. ولا يحمله إلا قائد جيش .. وهذا العلم كان الرسول ﷺ دفـع بـه إليه في غزوة خيبر .. عليه درع لم يكن يخفي ما تحته من ملابس بسـيطة .. اقـترب هذا الشخص من خالد وحيَّاه وتبسَّم له فلاحظ خالد أن في أسنانه فرجة .. ولمـا خطـى إلى خالد أحسَّ خالد بخوف يسـري في جسـده لأن هـذا الشـخص عليـه سمـات الجـد ومخايل النجابة ويبدو عليه أنه قائد عظيم ورجع خالد بفكره إلى الوراء فإن الفرجـة في أسنان هذا الإنسان كان يتميز بها أبو عبيدة ابن الجراح .. فقدْ فَقدَ ثنيّتيـه عندمـا شد بأسنانه حلقتي الحديد اللتين كانتا بخوذة النبي ﷺ وانغرستا في خده الكريـم في غزوة أحد .. وكان من المتواتر أنه (ما رؤى أهتم كان أحسن من أبي عبيدة)[1] ...

---

(١) ابن قتيبة صـ١٠٩ .

عرف خالد أن الذي أمامه (هو أبو عبيدة بن الجراح) .. كان خالد يحب أبا عبيدة لفضائله وتقواه .. ولأنه أحد العشرة المبشرين بالجنة .. ولأنه أمين هذه الأمة .. فكان خالد يُكّن الحب والتقدير والاحترام لأبى عبيدة .. كان أبو عبيدة نفسه يكن الحب لخالد لمحبة الرسولﷺ له .. وفي رأي أبى عبيدة أن الله اختار خالد ليسحق به الشرك .. لذلك لما التقيا ذهب الخوف من خالد وسرى في نفسه شعور بالطمأنينة عندما رأى الابتسامة مرتسمة على وجه أبى عبيدة .. كان خالد يقف على رجليه وأبو عبيدة على صهوة جواده فهَّم بالنزول من على فرسه لكن خالدا أسرع إليه وطالبه بعدم النزول وشَّد على يده مصافحاً ... قال أبو عبيدة لخالد .. يا أبا سليمان .. لقد فرحت بكتاب أبى بكر الصديق حين قدمك على وأمّرك على .. وما أخذت في قلبي عليك .. لأني أعلم مواقفك في الحرب .. فرد عليه خالد بقوله .. والله.. لا فعلت أمراً إلا بمشورتك .. ووالله لولا أمر الإمام طاعة لما فعلت ذلك أبداً لأنك أقدم مني في دين الإسلام .. وأنت صاحب رسول الله ﷺ وأنت قال فيك رسول الله ﷺ (لكل أمة أمين .. وأمين هذه الأمة أبو عبيدة)[1]

بهذا اللقاء على أرض المعركة وفي لحظات رهيبة تم تبادل القيادة وتعارف القائدان ونزل الأمين عن الإمارة لسيف الله طاعة للحاكم العام ولصالح المسلمين العام.. روح طيبة .. وثقة متبادلة .. وياليت الناس يعملون بهذه الروح ليكون الخير والأمان للبشرية كلها .



قام المسلمون بفرض الحصار على (بُصرى) .. ووصلت الأخبار إلى قائد الروم أنه صدرت تعليمات عليا لجميع قوات الروم بالتحرك إلى (أجنادين) .. لذلك فقد كل أمل في مدد يصله .. ومضت أيام لم يحدث خلالها أي نشاط .. كان مَنّ بداخل الحصن يثق في أنه لا قدرة له مع جنوده المحاصرين في مواجهة المسلمين بعد أن فقد الثقة في أي عون يصل إليه .. لذلك رفع الراية البيضاء وأعلن الاستسلام وعرض المسلمون شروطهم

(١) يراجع المصدر السابق وفتوح الشام للواقدى جـ١ صـ٣٤ .

إما الإسلام .. وإما الجزية .. فوافقوا على دفع الجزية.. وقد خسر المسلمون في هذه المعركة مائة وثلاثين رجلاً .. أما خسائر الروم وعرب النصارى فليست بمعروفة .. وكتب خالد لأبي بكر يخبره بالعمليات التي أداها والانتصارات التي حققها منذ أن دخل الشام .. وما تم في لقائه مع أبى عبيدة .. كما بعث بخمس الغنائم ...

بدأ خالد يخطط من جديد .. فأرسل برسول إلى عمرو بن العاص وكان قد عسكر بوادي عربة .. كما أرسل إلى يزيد بن أبي سفيان الذي كان يعسكر جنوب نهر اليرموك .. كما كتب إلى جميع القواد الذين كانوا يُؤَمِّنُون الطريق ليسارعوا بالتوجه إلى (أجنادين) للاستعداد للحملة الفاصلة والموقعة الخطيرة .. لأن الروم جمعوا هناك أكثر من تسعين ألف مقاتل .. ولا يفل الحديد إلاّ الحديد .. وفعلاً بدأت القوات الإسلامية تتحرك وتزحف إلى ...



أجنادين

كل ما قدمناه تم في أوائل العام الثالث عشر الهجري .. حتى إذا كان منتصف شهر جمادى الأول من نفس العام تحرك خالد بجيشه من (بُصرى) متوجهاً إلى أجنادين.. وقد ترك خالد للجيش أن يلبس ما يشاء ويتحرك في مشيته كما يشاء.. لذلك صار الجيش على غير نظام وكان بعض الجند يلبس الملابس الفارسية والبعض يلبس الملابس الرومانية والبعض يلبس الملابس العربية .. كما أنه ليست هناك شارة تميز هذا عن ذاك .. ومع كل واحد السلاح الذي يحارب به وهم مهرة فيحاربون بأي سلاح حتى الخنجر .. والذي يتطلع إلى هذا الجيش يجد أنه يتحرك تحرك القوافل التجارية .. ولكن الذي يميزه أنه كان يتقدمه فرقة استطلاعية وكتيبة في المؤخرة للحراسة .. كما كانوا يجرّون ورائهم المواد التموينية وكانت عبارة عن التمر والماء — وبعض الدهن واللحوم لأنه لا توجد أي مخازن أو مستودعات لحفظ المواد التموينية.. وقد صار هذا الجيش بهذه الصورة شمال البحر الميت .. كما أن قوات عمرو بن العاص تحركت هى الأخرى إلى أجنادين إتباعاً لأوامر خالد .. وهذا الجيش بلا شك قد مر على (جرس وأريحة) ثم عبر تلال (جوديا) التي تمتد جنوبي بيت المقدس

وقد تفادى خالد بيت المقدس لعلمه أن هناك حامية قوية من الرومان تقوم على حراسة هذه المنطقة.. وهذا الطريق قد سبب لجيش المسلمين كثيراً من العناء حيث أصبح يتألف من اثنين وثلاثين ألف مقاتل .. وعندما التقى عمرو بخالد بدت عليه أمارات الفرح والسرور لأن مقدمه هذا أزال من صدره حالات القلق التي كان يشعر بها .. وهذا ناتج من توقع عمرو أن ينقض عليه الروم الذين احتشدوا بأجنادين في أي لحظة .. وعسكر المسلمون على بعد ميل واحد من معسكر الروم الذي كان يزيد في حجمه عن معسكر المسلمين .. وأصبح الجيشان في خطين متوازيين متقابلين.. والمسلمون استغرقوا أسبوعاً واحداً في حشد جنودهم بأجنادين ...

أما الروم فقد قضوا مدة طويلة لإعداد الجيش وتجهيز المؤن التي يحتاجها وتوزيع الأسلحة على الجنود .. وكان الروم يحاولون تطويل المدة حتى قيل بأنها زادت عن شهرين استطاع الروم خلال هذه الفترة أن يحشدوا جيشاً من تسعين ألف مقاتل .. ووضعوا هذه العدد تحت إمرة القائد (وردان) حاكم حمص.. وكان يساعده في أمور القيادة قائد آخر هو (القبلقان) ...

من المعرف عن خالد أنه كان دائما في المواقع الحربية يجعل البادية خلفه حتى إذا كان لا قدر الله أي شئ استطاع أن يرد الجيش إلى البادية .. لكنه في هذه المرة توغل في منطقة خصبة آهلة بالسكان .. وقد كان من المعلوم استراتيجياً لجيش خالد أنهم يعبرون المنطقة الشرقية أو الجنوبية للأردن ويخوضون المعركة وظهورهم إلى البادية ليتسنى لهم أن ينسحبوا إليها .. لكن خالداً عدَّل من خطته لأنه استهان بجيش الروم الذي يزيد في عدده عن عدد المسلمين ثلاث مرات .. ولديهم من الإمكانات والمؤن الكثير .. لكن هذه طبيعة خالد .. الذي كان ميدان القتال يجذبه إليه كما يجذب المغناطيس الحديد .. وقد أثبتت الأيام أن خالدا كان على حق في قراره بالذهاب إلى أجنادين وبتغيير خطته الاستراتيجية التي كان ينفذها في كل حروبه .. كان الجيش الإسلامي ينظر إلى معسكر الروم الرهيب.. وقد شكل الطرفان قوة حراسة لجيشه .. كما أقام كل جيش مراكز أمامية لتفادي حدوث أي مفاجأة .. كان في جند المسلمين ممن لم يدخل في معارك قتالية من قبل ولا معرفة عندهم بقيادة

خالد .. فأصيبوا بالهلع والفزع والخوف.. أما الرجال الذين حاربوا مع خالد أو حاربوا في جيوش منتظمة فهم كذلك لم يروا جيشا كبيرا بهذا العدد .. لذلك أسرع إليهم خالد وخطب فيهم قائلا (إعلموا أنكم لستم ترون للروم جيشا مثل هذا اليوم .. فإن هزمهم الله على أيديكم فلن يقوم لهم بعدها قائمة أبدا .. فاصدقوا في الجهاد وعليكم بنصر دينكم وإياكم أن تولوا الأدبار فيعقبكم ذلك دخول النار وأقرنوا المواكب ومكنوا المضارب ولا تحملوا حتى آمركم بالحملة وأيقظوا هممكم)[1] ... وكان لشخصية خالد القائد أثرها الطيب .. وكان لإقدامه في الحرب وعدله في توزيع الغنائم ثقة الجند الذين ارتفعت روحهم المعنوية وعبروا عن سعادتهم بالتكبير دليل الاستجابة لما قال...

في معسكر الروم عقد القائد (وردان) مجلس حرب وفيه قال لقواده (يا بني الأصفر اعلموا أن الملك يعول عليكم فإذا انكسرتم لا تقوم لكم بعدها قائمة أبدا وتملك العرب بلادكم وسبوا حريمكم فعليكم بالصبر ولتكن حملتكم واحدة ولا تتفرقوا وأعلموا أن كل ثلاثة منا بواحد منهم واستعينوا بالصليب ينصركم)[2] قبل أن تبدأ المعركة بأيام قرر خالد أن يبعث بأحد الرجال البواسل ليستطلع بنفسه أخبار معسكر الروم كجزء من الاستعدادات التي يعدها لخوض المعركة وكلف خالد ضرار بن الأزور ليقوم بهذه المهمة .. وبدأ ضرار في تعرية نصف جسده الأعلى ... وانطلق حتى اقترب من معسكر الروم ثم اعتلي تلا صغيرا وشاهد معسكر الروم وتعرف على بعض ما يجري فيه ..وقد عرف بموقعه بعض قيادات الروم "فأرسلوا إليه بثلاثين فارسا يبغون الإمساك به واعتقاله ... ولكن ضرارا استدار بوجهه ناحية معسكر المسلمين .. وبدأ يخب بفرسه وكلما اقترب الفرسان منه يزيد من سرعته .. وكان غرضه من هذه الحركة إبعاد فرسان الروم عن معسكرهم حتى لا يلحق بهم أحد لإنقاذهم منه.. وبعد مسافة استدار بوجهه ورمى برمحه أقرب شخص إليه .. وبعد ان راح يهاجم الآخرين بصورة قصد بها أن يواجه في كل هجمة له واحدا فقط ... ولقد

---

(١) فتوح الشام للواقدى جـ١ صـ٤٩ .

(٢) المصدر السابق .

استطاع بهذه الحركة الرائعة أن يجندل تسعة عشر رجلا أما الباقي من الثلاثين ففروا عائدين إلى معسكرهم وهم يتحدثون عن البطل العاري المخيف عاد ضرار إلى معسكر المسلمين فاستقبلوه بالفرح والسرور وهنؤه بالفوز الساحق ... أما خالد فقد عنفه لأنه اشتبك مع العدو في قتال في حين أنه مكلف بمهمة استطلاعية ليتمكن خالد من رسم الخطة ...فكان رد ضرار أنه كان يطمع في رضا القائد عنه رغم أنه قام بالمهمة فقد قتل هذا العدد.. هذا ما حدث في معسكر المسلمين .. أما معسكر الروم فقد قام القائد (القبقلان) بإرسال أحد العرب النصارى ليندس في جيش المسلمين ويتعرف على ما يجري هناك من أخبار .. وأمره أن يجمع معلومات عن العدد والعدة لجيش المسلمين.. ولم يجد هذا العربي مشقة في الدخول إلى جيش المسلمين حيث ظن المسلمون أنه واحد منهم وبعد أن جمع هذا الأعرابي المعلومات ذهب إلى معسكر الروم حيث التقى بقائده (قبقلان) واخبره عن جيش المسلمين بقوله (بالليل رهبان وبالنهار فرسان ولو سرق ابن ملكهم قطعوا يده ولو زنا رجم لإقامة الحد فيهم) .. قال له القبقلان (لئن كنت صدقتني لبطن الأرض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها ولو ددت أن حظي من الله أن يخلي بيني وبينهم فلا ينصرهم علي ولا ينصرني عليهم)[1]

بعد أداء صلاة فجر يوم من الأيام أمر خالد جيشه بالتحرك إلى مواقع القتال.. وكان قد شرح لهم في اليوم الماضي خطته وحدد لكل كتيبة موقعها .. وكانت الخطة تقضي وضع الجيش على طول الجبهة في اتجاه الغرب وقسم خالد جيشه كما هو المعتاد إلى.

١- ميمنة عليها عبد الرحمن بن أبي بكر..

٢- ميسرة عليها سعيد بن عامر .. والميسرة كلها تحت إمرة شرحبيل ..

ووضع خلف قلب الجيش أربعة آلاف بقيادة يزيد حيث كان قائد القلب معاذ بن جبل .. أما خالد فكان في قلب القلب .. وقد استبقي بعض المجموعات من الجند كلفهم بمهمات خاصة أوكلها إلى عمرو بن العاص وضرار ورافع وعبد الله بن عمر..

(١) تاريخ الطبري جـ٣ صـ٤١٨ .

هكذا استعد الجيش الإسلامي بتخطيط دقيق ليحتل طول الجبهة التي تزيد عن خمسة أميال .. أما جند الروم فعندما شاهدوا هذه التحركات بدأوا على الفور يشكلون الجيش من قلب وجناحين مع استبقاء مجموعة من جيشهم لتطويق المسلمين في حصار يكون سببا في القضاء عليهم .. وكان الروم أغبياء لأن خالدا سبقهم إلى هذا الفكر وابقى مجموعة فيها الفارس العاري الذي أصبح مثار خوف ورعب لكل جيش الروم ...

ركب خالد فرسه وراح يفتش على وحداته ويبث الحماس بين الجنود ويطلب إليهم أن يقاتلوا بشجاعة لأن الله اشترى منهم أنفسهم بجنة عرضها السموات والأرض .. وأن الله وعد المجاهدين في سبيله إما .. بالنصر "وإما بالشهادة " وكلاهما حلو وعظيم .. ولينصرن الله من ينصره .. ثم أمرهم أن يرموا سهامهم ونبلهم على العدو كأنه من قوس واحد لتنطلق ناحيتهم كما ينطلق الجراد.. وبعد أن تحدث القائد إلى جنده توجه إلى خيام النساء وطلب منهن أن كل واحدة تكون على يقظة وأن تعد نفسها للدفاع عن نفسها وأخواتها إذا نجح الروم في اختراق جبهة المسلمين وقبل بدء المعركة بلحظات خرج أحد الكهنة الكهول من بين صفوف جيش الروم وعلى رأسه قلنسوة سوداء ووقف في منتصف المسافة بين الفريقين ونادي بلغة عربية سليمة وقال .. أين المقدم منكم فليخاطبني وليخرج إلى وعليه الأمان .. فخرج إليه خالد .. وسأله القس.. أنتَ أمير القوم؟ فقال خالد .. كذلك يزعمون ما دمت على طاعة الله وسنة رسوله وإن أنا غيرت أو بدلت فلا أمارة لي عليهم ولا طاعة .. أطرق القس برهة ثم قال لخالد ..بهذا نصرتم علينا !! ثم قال القس .. إعلم يا خالد أنك تتوسط بلاداً ما جسر ملك من الملوك أن يتعرض لها ولا يدخلها .. وإن الفرس دخلوا ورجعوا خائبين وأن (البراتعك) أتوها وأفنوا أنفسهم عليها ولم يبلغوا ما يريدون.. ولكنكم أنتم نُصرتم علينا .. وان النصر لا يدوم لكم .. وصاحبي وردان قد أشفق عليكم وبعثني إليكم .. وقال أنه يعطى لكل واحد منكم دينارا وثوبا وعمامة ولك أنت مائة دينار ومائة ثوب ومائة عمامة وأرحل عنا بجيشكم فإن جيشنا على عدد الذر ولا تظن أن هؤلاء مثل ما لقيت من جموعنا فإن الملك ما أنفذ في هذا الجيش إلاّ عظماء

البطارقة والأساقفة [1] .. لقد تعجب خالد من هذا العرض وقال له .. عرضت علي.. فاسمع عرضي .. جئتكم لتختاروا واحدا من ثلاث :

١- إما أن تدخلوا في ديننا وهو الإسلام ..

٢- فإن لم تدخلوا في الإسلام فادفعوا الجزية ..

٣- فإن لم تدفعوا الجزية فالحرب بيننا وبينكم ..

وأما ما ذكرت من أنكم عدد الذر فإن الله تعالى قد وعدنا النصر على لسان محمد ﷺ وأنزل ذلك في كتابه العزيز .. واما ما ذكرت من أن صاحبكم يعطي كل واحد منا دينارا وعمامة وثوبا .. فعن قريب إنشاء الله نرى ثيابكم وبلادكم وعمائمكم كل ذلك في ملكنا وبأيدينا .. وعاد القس إلى قائده يحمل رد خالد .. لذلك غضب القائد الروماني وأقسم أن يسحق جيش المسلمين بضربة قاضية ..

أمر وردان قائد الجيش الروماني مجموعة من رماة النبل والمقاليع أن يصطفوا أمام جبهتهم على بعد يستطيعون أن يصوبوا نبالهم ويصيبوا بمقالعهم المسلمين .. فلما رأى معاذ ذلك قائد قلب المسلمين أمر رجاله بالهجوم .. وكان غرضه من ذلك أن يتحاشى نبل الروم لأن أقواسهم الجيدة كانت تستطيع أن ترمي نبلها إلى أبعد مما يصل إليه نبل المسلمين .. علاوة على أنه ليس لدى المسلمين ما يصدون به مقالعهم .. فكان من رأي معاذ أن يقترب جند المسلمين من جند الروم ويقاتلوهم .. لكن خالدا قال لا .. وأمر الجند أن يقفوا مكانهم .. لأنه خاف على رجاله من هذه المغامرة .. وحتى لا يصاب بنكسة عن طريق شن هجوم لم يئن أوانه ضد فيالق الروم والمنظمة بدقة وانضباط .. وبرر خالد موقفه هذا بقوله .. (مهلا يا معاذ حتى أوصي الناس وأقترب خالد من الصفوف ورتبها وقال للرجال.. إعلموا أن هؤلاء أضعافكم فطاولوهم إلى وقت العصر [2] ...

بعدما يقرب من ساعتين بدا الروم في رمي نبالهم والقذف من مقالعهم وبهذا بدأت المرحلة الأولى من المعركة .. وكانت في غير صالح المسلمين .. ذلك لأن الروم

---

(١) فتوح الشام للواقدي جـ١ صـ٥١ .

(٢) المصدر السابق صـ٥٢ .

بدأوا رميهم بالنبل والمقالع .. والمسلمون عجزوا عن مواجهة الروم بمثل ما واجهوهم به وكان من رأي المسلمين أن يهجموا على الروم بالسيف والرمح .. لكن خالدا منعهم من فعل ذلك .. وعندما رأى ضرار بن الأزور أن عددا كبيرا من المسلمين قتل وجرح دخل إلى الصفوف الأمامية مسرعا وقال لخالد .. (ما لنا والوقوف والحق سبحانه وتعالى قد تجلى علينا .. وحتى لا يظن أعداء الله أننا فشلنا عنهم وجزعنا.. فأمرنا بالحملة حتى نحمل معك .. ولم يكن أمام خالد بد من أن يعطي الأمر لأبطال المسلمين بالدخول إلى حومة القتال ومبارزة الروم .. وقال خالد لضرار .. أنت لها .. لذلك صاح بأعلى صوته (أنا الموت الأصغر .. أنا ضرار بن الأزور .. أنا صاحبكم .. أنا قاتل همدان بن وردان .. أنا البلاء المتسلط عليكم وعلى من أشرك بالرحمن)[1] ...

بدأ بعض أبطال الروم يتقدمون إلى ضرار .. عندئذ خلع ثوبه على عجل فعلم الروم أنهم أمام البطل العاري .. وقد أسرع برمي نبله فأصاب قائدين .. أحدهما حاكم عمان والثاني حاكم طبرية .. ولقد انبرى بعد ذلك عشرة من ضباط جيش الروم فأشار ضرار إلى عشرة من أصدقائه الأقوياء ركبوا خيولهم بسرعة ومعه قتلوا العشرة من الروم .. وكان جيش المسلمين قد دب فيه الحماس من جديد فازداد عنف المبارزة وحدث الاشتباك بالأيدي وتقدمت جبهة المسلمين إلى الأمام وبدأت معركة حامية عنيفة اشتبك فيها الطرفان من قرب وبعد أن أحسَّ الجند من الطرفين بالتعب والإجهاد .. عاد كل فريق إلى خطه الأمامي ..

في أول النهار كانت المعركة في غير صالح المسلمين وقتل منهم الكثير وعندما تراجع الجيشان كانت خسائر الروم مذهلة لأن من سقط منهم فوق أرض المعركة أضعاف أضعاف المسلمين .. صعق وردان قائد جيش الروم لهذه النتيجة الغير متوقعة وعقد مجلس الحرب وفيه أعرب عن عدم ارتياحه لسير المعركة والنتيجة التي انتهت إليها .. وبدأ وردان مع رجاله يقسمون بالأيمانات المغلظة أن ينتقموا من المسلمين .. لكن كيف ؟ .. هنا اقترح أحدهم بتدبير مؤامرة لقتل قائد المسلمين ! ! لكن كيف ؟.. قال (لوردان) .. تخرج أنت بنفسك في الصباح لتعرض الصلح على

---

(١) نفس المصدر السابق .

المسلمين وتحدد أن يخرج إليك خالد وحده لتبحث معه شروط الصلح .. ولما يقترب خالد منك ويشتبك معك في صراع وعند إشارة معينة منك يهجم عشرة من الضباط يكونون مختفين عن الأعين وينقضون على قائد المسلمين ليطعنونه بسيوفهم .. فرح وردان بهذه الخطة وفكر كيف يرسل في استدعاء خالد .. فاختار وردان رجلا عربيا أسمه (داود) وكلفه بأن يذهب إلى خالد ليبلغه بأن الروم يطلبون وقف الحرب في غد وأن وردان سيخرج منفردا لعمل صلح مع خالد فزع داود من هذا التكليف لكنه لا بد أن ينفذ حتى لا يظن به الظنون .. واتجه فعلا إلى جيش المسلمين وطلب الإذن بمقابلة خالد الذي أفسح له مكانا واستقبله .. وأحس داود برعشة وخوف لأن خالدا فاره القامة قوى العضلات ملئ الجسم وكانت القسوة تظهر على قسمات وجهه الصارم الذي لفحته الشمس بنيرانها وأثرت فيه الحروب .. لذلك عندما رأى داود خالدا قال "أنا لست من رجال الحرب ولكني رسول أحمل رسالة من قائد الروم .. وطلب منه خالد أن يبلغ الرسالة ..

وقال له استعمل الصدق تنج .. فمن صدق نجا ومن كذب هلك .. قال العربي المستنصر (إن أميرنا وردان كاره لسفك الدماء ولا يريد حربكم .. لأنه نظر إلى من قتل من جماعته فكره أن يحاربكم .. وقد رأى أن يدفع لكم مالا ليحقن دماء الناس .. لكن بشرط .. أن يكون بينك وبينه كتاب .. على أن تقطع الحرب بقية يومك .. فإذا أصبحت فاخرج بنفسك ولا يكون معك أحد ويخرج هو أيضا منفردا فتنظرون ما تتفقون عليه عسى أن تحقن دماء الناس بيننا وبينكم) رد عليه خالد قائلا (إن كان ما أخبر به صاحبكم يريد به حيلة أو مكيدة فنحن والله جرثومة الخداع ، وما مثلنا يؤتي بحيلة ولا بخديعة .. فإن كان ذلك في ضميره واعتقاده فما هو إلا قرب أجله وهلاك جموعكم والانفصال بيننا وبينكم وإن كان ذلك حقا من قوله فلست أصالحه إلا إذا أدى الجزية عن جماعته وأما المال فلست براغب فيه إلا على ما ذكرته لكم وعن قريب نأخذ أموالكم ونملك بلادكم) [1] ...

---

(١) فتوح الشام للواقدى جـ١ صـ٥٦ .

قال خالد هذه الكلمات بيقين وإيمان .. وكان لها تأثير عميق في صدر داود .. الذي هم بالرجوع إلى قائده لكنه .. عنده إحساس نفسي ويقين بأن النصر للمسلمين .. لذلك بدأ صراع نفسي في داخل أعماقه وعنده شعور يدفعه بالرغبة في عودته .. إلى خالد ليعترف له بالحقيقة .. إنه يشعر بأن خالدا يتحدث عن مقدرة وعنده أمل وثقة.. أما خالد فقد وقف في مكانه يحُس إحساسا داخلياً بأن هذا العرض وراءه مكيدة .. وكان يرمق الرجل بنظراته .. ودهش خالد لأنه رأى داود يرجع إليه وبدأ يهمس في أذنه بتفاصيل المكيدة وحدد له المكان الذي سيختبئ فيه ضباط الجيش الذين سينقضون عليه عند اللقاء .. أعطى خالد الأمان لداود ولأهله وعليه أن يعود إلى وردان ليخبره برد خالد وأنه موافق على هذا الاقتراح.. واغتبط وردان لذلك وفرح ضباطه ..

إفساد الخطة

اجتمع خالد بأبي عبيدة بن الجراح وعرض عليه عرض الروم وأخبره برسالة داود السَّرية .. وعقب خالد بعد ذلك بقوله .. سأذهب بمفردي .. وأنا لهم .. لكن أبا عبيدة اعترض على هذا الرأي وهو يدرك تماما أن خالدا توّاق إلى المغامرة لكن ليس في مثل هذه المواقف .. وطلب أبو عبيدة من خالد أن يعدل عن رأيه .. واقترح أبو عبيدة أن يبعث بعشرة رجال ليعترضوا طريق العشرة ضباط الرومانيين ويقتلوهم عند ظهورهم .. وقد عيّن رئيسا لهؤلاء ضرار بين الأزور / وكان هو الآخر محبا للمغامرة.. لذلك طلب من خالد أن يسمح لهم بالتحرك في جنح الظلام حتى لا يشعر العدو بهم .. ووافق خالد على أن يتحركوا في منتصف الليل.

في صباح اليوم التالي خرج وردان في أحلى هيئة وقد وضع على صدره القلائد والجواهر وعلى رأسه تاج وقد تمنطق بسيف مرصّع بالأحجار الكريمة وفوجئ بخالد يقف أمامه في المكان .. وبدأ وردان حديثه محاولا أن يلقي الفزع في نفس خالد قائلا.. أن العرب لا يعرفون الحالة البيئية التي نعيش فيها فأنتم أيها العرب في بلادكم تموتون جوعا فبلادكم مصابة بالقحط وليست عندكم كفاءة في الحرب وقد أخطأتم الطريق إلينا .. فرد عليه خالد بعنف وحدة قائلا (يا كلب النصرانية إن الله عز وجل

أغنانا عن صدقاتكم وأموالكم وجعل أموالكم نتقاسمها بيننا .. إلاّ أن تقولوا (لا إله إلاّ الله محمد رسول الله) وإن أبيتم فادفعوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون وإن أبيتم فالحرب بيننا وبينكم)[1] .. قفز وردان بلا مقدمات وأمسك بتلابيب خالد وراح ينادي على الجنود العشرة ليسارعوا إلى نجدته فلم يجبه أحد لأن ضرارا ورفاقه قاموا بأداء المهمة وقتلوا الجنود العشرة وأخذوا أسلحتهم ودروعهم .. وضرار لبس ملابس أحد الضباط وبعد أن أنهى مهمته بدقة وانضباط أدى مع رفاقه العشرة صلاة الفجر وانتظروا نداء القائد الروماني لهم .. فلما صاح القائد مرة وأخرى لم يسمعه أحد وفي الثالثة سمعوه فأسرعوا بالخروج .. ورآهم خالد ففزع وخشى أن يكون ضرار مع زملائه قد أصابهم مكروه . لكن بدأ ضرار في خلع الملابس ورميها وأصبح عاري النصف من جسده وأدرك وردان أن هؤلاء من المسلمين لذلك ترك خالدا وتراجع إلى الخلف فاستقبله ضرار بسيفه واستنجد وردان بخالد قائلا (سألتك بحق معبودك أن تقتلني أنت بيدك ولا تدع هذا الشيطان يقتلني)[2] .. أشار خالد لضرار بإطاحة رأس هذا الخائن .. فقام ضرار بالتنفيذ ولما علم جيش الروم بما أصاب قائده أحسَ بضربة قاضية وقد أدي ذلك إلى ضعف الروح المعنوية مع ظهور الهرج والمرج في صفوف الجند.. لذلك أمر خالد بشن هجوم عام .. تولى قيادة جيش الروم (القبقلان) ودارت معركة عنيفة .. واشتدت حدة القتال .. وحمي الوطيس .. وصمد الجيشان أمام بعضهما حتى بلغ الجهد مبلغه في صفوف الجيشين .. عندئذ أعطى خالد الإشارة للقوات الاحتياطية التي كان يقودها عمرو بن العاص وضرار ورافع وعبد الله بن عمر.. وكانت هذه القوات تتألف من أربعة آلاف مقاتل .. وبنزولهم إلى ميدان المعركة استطاع المسلمون أن يفتحوا ثغرات في صفوف جيش الروم حتى وصلوا إلى مكان القيادة وقتلوا (القبقلان) الذي كان قد طلب أن تلف رأسه بقطعة من القماش لأنه كما يقول الطبري لم يكن يتوق أن يرى حدوث مذبحة مثل هذه [3] .. وبموت

(١) فتوح الشام للواقدى جـ١ صـ٥٨ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) الطبرى جـ٣ صـ٤١٨ .

القبقلان ضعفت مقاومة الروم وفروا من ميدان القتال وتعقبهم المسلمون حيث فروا إلى جهات ثلاث:

١- اتجهت مجموعة إلى غزة ..

٢- اتجهت مجموعة إلى يافا..

٣- اتجهت مجموعة إلى بيت المقدس..

وبعث خالد بفرسانه يتعقبون الفارين..وقد منيت الروم بخسائر ضخمة وواصل المسلمون تعقب العدو وقتل رجاله..ثم عادوا إلى معسكرهم محملين بالغنائم والأسلاب .

وكان انتصار المسلمين رائعا وارتفعت راية الإسلام خفاقة في هذه المنطقة.. وقد مهّد هذا النصر الذي أحرزه المسلمون بأجنادين الطريق إلى غزو الشام .. لكن من الطبيعي أن هذه البلاد لا تفتح بمعركة واحدة لأن الإمبراطورية الرومية مازال لها قوات ضخمة لأنها تمتد من أرمانيا إلى البلقان .. وعلى أي حال انتهى أول صدام خطير بين المسلمين والروم وبرهن المسلمون على أنهم لا يفرون من أرض المعركة مهما كانت حتى يحرزوا النصر أو الشهادة .. كتب خالد لأبي بكر بعد انتهاء المعركة يخبره بما انتهت إليه ويخبره بموت قائد عام جيش الروم ونائبه وبعدد كبير من الضباط ويحدد له القتلى من الطرفين بقوله (خمسين ألف مقاتل من الروم يقابلهم اربعمائة وخمسين مسلما فقط)[1] .. ولما وصلت هذه الأنباء مدينة رسول الله ﷺ كبّر المسلمون وفرحوا وعمّهم السرور .. لذلك تقدم عدد كبير من المتطوعين يبدون استعدادهم للاشتراك في حرب الروم لأن خالدا أعلن في رسالته إلى أبي بكر أنه سيتوجه عما قريب إلى دمشق وكان من بين المتطوعين أبو سفيان بن حرب الذي صحب زوجته هند وذهب إلى الشام حيث عمل في اللواء الذي يقوده ابنه يزيد .. وبعث الخليفة برده إلى خالد.

وفيه يأمره أن يحاصر دمشق فإن فتحها يتجه إلى حمص فإن فتحها يتجه إلى أنطاكية على ألاّ يتجاوز حدود الشام .. وهكذا يحدد الخليفة لقواده وهم يلتزمون وينفذون لأن الجميع هدفه نشر الإسلام ورفع رايته خفاقة في العالمين..

---

(١) فتوح الشام للواقدى جـ١ صـ٥٩ .



أثر الهزيمة

وصلت أنباء الهزيمة النكراء التي مُنِيَ بها الجيش الروماني إلى هرقل وكان بحمص وقد نزل عليه الخبر نزول الصاعقة . وشعر أنه انتهى وغادر هرقل حمص بعد هذه الأخبار وذهب إلى أنطاكية متوقعا قدوم جيش المسلمين إلى دمشق. ومن أنطاكيه أصدر أوامره لفلول الجيش الروماني والذي احتشد ببيت المقدس باعتراض طريق المسلمين عند (الياقوصة) وتعويق مسيرتهم.. في نفس الوقت أصدر أمراً آخر بتعزيز القوات بدمشق وتأمينها بوسائل الدفاع وعمل الاستعدادات الكافية لأنه قد يفرض الحصار عليها ...

أما جيش المسلمين فقد أمضى أسبوعا في راحة ثم تحرك قاصداً دمشق مبتعداً عن طريق بيت المقدس . وقدم إلى (فحل) وترك فيها فصيلة من الخيالة بقيادة أبي (الأعور) ليضمن عدم قيام هذه المنطقة بعمل ضد الجيش الإسلامى .. ثم واصل خالد مسيره إلى أن وصل إلى (الباقوصة) على ضفة اليرموك .. وعندها وجد بقية من جيش الروم ولم يكن على استعداد لإبداء أي مقاومة لأنهم مازالوا يعانون من وطأة الهزيمة التي لحقتهم بأجنادين.. إلاّ أن هذه البقية من الجيش قامت بمشاغبات والتحموا بالمسلمين وكان هدفهم من ذلك تعويق جيش المسلمين من التقدم إلى دمشق ولإقامة مزيد من الوقت لدمشق أن تعزز وسائل الدفاع عنها... ولكن بقية الجيش الروماني لم يصمد طويلا بل فر من أمام جيش المسلمين الذي انطلق باسم الله إلى أرض دمشق ..



دمشق

دمشق جنة الشام وحاضرة البلاد الزاهرة يتمتع أهلها بالغنى حيث الثروة التي تجيئهم من الأرض الجيدة التربة والتجارة المتبادلة الرائجة والثقافة المتنوعة .. بها الكثير من المعابد ويعسكر بها الكثير من قوات الجيش .. لذلك فلها صيت عريض .. يحيط بالقسم الرئيسي منها سور كبير يبلغ ارتفاعه أحد عشر مترا والمدينة كلها مُحصّنة ولها ستة أبواب .. كان بدمشق حامية من الروم تتألف من ستة عشر ألف

مقاتل بالإضافة إلى عدد كبير من سكانها .. على هؤلاء قائد عام من الروم هو (توما) كان مسيحيا متدينا ومعروفا بالشجاعة والإقدام وقدرته الفائقة على قيادة الجيوش.. يتمتع بالذكاء والعلم .. وكان له نائب يسمى (ربيس) .. وكان توما زوجاً لابنة الإمبراطور هرقل .. كان هناك قائد يسمى (عذاذير) وكان جندياً مخضرماً له شهرة واسعة اكتسبها من قيادته لجند الروم أثناء حربهم مع الفرس..كان يعرف اللغة العربية ويتحدث بها بطلاقة وكان يشمخ بأنفه لأنه لم ينهزم فى حروبه حتى فى مبارزاته الفردية...

كان هرقل وهو بانطاكية يخطط لتصحيح الأوضاع وحماية دمشق .. وقد أرسل بأوامر إلى (كلوس) الذى كان يقود أكثر من خمسة آلاف مقاتل ليتحرك من أنطاكية لتعزيز حامية الجيش (ووقف كلوس أمام هرقل يعده بأن يرسل له رأس خالد على رأس سنانه) [1] ...

كان بين عذاذير الذى يزهو بنفسه ويشمخ بأنفه وبين كلوس عداء خفى.. لأن كل واحد منهما يحترف القتال .. ويحرص كل واحد على أن يحظى بمكانة عند هرقل إذاً .. فكل شخص يكيد للآخر ويتمنى أن ينهزم وهذه بداية مبشرة لصالح المسلمين .. فإذا ما تركنا هؤلاء فإن (ربيس) نائب القائد العام شخصية خاملة الذكر لا أثر عنه يُعرف اللهم إلا وجوده كنائب عام..

كان (توما) القائد العام يبذل أقصى ما لديه من جهد ليؤهل مدينة دمشق وذلك بجمع جميع المؤن من المناطق المجاورة وتوفير ذلك للجيش والمواطنين لأن الحصار قد يدوم طويلاً .. مع وضع خطة لإمكانية وصول الزاد والمؤن التموينية من طرق آمنة تكون بعيدة عن أعين المسلمين .. ولم يغفل (توما) وهو يخطط هذا التخطيط أن يبعث بعدد من عيونه ليراقبوا تحركات المسلمين .. كما وضع نقاطا للمراقبة على أسوار المدينة .. وأعد توما فى أثناء ذلك خريطة لميدان المعركة خارج دمشق .. وأعد قواتاً احتياطية تكون بعيدة عن أعين المسلمين وتفاجئهم بعد أن يشعروا بالتعب والإرهاق .. والغرض من ذلك كما يقول لأصدقائه إلحاق الهزيمة

(١) فتوح الشام للواقدى جـ١ صـ٢٩.

بالمسلمين وردهم على أعقابهم بل وقتل قائدهم المنصور دائماً ..كان خالد يدرك أنه سيقاتل خصما عنيدا . لذلك بذل جهدا كبيراً لجمع جيش عظيم فيه مجموعة من الشخصيات العظيمة التي مارست الحروب الميدانية ولهم خبرة في رسم استراتيجية المواقع . ليكون الفوز بنصر عظيم مع الحفاظ على الدماء لأن النفس البشرية لها حرمة وكيان.. وقد وضع خالد خطة بدايتها :

١- شكّل قيادة حربية من رجال لهم خبرة وذكاء وفطنة هذه القيادة عرفت فيما بعد باسم هيئة أركان الحرب..

٢- الذين اشتركوا فى هذه الهيئة أشخاص من كل المناطق التى حارب فيها سواء فى حروب الردة واليمامة والفرس أو بلاد الشام...

٣- قسم هذه الهيئة إلى مجموعات مكونة من شخصين أو ثلاثة كل مجموعة لها مهمة خاصة .. كما نطلق عليه الآن باسم (سلاح المهندسين) مهمته رسم الطرق وأماكن العبور واجتياز الصحراء (سلاح الإمداد والتموين) (سلاح الإشارات) (الأمن والمعلومات) (الاستطلاع والمخابرات) .. إلى غير ذلك من الأمور التى يتطلبها الموقف آنذاك . وقد أمسك خالد بجميع الأطراف على أن يتم إبلاغ خالد بكل شئ أولا بأول من جميع الأطراف .. وقد عرف عن خالد اليقظة التامة الدائمة والاستعداد الجيد للمتابعة .. وكان يقال عنه (أنه لا ينام ولا يُنيم ولا يخفى عليه من أمورهم "أمور جيشه وأمور عدوه" أى شئ)[١]...

اتجه خالد إلى الجيش فنظمه تنظيماً يختلف تماماً عن كل نظام سابق وأحدث تغييراً ملحوظاً وتعديلاً كبيراً .. أعد كتيبة من الفرسان قوامها أربعة آلاف رجل أطلق عليهم (خيل الزحف) .. كما ألف جيشاً قوامه ثمانية آلاف مقاتل تحت قيادته هو شخصياً .. وكان خالد وهو يسير من الياقوصة بعد أن أمّنها ينضم إليه العديد من جنود الروم وعرب النصارى ووصلت مقدمة جيش المسلمين إلى (مرج الصفر) والتى تبعد عن دمشق بنحو اثنى عشر ميلاً .. وعند هذه المنطقة وجدوا جيشا للروم يتألف من اثنى عشر ألف جندى بقيادة كلوس وعذازير .. وكان الغرض

---

(١) الطبرى جـ٣ صـ٤٣٩ .

من وجود هذه القوة أن تشتبك مع المسلمين فى معركة مفتوحة لتمنعهم من السير إلى دمشق..وعسكر الجيش الإسلامى على مسافة تبعد ميلاً واحداً من موقع الروم.. كانت مرج الصفر تمتد جنوباً من (كسوة) وهى مدينة صغيرة يقع إلى جنوبها واد صغير به أشجار هذا فى الجنوب.. أما فى الغرب.. فكانت هناك أكمة ذات ارتفاع قليل..

فى أوائل النصف الثانى من شهر جمادى الآخر من العام الثالث عشر الهجرى أعد خالد فيلقه الذى يقوده ليكون قاعدة ثابتة يستطيع من خلاله أن ينظم الجيش بأسره...

أما الروم فكان على ما يبدو يحبون أن يظلوا فى مركز الدفاع لأنهم لم يقوموا بأى حركة يُشتم منها رغبتهم فى الالتحام مع المسلمين...

لكن خالدا وهو القائد المحنك طالب بمبارزة فردية والقصد منها شغل الروم إلى أن تصل بقية جيش المسلمين .. وبدأ الطرفان فى المبارزة وكل منهما يدل على بسالته ومهارته .. وقد أظهر الروم فيها شجاعة فائقة فقد خرج من صفوف الروم كلوس وعذاذير ودفع خالد بأكفأ رجاله منهم ضرار وشرحبيل واستمرت المبارزة فترة طويلة .. بدأ جيش الروم يفقد حماسه ويحيط اليأس بقواده لأن المسلمين الذين برزوا للقتال أحدثوا فى جيش الروم خسائر كثيرة .. فقد قتل كل من بارزوا من الروم .. وبعد أن طالت المدة قرر خالد أن يخرج بنفسه لميدان المبارزة فركب فرسه ونزل إلى الميدان .. ونادى قائلاً (أنا ركن الإسلام .. أنا الفارس الصنديد .. أنا خالد بن الوليد .. أنا صاحب رسول اللهﷺ)[1]... وكان خالد قد أمر جنوده أن ينسحبوا من الميدان إلى الجيش عائدين.. كان كلوس قائد الروم قد استولى عليه الفزع والرعب بعد أن فرح فى أول النهار بما حقق لكنه بعد أن رأى المصير الذى صار إليه الضباط الذين بارزوا فى أول النهار لهذا شعر باليأس لكنه مضطر اضطراراً إلى الخروج ومقابلة خالد للمبارزة .. وبعنجهيته المشهورة وتعاليه أشار إلى خالد أن يتحدث إليه .. لكن خالدا تغاضى عن إشارته وهجم عليه برمحه وتفادى كلوس الضربة ببراعة فهجم خالد مرة أخرى فتجنب ضربته كذلك .. عندئذ قرر خالد أن يتخلى عن رمحه وأن

---

(١) فتوح الشام للواقدى جـ١ صـ٣١ .

يتصارع باليد مع خصمه .. ونزل من على جواده وتقدم بثقة وشجاعة واقتدار ونـزع القائد الرومانى من فوق جواده فسقط على الأرض ولم يحاول أن ينهض مـن كبوتـه .. وهنا أشار خالد إلى اثنين من جنوده فأخذاه أسيراً...

هذا هو (كلوس) الذى وعد هرقل بإرسال رأس خالد إليه على أسنة الرماح.. ولا شك أن هذا المنظر المفزع كان سبباً فى فرح عذاذير وكم كان يتمنى أن يموت كلوس على يد المسلمين...

ظن عذاذير أنه أكفأ من كلوس وأراد أن يظهر براعته لذلـك تقدم إلى الميـدان وتكلم بالعربية الفصيحة وأشار إلى خالد وقال له .. (يا أخا العرب أُدنُ منى أسألك) وكان يقول ذلك باستهزاء فرد عليه خالد .. (يا عدو الله أُدن أنت منـى) وهَم خـالد أن يحمل عليه ونظر إليه عذاذير نظرة استغراب ثم تقدم إلى خالد وقال بلهجة رقيقة (يا أخا العرب ما حملك أن تحمل أنت بنفسك أما تخشى الهـلاك فلـو قُتلت بقيـت أصحابك بلا مقدم) .. فرد عليه خالد قائلاً .. (يا عدو الله قد رأيت ما فعل الرجـلان من أصحابى لو تركتهم لهزموا أصحابك بعون الله تعالى لأن الرجال معى يرون المـوت مغنماً والحياة مغرما) فسأله خالد من أنت؟.. وأبدى عذاذيـر دهشته وقـال .. أومـا سمعت باسمى .. أنا فارس الشام .. أنا قاتل الروم .. أنا كاسر عساكر الترك .. فقـال خالد ما اسمك؟ فقال .. أنا الذى تسميت باسم ملك الموت .. اسمى عزرائيل...

ضحك خالد وقال .. (يـا عـدو الله أتخوفنـى؟ إن الـذى تسميت باسمـه هـو طالبك ومشتاق إليك ليرديك إلى الهاوية)... تغاضى عذاذير عن ذلك عن هـذا ومضـى يقول بغير اهتمام ما فعلت بأسيرك كلوس؟...

قال خالد .. هو موثوق بالقيود والأغلال...

قال عذاذير .. وما منعك من قتله وهو داهية من دواهى الروم؟...

قال خالد .. منعنى من ذلك حتى أقتلكما معاً...

قال عذاذير .. هل لك أن تأخذ ألـف مثقـال مـن الذهـب وعشـرة أثـواب مـن الديباج وخمسة رؤوس من الخيل وتقتله وتأتينى برأسه؟...

قال خالد .. هذه ديته .. فما الذى تعطينى أنت عن نفسك؟...

قال عذاذير .. وما الذى تأخذ منى؟...

قال خالد .. الجزية...

قال عذاذير فى غضب وشدة .. كلما زدنا فى كرامتكم زدتم فى إهانتنا فخذ لنفسك الحذر فإنى قاتلك ولا أبالى...

وهنا كر عليه خالد كرة قوية لكن عذاذير تفادى ذلك بمهارة فائقة .. وانفرطت أسارير الرومانى عن ابتسامة وقال لخالد (وحق المسيح لو أردت الوصول إليك لقدرت على ذلك .. لكنى أبقيت عليك لأنى أريد أن تكون أسيرى ليعلم الناس ذلك .. وبعد ذلك أطلق سبيلك على شرط أن ترحل من بلادنا وتسلم لنا ما أخذت من بلاد الشام)...

استشاط خالد غضبا لأن عذاذير قد نجح فى الدفاع عن نفسه من خالد ويتكلم برقة .. وصمم خالد على أن يأسر هذا القائد وكانت مبارزة رهيبة فيها كر وفر وإقبال وإدبار .. ولاحظ عذاذير أن فرس خالد نالها التعب .. وخالد نفسه أصبح ثائرا خاصة عندما سمع من عذاذير .. ياعربى لا تظن أننى هارب خوفا منك .. وإنما أبقيت عليك حرصا على شبابك فأرحم نفسك وإن أردت الموت أسقطه إليك فأنا قابض الأرواح أنا ملك الموت ... أيقن خالد أن فرسه لم تعد صالحة للمناورة فترجل عنها .. وأظهر عذاذير شماتته لمرأى خصمه وهو يقترب منه راجلا وفى حلبة الصراع كان الدوران لأن عذاذير يحاول ضرب خالد بسيفه وكان الإفلات جيدا من خالد .. وبعد فترة طويلة من هذا الصراع فى حلبة الميدان سدد خالد ضرباته إلى قوائم فرس عذاذير وفصلها تماما عن جسد الفرس فسقط الفارس الرومانى على الأرض وتخلى عن كبريائه ونهض واقفا يريد أن يهرب لكن خالدا قفز إليه وأمسك به بيديه وراح يقذف به إلى الأرض ويرفعه عنها مرات ثم قبض بيده على رقبته وساقه إلى معسكر المسلمين حيث قيد بالسلاسل والأغلال فى صحبة كلوس[1]...

أصاب جيش الروم الذعر .. وراحوا يتطلعون إلى دمشق لأن نفوسهم تحطمت وهبطت روحهم المعنوية حيث فقدوا عددا كبيرا من ضباطهم علاوة على القائدين

(١) فتوح الشام للواقدى جـ١ صـ٣٢ ، ٣٣ وما بعدها.

الكبيرين لذلك فروا هاربين إلى دمشق طلباً للأمان وراء جدرانها وقد خلفوا وراءهم عدداً كبيراً من القتلى ثم دخلوا إلى المدينة وأغلقوا أبوبها خلفهم .. أما المسلمون فقد عمهم الفرح والسرور واستبشروا خاصة وأن الكتائب التى كانت لم تصل بعد إلى ميدان المعركة بدأت تصل بقيادة أبى عبيدة وعمرو بن العاص .. وبعد أن استراح الجند قليلاً بدأ خالد فى إرسال كتائب لتشاغل الحامية الرومانية التى تعسكر عند (فحل) كذلك بعث إلى حمص كتيبة أخرى وكلف هذه الكتائب أن تبعث بعيونها فى المناطق المجاورة ليستطلعوا أنباء أى مساعدات للروم وأن يبلغوا خالدا بذلك فوراً وأن على هذه الكتائب أن تتعرف على الطرق المجاورة من دمشق حتى إذا طلب منهم الغوث والمدد استطاعوا ذلك فى أقرب فرصة .. كذلك وضع خالد قوة اعتراضية لعزل دمشق عن شمال الشام حيث يظن أن العون لدمشق يأتى من هذا الطريق وبعد أن هيأ نفسه ورسم خطته كلف خيّالة الزحف أن تعسكر عند البوابة الشرقية وكانت بقيادة رافع .. ثم وضع خالد قوة احتياطية خلف هذه القوة .. وهو نفسه فيها .. ثم اتخذ من أحد الأديرة مقراً لقيادته .. لأن رهبان هذا الدير مدوا يد العون للمسلمين وساعدوهم بعدة طرق كان منها العناية بجرحاهم .. وسمى هذا الدير فيما بعد باسم (خالد)[1] .. ووضع خالد عند كل بوابة عددا يتراوح بين أربعة أو خمسة آلاف رجل مقاتل .. على رأس كل منها قائد من أكفأ القيادات .. وكان من توجيهات خالد لقواد ألويته أن يعسكروا بجنودهم على بعد حتى لا يصل إليهم من رماح الحصن شئ .. وأن يكونوا على أتم يقظة لحراسة أبواب الحصن وأن يشاغلوا أى رام رومانى يظهر من فوق شرفة جدار الحصن وأن يهاجموا أى قوة تخرج من البوابة وأن يطلبوا العون من خالد إذا تعرضوا لضغط شديد .. وقد اختار خالد ضرار بن الأزور لقيادة ألفى فارس من أشجع الفرسان وعهد إليهم القيام بأعمال الدورية الليلية فيما بين الأماكن مع مراقبة الطرق التى يحتمل وصول مدد للروم من عليها...

---

(١) فتوح الشام للواقدى جـ١ صـ٢٩.


الفصل السابع
حصار الشام



بدأ المسلمون في تنفيذ خطة خالد وبدأ الجنود يدقون خيامهم وبدأ حصار المدينة.. وبدأ ضرار بن الأزور هو الآخر يواصل عملية العسس أثناء الليل .. وتم إحكام تطويق المنافذ الرئيسية .. وأصبح من العسير على أى جماعة من العدو أن تفلت من هذا الحصار .. لكن توما وهو القائد المحنك استطاع أن يفتح لنفسه ثغرة في مكان منعزل لا يمشى عليه إلا شخص بقدمه واستغل هذا الطريق ليكون وسيلة اتصاله بالعالم الخارجي وبالقيادة السياسية في انطاكية .. وقام خالد بحركة فيها ذكاء بقصد إدخال الرعب على جند الروم فأمر بإحضار كلوس وعذاذير وهما مقيدان بالحديد .. ولما عرف الروم بأن القائدين حضرا علوا جدار الحصن ليروهما.. و في هذا الموقف عرض خالد على القائدين الدخول في الإسلام فرفضا بشدة .. فأمر بإعدامهما .. ونفذ الحكم ضرار بن الأزور (البطل العارى).. ودام الحصار ثلاثة أسابيع كان الجانبان يتراشقان بالنبل والسهام في أوقات متفرقة.. كما كانت هناك هجمات بسيطة يشنها الروم على المسلمين .. ولكن لم تكن هناك خسائر تذكر بين الطرفين...

حشد قوات

سمع هرقل بهزيمة جيش الروم في (مرج الصفر) وأن المسلمين أخذوا القائدين أسرى .. كما أن القائد الإسلامى حاصر دمشق .. ضربات متلاحقة كانت شديدة الوقع على الإمبراطور مؤلمة له .. وكان يفكر في أن سقوط دمشق دليل على تدهور الإمبراطورية ويعنى هذا القضاء عليها وإلى الأبد .. لذلك بذل جهدا خارقا في حشد جيش عظيم يتكون من اثني عشر ألف مقاتل وزوده بمؤن كثيرة لأنه كان قد عبأ كل موارد الدولة للنواحى الحربية .. كما أعلن حالة الطوارئ القصوى في طول البلاد وعرضها وكان غرضه من كل ذلك فك الحصار عن دمشق وبأي تضحيات .. وانطلق هذا الجيش مارا بحمص حيث كان يكمن رجال الاستطلاع من الجيش الإسلامي .. وبعد

أن تعرفوا على الجيش وقوامه وعدته وعتاده أرسلوا برجل منهم سريعاً إلى خالد الذي وصل إلى خالد قبل الجيش الرومانى بأيام .. ولم تكن هذه الأخبار غريبة على سمع خالد لأنه توقع ذلك وترك على الطرق فصائل من الجيش لتحاول عرقلة سير الجيش الرومانى قليلاً .. ولكن مع ذلك جهز خالد فصيلة من الفرسان قوامها خمسة آلاف مقاتل بقيادة ضرار بن الأزور وأمره بأن يعسكر مع جيشه وألاّ يشتبك في قتال مع القوات القادمة إلاّ إذا صدرت إليه تعليمات وحذره من مغبة التهوّر .. وإن الاشتباك أمر لازم وإذا تم فعليه أن يطلب النجدة..لكن هذه الكلمات لم تلق أذنا صاغية لدى ضرار الذي تحرك مع جيشه وضم إليه القوة التي تركها خالد في الطريق...

عندما ظهر جيش الروم في الأفق و الذي يتكون من اثنى عشر ألف مقاتل أمر ضرار رجاله بالهجوم وهو في مقدمتهم نصف عاري .. ولما كان الهجوم من ناحية المسلمين مباغتة اتخذ الروم لأنفسهم وضع المدافعين .. وقد وقفوا فوق أرض ترتفع قليلاً عن مستوى الأرض التي يقف عليها المسلمون .. لذلك استطاع الروم أن يأسروا ضرار بعد أن أصيب بسهم في ساعده الأيمن .. لكن رافعاً وكان من بين جند المسلمين كان خير خلف لخير سلف فتولى قيادة الجيش وشن هجمات عنيفة وحاول إنقاذ ضرار لكن جهوده باءت بالفشل وبعث برسالة عاجلة إلى خالد يخبره بما حدث وينبئه بقوة العدو .. وأن ضرار أخذ أسيراً..

بعد أن عرف خالد هذه الأخبار وجد خالد نفسه في مأزق .. لأن مثل جيش الروم في عدده وعدته ليس له إلا خالداً على الأقل .. وإن ذهب إلى هناك عند مكان (يسمى بيت لهيا) فإن جيش المسلمين المحاصر لدمشق سيضعف .. وإن بعث بقوة سريعة لتعزيز قوات رافع فإن حامية الروم المُحاصرة قد تنتهز فرصة ضعف المسلمين وتخرج من الحصن فتقضى على الجنود .. كان كل ذلك يدور في رأس خالد والشمس في الأفق تميل ناحية الغروب .. لذلك قرر خالد أن يتحرك على رأس قوة إغاثة لمساعدة رافع وإنقاذ ضرار .. وحدد خالد تحركه بعد منتصف الليل وقبل أن يطلع الفجر .. وعمل تعديل في قيادات جيش المسلمين مع نقل بعض القوات حتى لا يشعر العدو بشئ ...

خطة رائعة بارعة وضعها خالد الـذي تحـرك فعـلا قبـل الفجـر ووصـل إلى ميدان المعركة في صباح اليوم التالى وكان القتال لا يزال جاريا ليومه الثانى .. وكـان المسلمون في حالة إجهاد وإعياء .. ونزل خالد الميدان على الفور ولقد لاحظ أن مقاتلا شجاعا يمرق من أمامه ويمر من خلفه وقد أدهش خالد من جرأة هذا الفارس لما أبـداه من ضروب الفروسية ومن قدرته على إبادة عدد من الروم يسقطهم واحدا بعـد الآخـر وهو في حالة ظاهرة عليه من الغضب والعنف .. كان رافع قد شاهد هذا الفارس قبل أن يراه خالد وظن رافع أنه خالد .. إلا أنه كان نحيل الجسـد يلبـس ملابـس سـوداء ويتعمم بعمامة خضراء .. يلف وجهه بملفحة جعل منها قناعا يخفي وجهـه وراءه بحيث لا يرى الرائى إلا عينيه .. أمر خـالد بشـن هجـوم سـريع وإذا بـهذا الفـارس تبرق عيناه خلف القناع وتقدم يقاتل بتفان شـديد وظـهر ذلـك مـن أثـر الدمـاء الـتي خضبت ملابسه ورمحه وحذا المسلمون حـذوه .. وارتفعـت روحـهم المعنويـة بعـد أن تأكدوا بوجود خالد ومع هذا الفارس الشـجاع ونسـوا مـع ذلـك مـا لحقـهم مـن تعـب وجهد .. تقدم المسلمون وحققوا نصرا .. وتقهقر الروم .. لذلك اقترب خـالد مـن هـذا الفارس وناداه قائلا اكشف لنا عن لثامك ؟ ولمعت عينا الفـارس وهـو ينظـر إلى خـالد ولوى عنان فرسه وركض ناحية الروم يسدد طعناته لكل من يقابله منهم وتوجه نفـر من رجال خالد وقالوا لهذا الفارس أميرك يخاطبك وأنت تعرض عنه اكشف لنـا عـن اسمك وقبيلتك لتزداد في نفوسنا تعظيما .. لكن الفارس لم يستجب وابتعد عنـهم .. ونزل إلى ميدان المعركة يضرب ويقتل ويأسر .. كان خالد يتابع بعينه هذا الفارس في الوقت الذي يشدد فيه المسلمون من هجماتهم العنيفة .. والجيش الرومـانى ينسـحب بانتظام إلى الخلف وكان المسلمون يبحثون عن ضرار لكنهم لم يجدوه وتقدم رجل مـن الأعراب وقال رأيت ما يقرب من مائة فارس يمتطـون صـهوة جيـادهم ومعـهم رجـل عارى الجسد حتى وسطه ومقيدا إلى فرسه وعلى الفور أرسل خالد رافعا في مائـة مـن أشجع الفرسان وامرهم أن يسيروا بسرعة على طريق حمص لإنقـاذ ضـرار .. وشـاءت الأقدار أن المسلمين أدركوا الروم ودارت معركة قتل فيها أكـثر الـروم وهـرب البـاقى وفك قيد ضرار وعادوا بـه...

خالد بن الوليد اعترض طريق الفارس المقنع وأمره أن يقف وكان الأمر صارماً لا هزل فيه .. وشد الفارس لجام فرسه وتوقف .. وقال له خالد .. من أنت؟ لقد شغلت قلوب الناس وقلبي بفعلتك ومهارتك وكفاءتك؟ وما إن سمع خالد صوت الفارس حتى كاد أن يسقط من فوق صهوة جواده .. لأن الصوت الذي وصل إلى أذن خالد صوت فتاة .. قالت يا أمير الجند إنني لم أعرض عنك إلاّ حياءاً منك .. لأنك أمير جليل وأنا من ذوات الخدور .. وبنات الستور .. وإنما حملني على ذلك لأنني محروقة الكبد .. فقال لها خالد .. من أنت؟ قالت .. أنا خولة بنت الأزور وأخي ضرار مأسور بيد الروم وقد فعلت ما فعلت لأسد فراغه وأفك إساره .. أبدى خالد إعجابه بالأب الذي أنجب مثل هذين المقاتلين الباسلين .. وطلب إليها خالد أن تنضم إليهم .. وعاد الفارس العارى الجسد إلى أخته الحبيبة التي أدت دوراً رائعاً في ميدان المعركة[1] .. بازدياد ضغط المسلمين على الروم تقهقروا إلى الخلف ثم تحول إلى انسحاب ثم إلى هزيمة .. وفر جيش الروم في انسحاب إلى حمص وما حولها..

العود أحمد

كان على خالد أن يعود إلى جيشه الذي يحاصر دمشق والحمد لله لم يفكر الروم في شن هجوم على المسلمين أثناء غياب خالد.. واستأنف خالد مهام قيادته وأعاد تنظيم جيشه إلى ما كان عليه .. وكان خالد قد أمر بتشكيل فرقة من الفرسان بقيادة (الصمت بن الأسود) لملاحقة الروم الهاربين إلى حمص .. وقبل أن يصل الصمت بن الأسود إلى حمص كان جيش الروم قد تحصن بحصن هناك .. لكن سكان منطقة حمص جاءوا إلى الصمت بن الأسود وأبلغوه أنهم لا يريدون قتال المسلمين وأنهم يريدون عقد صلح معهم وهم على أتم استعداد لتقديم المؤنة لأى عدد من الجند يعسكر في مدينتهم..ولما كان المسلمون يحبون السلام فقد عقدوا صلحاً ورجع الصمت بن الأسود إلى دمشق.

---

(١) فتوح الشام للواقدي جـ١ صـ٤٠.

ساد أهل دمشق هرج ومرج وراحوا يتساءلون .. هل يستطيع هرقل أن يحشد جيشاً آخر ليفك الحصار عنا؟ كانوا يتساءلون وروحهم المعنوية هابطة .. وكان الرد .. إن هرقل بذل في الواقع أقصى ما يستطيع .. لكن خالداً قضى على كل آمالنا (في بيت لهيا) فماذا نصنع؟ .. أهل دمشق يتساءلون فيرد أحدهم .. إن كان باستطاعة أن يحشد قواتاً أخرى فإن ذلك يقتضى منه وقتاً طويلاً .. كيف والمؤن التي بأيدينا بدأت تنفذ .. يظهر سؤال آخر .. ماذا يصنع هرقل أمام خالد؟ الذي هزم جيشاً في اليرموك مؤلفاً من مائتى ألف مقاتل .. ثم إن خالداً أعدم القائدين أمام أعيينا .. ثم ألحق هزيمة نكراء بالجيش الرومانى عند (ببيت لهيا) .. ولقد ساد أهل دمشق حالة من القنوط وعدم الرضا وازداد الموقف سوءاً لنفاذ بعض المؤن وزادت حدة التوتر إلى درجة لم تعد محتملة...

لذلك شكل سكان دمشق من غير الحربيين وفداً توجه إلى توما القائد وكانوا من علية القوم وأعربوا له عن مخاوفهم من قيام ثورة للسلب والنهب واقترحوا عليه بحث إمكان عقد صلح مع المسلمين .. لكن توما أكد للوفد أن عنده قواتاً لحماية المدينة وأنه يخطط لشن هجوم عاجل على المسلمين واقترح عليهم .. إقامة صلوات في الكنائس ودعاء الرب للخلاص من الخطر الذي يهدد المدينة .. في صباح اليوم التالى بعد هذا اللقاء أمر توما جميع الرماة على أبواب الحصن رمى المسلمين بالنبل والحجارة .. ورد المسلمون على هذا الرمى بشدة وعنف .. وقد قتل أثناء ذلك (إبان بن سعيد بن العاص) وكان قد تزوج منذ قليل من سيدة ذات شجاعة غير عادية .. ولما سمعت هذه المرأة بموت زوجها أخذت قوسه وانضمت إلى الرماة المسلمين لتنتقم لزوجها .. و في أول رمية لها على مرأى من المسلمين نفذ سهمها في قلب قس كان يحمل بيده صليباً كبيراً يستنهض به الهمم ومن سوء حظ هذا القس أن يصيبه سهم الأرملة المسلمة الشابة فيسقط ومعه صليبه فكبر المسلمون تكبيرة ارتج لها جدران الحصن ومن خلفه...

أصدر توما تعليماته .. وفتح بوابة الحصن .. ودفع بالقوات من داخله تحت حماية النبل .. وأمر بشن هجوم على قوات شرحبيل.. وتقدم جيش الروم توما الذي كان (يهدر كالجمل)[1] .. اشتد القتال وحمي الوطيس .. وكان توما يرقب شرحبيل وتحرك نحوه وهو يظن أن شرحبيل لن يراه .. لكن شرحبيل كان قد استعد للقائه .. وكانت (أرملة إبان بن سعيد بن العاص) تقف بالقرب من شرحبيل فأطلقت سهمها إلى توما فنفذ في عينه اليمنى فسقط على الأرض .. وتقدم الرجال فحملوه وعادوا به إلى الحصن .. وانسحب جيش الروم خلف القائد المهزوم وتتبعهم المسلمون ومعهم الأرملة التي كانت ترمى بسهامها فأصابت الكثير...

أغلق الروم أبواب الحصن عليهم .. وهرع الجراحون إلى توما الذي تزرع بالشجاعة وأقسم على أن يفقأ ألف عين مقابل عينه .. وعلى ألا يكتفي بهزيمة هؤلاء المسلمين بل سوف يلحق بهم في بلادهم ويجعلها مسرحاً للوحوش الكاسرة بعد تدميرها .. لذلك أمر بشن هجوم على المسلمين في نفس الليلة .. واختار توما لهجومه الليلى جميع البوابات التي في الحصن وكان عنده علم بمواقع القوات الإسلامية ومقر قادتها .. وقد أراد توما بفتح أبواب الحصن جميعاً لتكون كل وحدة مشدودة إلى الحرب ولا تستطيع القوات الأخرى .. وعند البوابة الشرقية .. التي يتمركز فيها خالد وضع توما قواتاً تزيد في عددها عن القوات الأخرى لكى لا يتمكن خالد من نجدة أى قيادة من القيادات الأخرى .. وأكد توما في الأوامر إلى الهجوم السريع حتى يتمكنوا من مفاجأة المسلمين وإبادتهم .. وألاّ تأخذهم رحمة في قتل المسلمين حتى من يعرض الاستسلام .. ويحاولون الإبقاء على خالد حياً ليكون أسيراً.. وكانت ساعة الصفر لجيش توما (عندما يتوسط القمر كبد السماء) ساعتها بدق الناقوس إشارة إلى شن الهجوم .. كان خالد على علم بما يجرى حيث كانت

---

(١) فتوح الشام للواقدي جـ١ صـ٦٥.

عيونه تنقل إليه الأخبار لذلك أرسل إلى شرحبيل يأمره بالصمود إلى أقصى حد وأن ضراراً سيسارع إلى نجدته مع ألفي رجل وأن خالد بنفسه سوف يلحق بهم إذا اقتضى الأمر .. بدأ الهجوم حسب الخطة في ضوء القمر .. وعند بوابة الجابية وكان قائد المسلمين أبو عبيدة بن الجراح يتقدم المسلمين بسيفه لأنه من أبطال السيف وقد استطاع أن يرد الهجوم بصلابته وقوة جنوده...

عند البوابة الصغيرة كان قائدها يزيد وقد استطاع جيش الروم أن يحقق عليه نجاحاً .. ولكن من حسن الحظ أن ضراراً كان على مقربة من يزيد فانضم إليهم مع ألفي رجل من الذين يصاحبونه من (خيل الطليعة) وهنا تقهقر الروم وانسحبوا إلى الحصن .. أما البوابة الشرقية وقائدها خالد فكانت المعركة أشد سخونة .. وأدرك خالد من قعقعة السلاح أن العدو تقدم أكثر من اللازم .. لذلك أسرع يتقدم الفرسان وهو يصيح صيحته المعهودة (أنا الفارس الصنديد .. أنا خالد بن الوليد) عندما سمع الروم هذه الصيحة ولوا الأدبار .. وراح المسلمون يتعقبونهم ودخلوا الحصن وأغلقوا الباب عليهم...

أما عند البوابة الكبيرة توما وقائد المسلمين فيها شرحبيل.. فكانت الحرب قاسية أثناء النهار وخلال الليل .. لكن لحسن الحظ أن ضوء القمر ساعد على وضوح الرؤيا .. وكان رجال شرحبيل قد أخذوا أهبتهم وروحهم المعنوية عالية لعلمهم بأن خالداً سيبعث لهم بضرار وسيلحق بهم هو .. وكانت المعركة شديدة رهيبة .. وكان توما يبحث عن شرحبيل وعندما التقيا كانت بينهما مصارعة بالسيف والدرع .. ولكن لسوء الحظ أن سيف شرحبيل انكسر لأن توما كان يلبس درعاً من حديد .. ووجدها توما فرصة سانحة لقتل شرحبيل.. لكن عناية الله كشفت عن شرحبيل الغُمة.. فأسرع رجلان من المسلمين واشتبكا مع توما في صراع .. ويلحظ شرحبيل قتيلاً معه سيف فنزعه منه بسرعة وعاد إلى توما فلم يجده .. انسحب الروم مرة أخرى إلى الحصن وسادهم الغم والحزن لأن كثير منهم قتل .. وقد شعر توما بأن كل تخطيطاته باءت بالفشل وفقد ألوفاً من رجاله وسيطر الوهن على نفوسهم وأحسوا باليأس وخيبة الأمل وضاع أملهم في الانتصار.. ولقد تلبدت سماء المدينة بالسحب

السوداء وساد الناس جميعهم التذمر ولم يعد لديهم أمل في النصر .. إذاً .. فعليهم أن يبحثوا عن الصلح .. وهذه المعارك جعلتهم يعرفون الكثير عن رجال المسلمين وعن القواد بصفة خاصة.. فأبو عبيدة بن الجراح هو رجل رقيق العاطفة يتسم بالرحمة ويميل إلى السلام ويحب الخير .. كانت الحرب في نظره واجباً مقدساً فأيقنوا أنهم من خلال ابن الجراح يستطيعون أن يبرموا معه صلحاً يكون كريماً في شروطه .. وهم يعلمون أن خالداً ليس مستعداً لإبرام صلح .. وإن قبل فبشروطه هو .. لأن خالداً يحب القتال ويعتبره ضرباً من ضروب الرياضة .. لذلك بدءوا يفكرون في تخطيط للصلح على أن يكون عن طريق أبي عبيدة لا عن طريق خالد .. لإن أبا عبيدة هو القائد العام فله كلمته ومنزلته .. وهكذا كان تفكير توما ومن معه .. الذين أصبح الخوف يسيطر عليهم ودخان المعركة يتصاعد إلى السماء ولابد من عمل لإنقاذ الموقف ...

نجدة السماء

عناية الله دائماً تكون مع المجاهدين المخلصين لأن الله سبحانه وتعالى هو القائل (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) [غافر:٥١] .. فالحق سبحانه وتعالى لا يتخلى عن عباده الذين يعملون في سبيل نشر الحق والجهاد في سبيله .. فهو سبحانه وتعالى يدافع عن الذين أمنوا فهو القائل (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ) [الحج:٣٨] وهو سبحانه وتعالى يوحى إلى الملائكة أن يؤيدوا المسلمين ويثبتوهم .. وهو سبحانه يقذف الرعب والخوف في نفوس المشركين (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ) [الأنفال:١٢] والشاعر قديماً قال :

وإذا العناية لاحظتك عيونها ∴ نم فالمخاوف كلهن أمان

خالد بن الوليد يظهر لنا من مجريات الأحداث أن الله سبحانه وتعالى كان معه في كل مرحلة ينصره .. ويؤيده .. ويسوق إليه عند الأزمة من يفتح له باب الأمل في النصر .. فالأيام الماضية قد شهدت وقائع رهيبة .. ولقد استمرت الحرب ليل نهار..

ومع ذلك كان خالد لا ينام ولا ينيم .. ولقد استعمل فكره وتخطيطه وأخذ بكل الوسائل الممكنة واستشار واجتهد ومع ذلك فهو يدرك أن الحصن أسواره عالية وأبوابه مغلقة .. والعدو يهجم في أى وقت متاح له ثم يدخل فيستريح من وراء الجدر .. لذلك في ليلة من الليالي وكان الكون يلتف بملاءة سوداء ولم يظهر القمر بعد .. عيون خالد تتطلع هنا وهناك .. بل هو يتسمع كذلك بأذنيه أى حركة تصدر من هنا أو هناك .. وشعر خالد بأن طيفا يتحرك على البعد فزاد ترقبه .. وما هى إلا لحظات حتى وجد أمامه شخصا يقف قدم نفسه لخالد بأنه (يونس بن مرقص)..

حب وولـه

يونس بن مرقص يحب فتاة من بنى جنسه حبا جنونيا .. وعقد عليها قبل مقدم المسلمين إلى دمشق ليحاصروها بيوم واحد .. ورفض أهلها أن يزفوا الفتاة إليه بحجة انشغالهم بالحرب وهم الآن بين موت أو حياة ولقد عجب أهل العروس من يونس ..

كيف يفكر في الزواج والناس يموتون بين عينيه بالآلاف .. لكن يونس كانت له فلسفته بناها على نظرية (الحى أبقى من الميت) وكان لا يفكر في شئ سوى عروسه .. يونس محاصر مع أهله داخل الحصن .. لكنه فكر .. إن الذي يستطيع أن يحقق له حلم حياته هو خالد بن الوليد .. لكن كيف الوصول إليه؟ هنا فكر يونس في الهرب من الحصن .. لكنه إن خرج مع الجند للقتال فسوف يؤخذ أسيرا ولن يثق به المسلمون .. فلابد من الهرب بأى وسيلة بالليل .. غافل يونس حراس البوابة الشرقية وأخذ حبلا واعتلى سور الحصن وبعد أن ربطه في أحد الأعمدة هبط من عليه إلى الأرض في جانب المسلمين في أول الأمر ...

كان خالد قد أحس بشئ غير عادى فأرسل بأحد الحراس الذي قبض على يونس وساقه إلى خالد .. وطلب يونس الخلوة بخالد .. وما إن اختلى به حتى بدأ يشرح الغرض من زيارته .. ويقص على خالد قصته الحزينة وتعلق قلبه بحبيبته .. الأمر الذي بسببه جفاه النوم وأحس باللوعة بسبب بعد حبيبته عنه.. ونظر خالد إلى يونس وقال له .. ما لى ولهذا ؟ .. قال يونس عندى معلومات أدلى لكم بها

بشرط.. عند فتح الحصن تجمعنى على حبيبتى .. شعر خالد بأنه يستطيع أن يثق في هذا الشخص الذي كان يظهر عليه الصدق وهو يسرد مأساته .. لكن خالد فاجأه بقوله هل تدخل معنا في الإسلام ؟ .. فرد العاشق وقال نعم .. أنا عندى معلومات عن هذا الدين ونفسى تميل إليه .. علّمه خالد مبادئ الدين في كلمات يسيرة .. وشرح يونس لخالد بعد ذلك أسهل الطرق لاحتلال الحصن .. وقال يونس لخالد هذه أنسب ليلة لأن تحتلوا الحصن لأن الناس بداخله سوف يحتفلون بمناسبة قومية وسوف يشربون الخمر بكثرة...

أمر خالد يونس بالرجوع إلى الحصن .. وكلفه أن يكون على مقربة من البوابة الشرقية .. ولما لم يكن الوقت متسعاً لإعداد خطة للجيش كله .. فقد قرر خالد أن يقوم هو ومائة من رجاله بعمل سريع وأن تكون كتيبته على أعلى درجة من اليقظة والانتباه .. وفعلاً اعتلى خالد السور ومعه رجاله وكان من خلفه القعقاع ومن وراءه .. مذعور بن عدوى .. وأخذوا معهم السلالم ونزلوا إلى داخل الحصن وقد التقوا بقليل من جند الروم فقتلوهم ووصلوا إلى بوابة الحصن من الناحية الشرقية وقتلوا حراسه وفتحوه .. ودوت صيحات المسلمين الله أكبر .. وأفاق السكارى من سكرهم واستيقظ سكارى دمشق وهرع جنود الروم يحاولون صد الهجوم ولكن هيهات...

محاولة بارعة

كان توما قائد الروم يقوم بمحاولة بارعة لإنقاذ المدينة لأنه عرف أن احتلال دمشق وفتحها على يد المسلمين أصبح أمراً واقعاً لا مناص منه .. وكان قد رسم في ذهنه خطة تتلخص في أنه في حالة وقوع المدينة من أى باب من أبوابها يسرع هو من باب آخر إلى أبى عبيدة القائد العام .. الرجل الطيب المسالم .. ويعقد معه صلحاً بشروط تناسب توما وجيشه .. وكان قد وضع دراسته لهذا الأمر .. لأن توما عرف أن قوات خالد هى التي تشن الهجوم وحدها .. أما بقية الجيش فهناك هدوء تام .. لذلك دفع بقوات الاحتياط التي معه لتعرقل سير قوات خالد وتعوقها عن التقدم .. وأسرع هو إلى باب الجابية و الذي يعسكر أمامه أبو عبيدة .. وأعلن توما لأبى عبيدة

الاستسلام التام .. وقبل أبو عبيدة هذا العرض .. وبرقته المعهودة وافق على شروطهم ولم يساوره شك في أن خالدا سيفرح بهذا الصلح والاستسلام .. لأن الكل يرغب في وقف نزيف الدماء .. ولم يكن أبو عبيدة على علم بما يجرى من خالد الذي احتل نصف دمشق بقواته عندما طلعت شمس النهار .. وقبل أبو عبيدة شروط الاستسلام وأخذ على عاتقه مسئولية اتخاذ القرار وتنفيذه .. وكان القرار يقضى :

١- دخول المسلمين دمشق سلميا..

٢- وقف إراقة الدماء وعدم استعمال السيف..

٣- عدم اللجوء إلى السلب أو أخذ أى شئ من أموال الروم..

٤- عدم أسر أى إنسان من الروم..

٥- عدم تدمير المعابد..

٦- يدفع سكان المدينة الجزية..

٧- لأي إنسان من سكان دمشق مغادرتها ويحمل معه كل حوائجه.

هذه الشروط وقع عليها أبو عبيدة بينما خالد في معركة حربية قائمة .. ولقد حمل جنود الروم هذه الأخبار ونشروها على بقية الأبواب .. وعندما قام أبوعبيدة مع مساعديه بدخول دمشق بصحبة توما القائد الرومانى العام وهربيس نائبه وبعض الرهبان ووجهاء القوم .. اتجه هذا الوفد كله إلى سرة المدينة وهم يحملون رايات السلام .. وتصادف أن خالدا كان مع رجاله يندفعون كالعاصفة حيث نجحوا في القضاء على آخر مقاومة للرومان.. وحدق خالد في الوفد وسيفه يقطر دما فإذا بأبى عبيدة يتوسط الجمع.. مفاجأة مذهلة وموقف أثر في خالد ورجاله.. كيف حدث هذا؟



مواجهة

عند كنيسة مريم وفي سرة مدينة دمشق كان لقاء غير متوقع وساد الموقف لحظة سكون.. خالد غير مصدق تعلو الدهشة وجهه لأن أبا عبيدة مع مساعديه في حالة هدوء وسلام يحتفظون بسيوفهم في أغمادها وهم في صحبة قائد الروم ورهبان المدينة وأشرافها .. كما أن أبا عبيدة كان ينظر إلى خالد ورجاله .. يحملون في أيديهم

السيوف وقد خضّبتها الدماء .. قطع السكون صوت أبى عبيدة وقد خرج عن صمته وقال موجهاً الكلام لخالد .. يا أبا سليمان .. لقد فتح الله على يدى المدينة صلحاً وكفي الله المؤمنين القتال .. فرد خالد بغضب وحدة .. وما الصلح؟.. وأين هو وقد فتحتها بالسيف ومازالت سيوفنا مخضبة بدمائهم وجمعنا أموالهم غنيمة.. علا صوت القائد ونائبة وكاد يحدث شجار بين الرجلين..

أبو عبيدة يؤمن في قرارة نفسه أنه ليس في مقدرة خالد التخطيطية ولا كفاءته الحربية أن يفتح دمشق ومع ذلك فهو .. يُكن لخالد كل حب واحترام .. خالد هو الآخر يؤمن بأن أبا عبيدة واحد من صفوة المسلمين وأحد العشرة المبشرين بالجنة وأمين الأمة والرجل الذي فقد كل أسنانه في مناسبة لا ينساها أى إنسان في غزوة أحد أثناء الدفاع عن رسول الله ﷺ .. فهناك حب متبادل بين الشخصين مع عظيم الاحترام .. لأن كل واحد يرى في الآخر صفات ومزايا تجعل كل منهما رجلاً عظيماً في نظر الآخر .. لكنها لعبة الحرب وخدعة الروم .. لذلك نرى أن خالداً احمرت عيناه من الغضب وكان يتحكم في أعصابه وقال وهو يتمالك نفسه وصوته لم يخلو من أمارات الاحترام يا أبا عبيدة إنك لم تزل في غفلة .. أنا دخلت الحصن بالسيف عنوة وما بقيت لهم حماية .. فرد أبو عبيدة قائلاً .. اتق الله أيها الأمير وأعلم أننى ما دخلتها إلاّ بالصلح .. والله لقد صالحت القوم ونفذ السهم مما هو فيه وكتبت لهم الكتاب وهو مع القوم...
ورد خالد قائلاً .. كيف صالحتهم ؟..

رد أبو عبيدة .. والله ما ظننت أنك تخالفنى إذا عقدت عقداً ورأيت رأياً.. فالله الله في أمرى..فوالله قد أعطيت العهد وحقنت دماء القوم وأعطيتهم الأمان من الله عز وجل وأمان رسولهﷺ وقد رضى من معى من المسلمين والغدر ليس من شيمتنا...

كان بعض جنود خالد قد ملوا النقاش وشاهدوا بعض جنود الروم فساروا إليهم يلوحون بسيوفهم يريدون قتلهم .. وشاهد أبو عبيدة هذه الحركة فطلب من خالد أن يأمر الرجال بالعودة ويكفوا عن قتل الروم .. ولم يكن باستطاعة أحد أن يطلب هذا من خالد غير أبى عبيدة .. لذلك ضبط خالد نفسه وكتم غضبه وأمر رجاله

بالكف عن القتل... اجتمع قادة الألوية وبحثوا الموقف واتفقوا على رأى واحد وهو (قبول الصلح) حتى لا يكون فتنة وتكون هناك دعاية ملخصها أن المسلمين نقضوا عهدهم وقتلوا مَن أمَّنوهم .. وقد قبل خالد الرأى ونظر إلى توما ونائبه هربيس ثم اتجه إلى أبى عبيدة وقال لك كل الشروط إلا هذين .. فرد أبو عبيدة وقال .. إن هذين أول من دخلا في صلحى فلا تحقر ذمتى رحمك الله ...

استسلم خالد لطلب أبى عبيدة وقال .. والله لولا ذمتك لقتلتهما جميعاً ولكن يخرجان من المدينة .. وليلعنهما الله حيث ساروا .. كان توما وهربيس يستمعان للحوار وهما في حالة توتر شديد وكان المترجم يترجم لهما .. لذلك ما إن عرفا نتيجة ما انتهى إليه الحوار حتى تنفسا الصعداء واقتربا من أبى عبيدة وطلبا الإذن بمغادرة المدينة من أى طريق يتم اختياره بمعرفتهما .. قال أبو عبيدة للمترجم نوافق على هذا وهما في ذمتنا بشرط لو ذهبا إلى أرض نفتحها بعد ذلك فليس لهما ذمة .. لكن توما خشى من خالد من أن يتعقبهما لذلك عاد يقول..نحن في ذمتكم وجواركم ثلاثة أيام في أى طريق نسلكه فإذا كان بعد ثلاثة أيام فلا ذمة لنا عندكم..فمن ظفر بنا إن شاء أسرنا فنكون عبيداً وإن شاء قتلنا رد خالد على القائد وقال قد أجبناكم إلى ذلك.. لكن .. لا تحملا معكما من هذا البلد إلا الدار الذي تتقوتون منه [1] .. لكن أبا عبيدة اعترض على هذا قائلاً هذا كلام داعٍ لنقض العهد والصلح إن ما وافقنا عليه أنهم يخرجون برجالهم وأموالهم...

رد خالد وقال .. سمحت لهم بذلك إلا الحلقة[2]... اعترض توما على كلام خالد وقال لابد لنا من السلاح نمنع به أنفسنا في طريقنا إن طرقنا طارق حتى نصل إلى بلادنا وإلاّ نحن بين أيديكم فأحكموا فينا بما أردتم .. قال توما هذا الكلام وهو موقن بمدى احترام المسلمين للوفاء بالعهد محاولاً أن يستغل هذا الخلق من المسلمين ورضى خالد أن يأخذ كل منهم قطعة واحدة من السلاح فقط .. إما سيفاً أو رمحاً أو قوساً .. وهكذا تمت تسوية هذه المشكلة[3] ...

---

(١) يقصد خالد الطعام .
(٢) يقصد السلاح .
(٣) فتوح الشام للواقدي جـ١ صـ٧٣ وما بعدها.

قاربت شمس النهار على المغيب وكتب العهد من جديد ونصه (بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذ دخلها أعطاهم أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدم ولا يسكن شئ من دورهم لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله ﷺ والخليفة والمؤمنين .. لا يعرض لهم إلا بخير إذا أعطوا الجزية)[1] .. وتحددت الجزية بدينار عن كل رجل وكمية معينة من المحاصيل الزراعية ...

خرج الروم من دمشق ومعهم ألوف المدنيين الذين آثروا مغادرة دمشق واصطحبوا معهم الزوجات والأطفال .. واصطحب توما زوجته بنت هرقل وكان من ورائهم مئات من المركبات تحمل أمتعة المهاجرين وقد أخذوا معهم كل سلع المدينة.. أما توما وزوجته فكان معهما أكثر من ثلاثمائة كيس مليئة بأحسن أنواع الديباج .. كان المسلمون يتطلعون إلى هذا المشهد والأسى يعتصر قلوبهم لأنهم أحسوا بأنه لم يعد بدمشق أى شئ وكانت لحظة مريرة لأن المنتصرين خرجت الغنائم أمام أعينهم مع المهزومين..

كان خالد يشاهد هذا المنظر المحزن مع بعض رجاله وأدرك أن الروم لم يتركوا ورائهم بدمشق أى شئ ذا قيمة في حين أنه فتح دمشق بحد السيف هو ورجاله وقاتلوا قتالاً عنيفاً ودفعوا ثمناً غالياً وقضوا أكثر من شهر في حصار وقتال أصابهم بالجهد والإرهاق .. والرجال من حول خالد لا يغيب عن أعينهم لحظة تسلقهم أسوار المدينة في تلك الليلة المعهودة .. ولكن ثمرة كفاحهم انتزعت منهم عن طريق الدبلوماسية البارعة التي مارسها توما مع الرجل الطيب السمح أبو عبيدة.

والواقع أنه لم يكن لابن الجراح أن يتدخل في مثل هذا الشأن بمثل هذه الصورة لأن ما يشاهده من أفعال الروم لا يرضيه أبداً .. لكن ما الحيلة وهو أمين الأمة وأحد العشرة المبشرين بالجنة...

حاول خالد أن يتغلب على ما يساوره من غضب وألم خاصة وأنه رأى وجوه الناس تحمر من الغضب وكانوا يتطلعون إلى بعضهم في صمت ولسان حالهم يقول ..

---

(١) تاريخ البلدان للبلاذرى القسم الأول صـ١٤٤ وما بعدها.

نريد أن نقضّ على هذا الركب وأن نستولى على ما معه .. لكن الجيش له نظامه مع احترام كلمة القائد والالتزام بالوفاء .. كل ذلك حال بينهم وبين ما يفكرون فيه...

دعاء المكروب

خالد بن الوليد .. كان ملهماً .. لذلك أراد أن يدخل الأمن على نفوس رجاله .. والدعاء سلاح المؤمن .. وقد أمرنا الحق سبحانه وتعالى أن ندعوه لأنه قريب منا وقد وعد سبحانه وتعالى بقبول دعوة المظلوم لأن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب.. وقد أمرنا الله بدعائه تضرعاً وخفية فهو القائل (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) ... [غافر: من الآية٦٠]

لذلك اتجه خالد إلى ربه ورفع يديه إلى السماء وقال بصوت مكروب (اللهم اجعل ما معهم لنا ملّكنا إيّاه واجعل هذه الأمتعة قوة للمسلمين .. آمين إنك سميع الدعاء)[1] .. كان الموقف لا يبشر بخير لأن الروم خرجوا وليس لدى خالد ورجاله معرفة بالطرق التي سيسلكونها ولا باستراتيجية الموقع .. لكن .. كيف؟ المؤمن دائماً عنده أمل في الله لا يشعر بالإحباط .. ولا يتسرب اليأس إلى نفسه لأن المؤمن دائماً بين أمرين .. شاكر صابر .. أو صابر شاكر .. فهو في كل أحواله شاكر الله صابر لما يصيبه بالخير أو بغيره يؤمن بأن الله يسهل له ما فيه صلاحه وسعادته وما يحققه له فيه خير .. لهذا كانت عناية الله بخالد ورجاله...

أمنية تتحقق

يونس بن مرقص العاشق الولهان كان قد التقى بحبيبته وعروسته بعد استسلام المدينة وطلب إليها أن تعيش معه ووافقت الفتاة .. لكنه أخبرها أنه اعتنق الإسلام وأصبح صديقاً للمسلمين وعليها أن تفعل فعله .. عندئذ رفضت الاقتران وابتعدت عنه وأقسمت ألا تعرفه بعد اليوم وانضمت إلى ركب توما وجُن جنون يونس وأسرع إلى

(١) فتوح الشام للواقدي جـ١ صـ٧٤ وما بعدها.

خالد يسأله النجدة لرد حبيبته .. وعند مجئ يونس كان خالد مستغرقاً في دعائه.. وما إن فرغ من دعائه إلاّ وقد سمع من يسعل من وراءه .. فالتفت خالد فإذا بيونس بن مرقص .. وكان يبدو عليه الحزن والأسى .. وبنفس الهيئة التي كان عليها عندما اجتمع مع خالد في خيمته .. وطلب من خالد أن يستبقوا له حبيبته بالقوة وأن يسلموها إليه وشرح له خالد بنود الاتفاق وأنه لا يستطيع أحد من المسلمين أن يمس ركب الروم إلا بعد ثلاثة أيام .. وهنا همس يونس في أذن خالد بأنه يعرف الطريق الذي سيسير عليه هذا الركب وأن المسافة إلى انطاكية وهى مقصد الروم تستغرق عدة أيام .. وأن في إمكان يونس أن يدل المسلمين على طريق يلتقى مع الطريق الذي سار عليه الروم بعد ثلاثة أيام ونصف اليوم وأبدى استعداده أن يكون دليلاً للمسلمين بشرط أن يسلموه الفتاة كان كلام يونس بمثابة ماء بارد يقدم لعطشان في يوم شديد الحر ولمعت عينا خالد وتوهجت خدوده .. واستدعى خالد ضرار ورافع وعبد الرحمن وكلفهم أن يعدوا التدبير اللازم لخروج خيل الزحف بقيادتهم في أثر القوم ولا يتعرضوا لهم إلا بعد انتهاء المدة المحددة وعرّفهم على يونس وأنه الدليل فقط وأن يحققوا له أمنيته .. ولكن يونس عاد واقترح أن يلبس الجند ملابس أهل الناحية من الأعراب حتى لا تتعرف عليهم الوحدات الرومانية التي قد تلحظهم على الطريق الآخر .. وأعدوا العدة وتحرك الركب على بركة الله .. ويذكر الواقدى .. أن المسلمين لحقوا بالركب الذي خرج من دمشق في اليوم الرابع بعد خروج الروم من دمشق وكان اللقاء عند مكان يسمى الأبرسن ويسميه الروم بالجبل البارد حيث كانت سلسلة من الجبال خلف سهل غير بعيد عن الساحل في منطقة غير بعيدة من أنطاكية .. كان الروم حتى هذه اللحظة لم يشعروا أن المسلمين قد اقتربوا منهم .. وقد هطلت أمطار غزيرة .. وكان جيش الروم قد تفرق في كل مكان لحماية أنفسهم من المطر .. كان أبو عبيدة يعلم بخروج جيش الزحف بقيادة خالد بن الوليد الذي خرج مع جيش الزحف متتبعاً جند الروم .. واستطاع خالد أن يحدد الأماكن التي احتمى فيها ركب الروم دون أن يشعر به أحد ثم اختلى بنفسه ورسم خطة الهجوم وكانت خطة بارعة دلل فيها خالد على مهارته وإبداعه .. وبعد رسم الخطة أصدر تعليماته بشن

الهجوم .. وكانت أول فصيلة تحركت مع قائدها ضرار الفارس صاحب الجسد النصف عارى وأصابت الروم الدهشة لمرأى ضرار واشتبكوا معه في صراع وظنوا أنه سيقضون عليه وعلى فصيلته لأنهم قلة وهم كثرة وما هى إلاّ لحظات وفوجئ جيش الروم بفصيلة أخرى على رأسها رافع آتية من ناحية الشرق وعرف الروم أنهم لن يتمكنوا من القضاء على المسلمين .. لأنهم بعد قليل فوجئوا بفصيلة أخرى من المسلمين آتية من الشمال من ناحية انطاكية وعلى رأسها عبد الرحمن .. فأحسَّ الروم بالقلق وسادهم الفزع وسيطر عليهم الخوف لأنهم انعزلوا عن انطاكية .. وبعد قليل فوجئوا بفصيلة أخرى من ناحية الغرب قائدها يصيح (أنا الفارس الصنديد .. أنا خالد بن الوليد) وبالحماس المعهود في خالد قتل توما قائد الروم ونائبه أربيس في اشتباك واحد .. واستطاع جيش الروم أن يحاصر خالد بحيث عزله عن أصحابه وأصبح من المؤكد أن خالداً لن يخرج حياً من هذا الحصار .. لكن عناية الله لسيفه دفعت بعبد الرحمن بن أبى بكر مع مجموعة من خيرة الفرسان لينقذوا خالداً من هذا الموقف الرهيب...

وتحطمت مقاومة الروم ونجح الألوف منهم في الهرب واستولى المسلمون على كل الغنائم وعلى عدد كبير من الأسرى .. وقد عثر يونس بن مرقص على حبيبته ومطلبه فأسرع إليها ماداً ذراعيه وما إن رأته قادماً إليها إلاّ واستلت خنجراً من طيات ملابسها وأغمدته في صدرها وسقطت على الأرض والدماء تنزف منها بغزارة.. وركع يونس إلى جوارها ودموعه تتساقط على خديه .. ونظرت إليه وهى تجود بأنفاسها الأخيرة فأقسم لها أن يظل مخلصاً لذكراها ولا يفكر في فتاة سواها..

عودة الحق

عرف خالد بما حدث ليونس فبعث في طلبه .. وهدأ من روعه وعرض عليه أن يختار اى فتاة من الأسرى .. والتفت خالد إلى الأسرى فإذا بامرأة تتقدم الجميع جميلة الصورة يدل مظهرها على الثراء والغنى فأشار إلى يونس لينظر إليها فإن رضى بها منحوه إياها ونظر يونس إلى المرأة واضطرب وهمس فى أذن خالد قائلاً.. هذه المرأة

هى أرملة توما وبنت هرقل وليس من المعقول أن يأخذها هو لأن هرقل لن يتركها أبداً وسوف يستردها بأى وسيلة .. وتحرك خالد مع جيشه إلى الشام يحمل كل الغنائم والأكياس التي كانت مليئة بالديباج والأشياء الفاخرة .. وتحقق دعاء خالد لأن الله لا يحب الظلم و لا يرضى به .. وبينما الجيش الإسلامى على الطريق على مقربة من دمشق رأوا غباراً يملأ الجو على الطريق الآتى من انطاكية .. ووصل ركب كبير يرفعون رايات السلام وبعد أن اقترب الركب من جيش المسلمين تبين أنهم قلة لا يوحى منظرهم بأنهم يريدون الاشتباك مع المسلمين .. ونزل الركب وحيّا خالداً .. وتقدم فارس من نبلاء الروم وقال لخالد (أنا رسول الملك هرقل وأنه يقول لك بلغنى ما فعلت برجالى وقتلت توما زوج ابنتى وهتكت حرمتي والآن إما أن تبيع ابنتى أو تهديها إلى فالكرم شيمتكم وطبعكم) .. وحقاً .. الكرم شيمة العرب وخالد عربى وطبيعته كذلك حقاً .. كان كريماً فى العطاء إلى حد أن خلق له هذا الكرم الكثير من المصاعب والمشكلات .. لكن الشهم الكريم لا يبالى .. فعزم على أن يكون كريماً كعادته .. ومع مَن .. مع إمبراطور روما وقال خالد لرسول الإمبراطور .. هاهى الفتاة هدية منا .. وعادة إلى أبيها دون أى شئ ولم يصبها مكروه [1] ولسان وفد روما يلهث بالشكر والثناء على خالد .. ظل يونس حزيناً لأنه لم ينجح في رؤية فتاة تدخل السرور على نفسه .. لذلك عرض عليه خالد جائزة كبيرة علاوة على نصيبه من الغنائم علّه يستطيع بذلك أن يحصل على زوجة أخرى .. لكن يونس رفض عرض خالد وألزم نفسه بالوعد الذي قطعه على نفسه لحبيبته وهى تجود بروحها .. لكنه أخلص للإسلام وحارب مع جنده إلى أن استشهد .. لقد استغرقت هذه المهمة من خالد ورجاله عشرة أيام استقبلهم المسلمون بالفرح والسرور لعودة الحق إلى أصحابه.



صدمة غير متوقعة

كان خالد يعيش لحظات الفرح والسرور لأنه حقق للمسلمين الذين معه ما كان مكبوتاً في صدورهم ، وها هم اليوم الكل سعيد يثني على خالد ويعلق رضاه عن

(١) فتوح الشام للواقدي جـ١ صـ٨٢ وما بعدها.

فعله.. وعكف خالد على كتابة رسالة إلى أبي بكر رضي الله عنه يشرح لـه مـا حـدث بالضبط ويبين له في الرسـالـة أن الـروم إذا كـانوا قـد نجحـوا في خـداع أبـي عبيـدة ، فالحمد لله استطعنا أن نسترد كل شيء ، وكل الجند في فرح وسرور ولكن لم يكن أحد يعلم ما خبأه القدر لخالد لأنه لم يكن يعرف أن أبا بكر رضـي الله عنـه قـد انتقـل إلى الرفيق الأعلى وتولى إدارة شئون المسلمين عمـر بـن الخطـاب ، وقـد عـزل خـالداً عـن إمارة الجيش وأسند الإمارة إلى أبي عبيدة ، وأرسل عمر برسالة إلى أبي عبيدة بذلك، وقد وصلت أثناء حصار دمشق ، ولم يشأ أبو عبيـدة أن يفصح عنـها لأن الموقـف كـان صعباً ، فلما هدأت الحدة ووجد أبو عبيدة أن الموقف يسمح له بإخبـار خـالد بذلـك، وحتى لا يبعث برسـالة إلى أبـي بكـر رضـي الله عنـه باعتبـاره الأمـير بينمـا الأمـير الحقيقي عمر ، ولهذا الأمر فقد أخرج أبو عبيدة من ملابسه رسالة الخليفة الجديـد وناولها لخالد الذي بدأ في قراءتها وهو متردد .. ونصها (بسم الله الرحمن الرحيـم .. وبعد .. فأوصيك بتقـوى الله الـذي يبقـى ويفنـى مـا سـواه الـذي هدانـا مـن الضلالـة وأخرجنا من الظلمات إلى النـور .. وقـد اسـتعملتك علـى جنـد خـالد بـن الوليـد فقـم بأمرهم الذي يحق عليك .. لا تقدم المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة ولا تنزلهم منزلة قبل أن تستريده لهم وتعلم كيف مأتاه ولا تبعث سرية إلاّ في كشف من الناس وإيـاك وإلقاء المسلمين في الهلكة .. وقد أبلاك الله بى وأبلانى بك فغمـض عينيـك عـن الدنيـا واله قلبك عنها وإياك أن تهلكك كما أهلكت من قبلك فقد رأيت مصارعهم)[1]...

وصلت هذه الرسالة من الخليفة عمـر إلى أبـى عبيـدة وهـذا الخطـاب خطـير وصل في لحظة دقيقة كان المسلمون بقيادة خالد يقاتلون الروم .. وكـان الرسـول الـذي حمل الرسالة من عمر إلى أبي عبيدة يعلـم فحواهـا .. لذلـك سـأل أبـو عبيـدة رسـول عمر.. أتعرف ما في هذه الرسالة؟.. قـال نعـم.. قـال.. هـل أفشيت سـرها لأحـد؟.. قال.. لا .. فطلب منه أن يبقـى هـذا الأمـر سـراً بينـهما .. وأبـو عبيـدة عندمـا قـرأ الرسالة تملكته الدهشة وتمنى من كل قلبه أن هذه الرسالة لم تكن قد وصلت إليـه .. لأن خالدا لا يستحق ذلك فله مكانته القيـادة .. وموقعـه في ميـدان الحـرب .. وحـب

(١) الطبرى جـ٣ صـ٤٣٤.

رجاله له .. وأن وجود خالد في أى جيش له تأثير كبير في خلق الثقة بالنصر في قلوب الجند رغم ما يعترضهم من صعاب .. وأدرك أبو عبيدة بذكائه وصفاء نفسه أن تغيير القيادة سيكون له أثر سيئ على المقاتلين المسلمين خاصة في هذه الساعات الحرجة التي يلتقي فيها المسلمون بشدة وقوة على الروم.. وأن بشائر النصر أمامهم وأنه من العسير إقناع الجند بمبررات عزل خالد .. فضلاً عن أن أبا عبيدة لم يكن يريد أن يتولى قيادة جيش المسلمين وسط هذه المعمعة.. لأن خالد أنظم كل شئ بدقة وعلى أكمل وجه...

قرأ خالد الرسالة على مهل واستلفت نظره قول عمر في الرسالة (وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد فقم بأمرهم الذي يحق عليك) ثم رجع إلى التاريخ الذي حُرر فيه هذا الخطاب فإذا هو مكتوب منذ أكثر من شهر ورفع خالد بصره عن الخطاب وسأل أبا عبيدة (ما دعاك رحمة الله إلى ما فعلت؟) يعنى لماذا تأخرت في إخطاري بهذا الخطاب؟ .. فقال أبو عبيدة (كرهت أن أكسرك وأوهن أمرك وأنت بازاء عدو)[1] .. لقد أصبح الأمر واضحاً أمام خالد .. أنه أعفي من منصبه وأن أبا عبيدة تولى قيادة الجيش بدلاً منه .. وأطرق خالد برأسه لحظة تذكر بها أبا بكر الصديق الذي كانت علاقته به قوية وأنه كان يقدر كفاءته ويحميه من ألسنة الناس إذا أخطأ ، وها هو الآن وقد مات فعليه أن يترحم عليه والأمر لله .. ثم اتجه إلى خيمته والألم يعتصر فؤاده .. كان أبا عبيدة يتطلع إلى خالد بعطف وحيرة .. أما خالد فقد جلس في خيمته يبكى على وفاة أبى بكر وقلبه يعتصر ألماً على ما حدث...

مواجهة

كان عمر بن الخطاب بعد أن تولى القيادة في الثلث الأخير من شهر جمادى الآخر من العام الثالث عشر الهجرى وكتب رسائله إلى القيادات المحاربة ومن بينها رسالته إلى أبى عبيدة .. دخل عمر مسجد النبيﷺ وأمّ الناس في صلاة الجماعة ثم ألقى خطبة كانت الأولى له بعد تولى الخلافة .. فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه (إنما

(١) مغازى الواقدى جـ١ صـ١٣٧.

مثل العرب مثل جمل أنف اتبع قائده فلينظر قائده حيث يقود .. وأما أنا فورب الكعبة لأحملنهم على الطريق)[1] .. ثم ركز عمر في بقية خطابه على الفضائل التي يجب أن يتحلى بها المسلمون وعلى الواجبات الملقاة على عاتقهم وعاهدهم على أن يبذل كل ما في جهده لخدمة الإسلام .. وفي نهاية خطبته أعلن على المصلين نبأ عزله لخالد وتعيينه لأبى عبيدة بدلاً منه .. استقبل المسلمون هذه الكلمات بصمت تام .. فهم لم يتوقعوا أن يلقى سيف الله خالد مثل هذه المعاملة الخشنة وبهذه السرعة من عمر خاصة وأنه هو الذي حقق الانتصارات الرائعة التي أحرزها خالداً للإسلام .. فكيف يكون هذا جزاؤه ؟ .. ساد المسجد الصمت .. والمسلمون كأن على رؤوسهم الطير .. لأن الصمت أحياناً يكون أكثر بلاغة من الكلام .. لكن شاباً من الشباب لم يستطع أن يتماسك وصاح في وجه عمر (أتعزل رجلاً بيده سيفاً قاطعاً نصر الله به دينه .. إن الله لا يعذرك في ذلك ولا المسلمين إن أنت أغمدت سيفاً وعزلت أميراً أمّره الله) .. تفرس عمر في وجه المتكلم فعرف أنه من بنى مخزوم .. وهى عشيرة خالد .. كما أن عمر أحس بالشعور الذي ساد القوم عند سماعهم خبر عزل خالد وأدرك أنه شعور غير طيب بالنسبة له .. وأراد عمر أن يهدئ من روعة الموقف فنظر إلى الشاب وقال له ..(شاب حدث السن غضب لابن عمه) وغادر عمر بعد ذلك المسجد وأخذ يفكر كيف يواجه هذا الموقف الذي رآه اليوم من المسلمين على أثر إعلانه عزل خالد.. وعليه أن يقنع المسلمين بسلامة موقفه وصواب رأيه..لأن شخصاً عظيماً كخالد لا يمكن أن تنطفئ شعلته هكذا وأن يبعد عن مركز القيادة دون أن تكون هناك مبررات.. وأخذ عمر يرتب في ذهنه الأمور ويستعرض هذا التاريخ الطويل لخالد بن الوليد.

خالد في المرآة

التاريخ كالمرآة تماماً .. فعندما ينظر الإنسان إلى المرآة يرى حالته على حقيقتها تقاطيع وجهه .. تسريحة شعره .. نظافة ملابسه . فالمرآة لا تتجمل وإنما هى

(١) الطبرى جـ٣ صـ٤٣٣ .

تعكس لك حقيقة ما أنت عليه .. كذلك التاريخ .. يسجل لك أو عليك .. وتسمع آذنك بين الحين والحين.. من لسان التاريخ.. اقرأ كتابك.. لآن كل ما تفعله أو تقوله مسجل عليك بأيدى أمينة في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها ولقد استطاع خالد أن يتألق على جبين الزمن وأن يسجل عليه عمله العظيم لأن خالداً قد فعل في مدة قصيرة ما لم يفعله من القواد بمثل عدد جنوده وعدته .. مع كثرة أعدائه ومحاربيه وقوة عُددهم.. لقد استطاع أن يقتطع من بلاد العجم (من حوض نهر الفرات من شمال الأبلة إلى الفرات) وهى مساحة ليست صغيرة .. ووصل إلى تخوم الشام والعراق والجزيرة شرق الفرات .. وهزم جيوش الفرس ومن ولاهم من عرب والأمر كذلك مع الروم .. لم تهزم له راية في كل المواقع .. كان في كل أعماله فاتحاً باسم الله وباسم الحق .. وكان اسمه بمثابة أمن لمن يحارب تحت رايته .. أقام العدل.. وأنصف الضعفاء لذلك لم يتعرض للفلاحين بسوء ولم يمسهم بأى أذى ..كان يشملهم برأفته ويعمهم برعايته ويمنع عنهم من يريدهم بسوء لاعتقاده أنهم مادة الأمة وبهم قوام الدولة .. لهذا كانوا يفضلون حكمه على حكم الفرس.. لأنه كان بهم رحيماً .. فأيام خالد غُرة في جبين تاريخه يتبين عظيم فعله وأثر جهاده.. ولا شك أنه كان لخالد أعداء كانوا يجمعون عنه بعض الهنات ويرصدون عنه بعض الأخطاء.. وخالد لم يلتفت إلى هؤلاء.. لأن الحقد لا يعرف طريقاً إلى قلبه فقديما قيل :

لا يعرف الحقد من تعلو به الرتب ∴ ولا ينال العلا من طبعه الغدر

كان خالد يبنى مجداً لأمَّة ويكفيه فخراً أن الرسول ﷺ شبّهه بسيف الله المسلول.. لقد كان اسمه إذا ذكر أمام أعدائه يستولى عليهم الرعب لذلك رأينا أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه عندما عزل خالداً عن قيادة الجيش وإمارة الشام استاء المسلمون لأنهم فكروا أن في عزله إهانة للجادين العاملين وإحباطاً نفسياً للمجدين وبالتالى عزل الكفاءات الجادة عن المواقع الهامة الأمر الذي ينبئ أن من وراء ذلك قد تقع كارثة للمجتمع إذا لم يستعمل عمر بن الخطاب الحكمة وتحليل الموقف الذي دعاه لاتخاذ هذا الأمر في أسباب عزله لخالد .

لهذا ذهب الناس مذاهب شتى في عزل عمر لخالد .. هنـاك مـن قـال .. بـأن عمر كان سيئ الرأى في خالد خاصة في موقف خالد من مالك بن نويرة عندما قتله كما يفهم عمر ولم يلتمس العذر لخالد كما فعل أبـو بكـر رضـي الله عنـه ثـم تـزوج خـالد بامرأة مالك بعد ذلك .. ومنهم من قال بأن بين عمر وخالد كراهية قديمـة سـببها .. أنهما كانا غلامين يتصارعان فصرع خالد عمر أو كسر سـاقه .. وأن عمـر كـان واجـدا عليه طول هذه الفترة .. والبعض يقول كانت هناك منافسـة بـين عمـر وخـالد بحكـم السن والتربية والموقع .. هكذا يقول بعض المؤرخين .. لكننا نستبعد كـل هـذه الآراء لأن عمر صحابى عظيم وشخصية لها وزنـها وهـو يـدرك تمامـاً (أن المسلم مـن سـلم المسلمون من لسانه ويده) كما أنه أحد العشرة المبشرين بالجنة ورجل عدل لم تشـهد الدنيا له نظيراً كان يحب لله ويكره لله .. لذلك ليس من المعقول أبداً أن يلعـب الهـوى بعقله وعواطفه فيبعد عن الساحة شخصية مرموقة لشئ قديم جداً بينهما وذلـك قبـل أن يدخل عمر في الإسلام وخالد كذلك .. وأعتقد أن مثل هذه الأقاويل والـتي يروجـها أعداء الدين .. الغـرض منـها .. تشـويه صـورة الصحابـة الذيـن أخلصـوا الجـهاد لله وحملوا راية الإسلام ودافعوا بـالحق عنـه .. وضربـوا المثـل بجـهاد النفس والهـوى وجعلوا كل حياتهم لله .. فليس من المعقول أن رجلاً كعمر يضمر عـداءً لخـالد لأمـور تافهـة كـالتي ذكرهـا البعـض .. لكـن الإنسـان المنصـف عليـه أن يحلـل الأحـداث التاريخية وأن يأخذ منها العبرة ويستنطقها لتبرهن أمامه على الحقيقـة الناصعـة .. لهذا نرى أن عمر الذي أخذ يفكر ويرتب الأحداث ليشرحها للناس ليـبرهن علـى أن قلبه يحمل الحب والتقدير لخالد .. لكن عزل خالد تم لأسباب ترجع في مضمونها إلى مصلحة الدولة .. ومصلحة خالد كذلك .. كيف ؟..



في اليوم التالي وقف عمر بين المسلمين ثم قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلـى علـى النبي محمد ﷺ وترحم على أبى بكر . ثم قال يبرر عزله لخالد (ليس أنـى كرهـت ولاية خـالد علـى المسلمين ولكـن لأن خـالد فيـه تبذيـر للمـال .. يعطـى الشـاعر إذا

مدحه.. ويعطى للمجاهد والفارس بين يديه فوق ما يستحق من حقه.. ولا يبقى لفقراء المسلمين وضعفائهم شيئاً وإنى مكانه والله يعلم أنى ما وليته إلا أميناً فلا يقول قائلكم عزل الرجل الشديد وولّى الأمين اللين على المسلمين والله معه يسدده ويعينه)[1] .. وصمت القوم ولم يتكلم أحد .. ونحلل قول عمر فنجد أن عمر أنكر على خالد أنه أعطى هدية لشاعر مدحه فمنحه عطية عبارة عن عشرة آلاف درهم .. والشاعر اسمه .. الأشعث بن قيس .. وذلك عند عودة خالد من حربه في (قنسرين) .. واعتبر عمر أن هذا العطاء إسراف من خالد في أموال المسلمين .. وهذا المبلغ كبير .. وكان عمر يريد توزيع هذا المبلغ على الضعفاء والمساكين .. وهذا الأمر سنشرحه بعد ذلك بالتفصيل .. كان عمر يرى أن خالداً يعطى المجاهد والفارس فوق ما يستحق من حقه وكان رأى خالد في ذلك أن الأمراء والعمال لهم بعض الحرية في تصريف شئون الولاية.. ولقد تكرر ذلك من خالد في أيام أبى بكر فهمَّ أبو بكر بعزله وسأل أبو بكر عمر من يحل محل خالد؟ قال عمر أنا .. وأمره بالتجهيز ليخلف خالداً لولا أن كبار الصحابة مشوا إليه يوصونه أن يحتفظ بعمر لأنه محتاج إليه في تصريف أمور الدولة.. وأن هذا التصرف من خالد استمر .. فكتب عمر إلى خالد كتاباً يقول له فيه (ما صدقت الله إن كنت أشرت على أبى بكر برأى فلم أنفذه .. ثم كان يدعوه إلى أن يعمل بالالتزام والانضباط فيأبى إلا أن يُخلِّيه يفعل ما يشاء فيأبى عمر ذلك .. ولقد جاء في كتاب الإصابة في تمييز الصحابة جزء ١ صـ٤١٤ .. (كان سبب عزل عمر خالداً أنه كان إذا صار إليه المال قسَّمه في أهل الغنائم ولم يرفع إلى أبى بكر حسابه.. وكان فيه تقدم على أبى بكر وكان عمر ينكر هذا فأشار عمر على أبى بكر أن يكتب إلى خالداً بأنه لا يعطى شيئاً إلاَّ بأمرك .. فكتب أبو بكر بذلك إلى خالد الذي رد .. إما أن تدعنى وعملى وإلاَّ فشأنك بعملك .. فأشار عمر على أبى بكر بعزله .. لكن أبا بكر انتقل إلى ربه وتولى عمر المسئولية فنفذ ما أشار به .. هناك أمر آخر أن عمر خاف على خالد من افتتان الناس به واستماتتهم تحت لوائه وحبهم للقتال تحت رايته فخاف عمر أن يوكل الناس إليه هذه الانتصارات المتصلة ويكون اتكالهم

(١) فتوح الشام للواقدي جـ١ صـ٨٦.

عليه.. فعزله عمر ليعلم الناس أن الله هو الناصر لدينه والمؤيد للمدافعين عن الحق .. سواء كان القائد خالداً أم سواه .. ولهذا كتب عمر إلى أمراء الأمصار بعد عزل خالد يقول (إني لم أعزل خالد عن سخطة ولا خيانة ولكن الناس فتنوا به فخفت أن يوكلوا إليه ويبتلوا فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع وألاَّ يكونوا بعرض فتنة)[1].. وهناك أمر آخر أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يقول قبل أن يتولى الخلافة (لئن صيرَّ الله هذا الأمر إليَّ لأعزلن المثنى عن العراق وخالداً عن الشام حتى يعلما أن الله هو الذي نصر وليس هما)[2] .. كما أن عمر بن الخطاب التقى بخالد بن الوليد بعد عزله فسأله ما سبب عزله ؟ فرد عمر (ما عزلتك لريبة فيك ولكن افتتن بك الناس فخشيت أن تفتتن بالناس)[3].. وعمر نفسه خاف على خالد من أن يصيبه الغرور والزهو وافتتان الناس به وهذه الانتصارات المتلاحقة التي يحققها .. خاصة وأن عمر رأى خالداً بعد حرب المرتدين يغرز في عمامته السهام ويدخل المسجد بدرع القتال وخالد من قبيلة بنى مخزوم أقوى قبائل قريش .. وله أصهار في سائر القبائل ولأبنائه أخوال في بنى تميم وبنى حنيفة .. ولشهرته سحر في نفوس الناس .. فكان خوف عمر على خالد من أن ينتابه الغرور والكبرياء وتضعف عقيدته في الله ويعتمد على قوته وأنصاره .. هذا رأى .. الرأى الثانى الذي خاف منه عمر أن خالداً قد يطغيه ذلك فينتابه لوثة النزعة القبلية .. ويتطلع إلى منصب الخلافة .. وينازع الخليفة في اختصاصاته .. خاصة .. وأن عمر رأى من خالد .. أمور يبتديها ولا يستأذن فيها.. وفي هذا من الفتنة مالا يعلم عاقبته إلا الله .. لهذا كان عمر دائماً يراعى.. التقديرات السياسية العليا للدولة .. وقائد الجند ضرورة لا غنى عنه لتسيير الجيوش وفتح البلدان .. ومثل تصرفات خالد متوقفاً عليه هو فتتخاذل العزائم من حوله وتصغر أقدار القادة دونه وتعظم العقيدة فيه وتضعف بالله ويخسر بذلك الجيش أضعاف ما يخسره بإقصاء قائد ولو لم يكن له نظير .. فإن كان له

---

(١) الطبرى جـ٤ صـ٦٨.

(٢) خالد .. المؤلف عمر كحالة صـ١٨٦.

(٣) عبقرية عمر للعقاد صـ٢٦٥.

نظير.. كما تبين من اختيار عمر لقواده في كل ميدان .. فلا خسارة هناك بل هو كسباً للعقيدة وكسباً لقائد جديد[1]...

هذا هو رأى عمـر الـذي نسـتطيع أن نسـتخلصه مـن كـثرة مـا كتـب في هـذا الموضوع .. فعمر .. راعى المصلحة العامة والمصلحة الشخصية وقدر الأمور حق قدرهـا ووضع الأمور في نصابـها وأعلـن علـى الدنيـا .. أن خـالدا كفـاءة لا نظـير لـه .. لكـن المصلحة العامة فوق كل اعتبار، وهذا اتجاه له وجاهته ولا بد أن يكون محل احـترام الجميع .

موقف خالد

نحن بشر .. لنا أحاسيس .. لا يستطيع أحد أن يصادرها .. ولنا مشاعر .. لا يستطيع أحد أبداً أن يوقفها .. لكن العاقل هو الذي يرتب الأمور .. ويقدم الأولويـات .. ومـع العقل هناك دين .. له قيم ومبادئ وأخـلاق .. والإنسـان بعقلـه وقيـم دينـه ومبادئـه يستطيع أن يحقق لنفسه السعادة إذا رضى بقضاء الله وقدره وصبر على ما نـزل بـه .. لأن الصبر ضياء عندما يتحلى به الإنسان يسـتطيع أن يـدرس مشـاكله الـتي تعـترض مسيرة حياته .. بهدوء نفس واتزان عصبـي وان يتعـرف علـى أبعـاد الموقـف .. وأن يجعل غضبه لنفسه من أجل الله .. وليس من أجل الهوى والمصلحة الشخصية.. وخالد نموذج فريد تربى على قيم الإسلام ومبادئ الدين وتتلمذ على يد سيدنا محمد العظيم الرائد الملهم والقائد المظفر .. لذلك .. كان عزل خالد من قيـادة الجيـش يعنـى أنـه لا يستمر في الخدمة .. ولا يتعايش مع الجند علـى مسـرح العمليـات الـتي حقـق فيـها النصر .. وقد جرت العادة أن القائد إذا أحيل إلى التقاعد أو نقل إلى منصب آخر يرقى إلى رتبة أعلى ليستبعد من مكانه حتى لا يتذكر الجند أيام قيادته .. كما أنه كان من الطبيعى أن يغضب خالد لهذا الإجراء التعسفي / من وجهـة نظر البعض / وأن يحـس بالمرارة في قلبه.. لكن الحقيقة أن هذا لم يحدث لأن شيئاً من ذلـك لم يـدر في حديـث بينه وبين أخلص الخلصاء إليه .. لكن الأمر الواضح أن خالدا أخفى ألمه وحزنه حتى

---

(١) عبقرية عمر للعقاد صـــ٢٧٤ وما بعدها.

لا يكون هناك تأثير على جيش المسلمين لأن خالدا أيقن أن أى إجـراء مـن جانبـه قـد يكون ضد الخليفة ويؤدى ذلك إلى انقسام الجيش .. وكان هذا آخر ما يمكـن أن يفكـر فيه خالد البطل المغوار .. ولكن .. ماذا يصنع خالد وحياتــه ارتبطـت بالقتـال.. وقـد حبته القدرة الإلهية بالمواهب والصفات الحربية التي بنـى عليـها مستقبله .. لهـذا رأيناه بعد عزله من قيادة الجيش أعرب عن استعداده ليعيـش جنديـاً بسـيطاً برتبـة أقل مما يشغلها وقد أبدى هذه الرغبة بنفس الحماس وبنفس الوازع والدافع الذي قاد بهم الجيوش..

وهـذه الصـورة لم تكـن إلا انعكاسـاً للفعـل المـتزن والقلـب الطـاهر والنفــس الراضية المطمئنة والقيم الحية في القلب .. ورضى خالد بعيشته ومنزلته لأنه يوقن أن ما عند الله خير وأبقى .. ولا طمع له في الدنيا في منصـب أو جـاه أو ثـروة أو صيـت .. وإنما كل ما يتمناه .. أن يفتح أرضاً تعمــر بذكـر الله .. وأن يكـون سـبباً في أن يدخـل الناس في دين الله أفواجاً .. بغض النظر عن الموقع الذي يحتلــه .. فـرُبَّ جـالس علـى كرسى الإدارة والناس ساخطة عليه تلعنه .. لأن الظلم ساد في عهده والجور انتشر في أيامه .. فماذا ينفعه الكرسى ؟ .. وكم شخص يمسك بالقلم وكل كلمة يكتبـها النـاس تلعنه لأن كلمته تنشر الشر وتجرح كرامة بعـض النـاس وتـهز كيانـهم .. وكـم مـن مجاهد في سبيل الله في أي موقع لا يعرف النـاس عنـه شـيئاً .. لكـن التـاريخ يسـجل اسمه بحروف من نور على جبين الزمن ليكون لمن يأتى من بعده عبرة وذكرى...



لم يعزل خالد نفسه عن الجند لأن الرجل الأصيل هـو هـو في أي موقـع عطـاء تواصـل وفكر متجدد .. وقد أعلن عن ذلك بقوله (إن كان أبـو بكـر قـد قُبض وقـد اسـتخلف عمر.. فالسمع والطاعة لعمر وما به أمر)[1] .. فخالد إذاً يعمل بنفس راضية .. وبعـد مضى أسبوع من هذا الحدث الرهيب الذي زلزل كيان خالد وهز رجاله .. وتـولى أبـو عبيدة قيادة الجيش .. جاء أحد الأعراب النصارى وقال لأبى عبيدة (إن سـوقاً كبـيراً

(١) فتوح الشام للواقدي جـ١ صـ٨٧.

استقام خلال أيام في "أبى القدس" وسوف يقدم عدد كبير من الزائرين والتجار من شتى أنحاء المنطقة الأسيوية التابعة لإمبراطورية بيزنطة وهؤلاء التجار والزوار يحملون سلعا وبضائع ثمينة) وقال الرجل الأعرابى للقائد .. إذا أراد المسلمون نشر الإسلام فهذا تجمع من شتي البقاع فابعثوا بمن يبشر بالدين ومعهم قوة من الجند تحميهم . فإن استجابوا وإلا فمن حقهم الاستيلاء على المزيد من الغنائم والأسلاب ..
لكن الأعرابى .. الذي أراد أن يتقرب من المسلمين.. لم يفصح عما إذا كان هذا السوق يحميه جند الروم أم لا لأن الحرب مازالت بينهم. أما إذا لم يكن للسوق صله بالروم فأن المسلمين لم يتعرضوا لأهل السوق لأن المسلمين لم يتعرضوا لأحد بسوء كما أنهم ليسوا قطاع طرق وليس همهم المال ولا المتاع وإنما غرضهم نصر الإسلام وحماية العدل والإحسان إلى الناس ... أبو عبيدة رضي الله عنه استمع إلى كلام الأعرابي ولم يسأله.. لأن أغلب الظن أن أبا عبيدة ظن أن خالدا بن الوليد سيتطوع لهذه المهمة ..
لكن خالدا ظل صامتا .. وهنا سأل أبو عبيدة من سيتطوع لهذه الحملة ؟ .. فتقدم شاب على وجهه آثار لحية صغيرة وأبدى استعداده لقيادة هذه الكتيبة .. وكان هذا الشاب هو (عبد الله بن جعفر) الطيار .. وكان هذا الشاب قد وصل لتوه من المدينة بقصد الجهاد في سبيل الله .. فعين أبو عبيدة هذا الشاب قائدا على مجموعة من الفرسان تعدادها خمسمائة فارس تحرك بهم هذا القائد في ١٥ شعبان من العام الثالث عشر الهجرى .. وسار ليلا تحت نور القمر الذي سطع في السماء بدرا كاملا..
وكان نائب هذا القائد محارب بارع هو (أبو ذر الغفارى) .. وما أن طلعت شمس الصباح إلا وووجه هذا الشاب بجند الروم يزيد عددهم عن خمسة آلاف رجل مكلفة بحماية المنطقة وحراسة السوق .. وأحاط جند الروم بالمسلمين وكانت كارثة وأصبح القضاء على المسلمين مسألة وقت .. لأن الروم أحاطوا بالمسلمين إحاطة كاملة .. وليس عند المسلمين مدد ولا طريق مفتوح .. ولقد استطاع أحد المسلمين أن يفلت من تطويق الروم ووصل هذا الجندى إلى أبو عبيدة وهو مجتمع مع قيادة جيشه وعندما عرف بالخبر ضرب على يديه وتذكر كلمات عمر (لا تقدم المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة) لكن ماذا يفعل .. وهذا أول قرار حربى يتخذه كقائد عام للجيش .. ثم أن هذه

الهزيمة ستؤثر على المسلمين تأثيراً عظيماً وسيكون لها بلا شك رد فعل عواقبه وخيمة .. وفكر .. من يستطيع أن يسارع لنجدة هؤلاء .. وقرأ بعينيه ما هو مدون على جبين الزمن واسترجع الذكريات وتأكد له .. لن يكون للنجدة إلا خالدا .. كان خالد يجلس في ناحية وحده فالتفت إليه أبو عبيدة وصاح .. يا أبا سليمان إلحق بابن أخيك ..عبد الله بن جعفر فأنت لها...

فرد خالد ..أنا لها إن شاء الله .. وما كنت أنتظر إلا أن تأمرني فرد أبو عبيدة ..استحييت منك يا أبا سليمان .. فقال خالد والله لو أُمِّرَ عليَّ الأمير طفلا صغيرا لأطيعن له .. فكيف أخالفك وأنت أقدم مني إيمانا وأسبق إسلاما .. كنت بإسلامك مع السابقين .. وسارعت بإيمانك مع المسارعين .. فإني جعلت نفسي حبا لك في سبيل الله .. كان أبو عبيدة لا يزال يحس بالضيق الذي لحقه من تغيير القيادة لذلك خنقته العبرات وقال بصوت فيه رنة الحب لخالد : يا أبا سليمان إلحق إخوانك يرحمك الله [1] في خلال الساعة كان خيل الزحف بقيادة خالد في طريقه إلى أبى القدس ومعه ضرار بن الأزور وقد أدرك خالد جند المسلمين وأنقذوهم من محاصرة الروم .. ولم يكتفي خالد بهذا النصر بل أغار على سوق أبى القدس ومن لم يدخل في الإسلام أو يقبل دفع الجزية أخذ ما معه وأسره .. لذلك عاد بغنائم كثيرة، الأمر الذي جعل أبا عبيدة يكتب إلى عمر بن الخطاب كتابا يصف له ما حدث ويمدح خالداً بكلمات قوية العبارة وللدور الذي أداه بمهارة مما يدل على أن نفس خالد لم تتأثر بسحب القيادة منه أو عزله عنها ، فهو هو في جهاده وشجاعته المعهودة ..لقد طرأ تغير جذري على قيادة جيش المسلمين بالشام ، ورجع ذلك إلى موت الخليفة أبو بكر وأثر ذلك على سير العمليات الحربية ..لأن أبا بكر كان يحدد لقادته مهامهم ومناطق عملياتهم ويترك لهم حرية العمل في إدارة المعركة ..لكن عمر لم يختلف عن ذلك فكان يحدد الهدف كل معركة ويتدخل في تفاصيلها الدقيقة حتى كان يتولى تعيين قيادة ميسرة الجيش وميمنته.. كما أنه أدخل نظام نقل المعلومات بين

---

(١) بتصرف من فتوح الشام للواقدى جـ١ صـ٩٤.

الجيش.. وكانت كل كلمة يقولها أي رجل تنقل وبسرعة إلى الخليفة[1]..وقد أصبح عمر بهذا يتعايش في جميع القرى والأمصار سواء في الناحية الإدارية أو السياسية أو الحربية

لكننا نلاحظ أن خالداً ، وأن كان قد عينه أبو عبيدة قائداً لجيش العراق والتي تضم مجموعة خيل الزحف ، فإنه لم يعد له دور غير هذا يقوم به وعليه أن يعمل حسب أوامر عمر تحت إمرة أبي عبيدة ..وقد رضي بوضعه هذا وابتعد عن الناحية السياسية ..وكان أبو عبيدة إذا استشاره في أي أمر فكان هو الناصح الأمين وعاش خالد أيامه يخرج من معركة ليدخل في أخرى بنفس الحماس المعهود فيه ..

معركة فحل

لم يقبل هرقل هزائمه من المسلمين ..وكان هو من الشخصيات التي تحسب لكل أمر حسابه ، كما أنه لم يتخلّ عن المقاومة ..لذلك رأيناه بعد عمليات أبى القدس جمع جيشا كبيرا في إنطاكية ثم دفع بهذا الجيش إلى مرج الديباج ودفع بجزء كذلك إلى مواني البحر الأبيض المتوسط بالشام .. ونبه على الجيش أن يتجمع ببيسان ..غربي نهر الأردن .. وكان من تخطيطه أن يقطع على المسلمين طرق مواصلاتهم مع المركز العام للقيادة السياسية والحربية في الجزيرة العربية محاولا أن يتجنب أي صدام مباشر مع المسلمين ، والغرض من ذلك أن يضع المسلمين في وضع لا يستطيعون أن يجنوا فيه أي كسب استراتيجي ليجبرهم على الجلاء عن البلاد ..وكانت فحل قرية شرق نهر الأردن خاضعة لحامية رومانية ..وكان عدد أفرادها قليل...

عرف المسلمون من أعوانهم وعيونهم بهذه الناحية على معلومات تبين لهم عن جيش الروم الجديد الذي يتألف من ثمانين ألف رجل على رأسهم (سقلأن بن مخراق) وأن هذا الجيش قد يتحرك ليحيط بالمسلمين ويقطع عليهم خطوط المواصلات.. وعلى الفور تحرك أبو عبيدة وعقد اجتماعا (مجلس حرب) وعرض الأمر عليهم واستشارهم ..وتقرر في هذا الاجتماع ..أن على المسلمين أن يتحركوا وبسرعة لصد هذا الجيش وأن يتركوا حامية من خلفهم لتدافع عن دمشق ضد أي تهديد ..ومن

(١) بتصرف من تاريخ الطبرى جـ٣ صـ٤٧٦.

الملاحظ أن المسلمين كانوا قد استعادوا أنفاسهم بعد الأعمال البطولية التي قاموا بها.. علاوة على أن هناك إمدادات قد وصلتهم من بلاد العرب وبهذه الإمدادات والتعزيزات أصبح جيش المسلمين جاهزاً وتعداده ما يقرب من ثلاثين ألف رجل .. وقد دفع أبو عبيدة بخالد بن الوليد في مقدمة الجيش الذي تحرك ووصل إلى فحل فلم يجد بها أحدا من الروم الذين فروا منها وقد رأى جيش المسلمين على جانبي نهر الأردن ما يشبه المستنقع...

إن الروم عندما سمعوا باتجاه جيش المسلمين إليهم انسحبوا عبر النهر وتوجهوا إلى بيسان وهى التي بها الجزء الرئيسي من جيش الروم ..ورغبة من الروم في نجاتهم وعدم تعرضهم لأي أذى قاموا بسد النهر عند مكان يبعد قليلا عن جنوب خط بيسان /فحل /وأغرقوا الحزام المنخفض الذي يمتد على طول ضفتي النهر بالمياه.. كانت هناك طرق تخترق المنطقة المغمورة بالمياه لكنها لم تكن معروفة للمسلمين الذين أصيبوا بالدهشة عندما رأوا هذا العمل وشاهدوا هذا الحزام الطويل من الماء والطمي الممتد على طول جبهتهم ..ومع هذا فإن المسلمين قرروا أن يقوموا بمحاولة عبور النهر مهما كانت الأسباب ..وقد وضع خالد وقواته في المقدمة ليعبروا إلى بيسان .. وبعد أن تحرك خالد برجاله انغرست أقدامهم في الطمي ولاقوا عناءً كبيراً في تخليص أنفسهم ..أما أبو عبيدة وعمرو بن العاص فكانا على رأس جناحي الجيش .. أما شرحبيل فكان مع قواته عند سفح المنحدر أسفل فحل في مواجهة الحدود الشمالية الغربية ..رجع خالد وأعلن استحالة تخطي هذا المنخفض إلا بعد أسبوع ..وجلس جيش المسلمين ينتظر..كانت أعين الروم على المسلمين وعرفوا ما حدث بالتمام .. ورأى سقلان قائد الرومان أن هذه أنسب فرصة ليضرب ضربته القاضية على المسلمين الذين عرفوا بأمر المستنقع وقد خلعوا ملابس الحرب وأحسوا بالأمان إذا فليتحرك هو وبحذر متخذاً الطرق التي يعرفها وأن يباغت المسلمين وهم بلا حراسة وكان ذلك في أواخر شهر ذي القعدة من العام الثالث عشر الهجري ، وقد تقدم جيش الروم غرب النهر وبدأ هو في مقدمة جيشه وكانت ساعة الصفر عندهم منتصف الليل.. وفعلا تحرك جيش الروم ليلا لينقض على جيش المسلمين فوجده على أهبة

الاستعداد للقتال ..وكان قد جاء من ناحية شرحبيل القائد اليقظ الحذر الذي وضع ستارا من العسس على طول المستنقع ليراقبوا أي تحرك للعدو ..وكان ٧٥٪ من جيش المسلمين على استعداد تام لملاقاة العدو في أي وقت ..لذلك عندما أبلغ العسس القائد شرحبيل فرح لأن هذه هى اللحظة التي ينتظرها واستعد ليسدد ضربة إلى جيش الروم الذي أصابه الجهد والتعب .. ودار قتال عنيف استطاع المسلمون أن يردوا كل محاولات الروم في الهجوم عليهم .. وقد قتل سقلان القائد العام في إحدى الجولات .. وأيقن الروم أنهم أصيبوا بخسائر جسيمة على أيدي المسلمين الذين كانوا كجدار من الصلب أمام جيش الروم .. فشلت خطة الروم ومات الكثير منهم في المستنقع الذي صنعوه بأيدهم ولأنه لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله، وكان المسلمون يلاحقون الروم بصيحاتهم المرتفعة واستطاع المسلمون أن يبيدوهم وقدر عدد من قتل من الروم في هذه اللحظة بعشرة آلاف جندي روماني[1] .. وتشتت الروم في كل اتجاه وبلا أي نظام .. وتحرك بعد ذلك شرحبيل مع جيشه إلى بيسان ومعه عمرو بن العاصي.. وقد قاما بفرض الحصار على الروم في معسكرهم وبعد مناورات استسلمت بيسان لشرحبيل ووافق أهلها على دفع الجزية ثم تحرك شرحبيل بمن معه إلى (طبرية) التي استسلمت هى الأخرى بشروط بيسان ولم تبق هناك بعد ذلك أي مقاومة في المنطقة ..

تحرك أبو عبيدة مع خالد إلى دمشق وشمال الشام ..وكان ذلك في أواخر العام الثالث عشر الهجري ..وفي أوائل العام الرابع عشر الهجري اتجهت أنظار شرحبيل وعمرو بن العاص إلى فلسطين ..وهنا أرسل عمرو بخطاب إلى الخليفة ينهي إليه ما وصل إليه علمه من التدابير التي يقوم بها الروم وعدد قواتهم بفلسطين ..ورد عمر ابن الخطاب رضي الله عنه على عمرو بتعليمات مفصلة عن الهدف الذي كان عليه أن يقوم به ، وكتب عمر أيضا إلى يزيد يطلب إليه الاستيلاء على شاطئ البحر الأبيض المتوسط .. وإزاء هذا حدث تعديل في القيادة.. فأصبح عمرو بن العاص قائدا وشرحبيل مساعدا لأن عمروا كان قائدا لجيش هذه المنطقة وتحرك جيش المسلمين .. فسار عمرو مع جيشه إلى أجنادين وهناك قاتلوا قتالا عنيفا وهزم المسلمون الروم وبعد

---

(١) تاريخ البلدان للبلاذرى صـ١٢٢.

هذه الموقعة انقسم الجيش الإسلامي إلى جزءين ..جزء بقيادة عمرو اتجاهه إلى نابلس وغزة وما حولهما واستولى الجيش على كل هذه المنطقة ، أما الجزء الثاني من الجيش بقيادة شرحبيل فاتجه إلى المدن الساحلية بما فيها صور وعكا . وقد تم الاستيلاء على هذه المنطقة أيضا .. وأما يزيد فقد سار مع أخيه معاوية من دمشق واستولى على موانى صيدا والعرقة وجبيل وبيروت وبهذا تكون كل مناطق فلسطين قد تم الاستيلاء عليها...

حمص

كان المسلمون عندما تحركوا إلى المناطق السابقة ... اعتقد هرقل أن المسلمين سيتوجهون بعد ذلك إلى الأردن وفلسطين ..وأنهم لا يبدون أي اهتمام لشمال الشام .. ونقلت إليه عيونه بأن دمشق بها قوة صغيرة من المسلمين لذلك قرر وعلى عجل أن يبعث بقوة رومانية بقيادة رجل اسمه (توذري) يحارب المسلمين في دمشق ويقضي عليهم .. وخرجت هذه القوات من أنطاكية وسارت نحو دمشق .. وما أن بدأت هذه المسيرة في تحركاتها حتى وردت إلى هرقل معلومات أخرى تفيد أن أبا عبيدة وخالدا غادرا دمشق وأنهما اتجها صوب الشمال .. لذلك أصدر تعليماته السريعة إلى تعزيز قوات (توذري) بفصيلة من الحامية الكبيرة الموجودة بحمص ، وأن تتجه فورا إلى دمشق بقيادة (شنس) ، كان هذا التحرك في أوائل المحرم من العام الرابع عشر الهجري .. لأن أبا عبيدة وخالدا كانا قد غادرا (دمشقاً) لينقلا الحرب إلى الشمال .. أما شرحبيل فكان في بيسان وطبرية وأبو عبيدة وخالد في سيرهما نزلا في سهل مملوء بالحشائش يعرف بمرج الروم .. وكان على بعد بضعة أميال في الجنوب الغربي لدمشق وكان اتجاههما إلى حمص مع عدم المرور بدمشق لأنها آمنة وبها حامية من المسلمين ولم يكن ما خطط له هرقل وهدف إليه قد وصل إليهما ، إلا أن الأقدار هيأت أن الجيش الإسلامي الكبير بقيادة أبى عبيدة وخالد عندما وصلا إلى مرج الروم وجدا توذري في انتظارهم .. وفي لحظة وصولهم وصل جيش (شنس) وليس هناك تقدير لجيش الروم إلا أن الجيشين التقيا مع بعضهما في معركة .. بعد مناورات حربية

بارعة ثم جاء الليل وخيم الظلام .. وكانت هناك خطة بارعة من الروم خلاصتها .. أن شنس بقيادته يواجه المسلمين .. وأن توذري.. أو كما يسميه بعض المؤرخين (ثيودور) ينسحب مع قواته دون أن يفطن جيش المسلمين المرابط ويتجه هذا الجيش على عجل إلى دمشق لسحق المسلمين هناك ويتم استرداد المدينة .. وهي خطة ولا شك بارعة .. وتم تنفيذها بدقة ونظام إلى درجة أن المسلمين لم يفطنوا إلى أن نصف جيش الروم الذي يواجههم لم يعد في مكانه .. هكذا ظن الروم .. لكن عيون خالد التي لم تعرف النوم في أيام المعارك كانت ترقب الروم بدقة .. وقد أرسل عيونه خلف الجيش المنسحب فعرف أنه إلى دمشق يتوجه .. وعلى الفور اقترح على أبي عبيدة أن يسارع بقواته إلى دمشق ليساعد الكتيبة التي هناك لأنها قليلة وربما تكون غافلة ، ووافق أبو عبيدة واتجه خالد مع جيش الزحف الذي يرافقه إلى دمشق .. وما أن وصل إلى دمشق حتى رأى المعركة قائمة بقيادة يزيد وكان الموقف في غير صالح المسلمين لتفوق الروم عليهم .. وقد كان الموقف ميؤوسا منه بالنسبة للمسلمين لولا مجيء خالد ورجاله البواسل .. واستطاعوا تمزيق مؤخرة جيش الروم إربا ومزقوهم وكانت هناك مبارزة بين خالد وتوذري انتهت بقتل توذري وانتصر المسلمون وحازوا غنائم كثيرة كان معظمها من الأسلحة والدروع .. وهناك في مرج الروم انتصر المسلمون بقيادة أبي عبيدة الذي قتل قائد الروم شنس في مبارزة فردية وتعرف هذه الموقعة بمرج الروم...

أمضى المسلمون بعض الوقت بمرج الروم ودمشق يعالجون جراح الجنود ويهتمون بتنظيم الأمور الإدارية .. وكان أبو عبيدة قد رسم خطة خلاصتها أن يبعث بخالد مع قواته إلى حمص وأن يتجه هو بجيشه إلى بعلبك ، وما أن وصلها حتى استسلمت حاميتها بلا قتال .. أما خالد فقد وصل إلى حمص التي دخل أهلها إلى الحصن وأغلقوا الأبواب عليهم .. وفرض خالد الحصار عليهم .. وما هي إلا أيام حتى انضم إليه أبو عبيدة وبعد عشرة أيام من فرض الحصار اتفق الطرفان على عقد هدنة.. ووافق أهل حمص بمقتضاها على دفع عشرة آلاف درهم وتقديم مائة ثوب من الديباج ومقابل هذا يتعهد المسلمون ألا يشنوا أي هجوم على حمص لمدة سنة .. لكن .. إذا

جاءت أي تعزيزات رومانية من القوات المقاتلة إلى حمص فإن الهدنـة تعد لاغيـة .. وفتحت حمص أبوابها للمسلمين الذين دخلوها بأمن وأمان .. وعندما نـزل المسلمون إلى سوق حمص يبيعون ويشترون تملك أهل حمص العجـب والدهشـة .. لأنـهم رأوا المسلمين يدفعون ثمن أي سلعة يأخذونها مـع الرقـة في المعاملـة والأدب في التخـاطب والبشاشة في وجه الناس . لقد ازدادت دهشـة أهـل حمـص عندمـا رأوا هـذه المعاملـة الطيبة الكريمة .. لأنهم تعاملوا مع الروم فوجدوا العجرفة والصلـف والقسـوة وأخـذ منتجات الأهالي بالقوة .. هـذه العلاقـات الاجتماعيـة الـتي يتميـز بـها المسلمون .. نابعة من إيمانهم يـأمرهم بـهذا لأن القيـم الأخلاقيـة فيـه لا تتجـزأ والمسلم يعـامل الناس جميعا بهذه القيم ..ولذلك اطمئن أهل حمص إلى المسلمين ..

عندما دخل أهل حمص في ذمـة المسلمين تقدم أهـل (قنسـرين) وطلبـوا أن يعاملوا بما عومل به أهل حمص .. لأنهم أدركوا أن الهدنة ليست عملا بغيضا وإنمـا هى وسـيلة طيبـة لتفـادي أي قـرار عنيـف قـد يتخـذ ضدهـم .. وأن الهدنـة في هـذه اللحظات تدعو إليها الضرورة...

الظاهر من مجريات الأحداث أن المسلمين نيتهم سليمة لأنـهم قبلـوا الهدنـة ورضوا بها وبدأوا يتعاملون مع الأهالي بسماحة نفـس وهـدوء أعصـاب ويطبقـون قيـم الدين وأخلاقه .. الأمر الذي أثار إعجاب أهالي هـذه المنطقـة بالمسلمين وأخلاقـهم .. لذلك فرح الأهالي بهذا...

أما قيادات هذه المنطقة وحكام هذه البلاد فكان لهـا غـرض آخـر هـو خدعـة المسلمين وشغلهم بالبيع والشراء وفتح الأسواق أمامهم حتى ينعموا ويستريحوا ، وفي نفس الوقت يتمكن هرقل من إرسال تعزيزات حربية قوية لقتال المسـلمين وإبادتـهم (قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ) [الإسراء : ٨٤] ... بدأ أبو عبيدة في إرسال قوات من جيشه إلى مناطق الشمال في الشام لتـأمين المنـاطق .. ووصلـت هـذه القـوات إلى حلـب وكـانوا يبعثون بالأسري إلى القائد العام وما يعـثرون عليـه مـن غنـائم .. ثـم في أواخـر فصـل صيف هذا العام كانت الحالة على ما هى عليه الأمر الـذي جعـل عمـر وهـو بالمدينـة يبعث بخطاب إلى أبى عبيدة يطالبه بالتحرك بـالجيش إلى شمـال الشـام ليؤمـن هـذه

المناطق كلها .. وبناء على هذا الخطاب عقد أبو عبيدة اجتماعا لمجلس الحرب وتم أخذ قرار يقضي :

١- التحرك السريع إلى الشمال...

٢- عدم التعرض لأهل حمص أو قنسرين بأي أذى لأنهما في ذمة المسلمين ويتمتعان بالأمان...

في منتصف شهر رمضان تحرك الجيش الإسلامي إلى حماة وخرج أهلها للترحيب بالمسلمين ، وسار الجيش في طريقه يُسْتَقبل من أهل البلاد بالحب والترحيب وكثير من الناس دخل في دين الإسلام حيث بلغتهم أنباء المعاملة الطيبة والأخلاق الكريمة ..ولهذا كانت بعض البلاد تخرج بفرق الموسيقى على أوتار آلاتها رمزا للترحيب بالناس الطيبين ..كان المسلمون بقرية (شيزار) وجاءت الأخبار تؤكد أن تعزيزات حربية وصلت إلى حمص وأن حمص وما حولها استقبلوا القوات بالترحاب ..الأمر الذي جعل أبو عبيدة يفكر في الرجوع إلى حمص ..قبل أن يغامر بعمليات أخرى خطيرة شمال الشام ..رجع المسلمون فورا إلى حمص في مقدمتهم خالد ووجد قوة رومانية كبيرة قرب حمص تعترض طريقه ووقع اشتباك فَرَّ الروم بعده إلى حمص حيث دخلوها وأغلقوا الباب عليهم..كانت خطة الروم بارعة ..وكان القائد هو حاكم حمص العسكري ويسمي(هوبيس) وكان قد تلقى خطابا من هرقل يقول له فيه (بلغني أن طعامهم لحوم الإبل وشرابهم ألبانها وهذا الشتاء فلا تقاتلوهم إلا في كل يوم بارد فإنه لا يبقي إلى الصيف منهم أحد)[1]...

حمص مدينة محصنة ومبنية على شكل دائري.. يحيط بها خندق مملوءا ماءا كما أن بداخلها قلعة هي أعلى مكان بداخل الحصن ..أما من الخارج فكان هناك سهلا خصيباً يخترقه من ناحية الغرب نهر أورنتس[2].. عسكر أبو عبيدة مع خالد أمام الجانب الشمالى في مواجهة باب الحصن ويسمى (باب الروستون) وكان جيش المسلمين يتكون من خمسة عشر ألف مقاتل وكلف خالد بالإشراف على عملية الحصار والتصرف كأنه القائد الفعلى لجيش المسلمين .. دام الحصار حول حمص مدة

---

(١) الطبرى جـ٣ صـ٥٩٩ وما بعدها.

(٢) يسمى الأن نهر العس.

تزيد على شهرين ..وكان الجو شديد البرودة ..ونظرا لأن المسلمين عانوا معاناة شديدة من هذا الجو الذي لا يحتمل من شدة برده إلا أن المسلمين لم تلن قناتهم ولم تضعف عزائمهم ..أما الروم فكانوا ينظرون بشماتة إلى جيش المسلمين لوضعهم المكشوف .. لذلك .. ظن الروم أن البرد سيتولى بنفسه إبادة جيش المسلمين الذين جاءوا من الجزيرة العربية ولم يتعودوا على هذا المناخ...

في هذا الجو .. وفي هذه اللحظات الحاسمة جاء خطاب من عمر بن الخطاب يطلب فيه من أبى عبيدة يأمره فيه بعودة قوات العراق إليها لأن معركة القادسية على وشك وأن الفرس استعدوا لها .. ولابد لنا أن نعزز قوات المسلمين هناك بجيش من أهل العراق أنفسهم .. جيش العراق عدد رجاله ستة آلاف رجل.. أحبوا خالدا.. واعتنقوا الإسلام على يديه ..وقاتلوا تحت لوائه .. صالوا وجالوا في المعارك بتخطيط خالد غنموا وكسبوا وهم مع خالد .. واليوم .. جاء خطاب من الخليفة تجاهل فيه خالدا ولم يذكر اسمه في الخطاب .. وكأن الخليفة تعمد أن يفصل خالداً وقواته الذين تربوا على يديه وذاقوا حلاوة النصر معه عن جيش العراق ، إذا فالخطة مستهدفة لعزل خالد ..لكننا نعلم علم اليقين أن خالدا أعلن أكثر من مرة أنه لن يتمرد على القيادة حتى ولو أُمِّرَ عليه الخليفة طفلاً لأنه يعمل لدينه وكفاه ذلك فخرا .. لذلك خرج جيش العراق الذي أحاط بقائده يودعه وكانت لحظة حزن سالت فيها دموع الأبطال الذين لم يعرفوا إلا لغة الانتصار .. لكن .. ماذا يصنع الرجال والأيام تدور والأشخاص تزول ولا يدوم إلا الواحد القهار الذي علينا أن نرضي بقضائه وأن نستسلم لأمره فهو القائل لحبيبه ومصطفاه (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ).[آل عمران : ١٢٨]

شاهد الروم جيش العراق وهو يعود أدراجه ، وكان ذلك في أوائل العام الخامس عشرة الهجري واعتقد الروم أن البرد أنهك الجيش فبدأ في الانسحاب وبدءوا في الاتجاه إلى الجنوب حيث الدفء .. وقد أعطى هذا الظن أملا جديدا في نفوس جند الروم ..لذلك انقضت مدة ولم يحدث خلالها أي تحرك من جانب المسلمين ..وقدبدأ جيش الروم يفكر في أن المسلمين ليس في نيتهم رفع الحصار وأن الجو بدأ يتحسن والبرودة القاسية انتهت ..وما هي إلا أيام حتى يقدم الربيع وجوُّه

أفضل وفيه قد يتمكن المسلمون من الحصول على إمدادات كثيرة ..لذلك يتطلب الموقف اتخاذ قرار عاجل ..وقد اتخذه القائد هربيس فعلا فأمر بشن هجوم مفاجئ على المسلمين وأن يأخذهم بغتة ليلحق بهم هزيمة لم يعرفوها من قبل وأن تكون المعركة خارج الحصن ..كان أهالي المنطقة يرغبون في السلام خاصة وأنهم ذاقوا طعم المعاملة الكريمة مع المسلمين ..لكن ماذا يصنع الأهالي والقائد هربيس هو ابن بار من أبناء الإمبراطورية ويريد أن يحقق لنفسه مجداً بإحرازه النصر على المسلمين...

حدد هربيس ساعة الصفر في صباح يوم تكون كلمة السر فتح باب الرستون، وتقدم هربيس على رأس خمسة آلاف مقاتل وقاموا بهجوم خاطف على المسلمين الذين لم يتوقعوا حدوث مثل هذا الهجوم بهذه السرعة والعنف اللذين تم بهما الهجوم ..كما أن الأبواب الأخرى للحصن فتحت وخرج منها قوات بنفس العنف والسرعة واستطاعوا أن يردوا المسلمين عن مواقعهم وتبين أن ضغط الروم يشتد وبقوة وقد أصبح واضحا أنهم سيخترقون الصفوف .. لم يجد أبو عبيدة بُداً من أن يكلف خالدا من تنظيم المسلمين الذين أصابهم الهم لما لحق بهم في الصباح من المفاجأة التي تركت أثرها الكئيب على وجوههم .. وما أن تحرك خالد بين الجنود إلا وقويت أرواحهم المعنوية واستعادوا قوتهم ..لذلك بدأ الاشتباك مرة ثانية وتقدم خالد مع جيش الزحف وبدأ الروم يتقهقرون .. وما أن قاربت الشمس على المغيب إلا وقد أنهزم الروم وانسحبوا إلىٰ داخل الحصن .. لكن هذا الهجوم من جانب الروم وإن كان قد فشل إلا أن المسلمين بدأوا ينظرون إلى قائد الروم هربيس والمحاربين معه نظرة تقدير...

في الليل عقد أبو عبيدة مجلس حرب وكان يبدو على القادة المسلمين التوتر وليس فيهم الحماس المعهود ..وتكلم أبو عبيدة وأبدى عدم ارتياحه للطريقة التي تقهقر بها المسلمون أمام هجمات الروم ..وقال خالد ..أنه لم ير من قبل رجالا بمثل شجاعة هؤلاء الروم ، وسأله أبو عبيدة : فما الرأي عندك يا أبا سليمان يرحمك الله؟، قال خالد : رأيت من الرأي أن نكشف للقوم غداً وندع لهم امتعتنا ونساءنا وأطفالنا وإبلنا ..فإذا تباعدنا عن مدينتهم وتبعنا خيلهم وتباعدوا عن مدينتهم

وصاروا معنا عطفنا عليهم ومزقناهم بالأسنة ونقطع ظهورهم لبعدهم عن مدينتهم[1]...

أشرقت شمس الصباح .. فشاهد الروم نشاطا في معسكرات المسلمين والتي تحيط بحمص .. فقد هدوا خيامهم وحزموها في حزم لتحملها البعير ورأى الروم أن جيش المسلمين يتحرك نحو الجنوب .. ظن الروم ساعتها أنها لحظة الخلاص من المسلمين الذين رفعوا الحصار وانسحبوا وفرح الروم بذلك ظانين أن البرد أثر في المسلمين .. لكن هربيس القائد المحنك لم يكن يقنع بمعركة تتعادل فيها النتائج وتتساوى .. وقد رأى في انسحاب المسلمين فرصة عليه أن يغتنمها .. لذلك جهز جيشا كبيرا عدته خمسة آلاف مقاتل ودفع بهم خارج الحصن ليتعقبوا المسلمين .. اعترض بعض القساوسة وحاولوا أن يمنعوا الجيش من الخروج وقالوا لهربيس (وحق المسيح إن هذه خدعة ومكر ومكيدة من مكائد العرب وأن العرب لا تسلم أولادها وإبلها ولو قتلوا عن آخرهم)[2]...

لم يستمع هربيس لهذه النصيحة ودفع به الغرور فخرج على عجل ولما اقترب جيش الروم من معسكر المسلمين وجدوا أن قلة من المحاربين تحمي النساء والأطفال وتسوق الإبل وقد علت أصواتهم بصرخات كلها رعب وفزع وسارعوا بالفرار إلى ناحية الجنوب تاركين قطعان الماشية والأمتعة...

قرر هربيس في هذه اللحظة أن يترك هؤلاء وحالهم لأنه سوف يعود إليهم ولن يفلتوا من يديه .. ودفع بقواته لتطارد المسلمين الفارين وتلحق العدو المتقهقر وعلى بعد بضعة أميال من حمص كانت طليعة قوات هربيس تقترب من المسلمين الفارين .. وما هي إلا لحظات حتى استدار المسلمون فجأة وراحوا يضربون بشدة وعنف .. الأمر الذي أربك جيش الروم ثم أحاط جيش المسلمين بجيش الروم من كل ناحية .. وأخذ جيش الروم بهذه المباغتة ووقع في المصيدة داخل حلقة من حديد .. ثم إن المسلمين أحاطوا بالروم من كل جانب وأخذوا يضربونهم بالرماح والسيوف ..

(١) فتوح الشام للواقدى جـ١ صـ١٤٧.

(٢) فتوح الشام للواقدى جـ١ صـ١٤٧.

وتكدست جثث الـروم علـى الأرض .. وقـد كـانوا يقـاتلون بقـوة وشراسـة كـالحيوان المفترس ولكن مع من ؟..

لقد استطاع خالد بتخطيطه البارع أن يشد الروم إلى خارج الحصن ، وفي أثناء المعركة الرهيبة الشرسة أخذ خالد يضرب بسيفه العدو يمينـا وشمـالا وكـان في وسـط المعركة ، وإذا بــه يلتقـي بـهربيس وجـها لوجـه .. سـادت لحظـة صمـت.. تحـرك هربيس بعدها إلى داخل جنوده واحتمى بهم .. لكن الـروم أيقنـوا أنـه لـو قـدر لهـم النجاة من هذه المصيدة فإنه ليس أمامهم طريق ليفروا منه إذا فالقتال حتـى المـوت .. في نفس الوقت أصدر خالد بتعليماته إلى معاذ بن جبل ومعه خمسمائة فارس ليعودوا إلى حمص بسرعة ليصدوا أي هجوم قد يأتي من خلفهم ويمنعوا أي فارس من فرسـان الروم من اللجوء إلى الحصن ..ولـما شـعر مـن بداخـل الحصـن بعـودة جيـش المسـلمين أغلقوا عليهم الأبواب ..فوضع معاذ رجاله أمام الأبواب وبدأ البعض ينصـب في خيـام المسلمين وأصبح جو المسلمين يشعر بـالأمن والاطمئنـان .. (لما أحـس هربيـس قـائد الروم بالهزيمة المنكرة طلب المبارزة .. وهذا القائد كان ضخـم الجثـة .. وصفـه أحـد شهود العيان بأنه كان يهدر كالأسد)[1] .. خـرج إليـه خـالد وبـدأت المبـارزة ..سـدد خالد إليه ضربة بالسيف وبدل أن تحطم رأسه انكسر السيف وتحطم لأن الرجل كـان يلبس لامة منيعة .. وقبل أن يرفع قائد الـروم سيفه اشـتبك معـه خـالد بـن الوليـد اشتباكا قاسيا على أثر ذلك وقع القائد الروماني علـى الأرض وراح خـالد يضغـط علـى صدر الروماني بساعديه فاحمر وجهــه وتعـذر عليـه التنفـس تحـت شـدة قبضـة يـد خالد.. وحاول وهو يشهق أن يفلت من قبضة هذا المسلم .. إلا أن قبضــة خـالد كـانت تشتد أكثر وأكثر وتحطمت ضلـوع الرومـاني .. ولـما هـدأت مقاومتـه .. أرخـى خـالد قبضته فسقط القائد على الأرض جسدا لا حياة فيه بالمرة بعد أن طحـن خـالد أضلاعـه وأدخل بعضها في بعض[2] .. اخذ خالد سيف الرجل وحمل به على عدوه مـن جديـد إن خالدا وفي بما وعد .. لأنه عندما وضع خطة الانسحاب ..وعد خــالد أبـا عبيـدة أن

---

(١) فتوح الشام للواقدى جـ١ صـ١٤٥.

(٢) نفس المصدر السابق صـ١٤٦.

المسلمين سيمزقون الروم بأسنة السيوف ويقطعون بها ظهورهم ..وقد ثبت أنه لم يفلت من جيش الروم في هذه الموقعة إلا ما يقرب من مائة فارس [1].. وكانت خسارة المسلمين في هذه المعركة وما قبلها أثناء فتح حمص من مائتين وخمسة وثلاثين شهيدا.. رجع المسلمون إلى معسكرهم وفرضوا الحصار على أهل حمص الذين عرضوا الاستسلام وبشروط أن يدفع كل رجل دينارا ..وقبل أبو عبيدة عرضهم وعاد السلام يرفرف على المدينة من جديد...

بعد أن استراح المسلمون اتجهوا صوب الشمال واستولوا على حلب وأنطاكية ووصلوا إلى حماة ثم شيزار التي التقى المسلمون فيها بقوة رومانية تحمل مؤنا فاستولى عليها المسلمون وأسروا من فيها .. وهنا توقف المسلمون عن المسير ناحية الشمال لأنهم عرفوا أن هرقلا وضع خطة من شأنها أن تقضي عليهم .. لذلك أخذوا حذرهم وتوقفوا عن المسير وبدأوا كذلك يخططون...

ميدان الشام

الميدان الحربي بالشام كان أشبه شيء بالحلبة التي يدخلها المتصارعون من جهات عدة متقابلة ..كان وراء كل مدخل أرضا يعتبرها المتصارعون في الحلبة ملكا لهم يدخلون عن طريقها ..فغرب الشام وفلسطين .. البحر الأبيض المتوسط .. أما من الشرق والجنوب فكانت البادية وفرسانها العرب ..فهم يتحركون في طرقات فوق (أساطيل) من الإبل .. والروم لا علم لهم بالبادية ولا السير فيها .. لذلك يخافون من الحرب في البادية .. أما الروم فكانوا سادة البحر يتحركون بحرية على مياهه في أساطيل من السفن دون خوف من المسلمين الذين لم يعرفوا بأي مغامرة في بحر من ماء كان طبيعيا أن كل طرف من المتصارعين يجعل ظهره إلى الناحية التي يستطيع أن ينسحب إليها إذا ما حلت به الهزيمة ..فإذا قدر النصر لأي فريق يستطيع أن يطارد خصمه وأن يقضي عليه قبل أن يلجأ إلى بر الأمان ..ومما لا شك فيه أن هذه الميزة في صالح المسلمين أكثر منها في صالح الروم .. لأن المسلمين إذا هزموا رجعوا إلى البادية

---

(١) هو نفس المصدر السابق صـ١٤٨.

دون أن يفقدوا ماء وجوههم أو أي أرض احتلوها .. أما الروم فلم يكن باستطاعتهم أن يتحركوا بسرعة وإن تقهقروا فقدوا الأرض التي احتلوها لأنـهم سيركبون البحـر .. هذا هو ميدان القتال الذي يدور فيه الصراع .. لنتصور المواقف ونتعرف على حقيقـة الوضع.. ثم ندرك أن تخطيط المسلمين كان أبرع تخطيط وأدق تنظيم لأنـهم استعملوا عقولهم وتشاوروا مع بعضهم ورتبوا أمورهم .. ولهذا كان النصر حليفهم .

هـرقـل

إذا كنا قد عرفنا حلبة الصراع .. فعلينا أن نتعرف على الرأس المدبر والمخطط لجند الروم والذي استطاع أن يصمد هذه المدة أمام الضربات المتلاحقة والهزائم المتكررة .. أنه هرقل الذي اعتلى عرش الإمبراطورية سنة (٦١٠ ميلادية) عندما اعتلى العرش كانت الأحوال سيئة جدا في الإمبراطورية الرومانية الشرقية .. عند توليه العرش كان الكثير من أجزاء الإمبراطورية إما سلبت منها وإما أعلنت استقلالها...

لذلك كان يحكم المنطقة التي تحيط بالقسطنطينية وأجزاء من اليونـان وقليل جدا من الأرض الإفريقية .. وهرقل وإن كان واجه في أول توليته صعوبات خطيرة .. إلا أن الحظ ابتسم له .. فقد هزم البرابرة في الشمال .. والأتـراك بالقوقاز كما هزم الفرس أصحاب الحضارة والمدنية واستعاد ما استولوا عليه من الأماكن .. ويؤكد علماء التاريخ بأن هرقل لم يحقق هذه الانتصارات بحد السيف فقط وإنما كان نجاحه وانتصاراته بالتخطيط الدقيق والتنظيم الرائع والخطط التي يتفوق بها على خصمه .. لأن هرقلا كان بارعا في رسم الخطط .. وكانت قدرته غير العادية في شئون التنظيم التي مكنته من تشكيل جيش إمبراطوري كبير متماسك يتألف من جنود استقدموا من أكثر من اثنى عشرة دولة كان منها أوربا الغربية والقوقاز .. ولقد أعد هذا الجيش إعدادا فنيا رائعا مع التدريب الذى هيأه لقتال أي أمة...

كان هرقل يحتقر العرب ويهزأ بهم وينظر إليهم بتعال وكبرياء ، لأنـهم في نظره جنس متخلف لا يعرف طعم الحياة .. وكان تفكيره في أنه لا يمكن أبدا لهذا الجنس الذي جاء من البادية وكون جيشا من الجنس المحتقر أن ينتصر عليه وعلى

جيشه الذى أعده بدقة ودربه على يد أكفأ القيادات لذلك فليس بمستساغ أبدا أن يهزم هذا الجيش الجيش الإمبراطوري الذي تخطط له عقلية دقيقة .. من هنا كان هرقل قد وجد نفسه مضطرا إلى ابتلاع قرص مر وأن عليه أن يعترف بالأمر الواقع .. وأن الجنس الهمجي في نظر الروم تفوق عليه هو في تخطيطه وانتصر على قواته .. وفشلت وسائل دفاعه كما فشلت خططه وتنظيماته.. بدل أن يعيد هرقل نظرته إلى العرب وأن يغير من هذا الأسلوب الذي يتعامل به ..اتجه إلى تفكير آخر جره إلى مشاكل لم يكن يحلم بها.. كان تفكيره قد اتجه إلى :

١- حشد قوات من الروس والصقالبة والفرنجة والروم واليونان وجورجيا والأرمن والعرب النصارى .. المهم أن هذا الجيش لم يتخلف عنه من يعيش تحت لواء الإمبراطورية الرومانية وكل من يؤمن بالصليب ويحمله لأن الحرب أعلنت باسم المسيح وبأمر هرقل...

٢- سلح هرقل الجيش بكل أدوات التسليح الموجودة آنذاك...

٣- ذكر المؤرخون أن هذا الجيش تكون من مائة وخمسين ألف جندي تمركزوا في منطقة إنطاكية وفي أماكن من شمال الشام...

٤- قسمت هذه القوات إلى خمس جيوش تألف كل واحد منها من ثلاثين ألف جندي.. وضع على رأس هذه القوات جميعا (ماهان)ملك أرمنيا ونائبه (قناطير) أمير روسيا وجريجوري والديرجان وجبلة بن الأيهم ملك عرب غسان الذي وضع تحت قيادته العرب النصارى وحدهم ..كما أن ماهان رغم أنه القائد العام لكنه كان يتولي قيادة جيش الأرمن وأما قناطير فيتولى قيادة الروس والصقالبة ، وأما الفرق الأخرى التي من أوربا وغيرها فكانت تحت إمرة جريجوري والديرجان[١]

ظن هرقل أنه بهذه القوات جعل المسلمين هدفا سهلا ورسم خطته على ذلك وبدأ في تنفيذها على الوجه الآتي:

١- أن يسير قناطير بجيشه على الطريق الساحلي إلى بيروت ثم يتجه إلى دمشق من الغرب ليسحق قوات أبا عبيدة...

---

(١) فتوح الشام للواقدى جـ١ من صـ١٤٣ ، صـ١٥١.

٢- أن يسير الديرجان مع جنوده إلى حلب ثم يتجه إلى حمص من الغرب...

٣- أن يسير جبهة مع جنده من العرب النصارى من حلب إلى حمص عبر حماة ويشتبك مع جبهة المسلمين بمنطقة حمص .

وكانت خطة هرقل أن يكون العرب النصارى أول من يلتحم بالعرب المسلمين.. حيث قال لهم (كونوا في المقدمة فإن هلاك كل شئ بجنسه والحديد لا يقطعه إلا الحديد)...

٤- أن يتحرك جريجوري إلى حمص من الناحية الشمالية الشرقية...

٥- أما جيش ماهان القائد العام فهو قوة احتياطية خلف العرب النصارى...

وهكذا تم التخطيط ، وظن الروم أن المسلمين بلعوا الطعم لأنهم في غيبة عن الواقع، كما ظن هرقل أن كل جيش من جيوش الروم سوف ينفرد بجيش من جيوش المسلمين يسحقه فورا .. وبهذه الخطة البارعة خرج جيش الروم من إنطاكية وشمالي الشام .. في نفس الوقت أمر هرقل بإقامة الصلوات في شتي أنحاء الإمبراطورية والدعاء لجيشها بالنصر وراح القادة والرهبان يحثون الجنود على القتال دفاعا عن عقيدتهم وإنقاذا لبلادهم من أجلاف العرب وخوفا من سيطرة الهمجية عليهم [(١)]...

هكذا خطط الروم الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره .. إنهم يريدون أن يهزموا جيش الإسلام الذي خرج ليحرر الناس من الظلم والاستعباد وأن ينشر الأمن والسلام على الأرض ليعيد إليها التوازن وحتى يعيش الناس أحرارا .. كل إنسان يشعر بإخوته للآخر مع تبادل الاحترام والود لأن الناس سواسية كأسنان المشط الواحد كلهم لأدم وأدم من تراب...



عقلية مبتكرة

إذا كان هرقل قد خطط كل هذا وظن أنه إلى حد بعيد سينجح فإنه واهم لأن هذا التخطيط قد عرف به المسلمون من ناحيتين :

١- من الأسرى الذين كانوا يحملون المؤن واستولى عليها المسلمون...

---

(١) فتوح الشام للواقدى جـ١ صـ١٥١ وما بعدها.

٢- من جهاز المخابرات الرائع الذي شكله المسلمون ومن خلال هذا الجهاز كان للمسلمين عيون في داخل جيش الروم نفسه .. ومن خلال هذه المعلومات التي وصلتهم عرفوا بتحركات الروم والخطة التي وضعت .. كما أنهم عرفوا طرق الإمدادات والتموين وعدد الجيش وعدته...

أشاعت المعلومات التي وصلت إلى المسلمين جوا من القلق عندهم واتجهت الأنظار إلى خالد ترقب تفكيره حيث كان قد استغرق في تفكير عميق .. كان خالد قد أدرك بحاسته الحربية ما ينتويه هرقل وأدرك خطورة الوضع المكشوف للمسلمين .. لذلك أسرع خالد إلى أبى عبيدة .. وقال له .. الرأي الذي أراه يا أبا عبيدة في هذا الموقف لمواجهة هذا الجيش العملاق يتمثل في رأيين :

١- أن تبعث إلى جميع قيادات الجند بأن يتجمعوا وينضموا في جيش واحد عند الجابية...

٢- ألا نبتعد عن رمال البادية...

فرح أبو عبيدة بهذا الاقتراح وبعث إلى جميع قواد الجيوش المرابطة هنا وهناك لأن يتحركوا ويصلوا إلى الجابية بأسرع وقت .. واستجاب الجيش الإسلامي كله وتحرك من كافة الاتجاهات ووصل إلى الجابية...

لفتة كريمة

كان أبو عبيدة قد عاهد أهل حمص على أن يحميهم نظير الجزية .. ودفع أهل حمص الجزية .. والمسلمون اليوم ينسحبون من حمص .. فكانت لفتة طيبة دلت على المعاملة الكريمة التي يسودها روح العدالة والصدق والإنصاف ذلك أن خالدا اقترح على أبى عبيدة أن يرد جميع الأموال التي دفعها أهل حمص للمسلمين إليهم .. فلما حضر الأهالي لتسلم الأموال قال لهم أبو عبيدة .. (شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فإنتم على أمركم) .. فقال أهل حمص (لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم) .. وقد أعرب يهود حمص عن إخلاصهم وصداقتهم للمسلمين وأقسموا ألا يدعوا أحدا من قادة هرقل يدخل المدينة إلا بالقوة .. كما أن أبا عبيدة كتب إلى

قواد جنده أن يقوموا برد الجزية لأصحابها كل في دائرته .. وقد نَفَّذ كل الولاة أمر القائد العام قبل أن يسيروا للقاء القيادة العامة بالجابية)[1]...

كان رد المال من المسلمين حدثا فريدا في نوعه ، إذ لم يحدث من قبل أن أعاد جيش استولى على بلد بالحرب أو الاستسلام أن يرد ما جمعه من مال أو غنائم ، لهذا دل العرب بذلك على أنهم رجال حضارة من طراز فريد ، فهل يقرأ ذلك الذين يتطاولون على الإسلام وهم لا يفهمون ؟! ..

خوف ورعب

بدأت في الأفق طلائع الجيش الإمبراطوري .. وبدأ العرب النصارى يعسكرون خارج حمص لأنهم فوجئوا أن حمصاً ليس بها أحد من المسلمين .. فلما عرفوا أن المسلمين عند الجابية .. عسكر العرب النصارى بين دمشق والجابية .. واختاروا هذا المكان ليمنعوا أي مدد يصل إلى المسلمين .. في نفس الوقت يمنعون عيون المسلمين من التسلل إلى الجيش الرئيسي .. وقد جاءت الأنباء إلى المسلمين تخبرهم أن عدد الجيش الروماني يتكون من مائتي ألف مقاتل والجنود فيه كالكابوس المرعب ...

أبو عبيدة بدأ يظهر عليه القلق لأن هذه المعركة ستحدد مصير المسلمين ، لم يكن ما ظهر على القائد سببه الخوف على نفسه بل خوفه على الجيش الذي يقاتل في سبيل نشر الإسلام ودحض الظالمين .. لذلك عقد مجلس حرب ليبحث مع معاونيه الوضع وبدأت المداولات والآراء .. وقد اقترح أحد القادة أثناء المناقشة .. انسحاب جيش المسلمين والعودة إلى بلاد العرب والانتظار هناك إلى أن تمر عاصفة الروم بسلام وبعدها يعودون إلى الشام .. لكن هذا الاقتراح رفض لأن المسلمين سيتخلون عن الأراضي التي فتحوها وتكون الطامة الكبرى على الجيش وإلحاق السمعة السيئة به.. علا صوت آخر من القادة وقال .. إننا نثق في نصر الله وهو لن يتخلى عنا لذلك علينا أن نقاتل حتى آخر رمق فينا .. ولقي هذا الاقتراح قبولا...

---

(١) مغازي الواقدي القسم الأول صـ١٦٢ / والخراج لأبي عبيدة صـ١٣٩.

كان أبو عبيدة يجلس في صمت ومعظم القيادات لم تسودهم روح الحماس.. لأن الاحتمالات السيئة التي تواجههم جعلتهم جميعا في قلق وحيرة وخوف .. كان خالد هو الآخر يلتزم الصمت فالتفت إليه أبو عبيدة وقطع الصمت. وقال .. يا أبا سليمان .. أنت الرجل الجرئ والفارس الشهم ومعك رأي وفيك عزم .. فما تقول فيما قالوا رد خالد على ذلك بقوله .. نعم ما أشير به .. إلا أن الرأي عندي غير ذلك .. وأنا لا أخالف المسلمين .. قال أبو عبيدة .. إن كان رأيك فيه صلاح فهات به فكلنا لرأيك تُبع .. قال خالد .. اعلم أيها الأمير أنك إن أقمت في مكانك هذا فإنك تعين على نفسك .. لأن هذه الجابية قريبة من قيسارية وفيها قسطنطين ابن الملك هرقل في أربعين فارسا .. وكنت قد أشرت عليكم بجابية لتكون مكان التجمع لأن الطرق توصل إليها بسهولة والذي أشير به عليكم الآن أن ترحلوا من منزلكم هذا وتجعلوا درعا خلف ظهوركم حتى تنزلوا اليرموك ويكون المدد من أمير المؤمنين متلاحقا بكم وأنتم على فتح لقتال عدوكم وهي أرض واسعة لمجال الخيل [1]...

لم يتكلم خالد بأكثر من هذا ولم يفصح عن بقية حديثه .. وقبل الجميع خطة خالد ونفذت في الحال .. وبدأ جيش المسلمين يتقدم .. لذلك ظن قسطنطين ابن الملك أن المسلمين تقهقروا .. لذلك بدأ في مهاجمة مؤخرة المسلمين .. وكان خالد قد وضع لهذا الأمر حسابه .. ولهذا تأخر مع خيل الزحف ليحمي مؤخرة المسلمين من هذا الهجوم واستطاع خالد مع رجاله أن يردوا جيش الروم الذين بدأوا يأخذون حذرهم .. وبعد أيام من الصدام مع خالد اندحروا ولحق خالد بعد ذلك بجيش المسلمين الرئيسي .. في مكان يسمى سهل اليرموك أقام المسلمون معسكرهم في الجزء الشرقي وكان جيش المسلمين قد تجمع .. شرحبيل بجنوده .. وعمرو بن العاص بقواته .. وأبو عبيدة بن الجراح بقواته .. وكان على بعد بسيط من شرق معسكر المسلمين تلال تكونت من طمي البراكين وسلسلة جبال الدروز .. وبعد أيام تقدم العرب النصارى بقيادة جبلة بن الأيهم وواجهوا مراكز المسلمين الأمامية بسهل اليرموك .. وكان طول معسكر الروم ١٨ ميلا يفصله عن معسكر المسلمين أماكن

---

(١) فتوح الشام للواقدي.

وأجزاء من وادي اليرموك .. على أن الواقدي يقول في فتوح الشام أن معسكر الروم كان قريبا من الجولان .. إلا أن الروم عندما حددوا إقامة معسكرهم .. اتضح الأمر أمام أبى عبيدة الذي عدل هو الآخر من وضع معسكره وكان هذا ما نصح به خالد بأن تقف مؤخرة الجيش في اتجاه درعا والجناح على اليرموك .. ووقف الجيشان قبالة بعضهما .. وأخذ كل فريق يعد عدته مع التخطيط لوصول الإمدادات والمؤن إلى غير ذلك من الأمور الإدارية وقد اتضح للمسلمين أن الروم (كالجراد المنتشر)[1]...

أرسل هرقل إلى قائده العام (ماهان) يأمره ألا يبدأ بقتال المسلمين إلا بعد استنفاذ كل وسائل المفاوضات السلمية ، وأن يكون عرضك على المسلمين بشروط سخية أولها أن المسلمين يعودون إلى بلادهم ومعهم ما حصلوا عليه من غنائم ولهم السلام والأمان حتى يخرجوا بشرط ألا يعودوا إلى غزو الشام مرة أخرى .. وقد أوفد ماهان أحد قواده ليفاوض المسلمين بهذا وقد التقى بأبى عبيدة الذي رفض هذا المبدأ .. اختار ماهان جبلة بن الأيهم باعتباره عربي ليستطيع إقناع المسلمين.. لكنه عاد خائبا كمن سبقه وهنا أمر ماهان جبلة أن يتقدم مع جيش عرب الشام ليشن هجوما يجس به نبض المسلمين .. والواقع أن هذا التحرك من عرب النصارى والدفع بهم كان القصد به عملية استطلاع هدفها اختبار جبهة المسلمين.. وعندما تقدم جبلة مع عرب النصارى وجدوا أن المسلمين مهيئون للمعركة وكان هذا النصراني يتقدم ببطء إلى الأمام وبحذر حتى يصل إلى أقرب مكان يستطيع أن يجمع منه المعلومات لكنهم فوجئوا بالمسلمين وهم يحملون عليهم بشراسة تحت إمرة خالد بن الوليد ، الذي أسرّ إلى خيل الركب بما انتوي عليه / الحرب حتى النصر أو الموت / لذلك وجد عرب النصارى مقاومة قوية فارتدوا على أدبارهم مذعورين .. وبذلك تراجع النصارى إلى الخلف وهم في خوف ورعب وزعر وأدركوا أن قتال المسلمين ليس أمرا سهلا .. تخوف ماهان واستكان وهدأت الأمور على الجبهة وظل هكذا في سهل اليرموك لمدة شهر كانت المناوشات فيه بسيطة جدا بعد معركة النصارى وكان هذا السكون والهدوء مبعث سرور للمسلمين لأنه خلال هذه الفترة جاءت إمدادات كثيرة .. كان

---

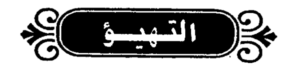
(١) المصدر السابق.

أهمها جيش خالد بن الوليد وجيش الزحف القادم من العراق وأيضا قوة تزيد على ستة آلاف مسلم بعضهم من المدينة وبعضهم من اليمن ، كان من بين هذا العدد مائة مقاتل ممن اشتركوا في غزوة بدر ، وكان من بينهم من له مكانة رفيعة في المسلمين مثل الزبير بن العوام ابن عمة النبي ﷺ وأحد العشرة المبشرين بالجنة.. كما كان من بينهم كذلك أبو سفيان وزوجته هند بنت عتبة .. بعد مضي شهر من الهدوء الذي كان في صالح المسلمين ، والذي نستفيده من كثرة المراجع التاريخية ، أن الروم لم تكن لديهم الشجاعة الكافية لشن هجوم على المسلمين حيث بدأ العرب النصارى يحكون لجنود الروم عن العرب وقدرتهم وعن المسلمين وكفاءتهم ، وأنهم يحبون الموت ويسعون إليه كما نحب نحن الحياة، لأنهم يعتقدون أن من قتل منهم في الميدان دخل جنة ربه بسلام .. لهذا كان ماهان يتفرس في وجه جنوده ويرى أثر الخوف والاضطراب لكنه أراد أن يقطع هذا الهدوء فقرر أن يجري مباحثات سلام بنفسه مع المسلمين، وطلب إليهم أن يبعثوا إلى مقر قيادته من يتحدث معه في هذا الشأن .. وكُلِّف خالد بهذه المهمة ، وتوجه مع نفر من رجاله إلى معسكر الروم وجرت مفاوضات بين خالد وماهان وفشلت المفاوضات .. فلجأ ماهان إلى أسلوب التهديد ، ومع ذلك عرض مبلغا كبيرا من المال يقدمه لكل مسلم ويكون للخليفة بالمدينة مثل ذلك ورد خالد على كل ذلك بقوله .. لك أيها القائد أنت ومن معك أن تختاروا واحدة من ثلاث .. إما أن تدخلوا معنا في الإسلام وإما أن تدفعوا الجزية .. وإما السيف يحكم بيننا وبينكم...

وانتهت المباحثات عند هذا الحد حيث وصلت إلى نقطة اللاعودة للمفاوضات لكن هذا اللقاء ترك أثراً لدى كل من القائديّن إذ أصبح كل منهما معجبا بالآخر .. وعرف المسلمون أن ماهان رجل طيب غير أن أبا عبيدة وصفه بقوله .. (هذا الرجل حكيم إلا أن الشيطان غلب على عقله)[1]...

---

(١) فتوح الشام للواقدى جـ١ صـ١٨٢.



التهيؤ

تهيأ كل فريق للقتال بعد التوقف عن المفاوضات .. ومع التهيؤ للمعركة بدأ كل فريق يصلي لله الذي يعبده .. وكل فريق يدعو بحرارة ليحرز النصر على خصمه.. ورفع القسس والرهبان في جيش الروم الصلبان .. وحلف عشرات الألوف من المسيحيين يمين الموت وأقسموا أن يموتوا من أجل المسيح وألا يفروا من أمام العدو...

عندما عاد خالد من اجتماعه بماهان أبلغ أبا عبيدة والقادة الآخرين بفشل المفاوضات ، وأن القضية لن تحل إلا بحد السيف .. وأن المعركة وشيكة الوقوع .. وأن أبا عبيدة يعرف نفسه فهو وإن كان يعرف لغة السيف .. لكن ليست لديه القدرة على التخطيط الدقيق .. كان قادة الجيوش يعرفون أن مثل هذه المعركة في حاجة إلى قيادة وبراعة ومهارة متميزة بالخبرة والتخطيط .. لذلك عرض خالد على قادة الجيوش أن يتولى قيادة هذه المعركة ووافقوا جميعاً بالإجماع .. وأصبح خالد هو القائد الفعلي لكل الجيوش الإسلامية .. بعد ذلك قال خالد لأبى عبيدة.. ابعث الآن إلى أصحاب الرايات وقل لهم يسمعون مني وأرسل أبو عبيدة إلى القادة يأمرهم أن يسمعوا لخالد ويطيعوا أمره [1]...

تجمع القادة في مقر القيادة وتسلموا أوامرهم من خالد وعادوا إلى أماكنهم والفرح يعلو وجوههم لأنهم عرفوا أن خالدا سيخطط بدقة .. كان جيش المسلمين يتكون من أربعين ألف رجل .. بدأ خالد يقسمهم إلى فرسان ومشاة وخيالة وبلغت هذه الفرق التي شكلها خالد ثلاثة وستون للمشاة وثلاث فرق للخيالة أما خيل الزحف فيتألف من أربعة آلاف فارس ، وكان التشكيل رائعا فيه حملة الرماح والرماة وقد قسم خالد كل هذا على طول الجبهة ..وكان من دقة التخطيط أن تلال درعا وجبال الدروز خلف المسلمين ..أما الروم فكان حظهم التعس أن وراء قسم كبير من جيشهم أخدود وادي الرقاد الذي يسبب من عمقة وشدة انحداره عقبة كأداء خلفهم إذا تقهقروا ، لأن الأخدود سيصير مقبرتهم ولذلك وقعوا فريسة للمسلمين

---

(١) نفس المصدر السابق صـ١٨٥.

الذين يتصيدونهم بالمصيدة كالفئران .. لكن الروم بغبائهم تصوروا أنهم لن يهزموا.. ولما تم تجهيز جيش المسلمين للمعركة ركب أبو عبيدة وخالد وراحا يطوفان بالفرق ويتحدثان إلى قادتها ورجالها ، وكان خالد يخطب في كل فرقة بقوله .. (يا أهل الإسلام إن الصبر قوة عزم إن شاء الله .. والفشل والجبن سببان من أسباب الخذلان فمن صبر كان الله ناصره على عدوه لأن الله معه ومن صبر على حد السيف فإنه إذا قدم على الله تعالى أكرم منزلته وشكر له فعله وسعيه والله يحب الشاكرين)[1] .. وبينما كان خالد يمر على إحدى الفرق قال أحد شبابها (ما أكثر الروم وأقل المسلمين) فرد عليه خالد بقوله ما أقل الروم وأكثر المسلمين إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال [2]...

اشتعل الحماس بين المسلمين وبدأوا يقرأون القرآن ، ويتحدثون عن مواقف الرسول ﷺ في غزواته ، وذكروا الجنة التي تنتظر الشهداء بما فيها من نعيم دائم وسرور وهناء .. وعن نار جهنم التي أعدها الله للكفرة والمنافقين وقد تليت على مسامع الجنود قول الله تعالى (كَمْ مِّنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّـهِ وَاللَّـهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) [الآية٢٤٩ سورة البقرة] ، ومع أن الليلة كانت شديدة الحرارة كثيرة الرطوبة ، فإن المسلمين قد قضوا ليلتهم في تلاوة للقرآن الكريم ودعاء لله رب العالمين وصلاة خاشعة لله الواحد الأحد .. وكان كل جندي يبشر صاحبه بالحسنيين .. النصر أو الشهادة .. وهكذا قضي المسلمون ليلتهم .. كان معسكر الروم يشعر أي جندي فيه بفرح أو سرور لأن كل فرد من الجند يفكر فيما ينتظره ثم في أمر زوجته وأطفاله .. وهكذا كانت ساحة المعركة عشية اليرموك التي تعتبر بحق أكبر موقعة دارت في ذلك القرن وواحدة من المعارك الفاصلة في التاريخ وهى أضخم المعارك التي جرت بين المسلمين وأعدائهم .. كيف؟

---

(١) المصدر السابق.

(٢) تاريخ الطبرى جـ٣ صـ٣٩٧.



أذن الفجر في صباح هذا اليوم في معسكر المسلمين ونـهض الجميـع وأدوا صـلاة الفجـر شاكرين لله حامدين ..وقبل أن تشرق شمس الصباح تهيأ الجيشان اسـتعدادا للمعركـة وكل جيش ينوي أن يُبيد الآخر ..نظر المسلمون إلى جيش الروم بدهشة لأن تشكيلاته رائعة وبيارقه مرفوعة والصلبان فوق رءوس الجند ..فهى حرب صليبية إذاً ..الـروم نظروا إلى المسلمين وفي نفوسـهم ثقـة لكـثرة عددهـم ..لكنـهم مـع هـذا كـانوا يكنـون احتراما للمسلمين بسبب المعاملة الكريمة التي عاملوا بـها الأهـالي والإنصـاف الـذي تحلوا به والعدل الذي طبقوه على أنفسهم ،لهذا مضت سـاعة على هـذا المنـوال كـل فريق يتأمل في الآخر وراح الجند ينتظرون بـدأ المعركـة الـتي (أولهـا شـرار وآخرهـا ضرام الحرب وأن كل يوم يأتي من القتال أصعب من اليوم الآخر)[1]...

بـدايـة رائعـة

خرج من جيش الروم قائد روماني اسمه (جورج)امتطى صهوة جواده وسـار ناحيـة المسلمين ووقف على بعد قليل من قلـب جيـش المسـلمين ورفـع صوتـه طالبـا أن يـرى خالدا ..وأسرع إليه خالد وهو يظن أن المعركة ستبدأ بهذه المبارزة ..لكن خالدا فوجئ عندما اقترب من الرجل أنه لم يشهر سيفه وأنه مازال في غمـده وراح يفحـص خـالدا بنظرات طويلة ..واقترب الرجلان من بعضـهما ..وقـال جـورج بلغـة عربيـة دون أن يخرج سيفه ..يا خالد ..أصدقني ولا تكذبني .. فإن الحُرَّ لا يكذب ولا تخادعني فإن الكريم لا يخادع .. هل أنزل الله على نبيكم سيفا من السماء فأعطاكه فـلا تسـله علـى قوم إلا هزمتهم ؟ .. قال .. خالد .. لا .. قال جورج لخالد.. فبـم سميـت سيـف الله؟ قال ..خالد .. إن الله عز وجل بعث فينا نبيا فدعانا إلى الخير ونفرّنا من الشر فنأينـا عنـه جميعا .. ثم إن بعضنا صدقه وتابعه.. وبعضنا كذبه .. فكنت فيمن كذبه وباعده وقاتله ..ثم أن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به فتابعناه ..فقال : أنت سـيف مـن

---

(١) فتوح الشام للواقدى جـ١ صـ١٨٩.

سيوف الله على المشركين ودعا لي بالنصر فسميت سيف الله بذلك ، فإنا من أشد المسلمين على المشركين .. قال .. صدقتني ثم عاد يسأله عن الإسلام وما يأمره به وما للداخل فيه من الحقوق وما عليه من الواجبات .. وخالد يجيبه عن كل ما سأله عنه.. اطرق جورج برهة ثم رفع يديه إلى خالد وراح ينظر إليه نظرة حائرة وقال له.. إلام تدعوني ؟ ، قال خالد .. إلى شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله والإقرار بما جاء به من عند الله .. قال جورج فمن لم يجبكم ؟ ، قال خالد .. الجزية يدفعونها ونمنعهم .. قال الرجل فإن لم يعطها ؟ ، قال خالد ..نؤذنه بحرب ثم نقاتله .. أطرق جورج مرة ثانية إلى الأرض وسأله .. فما منزلة الذي يدخل فيكم ويجيبكم إلى هذا الأمر؟، قال خالد.. منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا شريفنا ووضيعنا وأولنا وآخرنا..قال جورج..صدقتني، ثم همس في أذنه وقال..علمني الإسلام[1]

بدأ خالد والروماني يلويان رأسي جواديهما ويسيران ناحية جيش المسلمين.. ولم يكن أحد قد عرف بما دار بين الرجلين من حديث ..ودخل جورج إلى صفوف المسلمين وهو يقول .. لا اله إلا الله محمد عبده ورسوله) .. اعتنق جورج الإسلام وقاتل مع المسلمين قتالا بطوليا وقصد بذلك وجه الله وخدمة لدين الله الذي اعتنقه منذ قليل ..وقد وقع الرجل شهيدا في هذه المعركة، وختم له بخير لأن الأعمال بالنيات ..ونية الرجل واضحة وسليمة ، وقد أقبل على الإسلام طواعية وليس بحد السيف ودخل فيه بلا إكراه ولمثل هذا فليعمل العاملون ، لأن الرجل احتكم إلى عقله وصحح ما لديه من معلومات ..فهنيئا له ما آل إليه من خير...

عودة إلى معركة اليرموك

كانت البداية طيبة توحي إلى أن الخير في صفوف المسلمين وأن النصر معهم وفي ركابهم لأن الله وعد بذلك ومن أصدق من الله حديثا (وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) [الآيتان ٤٠، ٤١ سورة الحج]

(١) الطبرى جـ٣ صـ٣٩٧ وما بعدها / والخلفاء الراشدين لعبد الوهاب البخارى صـ٩٤ وما بعدها.

كانت بداية معركة اليرموك أن بدأت بالمبارزة وقد رحب الجيشان بذلك لأنها (عملية تسخين)..خرج من جيش المسلمين عشرة من كبار المحاربين يتحدون فرسان الروم ، وقد خرج من الروم عشرة كذلك في المبارزة ..والفضل في ذلك يرجع إلى مهارة ضباط المسلمين خاصة عبد الرحمن بن أبى بكر الذي قتل خمسة من ضباط الروم وحده ..هذا المنظر رفع الروح المعنوية لجيش المسلمين الذي كان قليل العدد ..أما .. ماهان..قائد عام جيش الروم فقد أيقن أنه إذا استمرت هذه المبارزات على هذا النحو فسيفقد عددا كبيرا من ضباطه ..الأمر الذي يؤثر تأثيرا سيئا على جيشه ، لذلك قرر أن يقوم بهجوم محدود على طول الجبهة يختبر بذلك قوة جيش المسلمين ، ويتعرف على نقاط الضعف ، ليتمكن من اختراق صفوف المسلمين ... دفع ماهان بالعشرة صفوف الأمامية من جيش الروم ..ويقدر ذلك بثلث فرق المشاة من كل الجيوش الأربعة ..ولما أصبح هذا العدد على مرمى من نبل المسلمين بدأوا يرشقونهم بالنبال التي ألحقت بهم بعض الخسائر ..لكن جيش الروم استمر في الزحف فاستقبلهم المسلمون بالسيوف والتحم الجيشان.. وصمد المسلمون أمام هذا الهجوم .. واختلف عنف المعركة ..من مكان إلى مكان .. وعند غروب الشمس توقف القتال .. وكانت خسائر الروم تفوق بكثير عن خسائر المسلمين ..عند عودة المسلمين إلى خيامهم كان الاستقبال عظيما من النساء المسلمات ..فكل واحدة تعثر بزوجها وتسمعه كلمات الثناء وتمسح عن وجهه العرق والدم بما على رأسها من غطاء .. وقالت كل زوجة لزوجها (أبشر بالجنة يا ولي الله)[1]

أدى الرجال الصلاة وظلوا يرتلون آيات القرآن الكريم وقد أحسوا بالثقة المتزايدة في نفوسهم لأنهم ألحقوا بعدوهم خسائر كثيرة ..في الليل تحركت جماعات صغيرة من الروم تحاول الاستطلاع على المسلمين وجاءت عن طريق أرض ليس عليها جيش لأي فريق .. لكن رجال الدورية من جيش المسلمين ردوهم على أعقابهم ..أما ماهان فقد طلب عقد مجلس الحرب ليبحث فيه خطط اليوم التالى وتقرر في هذا الاجتماع ما يأتي :

---

(١) فتوح الشام للواقدي ج١ ص١٨٩.

١- أن يكون هجوم جيش الروم مع ظهور أول نور من أنوار الفجر...
٢- أن يعد قواته للمعركة أثناء الليل...
٣- يفاجئ المسلمين بهذا الهجوم...
٤- أن يكون الهجوم من ناحية جيش يزيد ليفصله عن بقية الجيش ويبيده...
٥- يتخذ ماهان لنفسه مقرا على أحد التلال يستطيع من خلاله أن يرى السهل مبسوطا أمامه...
٦- أن يكون حوله حرس لا يقل عن ألفي جندي أرماني ..

بزغ نور الفجر ووقف المسلمون في صلاة خاشعة ودعاء إلى الله وقبل أن يفرغوا من صلاتهم سمعوا دق الطبول ، وشعر المسلمون عندئذ أنهم أخذوا على غرة ، فأسرعوا إلى أخذ عدتهم وأسلحتهم وهرع كل جندي إلى مكانه المحدد له وفوجئ المسلمون ، بأن خالدا قد أقام صفا من الجيش أثناء الليل على طول الجبهة واستطاع هذا الفريق أن يؤخر تقدم الروم حتى جاء بقية الجند بعد الصلاة.. التحم الجيشان.. ولم تكن الشمس قد أشرقت وكانت معركة رهيبة كان الروم فيها كالطوفان تحطمت مقاومة المسلمين بعد الإعياء الذي أصابهم بل إن أغلبهم انسحب إلى المعسكر ..حدث هرج ومرج في جيش المسلمين لأن الروم كانوا يدفعون بفيالق غير التي في الميدان الأمر الذي أثر في نفوس بعض المسلمين فخرجوا من الميدان.

المرأة

من المؤكد أن الإسلام أنصف المرأة ورفع قدرها وسما بها لأنها شقيقة الرجل فهى أمه أو أخته أو زوجته أو ابنته لذلك فهى دائما مع الرجل ترعى أمره وتدبر شئونه .. وكان المجاهدون يصطحبون نساءهم معهم .. في هذه المعركة وفي كل المعارك كانت النساء والأطفال في معسكرات خلف الجيش كل فرقة من الجيش خلفها نساء أبطالها.. قبل بداية معركة اليرموك .. كان أبو عبيدة قد طاف على خيام النساء وقال لهن .. إذا جد الجد خذوا بأيديكن أعمدة البيوت والخيام واجعلن الحجارة بين أيديكن وحرضن المؤمنين على القتال .. فإن كان الأمر لنا والظفر فكن على ما أنتن

عليـه .. وإن رأيـتن أحـد المؤمنـين منـهزماً فـأضربن وجهـــه بـأعمدتكن وأحصبنـــه بحجارتكن وارفعن إليه أولادكن وقلن له قاتل عن أهلك وولدك وعن دين الإسلام[1]... لذلك لما انسحب بعض فرسان المسلمين مـن ميـدان المعركـة وجـدوا قبالتـهم صفـاً مـن النسوة بأيدهن أعمدة الخيام والحجارة وصاحت كل واحدة تقول (قبح الله وجه رجل يفر من عدوه لستم لنـا ببعولـة إن لم تمنعـوا عنـا هـذه الأعـلاج)[2] .. بـل إن بعـض النسوة أخذن يضربن على الوقوف وينشدن ارتجالاً :

يا هارباً من نسـوة ثقـات	لهـــــا جمال ولها ثبات
يسلمهن نظراً إلى الهنّات	تملك نواصيهن مع البنات
أعلاج سوء فسـق عتـــات	ينلن منا أعظـم الشتات [3]

راحت كل امرأة ترمى زوجها بالحجر ثم هجمت النساء بأعمدة الخيام يضربن وجوه الخيل حتى يعود راكبها إلى المعركة .. وكانت كل واحدة تلوم الرجال .. كـان يتقـدم النساء هند بنت عتبة زوجة أبى سفيان وخولة أخت ضرار.. كانت هند تضرب بقـوة رأس فرس أبى سفيان وتصيح فيـه إلى أيـن يـا ابـن صخـر؟ ارجـع إلى القتـال وابـذل مهجتك حتى تمحص ما سلف من تحريضك علـى رسـول الله ﷺ .. كـان أبـو سـفيان يعرف معنى غضب زوجته لذلك انطلق إلى ميـدان المعركـة وتبعـه جميـع الرجـال .. وبعض النسوة يجرين إلى جانب الخيل حتى وصلن إلى ميدان المعركـة وكـانت النسـوة تضرب العدو بعمد الخيـام .. ثـم وقفت النسـاء خلـف الرجـال وأخـذت هنـد تنشـد أنشودتها القديمة التي قالتها يوم أحد :

نحن بنـــات طارق	..	نمشى على النمارق
مشى القطا النواتق	..	فيــــدي مع المرافق
ومن أبــى نفـــارق	..	وإن تغلبـــوا نمارق
أو تدبــــروا نفارق	..	فــــراق غـير واثق [4]

---

(١) فتوح الشام للواقدى جـ١ صـ١٥٩.

(٢) المصدر السابق.

(٣) نفس المصدر.

(٤) نفس المصدر السابق صـ٢٠٠.

إن المرء قد يدهش لما دعا هنداً أن تنشد هـذه الأنشـودة الاسـتفزازية .. لكـن علـى أي حال كان لذلك أثره من الحماس المتزايد في نفوس الجند حتى أسّر واحد من المسـلمين لزميله (كانت النساء أشد علينا غلظـة مـن الـروم) ذلـك لأن في حلـق النسـاء ألسـنة حداد.. هذا دور رائد وعظيم نقول للدنيا بأسرها إن المرأة في الإسـلام معـززة مكرمـة لها دور في الحياة .. ليست كمّاً مهملاً ولا قعيدة بيت.. ولا محجور عليها..وإنما هى مشاركة في كل عمل حتى في الجهاد وهاؤم اقرأوا كتابيه..

في الميـدان

كاد النهار ينتصف وخالد في قلب الجيش وقف يراقب دون أن يفعل أى شئ وأبـى أن يستدرج فلما رأى الأمور تأزمت والموقـف في غـير صـالح المسلمين بـدأ يدفـع بقواتـه الاحتياطية وأعاد تعزيز مواقع المسلمين .. وعلى الفـور أحيـط بـالروم وتراجعـوا عـن تقدمهم واستعاد المسلمون الأرض الـتي فقدوهـا أول الأمـر .. وتحـت ضغـط المسـلمين الذين شنوا هجمة قوية تداعت على أثرها قـوة الـروم وظـهر ضـرار وهـو يختـرق صفـــوف الروم حتى قتل (الدرجان) القائد الذي يديـر المعركـة وحـاول لمهارتـه أن يفلت من ضغط الروم الذين حاولوا اللحاق به .. ومـا كـادت شمـس النـهار تغـرب إلا وقد استعاد المسلمون ما فقدوه من أرض وكان هذا اليوم من الأيام العصيبة ...

ساد معسكر المسـلمين الهـدوء في هـذه الليلـة ... وكـانت النسـاء قـد أعـددن الطعام للجنود وجئن بالماء وأنهمك النسوة في تضميد الجراح مع كلمات المـدح والثنـاء مما كان له أثر في رفع الروح المعنوية...

أما معسكر الروم فقد غضبـوا لمـا حـل بـهم ولمـا نـزل بسـاحتهم علـى أيـدى المسلمين .. فقد فقدوا الألوف من الرجال خاصة بين الجيش المقيد بالسلاسل كمـا أنـه حدث هناك تغيير في القيـادة لمـوت (الدرجـان) لذلـك أشـرقت شمـس صبـاح اليـوم الثالث والمعركة يزيد لهيبها لأنها تشتعل بنار مخيفة وعندما دارت المعركة حدثـت عدة ثغرات في جبهة المسلمين وراجع ذلـك إلى كـثرة الـروم العدديـة.. لهـذا ظـهرت النسوة المسلمات على مسرح الأحداث من جديـد وبأيديـهن أعمـدة الخيـام والأحجـار

ونزلت إلى وسط المعركة واتجهت إلى خالد الذي يقف في وسطها وأسّرت إليه قائلة : يا ابن الوليد أنت من العرب الكرام .. وإنما الرجال بأمرائها فإن ثبتوا ثبت الرجال معهم وإن انهزموا انهزم الرجال معهم[1] ... تقبل خالد نصيحة المرأة برقته المعهودة وأدبه الجم وتواضعه .. وأكد لها أن قادة الجيش الإسلامى لن ينهزموا أبداً إن شاء الله .. ثم دفع خالد بفرسانه الاحتياطيين .. ومع أن الروم صمدوا بصلابة واستطاعوا أن يقتلوا من المسلمين مئات إلا أنه عند الغروب رد المسلمون الروم على أعقابهم واستردوا الأرض من تحت أقدامهم وكانت خسائر الروم كثيرة جداً وقد صارت روحهم المعنوية القنوط بعد أن فشلت كل هجماتهم وسقط منهم الكثير .. ووبخ ماهان قادته لعجزهم عن سحق المسلمين لكنهم وعدوه بأن يبذلوا جهداً أكبر في اليوم التالي...

كانت روح المسلمين المعنوية عالية عند توقف القتال لأنهم لم يخسروا شبراً واحد من الأرض ولم يتراجعوا .. وقضى أبو عبيدة وخالد طول الليل في التجول في معسكر يشجعون القاتلين ويواسوا الجرحى ويحققون أي طلب لأي جندي .. وكان لهذا الأمر أثر عظيم في نفوس الجند...

اليوم الرابع

طلعت الشمس لليوم الرابع على المعسكر والروم أعدوا عدتهم وصمدوا على بذل أقصى ما يستطيعون لسحق جيش المسلمين والقضاء عليه ولابد أن يكون هذا اليوم هو اليوم الفاصل لأنهم إذا فشلوا فلن يستطيعوا شن هجوم آخر بعده . لذلك كان الجو العام في معسكر الروم يسوده التوتر والعصبية...

في معسكر المسلمين خالد هو الآخر أدرك أن المعركة وصلت إلى مرحلة دقيقة.. واليوم يتحدد النصر أو الهزيمة كانت قوات المسلمين قد استنزفت لأن الرماة الذين وضعوا في مقدمة الجبهة أصيبوا بإصابات خطيرة أصبحوا بعدها غير صالحين لحمل السلاح .. ولكن الشيئ الذي كان يطمئن خالداً أن معه رجالاً كعمرو بن العاص

(١) فتوح الشام للواقدى جـ١ صـ٢٠٢.

وشرحبيل وضرار ويزيد والزبير بن العوام والواحد من هؤلاء بألف .. لكن الشيئ الذي يخشاه خالداً أن يكون هجوم الروم بقوات كبيرة .. لكن الإيمان بالله يصنع المعجزات .. والتحم الجيشان وتقهقر العدو وكانت المعركة رهيبة يتقدم فيها المسلمون رغم قلة عددهم وكلما ازدادت المعركة عنفاً ازداد تقهقر الروم أمام قوة المسلمين .. ولكن .. كان الروم أعدوا خطة دفع بها ماهان (الرمى بالنبل) وقد سددت إلى المسلمين مئات الألوف من نبل الرومان .. وكان الرمى سريعاً وكثيفاً إلى حد أن وصفه الواقدى أن رشق السهام نحو العرب كان يستر الشمس[1] ... بهذه السهام أصيب عدد كبير من المسلمين بإصابات بالغة .. وكان معظم الإصابات في العين .. ولقد سمع الكثير من الجند صيحات المسلمين من شدة الألم وهو يقول (وا عيناه وا بصراه .. وا حدقتاه) ويقال إن أبا سفيان مع سبعمائة مسلم كل واحد فقد عيناً من عينيه في هذه المعركة .. وقد عرف هذا اليوم بعد هذه المأساة بيوم (التعوير)[2] ولا شك أن هذا اليوم هو أسوأ يوم في المعركة بالنسبة للمسلمين .. لذلك تراجع المسلمون وسادهم ذعر وفزع ورأوا من الحكمة والتعقل ألا يقوموا بهجوم آخر وتوقف القتال وهدأت الجبهتان..

ماهان كان يراقب المعركة بدقة هو وقادة جيشه ورأوا ما حلّ بالمسلمين وصمموا على أن الفرصة لن تفلت من أيديهم .. لذلك تقدم جيش الروم في هجوم على المسلمين وتحت هذا الضغط تقهقر المسلمون .. لكن .. ظهر عكرمة بن أبى جهل ورفض بشجاعة فكرة التقهقر وطلب إلى رجاله وأصدقائه أن يحلفوا يمين الموت وأن يقسموا على أنهم لن يسلموا مواقعهم للعدو والتف من حوله أربعمائة من الجنود الأقوياء وحلفوا اليمين واندفعوا إلى ميدان القتال كالثعالب الجائعة وجرح عكرمة وابنه عمرو جروحاً نافذة .. وخرجت النسوة من خيامهن ومع معظمهن السيوف واندفعن إلى المقدمة وانضممن إلى الرجال يحاربن معهم ومن ليس معها سيف أخذت من عمد الخيام ورحن يضربن بها جند الروم وكان من بين النساء أم حكيم التي راحت تصرخ في النساء قائلة (احصدوا الغلوف بالسيوف)[3]... والغلوف (أى غير

---

(١) المرجع السابق صـ٢٠٨.

(٢) فتوح الشام للواقدي جـ١ صـ٢١١.

(٣) تاريخ البلدان للبلاذرى صـ١٤١.

المختتنين) واخترقت النسوة صفوف الرجال حتى صرن في الصف الأول وكلهن تصميم على القتال .. وكانت هذه نقطة تحول في المعركة .. وذلك من أثر اشتراك النسوة في القتال .. وعلى أثر ذلك استحال الرجال إلى شياطين ثائرة وأخذوا يضربون بالسيوف والخناجر .. وظهرت حقيقة الرجال البواسل على أثر ذلك تقهقر الروم أمام هذه الثورة الطاغية من المسلمين وقد رأى الروم نساء المسلمين وهن يجندلن عدداً من رجال الروم وكانت خولة وقد التحمت مع رجل رومى وكان أمهر منها في استخدام السيف فضربها على رأسها ضربة سقطت بعدها مخضبة شعرها بدمائها فاصطبغ باللون الأحمر .. ولما تقهقر الروم رأى النساء خولة وقد همدت فيها كل حركة وبدأن في البحث عن أخيها ضرار لينهوا إليه نبأ موت أخته .. ولما أسرع ضرار إلى جثة أخته وجدها تقف على رجليها وتبتسم له وتسأله عن سير المعركة .. لقد كان اليوم مريعاً حقا وكانت خسائر المسلمين في هذا اليوم أكثر من خسائرهم أمس.. أما الروم فكانت خسائرهم أكثر وأكثر خاصة بين الجنود المقيدين بالسلاسل كذلك من عرب النصارى.. لذلك كانت حسرتهم فظيعة لأن النصر كان قاب قوسين منهم .. وقد ولى مدبراً وأنحاز إلى المسلمين...

قلق على وجه خالد

كان هذا اليوم الرابع من أيام المعركة ويعرف في التاريخ بيوم التعوير .. ولكن .. ما إن انسحب كل جيش إلى موقعه وساد الهدوء إلا وظهر خالد ويبدو عليه القلق الشديد ودهش رجاله للحالة التي شاهدوه عليه .. ولكي يهدئ من روعهم أخبرهم أن قلنسوته الحمراء سقطت من فوق رأسه في ميدان المعركة وانطلق الرجال يبحثون عن القلنسوة في أرض المعركة ووجدها أحدهم وعاد بها إليه وشكرهم خالد على هذا الصنع الذي قاموا به .. ولكن بدا عليهم العجب .. ما سر الاهتمام بهذه القلنسوة ؟ وهنا أفشى خالد سرّاً احتفظ به لنفسه ويرجع هذا الحدث إلى حجة الوداع عندما حلق الرسول ﷺ شعر رأسه وأخذ منه خالد شعرات (فقال له النبي ﷺ ما تصنع بهذا يا خالد؟ فقلت أتبرك بها يا رسول الله واستعين بها على القتال .. قتل

أعدائى.. فقال له النبى ﷺ .. لا تزال منصوراً ما دامت معك .. فجعلتها في مقدمة قلنسوتى فلم ألق جمعاً قط إلاّ أنهزموا ببركة رسول الله ﷺ)[1] هذه هى قصة قلنسوة خالد الحمراء والذي أقلقه ضياعها لأنه المتاع الذي يمتلكه ولا يجب أن يفارقه..

جلس خالد على الأرض التي خصبتها الدماء وحلّ الظلام وكان يستند على إحدى ركبتيه ابن أخته عكرمة بن أبى جهل وهو قريب إلى قلب خالد يحبه ويسر إليه بأسراره ويبثه أشجانه كما استند إلى الركبة الأخرى عمرو بن عكرمة وكانا يجودان بروحهما وخالد يغمس أصابعه في الماء يبلل بها شفة هذا وذاك وفي غمرة الأسى ولوعة الحزن قال خالد (زعم ابن الخنثمة أناّ لا نستشهد) .. والخنثمة هى أم عمر بن الخطاب لأنه أشيع أن قبيلة بنى مخزوم لا تستشهد[2].. ولقد فاز عكرمة وابنه بالشهادة وهو الذي كان قبل إسلامه يحارب المسلمين .. وبعد إسلامه أدى دوراً رائعاً في جميع المعارك التي خاضها دفاعاً عن الإسلام ونشره ثم ختمه فى الدور الرائع في يوم التعوير...

يوم مرير ومواقف مؤلمة وقد حلّ الليل بظلامه على الجيش وهدأت الحركة لأن الجرحى والمجهدين راحوا في نوم عميق لأنهم قاموا بأعمال بطولية تشق على غيرهم من أى جنس من البشر .. كما أن القادة كذلك كانوا مجهدين .. لذلك لم يطلب أبو عبيدة من أحد أن يقوم بحراسة الجيش .. وصمم هو مع نفسه على أن يقوم بالأعمال التفقدية وأن يتركهم يستريحوا رغم أنه كان في المعركة من أولها إلى آخرها وسيفه مخصب بالدماء .. لكنه أصر مع نفسه على أن يقوم بالمتابعة والتفتيش وصحب بعضاً من أصحاب رسول الله ﷺ وقاموا بجولة تفتيش على الحرس فوجدوا أن جميع الحراس مع قادة كل موقع متيقظون ويتابعون العمل الذي كلفوا به من قبل والأعجب أنه فوجئ بالزبير بن العوام / أحد القادة / العظام يقوم بجولته الليلية ممتطياً جواده ومعه زوجته التي تمتطى هى الأخرى صهوة جوادها لتتابع موقف النساء...

---

(١) فتوح الشام للواقدي جـ١ صـ٢١٤.

(٢) تاريخ الطبرى جـ٣ صـ٤٠١.

إن هؤلاء الناس فهموا القيادة على أنها تكليف لا تشريف وأن القائد آخر من ينام وآخر من يأكل .. وأول من يستيقظ وأول من يشبع والذي يتولى القيادة رجل شهم وقنوع وصبور وحليم .. ولعلنا إذا نظرنا إلى القادة اليوم لقلنا .. ياحسرتنا على ما فرطنا في جنب الله .. فلقد انقلب الأمر إلى الضد .. وأصبحت القيادة نهب وسطو على حقوق الضعفاء .. وأين؟ للأسف .. في بلاد المسلمين .. ألم يتعلموا من خالد وأبي عبيدة والزبير والمقداد وضرار وغير هؤلاء الملايين من الذين تربوا تربية إسلامية على يد نبي عظيم علّم الإنسانية وقادها إلى شاطئ الأمان وبر النجاة...



في صباح اليوم الخامس وفي ساعة مبكرة وقف الجيشان من جديد وقد لاحظ المسلمون أن الروم لم يقفوا منتصبي القامة مرفوعي الهامة كما كان العهد بهم .. وتتطلع خالد ناحيتهم وكانت تدور في ذهنه أسئلة هل نشن نحن الهجوم أم يشنون هم .. وقطع على خالد تفكيره أن رجلاً خرج من جند الروم ليس معه سلاح وقد بعث به ماهان يطلب عقد هدنة لبضعة أيام ويجرى خلالها الطرفان المفاوضات من جديد ..

لقد نظر أبو عبيدة إلى خالد نظرة تعلن عن موافقته على الاقتراح لكن خالداً رفضه .. وقال خالد لأبي عبيدة قل لهذا الرسول إننا نرفض هذا الاقتراح ولن نؤخر عنكم القتال وإناّ على عجل من أمرنا[1] ... إن خالداً أدرك بحاسته الحربية أن الروم فقدوا حماسهم .. لذلك لم يتقدموا ومضى اليوم بلا حادث يذكر .. وكان المسلمون يقفون وقد شدوا أجسامهم على قدر ما يستطيعون إظهاراً للقوة لأن روحهم المعنوية مرتفعة جداً...

أبو عبيدة في الميدان

سطع نور فجر اليوم السادس من الأسبوع الثالث من شهر رجب من العام الخامس عشر للهجرة وأحسّ المسلمون بكثير من الانتعاشة وتاقوا لبدأ المعركة بعد أن علموا

(١) فتوح الشام للواقدي جـ١ صـ٢١٧.

بنوايا قائدهم وطغت الآمال على نفوسهم وأزالت من صدورهم آثار الذكريات البشعة التي تركها يوم التعوير...

كان قائد من قوات الروم وهو جريجورى قد خرج من بين صفوف جنده ممتطياً جواده وصاح بأعلى صوته متحدياً مطالباً لا يبرز إليه أحد إلا أمير العرب[1]... واستعد أبو عبيدة للخروج لكن خالد اعترض .. وقال يكفيك ما أنت فيه من أعمال .. وتكلم كبار المسلمين وحاولوا منعه لأنهم يعلمون كفاءة جريجورى وقوته واقترحوا أن يخرج خالد .. لكن أبا عبيدة تشدد في طلبه للخروج وأعطى راية الجيش لخالد وقال له .. هو أنت للرايات يا أبا سليمان[2]...

وواجه القائدان بعضهما وهما على صهوة جواديهما وبدأت المبارزة وكان الاثنين مهرة في استخدام السيف .. وقد بدآ يتحاوران يتفادى الواحد منهما ضربة الآخر .. ولم تمض بضع دقائق حتى لوى جريجورى عنان فرسه واتجه إلى جيشه وكبّر المسلمون وفرحوا ظنّاً منهم أن الرومانى انهزم .. لكن أبا عبيدة قفز خلف الرجل ولحق به فاستدار إليه جريجورى .. لأن تقهقره كان خدعة .. وأبو عبيدة لم يكن غرّاً إلى هذا الحد .. ولم يكد الرومانى يرفع سيفه حتى عاجله أبو عبيدة بضربة قضت على حياته وسقط على الأرض جثة وبجواره سيفه المغلف بالذهب والمرصع بالجواهر .. ولم يمد أبو عبيدة إلى سيف القائد ولم يأخذه وعاد إلى جنده فدفع إليه خالد بالراية وقفز على فرسه وذهب إلى وسط المعركة ليديرها وأعطى إشارة البدء بالهجوم .. كان خالد قد غير في تخطيط الجيش ووضع خطة يخرج بها فرسان الروم من الميدان لأنهم يكونون فيه يمسكون بزمام الموقف والمشاة في أى معركة بدون الفرسان يصبحون عاجزين عن الحركة بسرعة وعن إنقاذ أنفسهم .. وغرض خالد من ذلك أن ينفرد جند المسلمين بالمشاة من جند الروم ويمنعون عنهم أى عون قد يأتيهم من قبل هؤلاء الفرسان .. والمشاة يشكلون معظم جيش الروم...

---

(١) فتوح الشام للواقدي جـ١ صـ٢١٧.

(٢) نفس المصدر

وكانت خطة بارعة استطاع سحب الفرسان الروم تحت ضغط قوات خالد وأصبح الفرسان هدفاً لهجوم المسلمين وأصبح من العسير على فرسان الروم أن يتساووا مع فرسان خالد لأن الروم مثقلون بالسلاح لذلك حركتهم بطيئة .. أما فرسان خالد فحركتهم سريعة وهم في موقف أفضل يستطيعون أن يناوروا ويداوروا ويضربوا في المليان .. لذلك تخلى فرسان الروم عن القتال وفروا إلى ناحية الشمال ومعهم ماهان وهو يحتج ويعترض.. كان جند المسلمين يتساءلون أين ضرار؟ إننا نفتقده لأنهم كانوا يحبون أن يروه بنصفه العارى وهو يصول ويجول .. وكان خالد إذا سئل عنه لا يفصح عن مكانه...

كانت المعركة رهيبة شديدة الوقع لم يحقق جيش المسلمين إلا نجاحاً يسيراً.. لكن .. على أية حال كان الأمل في قلوب المسلمين يدفع بهم إلى الميدان وقد بدأ الروم في الانسحاب المنظم واتجهوا ناحية الغرب .. كانت الشمس قد توسطت كبد السماء ومشاة الروم يتقهقرون والخوف يسيطر عليهم والفزع يملأ قلوبهم .. وهنا اتجهوا إلى وادى الرقاد وهدأ ميدان المعركة الأمر الذي مكن المسلمين من إعادة تنظيم أنفسهم في نفس الوقت أصدر خالد أمره إلى خيالة المسلمين ليتجهوا ناحية الشمال ويمنعوا فرسان الروم من فرارهم في هذا الاتجاه.. غير أن ألوفاً من الصقالبة والأرمن استطاعوا أن يفروا قبل أن تُسد في وجوههم الطرق .. أما بقية جيش الروم .. الفرسان كان هدفهم أن يبتعدوا عن جند المسلمين ودفع بهم القدر أن يتجهوا إلى إحدى المخاضات عند التقاء أحد الطرق بوادى الرقاد .. وهذا الاتجاه قادهم إلى المنحدر الشرقى للأخدود .. وبدأت هذه الفلول الهاربة في عبور المجرى المائى .. ولحظهم السيئ كانت الحافة الغربية أكثر انحداراً ومن نظر إلى أسفل المنحدر يصاب بالدوار ويتملكه الخوف.. وكانت هذه المنطقة التي وقف فيها جند الروم بمثابة عنق الزجاجة والذي يستطيع فيه بضعة رجال أشداء أن يطيحوا بجيش كامل .. ووقف الروم وهم فرحون لتمكنهم من الهرب من سيوف المسلمين .. لكنهم نظروا إلى قمة الجبل فشاهدوا مجموعة من المسلمين سيوفهم في أيديهم يتقدمهم شاب نحيل الجسم عارى الجزء الأعلى من جسده..

كان خالد قد بعث بضرار ومعه خمسمائة فارس أثناء الليل ورسم لهم الخطة وقد ساعده في ذلك أحد العرب النصارى واسمه أبو الجديد[1] .. وكان دليل ضرار في هذا العمل .. ووقف ضرار ينظر إلى الروم وهم مجهدون متعبون .. بينما تعرضوا لعاصفة من الأحجار تساقطت عليهم ومن لم يقتله حجر قُتل بسيف الأبطال ومن نجا من هذا وذاك انحدر إلى أسفل ويصرخ وهو يتدحرج إلى أن تدق عنقه في قاع الأخدود.. عرف الروم ما حل لطليعة جيشهم الذي اتجه إلى الشمال ووضح لهم أن الهرب من هذا الطريق أصبح متعذراً لأن ضراراً يترصد الغادى والرائح .. وكان من أثر ذلك أن جيش الروم أصبح يدافع عن نفسه فقط وقد أصبحوا بين نارين إما سيف المسلمين وإما الأخدود وأيهما أفظع منظر وأسوأ نهاية ... لقد صمم المسلمون على النصر ولأن الحركة سريعة فقد أصدر خالد أمراً أن كل قائد يتصرف حسبما تمليه المصلحة وما يتطلبه الموقف...

لقد ساد الهرج والمرج جيش الروم وفر قائدهم .. لذلك هجم المسلمون بسيوفهم على جموع الروم المرتبكة والتي تعذر عليهم استخدام أسلحتهم لأنه ليست هناك تعليمات من قائد .. لذلك أبيد الصف الأول والثانى والثالث وهم الذين كانوا يشكلون جدار حماية للجيش .. ودخل المسلمون إلى ساحة الروم يقتلونهم ويمزقونهم ومن لم يستطع الجرى منهم داسته أقدام زملائه خاصة وأن جيش المسلمين انضم إليه ضرار بقواته وكان عامل ضغط على العدو وساق المسلمون الروم إلى مأزق كبير فقدوا عنده كل حركة .. تحولت المعركة إلى مذبحة وتحطمت قوة الروم وفروا بلا نظام والرعب يسيطر عليهم لأنهم عاشوا في كابوس مخيف ومن فر منهم لقى حتفه في الأخدود حيث سقطوا بالآلاف وتلقفتهم الهاوية ومن ارتطم جسمه بالصخور الناتئة فلم يصدر منه صوت وأما من ابتعد عن الصخور الناتئة تعالت صرخاتهم وهم يتهاوون إلى القاع كتلاً دامية .. هدأت الحركة من جانب الروم وبذلك انتهت أكبر المعارك التي خاضها خالد .. خيم الظلام على معسكر المسلمين ونام الجميع منهكاً إلا القادة خاصة خالد الذي عرف عنه أنه لا ينام ولا ينيم وبدأ ينتقل من مكان إلى مكان

---

(١) فتوح الشام للواقدي جـ١ صـ٢١٦.

يواسي زوجة شهيد .. ويصبر الجريح ويقوى الجنود وقد التقى بأبي عبيدة هو الآخر يتجول ثم التقيا بالزبير .. مواقف محسوبة لرجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا .. هكذا ربى الإسلام رجاله.. رباهم على المبادئ العظيمة والقيم النبيلة والخدمة العامة في أى موقع رئيساً أو مرؤوسا لأن الأشخاص إلى زوال والبقاء للمبادئ والقيم .. تلك سنة الله في خلقه ولن تجدوا لسنة الله تبديلاً...

نهاية قائد

أشرقت شمس صباح اليوم التالى على جيش المسلمين الذي أنهمك أفراده في شكر الله وقراءة القرآن بعد أن أدوا صلاة الفجر ثم نهضوا بهمة ونشاط وقاموا ونزلوا إلى ميدان المعركة ليتعرفوا على شهدائهم وبعد دفنهم بدأوا في جمع الغنائم .. ثم قاموا بعمل حصر شامل لمن استشهد منهم في هذه المعركة والذين قدروا بأربعة آلاف شهيد .. كان خالد مشغولاً بأمر آخر .. إن القائد العام لجيش الروم (ماهان) قد فر بفصيلة من الجند متجهاً إلى دمشق لذلك قرر أن يلحق به وفعلاً تحرك مع بعض رجاله وسار على الطريق وقبل أن تغيب الشمس لحق خالد بقائد الروم وفصيلته ودارت معركة فر القائد العام من بين الجنود ليجد لنفسه حماية في أى مكان .. لكن أحد الفرسان من المسلمين قتله بيده وبذلك انتهت حياة القائد العام لجيش الإمبراطورية ملك الأرمن وبموته فرت الكتيبة التي كانت من حوله البعض إلى اليمن والبعض إلى الشمال والبعض إلى الشرق والبعض إلى الغرب ولما علم أهل دمشق أن خالداً على مقربة منهم خرجوا يرحبون به وعند لقائهم أكد لهم أنهم يتمتعون بالحماية وفقاً للمعاهدة التي عقدها معهم .. بعد ذلك عاد خالد إلى جيش المسلمين بسهل اليرموك...

نهاية مؤلمة

موقعة اليرموك تعد أكبر كارثة وأعظم هزيمة لحقت بإمبراطورية الروم الشرقية وتعتبر هذه الموقعة بنهايتها نهاية للحكم الرومانى بالشام لأن على أثرها غادر

هرقل انطاكية وذهب إلى القسطنطينية بطريق البر .. لكنه توقف في الطريق عند نهاية الحدود فيما بين الشام وروما واتجه ناحية الشام وقلبه ينفطر من شدة الألم وقال (عليك السلام يا سورية تسليم مودع لم يقضي منك وتره وهو عائد)[1].. كان الرجل يبكى متأثراً لأن خسائره كثيرة جداً وجسيمة فالإحصائيات التي عرضت عليه تشير إلى أن من قتل من الروم أكثر من سبعين ألف .. هذه رواية الطبرى[2] .. وابن إسحاق يؤكد هذه الرواية كذلك البلاذرى[3] .. وهناك بعض الروايات تشير أن قتلى الروم يقدر بمائة وعشرين ألف إلا أننا نميل إلى الرأى الأول .. كما أن هناك أكثر من ثمانين ألف مقاتل فروا إلى الصحراء بعضهم على ظهر الخيل أو البعير ومن المحتمل أن هؤلاء هلك منهم الكثير في الصحراء أو وقع في الهاوية كما وقع غيره وأياً كان .. فإن موقعة اليرموك انتصار رائع وفوز مؤزر للإسلام... أما سهل اليرموك ووادى الرقاد ففيهما عشرات الألوف من جثث الروم وكانت هذه الجثث إما محطمة أو مشوهة أو مبتورة الأطراف .. وبعض الجثث بقيت عيونها مفتوحة يبحلق في أبدية الموت، وانتهت موقعة اليرموك بفشل تخطيط هرقل الذي تجرع المرارة وكانت نهاية مؤلمة له..

بيت المقدس

في أواخر شهر شعبان من العام الخامس عشر الهجرى بعد أن استراح الجيش الإسلامى .. عقد أبو عبيدة مجلس حرب ليبحث مع قادته الخطط المستقبلية .. ودار حوار حول هل يتجه الجيش إلى .. قيسارية .. أو بيت المقدس.. وكانت المدينتان قد قاومتا حتى الآن كل المحاولات التي بذلها المسلمون للاستيلاء عليها.. والمجتمعون لم يصلوا إلى رأى قاطع..وكتبوا إلى الخليفة يستشيرونه وكان رده.. بأن بيت المقدس أولى من كل شئ.. وقد اختار عمر بيت المقدس لما يأتى :

---

(١) تاريخ الطبرى جـ٣ صـ٦٠٣.

(٢) تاريخ الطبرى جـ٣ صـ٥٧٣.

(٣) تاريخ البلدان صـ١٤١.

١- لأن للقدس في الإسلام مكانة عظمى .. فقد نزل فيها سيدنا محمد ﷺ ليلة الإسراء وحل على أرضها وصلى بالأنبياء إماما فيها ...

٢- ارتباطها بالمسجد الأقصى المبارك الذي ورد ذكره في القرآن الكريم في قول الله تعالى(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) [الإسراء:١]

٣- المسجد الأقصى هو القبلة الأولى للمسلمين فقد أخرج الإمام أحمد عن ابن عباس رضى الله عنهما (كان النبى ﷺ يصلى وهو بمكة نحو بيت المقدس والكعبة بين يديه وبعدها هاجر إلى المدينة .. فصلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً ثم صُرف إلى الكعبة)[١] ...

٤- المسجد الأقصى ثالث الحرمين الشريفين .. فالرسولﷺ يقول (لا تشدوا الرحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد مسجدي هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى)[٢] وقد جاء في لفظ آخر (إنما يُسافر إلى ثلاث مساجد.. مسجد الكعبة .. ومسجدى .. ومسجد إيلياء .. وروى الإمام أحمد عن ميمونة بنت سعد قالت.. يا نبى الله .. أفتنا في بيت المقدس ؟ فقال لها .. أرض المنشر والمحشر إئتوه فصلّوا فيه فإن صلاتكم فيه كألف صلاة .. قالت .. أرأيت من لم يطق أن يحمل إليه أو يأتيه ؟ قال .. فليهد إليه زيتاً يسرج فيه فإنه من أهدى كان كمن صلّى) ...

لكل هذه المعايير الدينية كتب عمر إلى أبى عبيدة فأشار عليه ببيت المقدس لأنه قطعة غالية من أرض الله على المسلمين .. واتباعاً لهذا سار أبو عبيدة على رأس جيش يتقدمه خالد إلى بيت المقدس .. وعندما عرفت الحامية الرومانية بذلك انسحبت داخل المدينة وتحصنوا .. ولقد حاصر المسلمون المدينة لمدة أربعة أشهر.. تقدم بعد هذه المدة (سوفرينوس) وطلب من أبى عبيدة أن يصالحهم على صلح أهل الشام .. بشرط أن يكون المتولى لعقد الصلح (عمر بن الخطاب) فكتب أبو عبيدة بذلك إلى عمر .. وخوفاً من أن يتأخر عمر عن الحضور اتفق المسلمون بقيادة أبى عبيدة أن

---

(١) فتح البارى جـ٢ صـ٤٨.

(٢) أخرجه البخارى ومسلم.

يذهب خالد ليقوم بدور عمر .. وكان خالد أشبه الناس بعمر بن الخطاب [1] .. من المؤكد أن أهل بيت المقدس لا يعرفون شخصية عمر وقد لا يكتشفون هذه الحيلة .. ولقد أذاع المسلمين أن الخليفة بينهم .. في صباح اليوم التالى أبلغ البطرق بوجود الخليفة .. ولبس خالد ملابس بسيطة من أخشن أنواع القماش .. لأنه يشاع عن عمر هذا .. وتحرك خالد في جمع من رجاله وعرب النصارى .. لكن البطرق كشف الحيلة ورفض التحدث مع أى شخص .. ورجع خالد إلى أبى عبيدة وأخبره بفشل الخطة .. في نفس الوقت كان عمر قد رد بقبول الدعوة وأنه آت في الطريق .. كانت هذه أول رحلة لعمر .. وخرج من المدينة يلبس ملابس بسيطة مرقعة كعادته لأنه كان يمقت الترف .. وخرج وفد لاستقباله عند الجابية .. وكان على رأس الوفد مع أبى عبيدة .. خالد ويزيد .. وكانا يلبسان ملابس ثمينة رائعة صنعت من الحرير والديباج ويركبان جوادين مطهمين ، وما إن رآهما عمر على هذه الحالة حتى استشاط غضبا ونزل من على فرسه وأخذ بيده حفنة من التراب والحصى ودفع بها في وجه القائدين وصرخ (سرع ما لفتم عن رأيكم .. إياى تستقبلوني في هذا الزى وإنما شبعتم منذ سنتين.. سرع ما ندت بكم البطنة وتالله لو فعلتموها على رأس المائتين لاستبدلت بكم غيركم)[2] .. ذهل القائدان من هول ما حدث وما سمعا .. ولما استردا وعيهما فتحا ثوبيهما ليظهر الدرعين والأسلحة التي حملاها تحت هذه الملابس.. وقالا للخليفة (أنها بلا رقعة وإن علينا السلاح)[3] .. وكان هذا الرد كافيا لتخفيف حدة عمر .. سار عمر مع من استقبله في الجابية إلى بيت المقدس وكانت لحظة وصوله لحظة عظيمة لجند المسلمين حيث شاعت فيهم السعادة وعمهم الفرح والسرور لرؤية حاكمهم العام بينهم .. وجلس عمر في وسط الجيش يتحدث إليهم في مختلف الشئون وحانت صلاة العصر وكان بلال مؤذن الرسول ﷺ مع الوفد الذي صحب عمر من المدينة .. ومن المعروف تاريخيا أنه بعد انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى صمت بلال ولم يؤذن أبدا .. لكن الصحابة رضوان الله عليهم الذين كانوا في

---

(١) فتوح الشام للواقدي جـ١ صـ٢٣٠.
(٢) الطبرى جـ٣ صـ٧٠٦.
(٣) المصدر السابق / والبلا رقعة : الملابس.

هذا المحفل الرهيب طلبوا من عمر أن يؤذن بلال .. لأن هذه مناسبة عظيمة وهامة لها في نفوس الجميع أثر عظيم .. والتفت عمر إلى بلال الذي كان مأخوذا من هول المفاجأة ثم هذا الجمع العظيم لشهود هذه المناسبة الرائعة جعلته يخرج عن صمته .. وارتج المكان بهذا الصوت الندى وسرى في الكون يعلن عودة الأمن والأمان إلى مدينة السلام ومهد الأنبياء.. وعندما ارتفع صوت بلال (الله أكبر) خشعت القلوب وأحنى الكل هامته لله الواحد وأعلن على الدنيا شهادة التوحيد فليس هناك عظيم إلا الله الذي نشهد له بالوحدانية .. ولما وصل إلى قول (محمد رسول الله) راح الجميع يبكون وهطلت الدموع من عيونهم لأنهم تمنوا أن يكون بينهم هذا النبى الحبيب ليشهد الأرض المباركة التى نزل عليها في ليلة الإسراء وكانت بداية لعروجه إلى السماء .. قضى المسلمون ليلة من أسعد الليالي التي مرت بحياتهم وقضى عمر بن الخطاب مع الجند عشرة أيام وكتب عمر العهد مع بطرق بيت المقدس ووقع عليه عمر نيابة عن المسلمين وشهد عليه خالد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية وكان ذلك في شهر ربيع الأول من العام السادس عشر الهجرى .. وتراجع نصوص هذه المعاهدة في تاريخ الطبرى[1] .. وقد أمر الخليفة عمر أن يسير يزيد مع جيشه إلى (قيسارية) وإذا لم يسلم أهلها يفرض الحصار عليها .. أما عمرو وشرحبيل فيتوجها إلى فلسطين لاستعادتها ومعها الأردن .. واتجه أبو عبيدة إلى دمشق ثم تحرك هو وخالد مع الجند إلى حمص حيث استقبلا استقبالا حافلا ثم تحرك الجميع إلى قنسرين وعندما وصل الجيش إلى مكان يبعد عن قنسرين بثلاثة أميال في مكان يسمى (الحاضر) وهى قرية كبيرة تعيش على الزراعة .. تعرض جيش المسلمين لهجوم شديد من جانب الروم حيث كان قائد رومي يسمى (ميناس) وقد خرج هذا القائد مع جيش لا يعرف عدده إلى قرية الحاضر حتى لا يحاصره المسلمون بقنسرين.. وشن الهجوم ظنا منه أن خالدا ليس بين هذا الجيش ولسوء حظه فوجئ بخالد يدفع بفرسانه إلى القتال .. وكان ميناس قائدا محبوبا من جنده لذلك شددوا الهجوم معه فقتل هذا القائد فحاولوا الانتقام لموت زعيمهم المحبوب وكانوا من

---

(١) تاريخ الطبرى جـ٣ صـ١٠٥ . / وفتوح البلدان للبلاذرى صـ١٨٨ وما بعدها.

أشجع الرجال الذين قاتلهم العرب .. لهذا كان من نتيجة شراستهم في القتال وظهور روح الانتقام فيهم أنهم لم يتقهقروا إلى الخلف أبداً لذلك أبيدوا عن آخرهم ولم ينج منهم أحد[1] .. بعد انتهاء المعركة التي حقق فيها المسلمون نصراً عظيماً خرج أهل (الحاضر) ليرحبوا بخالد ودافعوا عن أنفسهم قائلين أننا لم ننو حرب وأننا من عرب النصارى وقبل خالد استسلامهم وأبدى إعجابه بالقائد ميناس... بلغ عمر أنباء هذه الموقعة فأبدى إعجابه بعبقرية خالد ومهارته الحربية وقال (أمَّر خالد نفسه) ثم قال .. يرحم الله أبا بكر لأنه كان أعلم بالرجال مني [2] .. كان هذا أول اعتراف من عمر بأنه كان قاسياً على خالد .. ثم تحرك جيش خالد إلى قنسرين حيث تحصن أهلها بداخلها .. فكتب إليهم خالد برسالة يقول فيها (لو كنتم في السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا) .. وما إن وصلت هذه الرسالة حتى استسلم أهل قنسرين لخالد [3] .. انضم أبو عبيدة إلى خالد بعد ذلك واتجه الجيش إلى حلب حيث كانت بها حامية رومانية قوية تحت قيادة قائد اسمه (بواقيم) الذي صمم على أن يقلد القائد ميناس وأن يشن هجوماً في الخلاء على المسلمين بعيداً عن حلب .. ولما أحس بالهزيمة تراجع بسرعة ودخل إلى حلب وتحصَّن بحصونها .. كانت حلب عبارة عن مدينة ذات أسوار كبيرة وكان يبعد عنها بربع ميل خندق واسع مملوء بالماء ويحيط بها من كل جوانبها .. وقد فرض المسلمون حول هذا الخندق حصارهم واستمر الحصار لمدة أربعة أشهر كان خلالها يأمل بواقيم أن يصله مدد من هرقل .. ولم يصل هذا المدد .. لأن هرقل أصبح عاجزاً ولم يستطع أن يفعل أى شئ .. حاول بواقيم أن يفك الحصار بشجاعة وبسالة وبهجمات متتالية لكنه فشل .. وخوفاً على نفسه وجنوده وأهل حلب استعمل الحكمة واستسلم هو والجميع بشروط وفتحت حلب أبوابها فغادرها من شاء وبقى من شاء أما بواقيم فقد أعلن إسلامه وبدأ يدافع عن الإسلام مع جند خالد .. ودل على قدرته وإخلاصه وتفانيه في العمل كجندى تحت راية الإسلام .. ثم وجه أبو عبيدة لواء بقيادة مالك الأشتر ليفتح

---

(١) الطبرى جـ٣ صـ٦٠١.

(٢) الطبرى جـ٣ صـ٦٠١.

(٣) المصدر السابق.

(إعزاز) التي استسلمت ووقع أهلها على معاهدة ثم تحرك الجيش بعد ذلك إلى أنطاكية وفي الطريق قبل أنطاكية باثنى عشر ميلا ، وعند مكان يسمى (المحروبة) عند نهر يسمى (أونيتس) وعلى هذا النهر جسر من حديد .. عند هذه المنطقة واجه المسلمين جيشا كبيرا من الروم .. وقد عسكر في هذا المكان ليتولى الدفاع عن أنطاكية وهناك دارت معركة قام فيها خالد مع رجاله بدور عظيم انهزم على أثر ذلك جيش الروم وفر بقية الجيش إلى الصحراء ولما وصل المسلمون إلى أنطاكية وهى مدينة كبيرة من مدن الشام وعاصمة المنطقة الأسيوية من إمبراطورية الروم.. استسلم أهلها بعد أن سادهم الارتباك .. ثم توجه خالد بجيش المسلمين بعد ذلك إلى اللاذقية وطرطوس وجميع البلاد التي في هذا الطريق استسلمت وعسكر أبو عبيدة مع الجيش وكلف خالدا أن يتحرك مع رجاله في الناحية الشرقية حتى مشارف (المنبج) على الفرات .. وكانت أى مقاومة تقابل خالد يقضى عليها بسرعة .. وعاد خالد بعد أن أمن المنطقة وأصبحت الشام كلها بأيدى المسلمين .. وكلف أبو عبيدة خالدا أن يكون حاكما لقنسرين مع توليه لقيادة الجيش .. والغرض من ذلك أن هذه المنطقة منطقة تجمع جيش الروم لأن هناك مستنقعات تقع في الشمال فيصعب اجتيازها .. وقبل نهاية العام السادس عشر الهجرى كانت كل بلاد الشام وفلسطين بأيدى المسلمين ماعدا (قيسارية) التي واصلت مقاومتها وصمودها .. اتجه القادة العرب الذين تولوا حكم الأقاليم على أداء واجبهم وتنظيم أمورهم وساد السلام المنطقة واتجه كل إلى عمله يشعر بالعدل ويحس بالرضا من حكم المسلمين الذين كانوا يعلمون الناس الإسلام وقيمه واختلط العرب بأصحاب البلد المفتوح فى تآلف ومساواة ومعاملة كريمة..

عرب النصارى

عجز هرقل على أن يقوم بأى محاولة حربية يستعيد بها أى بلد من الشام في نفس الوقت بدأ يحس بالقلق على بقية إمبراطوريته التي انكشفت وأصبحت معرضة لغزو المسلمين كذلك لم يعد لديه مواد عسكرية .. لكنه يحاول أن يكسب مزيداً من الوقت عله يفعل أى شئ ويقوى وسائل دفاعه .. إذاً لكى يتحقق له ذلك لابد أن يشغل

المسلمين بالشام .. فكتب إلى عرب الجزيرة يحرضهم على أن يقوموا بالهجوم على المسلمين وبدأ يظهر في الجو غيوم من جديد لأن العرب النصارى استجابوا لذلك حيث تربطهم بالإمبراطور رابطة الدين وطول العشرة تحت رايته وسلطانه .. لذلك حشد العرب النصارى عشرات الألوف من الرجال وأعدوا التدبير لعبورهم نهر الفرات .. واستعد العرب النصارى للبدء في مسيرتهم .. وكان خالد على علم بكل الأحداث .. وكان يكتب إلى أبي عبيدة بالأخبار أولا بأول .. واستدعى أبو عبيدة خالد ليكون بجواره كما استدعى بقية القواد .. وبعث أبو عبيدة إلى الخليفة وأخبره بالذي يحدث .. لكن الخليفة لم يساوره الشك في أن أبا عبيدة وخالد سيصمدان لهذا الجيش غير النظامي .. لكن نظرا لكثرة جيش العدو وهمجيته قرر عمر أن يعزز جيشه بأربعة آلاف مقاتل تحت إمرة القعقاع بن عمرو وبثلاثة ألوية بقيادة سهيل ابن عدى وعبد الله بن عتبان وعياض بن غنم...

وصل عرب النصارى إلى حمص .. وكان خالد قد اقترح أن يتحصن المسلمون بحمص حتى يتم إعداد تخطيط جيد لأنه لم يكن يتوقع هذا العدد من النصارى .. لذلك تحصن المسلمون بحمص .. ولما جاء عرب النصارى بدأوا يفرضون حصارا شديدا على حمص لكن عيونهم وجواسيسهم ومخابرتهم نقلوا إليهم أن ثلاثة ألوية من جند المسلمين بالعراق اتجهت إلى الشام .. وأن القعقاع بجنده تحرك هو الآخر .. لذلك أدرك عرب النصارى دقة الموقف وأيقنوا أنهم إذا مضوا في مقاتلة المسلمين بالشام خدمة لمصالح هرقل فإنهم سيقتلون وإن أرضهم ستقع في أيدى المسلمين وتسبى نساؤهم وأطفالهم لذلك قرروا التخلى عن الحصار وعادوا أدراجهم إلى بلادهم وكان هذا هو الحل الحكيم الذي عليهم أن يفعلوه .. وبهذه المناورة البارعة من عمر بن الخطاب .. والتخطيط الجيد لعملية غير مباشرة كان رد جيش الجزيرة من عرب النصارى على أعقابهم دون إراقة أى دماء.. ومع أن هذه المحاولة الفاشلة من عرب النصارى ضد المسلمين .. وإن كانت لم تنجح إلا أنها أثارت غضب المسلمين وجعلتهم يوقنون بأن الشام لن تسلم من المناورات إلا إذا طهروها من كل العناصر المعادية وأنهم لم يأمنوا إلا إذا كانت هناك حدود آمنة فيما وراء حدود الشام .. لذلك قرر عمر

الاستيلاء على الجزيرة الواقعة على حدود الشام من ناحية العراق .. فـأمر سـعد بـن أبى وقاص قائد العراق أن يتخذ التدابير لفتحها .. وبالتالى أصدر سعد أوامره لعياض بن غنم بالاستيلاء على هذه المنطقة الواقعة بين دجلة والفرات ونصيبيـين والرهـاء .. ولما انتهى عياض من الاستيلاء على الجزيرة عين واليا عليها ثم أصبح تحت إمرة أبى عبيدة الذي تحرك هو وخالد بعد ذلك إلى شمال الشام ليؤمنـا هـذه المنطقـة .. وعنـد قرية تسمى (مرش) فوجئ خالد بفلول من جيوش الروم ودارت معركة ولما رأى جند الروم خالدا فروا هاربين واستسلم أهل القرية الذين لم يشتركوا فى الحـرب لذلـك لم يلحقهم أى أذى من جيش المسلمين وعاد خالد محملا بغنائم كانت كفيلـة في أن كـل جندى اشترك في هذه الحملة يعيش غنيـا طـول عمـره .. وقـد أجـزل خـالد العطـاء لجنده ولغير جنده وعلى عادة العـرب كـان الشـعراء يقدمـون علـى القـادة المنتصريـن يسجون لهم المديح ويكيلون لهم الثناء مقابل هدايا يحظى بها الشاعر ...

وكان من الشعراء الذين مدحوا خالدا الأشعث بـن قيـس رئيـس كنـده وقـد.. ألقى قصيدة عصماء في مدح خالد وجنده...

من هو الأشعث بن قيس ؟

الأشعث بن قيس رجل من صفوة رجال عصره صفاته متعددة ومواهبه عديدة..كان من أسرة كبيرة من قبيلة كندة ..هذه القبيلة التي انتابتها لوثة الردة وحدث فيها بعض الاضطراب..وكان العامل عليها زياد بن لبيد وهو مسلم صادق الإيمان.. وقد تـرك ردة قبيلة كندة فى نفسه مرارة شديدة خاصة وأنهم اعتدوا على مال الزكـاة .. ولـما قبض زياد على اللصوص تظاهر عدد من القبيلة وطالبوا بإطلاق سراح المعتقلين .. لكن زيادا رفض وأعلن أنهم سيحاكمون وقام زياد باعتقـال كـل المتظـاهرين وأخذهـم أسـرى وفي طريقهم إلى السجن بظفار بلد الأشعث بن قيس كبير سادة كنـده .. وكـان باقيـا علـى إسلامه وناداه المرتدون وصاحت النسوة وقلن له يا أشعث يا أشـعث خـالاتك خـالاتك وعماتك فثار في قلبه شعور بانتمائه إلى قبيلته وإخلاصه لها وطغي هذا الشـعور علـى ما كان يكنه من إيمان أو احترام للسلطة المركزيـة ..لذلـك انتفـض وقـام هـو ورجالـه

قبيلته بإطلاق سراح الأسرى من يد المسلمين ..عندئذ احتشد تحت لوائه أعداد كبيرة من المرتدين هذه الأعداد مجهزة بأدوات القتال .. الأمر الذي دفع بزياد بن لبيد أن يطلب المدد من أبي بكر ووصلت فعلا قوات إمداد من أبي بكر وواصلت الحرب مع الأشعث الذي انسحب من الميدان وتحصن بحصن وانضمت إليه بعض العشائر .. وقد أحاط المسلمون بهذا الحصن واستولوا على المود والمؤن التي كانت ترسل إلى الأشعث .. وكان الأشعث كما قلنا ذا مواهب عديدة إلى جانب قدرته وبسالته في القتال ومع ذلك فهو شاعر مجيد ذو خيال خصب ومنطق ساحر .. وكان على جانب كبير من الذكاء ذا جاذبية شديدة مما جعله واحدا من أكثر الرجال خطرا بعد أن ارتد ومع ما ذكرناه من صفاته الحسنة كان خائنا مخاتلا يعيش حياة يفصل فضائلها عن رذائلها خيط رفيع جدا .. لذلك لما دام الحصار بضعة أيام أيقن الأشعث أنه لا أمل له في النصر وعول على أن يأتي بعمل يتفق مع طبيعته .. فبعث برسالة إلى عكرمة قائد جيش المسلمين .. وكان صديقه أيام الشرك .. وطلب في الرسالة إجراء مباحثات معه .. وكان الأشعث قد قرر بيع قبيلته إنقاذا لنفسه .. ووافق عكرمة على إجراء المباحثات فخرج قيس من الحصن في سرية تامة واتفق الأشعث مع عكرمة على أن يمنحه الأمان لنفسه وتسعة ممن يحب ولما وافق عكرمة طلب منه كتابة أسماء ممن يحب أن يكونوا معه ومقابل ذلك سيفتح الأشعث باب الحصن للمسلمين ..

انتحى الأشعث جانبا يكتب الأسماء وكان واحد من رجاله هو (جحدم)كان يتطلع من فوق كتف الأشعث إلى الأسماء التي تدون ولما لم يجد جحدم اسمه في الكشف هجم بشفرة على الأشعث وقال له .. (نفسك أو تكتبني)[1] ... وأضاف الأشعث اسم هذا الرجل ونسي أن يكتب نفسه .. تسلم عكرمة الأسماء وعاد الأشعث إلى الحصن حيث فتح أبوابه في الساعة المتفق عليها.. ودخل المسلمون إلى الحصن ودارت معركة رهيبة انتهت باستسلام أهل الحصن وأخذ الأشعث أسيرا مع الأسرى.. لأن الرجل جحدم عندما هجم عليه بالشفرة أفزعه وأنساه أن يكتب اسمه لذلك اغتبط الأسرى بوجوده بينهم وعرفوا بخيانته وهموا به يريدون قتله .. وقال

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٣٢٨ .

لهم أحدهم (الحمد لله الذي أخطأك نوؤك يا أشعث يا عدو الله قد كنت اشتهي أن يخزيك الله) وعندما وصل وفد الأسرى إلى المدينة كان من بينهم فتيات جميلات وقد علمن بغدر الأشعث وخيانته وأنه من (حفر حفرة لأخيه وقع فيها) لذلك نظرن إليه باحتقار ورمينه بالغدر وقد لقي كل من صفوف الازدراء والاحتقار ...

كان الأشعث عندما زار المدينة أيام النبي ﷺ وأعلن إسلامه مع قبيلته تزوج من أم فروة أخت أبي بكر الصديق وقد تركها بعد الدخول بها ووعدها أن يصحبها معه بعد أن يذهب إلى قبيلته ويهئ لها الدار والمقام لكنه لم يعد إلا أسيرا .. وحوكم الأشعث في المدينة على ملأ ... واتهم بارتكابه جرائم متنوعة كما أنه غدر بقومه وباعهم .. والقدر أعمى بصره وبصيرته فلم يدون اسمه فيمن طلب لهم الأمان .. لكن الأشعث استخدم بلاغته وفصاحته ودلل على برائته وإن لم تكن البراءة فالعفو من شيم الكرام (وأن تعفوا أقرب للتقوى) وتأثر أبو بكر بكلامه فسامحه وعفا عنه بل أورد إليه زوجته .. لكن هذا الرجل وإن كان قد عاش في المدينة وحارب مع المسلمين ضد الفرس والروم إلا أن روح الخيانة والغدر لم تفارقه أبدا .. مما حدا بأبي بكر رضي الله عنه أن يلوم نفسه لعفوه عن هذا الرجل الخسيس وأثر عن قوله (لوددت أني يوم أتيت بالأشعث بن قيس أسيرا كنت ضربت عنقه)[1] .. ويذكر المؤرخون أن زوجة الإمام الحسن بن على كرم الله وجهه والتي وضعت له السم فقتلته هى ابنة الأشعث بن قيس وقد حصلت لقاء هذا العمل الإجرامي على مائة ألف درهم [2] ...

هذا هو الأشعث بن قيس الذي قاد حركة الردة في اليمن وأنقذ نفسه في آخر لحظة في العديد من المرات .. كان هذا الرجل شاعر مبرزا جاء إلى خالد عند عودته من قنسرين وأنشده قصيدة عصماء لأنه مدحه وأبرز مواهبه وعدد فتوحاته فأجازه خالد (وهو السخي الكريم) بعشرة آلاف درهم .. ووصل الخبر إلى الخليفة عمر فاستشاط غضبا وأعلن أن هذا من خالد إسرافا وليس كرما وأنه تجاوز كل الحدود ..

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٣٣٥ إلى ص ٤٣٠ .

(٢) المفارق لابن قتيبة ص ١١٢ .



لو أن خالد منذ نعومـــة أظفـاره وصـدر شـبابه تمسـك بمـا عـهـد عنـه مـن أنـه مدبـر يعمل حساب الغد ويهئ لنفسه ولأسرته التخطيط الدقيق لشهور قادمة لأصبح اليـوم يعد من أغنى أغنياء العالم ..لكنه بعد أن خاض المعارك بدأ يحسب يومـا بيـوم لذلـك فقد بسط يده بالعطاء من ماله الخاص .. لهذا كان دائمـا وأبـدا يجـود بمالـه الخـاص على جنده وأحبابه .. ومن قل نصيبه في غنيمـة مـن الغنـائم أعطـاه مـن مالـه.. فـهـو عندما أعطى الشاعر هذا المبلغ فهو من ماله الخاص فلا لوم ولا عتاب.. لكـن الخليفـة المتقشف الزاهد اعتبر أن هذا إسراف يجب أن يعاقب عليـــه خـالد وكـانت هـذه هـى النهاية المؤلمة التي جعلت عمر يتخذ قرارا بعزل خالد نهائيا وكانت قصيدة الأشعث هى من المعاول التي حفرت قبرا ليواري فيه حياة خالد الحربية .. لكن ما سجل على جبين الزمن لا يمحى فهذه قصة خالد تروى للأجيال لتكـون نبراسـا هاديـا ومشـعلا مضيئا لحياة رجل حقـق الله علـى يديـه نصـرا مبينـا وأصبحـت أيامـه سـجلا حـافلا تستفيد منه البشرية وذكرى خالد دائمـا في أذهـان النـاس لأن الأبطـال لا يموتـون .. وصدق الله العظيم (وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّـهِ أَمْوَاتـاً بَـلْ أَحْيَـاءٌ عِنْـدَ رَبِّـهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِّنْ خَلْفِـهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّـهِ وَفَضْـلٍ وَأَنَّ اللَّـهَ لا يُضِيـعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ * الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَـهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِيـنَ أَحْسَـنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ * الَّذِينَ قَـالَ لَـهُمُ النَّـاسُ إِنَّ النَّـاسَ قَـدْ جَمَعُـوا لَكُـمْ فَاخْشَـوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْـبُنَا اللَّـهُ وَنِعْـمَ الْوَكِيـلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَـةٍ مِّـنَ اللَّـهِ وَفَضْـلٍ لَّـمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ) [آل عمران من الآية ١٧٤:١٦٩]

الجرح الدامي

ليس عطاء خالد للشاعر هو الذي أثار الخليفة بهذه الدرجة ولكن هناك أمر آخر هـو أن خالدا وهو عائد من قنسـرين دخـل الحمـام فاغتسـل ودلـك جسـده بثخـين عصفـر

معجون بخمر وخالد يبغي من وراء ذلك أن يلطف جسده لأن الشمس شديدة الحرارة والرطوبة عالية ولذلك خرج خالد على جنده متألقا منتعشا بعد هذا الحمام .. كان خالد يعلم أن الخمر يحرم شربها وأنه ليس هناك نص يحرم دلك الجسد من خارجه بزيوت وأدهنه يدخل الخمر في تركيبها .. المهم أنه بعد هذا الحمام بأسابيع قليلة تسلم خالد كتابا من الخليفة يقول له فيه (بلغني أنك تدلكت بخمر وإن الله قد حرم ظاهر الخمر وباطنه كما حرم ظاهر الإثم وباطنه .. وقد حرم مس الخمر إلا أن تغسل كما حرم شربها فلا تمسوها أجسادكم فإنها نجس وأن فعلتم فلا تعودوا) قرأ خالد الخطاب وأمعن فيه طويلا وأدرك أن كلماته تحمل بين طياتها أكثر من التحذير وخالد يعلم أن الله حرم شرب الخمر ونهى عن تناوله لما تسببه من غياب العقل وعدم الاتزان وعدم سيطرة الإنسان على نفسه مما يجعله يهزي ويفتري على غيره ولا يدرك ما يفعل .. لهذا كتب خالد للخليفة يشرح له طريقة تحضير المزيج الذي اغتسل به وهذا المزيج يطهر ما فيه من خمر حين يغلى على النار وكان نص كلامه في الرسالة (إنا قتلناها فعادت غسولا غير خمر) ورد عمر على خالد بقوله (إني أظن آل المغيرة قد ابتلوا بالجفاء فلا أماتكم الله عليه) [1] ... ومن غير المعروف لنا هل عاد خالد لأخذ مثل هذا الحمام أم تخلى عنه .. إزاء كل هذه التجمعات من المعلومات عن خالد عند عمر وغير هذه الأحداث كثير الأمر الذي دعى عمر أن يبعث بخطاب إلى أبي عبيدة يطلب إليه فيه (أن يقيم خالدا وأن يعقله بعمامته [2] ... وينزع عنه قلنسوته إلى أن يعلم الناس من أين إجازة الأشعث ..؟ من ماله ؟ أم من مال أصابه؟ فإن زعم أن هذه الإجازة من إصابة أصابها [3].. فقد أقر بخيانته .. وإن زعم أنها من ماله .. فقد أسرف وختم الخليفة كتابه بقوله (إعزله على كل حال واضمم إليك عمله) [4] حمل رسالة الخليفة إلى أبي عبيدة بلال بن رباح وعندما قرأ أبو عبيدة الخطاب أصابه الذهول لأنه لم يصدق أن سيف الله يتعرض لمثل هذا الإجراء لكن هذا

---

(١) الطبري ج ٤ ص ٦٦ .

(٢) أي يحبسه ويقيده .

(٣) أي من الغنائم التي حصل عليها .

(٤) الطبري ج ٤ ص ٦٧ .

هو الأسلوب المتبع عند العرب .. أى يقيد الشخص بعمامته .. لكن المتهم في هذه المرة ليس متهما عاديا فهو يحتل مكانة مرموقة في نفوس الناس جميعا فهو شخصية لها مهابتها واحترامها .. لكن أوامر الخليفة يجب أن تطاع ...

خالد كان في قنسرين وجاءه رسول من أبي عبيدة يدعوه ليذهب إليه .. وظن خالد أنه مدعو ليحضر اجتماع مجلس الحرب أو أنه سيقوم بقيادة عملية حربية أو أعمال تضاف إليه .. ولم يكن يعرف ما هو مخبأ له فكما يقال (تقدرون وتضحك الأقدار) وما أن وصل خالد إلى حمص وتقابل مع القائد أبي عبيدة الذي تبسط معه في الحديث ودخلا مع بعضهما في حديث الذكريات ثم شرح القائد العام لخالد بإيجاز اتهام عمر له وطلب منه أن يدافع عن نفسه وذهل خالد لما سمع .. وأدرك أن هذا الإجراء ليس بسيطا ولا مجرد تهمة .. وإنما هناك مؤامرة للقضاء عليه وإبعاده عن الميدان .. وطلب خالد من أبي عبيدة أن يمنحه وقتا للتفكير ووافق أبو عبيدة ...

كانت فاطمة أخت خالد لها بحمص دار فذهب إليها وشكى لها ما يلاقيه من تصرفات عمر وبين لها أن عمر بنفسه شئ من خالد من الأيام الأولى وهما يتنافسان .. وشرح لها الكثير من مواقف عمر إزاءه وسألها النصيحة ..فاطمة أخت خالد أكدت ظنون خالد في عمر لكنها شجعته وحثته على الصبر فما عند الله خير وابقى لأن الصابرين لهم منزلة كبيرة عند الله .. قبل خالد رأس أخته وخرج متوجها إلى أبي عبيدة . فأخذه من يده وخرجا على الناس فاندفعوا نحو خالد يصافحونه ويقبلون رأسه واستطاعا أن يشقا طريقهما بصعوبة وأن يفلتا من الناس وصعدا على منصة عالية جلس عليها أبو عبيدة وخالد وبلال الحبشي حامل الرسالة والناس أمامهم .. ساد المكان صمت رهيب لم يعرف المسلمون الغرض من هذا الاجتماع كما أن خالدا لم يكن يتوقع أنه سيحاكم وبهذه الصدمة أمام الناس.. نظر بلال لأبي عبيدة متسائلا .. تكلم .. فأشاح أبو عبيدة بوجهه لأنه يعتقد أن رجلا مثل خالد أدى خدمات حربية للدولة .. لم يفعل مثله أحد وليس هناك قائد يدانيه .. فلا يصح أبدا أن يتعرض لعملية إذلال ومهانة علنية على هذه الصورة ثم يشترك هو فيها .. أنه نفذ أمر الخليفة بالدعوة إلى الاجتماع وعلى حامل الرسالة أن يفعل ما يشاء .. وأدرك بلال ما

يجول بخاطر أبي عبيدة .. لذلك وقف بلال وقال بصوت عال سمعه الجميع يا خالد.. أمن مالك أجزت بعشرة آلاف أم من إصابة ؟نظر خالد إلى بلال وهو صامت لا يصدق ما يسمع ولم يجب .. فأعاد بلال سؤاله .. لكن خالدا بقى معقود اللسان لأول مرة في حياته فلم يرد كذلك .. فقام بلال .. وقال ..(إن أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا ..) ثم نزع عنه قلنسوته وعقله بعمامته وسأله ما تقول أمن مالك أم من إصابة؟ صاح خالد محتجا أن ذلك من مالي فأسرع بلال وفك خالد وأعاد إليه قلنسوته وعممه بيده وقال (نسمع ونطيع لولاتنا ونفخم ونخدم موالينا) [1]

ساد الاجتماع سكون رهيب وجلس أبو عبيدة وبلال ونظرهما إلى الأرض ثم نهض خالد وهو في ذهول مما حدث وسار بعيدا فلحق به أبو عبيدة فقال له خالد بصوت متحشرج تخنقه العبرات (رحمك الله .. كتمتني أمرا كنت أحب أن أعلمه قبل اليوم .. فقال أبو عبيدة إني والله ما كنت لأروعك ما وجدت لذلك بدا وقد علمت أن ذلك يروعك) [2]...

عاد خالد إلى قنسرين بعد أن رأى فرح الناس من جوابه ردا على بلال وخيل للجميع أن كل شئ قد انتهى وأن عمر سيترك خالدا أميرا على قنسرين مكافأة له على حسن بلائه .. وعاد بلال إلى المدينة وشرح لعمر ما حدث في الاجتماع وانتظر عمر بعد ذلك كتابا يأتيه من أبي عبيدة يخبره بعزل خالد عن قيادة الجيش بقنسرين .. ومضى أسبوعان ولم يصل إلى عمر من أبي عبيدة ما يفيده بعزل خالد .. فكتب عمر كتابا إلى خالد يطلب منه المجيء إلى المدينة وتسلم خالد الخطاب وذهب إلى حمص يسأل أبا عبيدة عن وضعه فرد أبو عبيدة وقد بدت عليه علامات الحزن وفي صوته رنين آسى وأثار الدموع في عينيه (الخليفة قد عزلك من منصبك .. رجع خالد إلى قنسرين فالتف من حوله رجاله الذين قاتلوا معه وعملوا معه بصدق وإخلاص وقادهم من نصر إلى نصر ولم يذوقوا طعم الهزيمة أبدا وهم يقاتلون تحت رايته فتحدث إليهم وودعهم ثم أخبرهم أنه عزل من القيادة وأنه سيتوجه إلى المدينة

---

(١) الطبري ج٤ ص ٦٧ .

(٢) تاريخ الأمة العربية للدكتور عبد الفتاح شحاته ص ٢٠٠ .

ليقابل الخليفة .. وللأسف سيذهب إليها كرجل عادي يشار إليه على أنه حوكم علنا على أمور فعلها بحسن نية وتصرف بما تمليه عليه المواقف .. لقد كان المفروض أن يذهب إلى المدينة ليتسلم جائزة شرف لأنه بطل قاد المعارك فما تأخر وما انهزم وكان على السلطة العالية أن تعلن امتنانها له شاكرة له حسن فعله...

مقابلة ساخنة

ترك خالد أصدقاءه وأصحابه الأوفياء وتوجه إلى المدينة .. وعندما دخلها تقابل مع عمر بن الخطاب .. وواجه الرجلان القويان بعضهما .. الأول عمر بن الخطاب أكبر حكام عصره .. والثاني أكبر عملاق عرفه تاريخ الجندية وعبقرية من عبقريات الحرب .. لأن خالدا لم ير التاريخ مثله في مواهبه الحربية والإدارية لأنه كان يصرف أمور الأراضي التي فتحها .. وكانت الخطط التي وضعها والمناورات التي رسمها دليلا على تفكير حربي رائع ..وكان هذا اللقاء الساخن تغني فيه النظرات عن الكلام .. وسادت لحظة صمت قطعها عمر بأبيات من الشعر فيها تقدير لأعمال خالد ومنها:

صنعت فلم يصنع كصنعك صانع

وما يصنع الأقوام فالله يصنع [1]

فقال خالد ..شكوتك إلى المسلمين وبالله انك في أمري غير مجمل يا عمر ..فقال له عمر.. من اين هذا الثراء ؟فقال خالد من الأنفال والسهمان ما زاد على الستين ألفا فلك .. وقيم عمر كل ما يمتلك خالد وكان معظمه معدات حربية وغلمانا ووجد أنها تساوي ثمانين ألف درهم فترك لخالد ما يساوي الستين ألفا وصادر العشرين ألف وضمها إلى بيت المال ..ولما انتهى عمر من هذا التقييم قال لخالد ..والله انك على لكريم وانك إلي لحبيب ولن تعاتبني بعد اليوم على شيء .. [2] ولقد خطب عمر في الناس واعتذر عن عزل خالد ..فوقف له أبو عمرو بن حفص بن المغيرة وقال ..عزلت

---

(١) الطبري جـ٤ ص٦٨ .

(٢) المصدر السابق .

عاملا استعمله رسول الله ﷺ ووضعت لما رفعه رسول الله فقال عمر..إنك قريب القرابة حديث السن مغضب لابن عمك ... [1]

ولقد توجه وفد من وجهاء المدينة إلى عمر ورجوه أن يرد إلى خالد ما له ورد عليهم عمر قائلا ..إنما أنا تاجر للمسلمين ..والله لا أرده عليه أبدا .. [2] لقد أثارت هذه المعاملة لخالد غضب المسلمين الذين شاع بينهم أن خالدا أصيب بما أصيب به بسبب عداء عمر الشخصي لخالد ..وظهر اتجاه في الرأي العام بالسخط على هذا التصرف ..الأمر الذي دفع بعمر أن يكتب إلى كل قادته وعماله يشرح لهم الموقف .. وكان مما قاله لهم ..(إنني لم أعزل خالدا عن سخطة مني ولا خيانته ولكن الناس فتنوا به فخفت أن يوكلوا إليه ويبتلوا به فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع وألا يكونوا بغرض فتنة).. [3] وفي هذا الخطاب أشاد عمر بخالد ومدحه ..وهذا يدل على ما أحدثه عزل خالد في الوسط الاجتماعي لأن الناس عرفوا مكانته ومواقفه ...

لكن خالدا عاد إلى قنسرين بقلب مجروح وعين دامعة لأنه رأى وسمع من الناس الثناء الطيب الذي يترجم عن حب عميق في نفوسهم ولمس هذه المشاعر الطيبة من المسلمين جميعا وكان هذا هو الشيء الذي يريح نفسه وينسيه ما حدث.

لقاء حار

عاد البطل الذي قاد حروب الردة وقضى على المرتدين ..عاد فاتح العراق ..عاد فاتح الشام كما يعود أي إنسان عادى إلى داره ..عاد بعد أن عزل من جميع مناصبه..لكن الذين يعرفون فضله استقبلوه بكل حفاوة وترحاب ولقد تماسك خالد الشجاع ..ووقف في وسط جنده شامخ الرأس مرفوع الهامة ..فألقى في رجاله كلمة تحية لهم وشكرهم على مواقفهم من حوله وودعهم ثم قال ..إن أمير المؤمنين استعملني على الشام حتى إذا كانت بثنية .. [4] ولما عزلني وأثر بها غيري فنهض رجل من جنده وقال ..صبرا أيها الأمير فإنها الفتنة ..فقال خالد ..أما وابن الخطاب حي فلا ..

---

(١) الاصابة لابن حجر جـ١ صـ٤١٣ .
(٢) الطبري جـ٣ ص٤٣٧ .
(٣) الطبري ج٤ ص٦٨ .
(٤) هى الزبدة .

هذا درس عظيم من خالد في التضحية وإنكار لذاته واعتبر نفسه أنه في معركة جهاد أكبر من جهاد العدو في الميدان أنها معركة جهاد النفس ..لقد عزل خالد في أول الأمر عن قيادة الجيش وهو في أمجد أيامه ولم يضعف عزله من حماسه ..لكنه بقي على وفائه وعمل تحت قيادة أبى عبيدة فلم تخمد جذوة إخلاصه لدينه.. ولقد ظل قائدا فى شخص جندى ..حيث أوكل إليه أبو عبيدة القيادة..لهذا كان خالد قائدا في صورة جندي ..ولقد قال يومها ..والله لو ولي على عمر امرأة لسمعت وأطعت.. ولقد استمر على هذا الإخلاص وهو يخوض المعارك فما وهن وما تواني وما ضعف ولا خان ولم يحزن لنفور عمر منه ..لكنه نظر إلى الإسلام والمسلمين وظل يحارب والنصر يسير في ركابه ..تلك نفس كبيرة ..وهمة عالية وشجاعة أدبية وكيف لا يكون كذلك ..وهو خالد بن الوليد سيف الله الذي سله على الكافرين .. ويكفي أن عمر بن الخطاب ترحم على أبى بكر وقال أنه كان اعرف بالرجال مني .. وأبو بكر كانت سياسته تجنح إلى الشدة في مواطنها إذا كان لابد من مواجهة الأمر بالحزم والعزم وباللين والتسامح إذا كان الأمر يتطلب ذلك..ولهذا كان موقفه من خالد في حادثة مالك بن نويرة مما يشهد له بذلك لأنه من وجهة نظره تأول فأخطأ ومن وجهة نظر البعض كذلك ..لكنه قائد ميدان ..وحوله سيوف مشرعة وتآمر هنا وهناك لذلك كان لا يسمح لأحد أبدا أن ينال من قادته الذين عرفوا بالإخلاص للإسلام وهم يضحون بأنفسهم في الميدان ..لذلك قال (لعمر) يومها ارفع لسانك عن خالد..لأنه في نظر الصديق أن العمال المخلصين عنوان للخلافة فإذا فتح عليهم باب المؤاخذة .. على أعمال قابلة للتأويل فسيشل حركتهم ويلغي تفكيرهم ، وبهذا تضيع الفرص العظيمة على الدولة ، ثم أن هذه الأعمال ليس فيها اجتراء على الدين ولا مساس بالقيادة العليا ولا ضياع لأموال المسلمين ..إن ما فعله عمر عندما حاسب خالدا على تدلكه بمعجون داخله خمر فإن هذا أمر قابل للتأويل وليس من وراءه ضرر بأحد وكان يمكن التجاوز عنه..وإن فتح الباب على القيادات للمؤاخذة في أمور قابلة للتأويل يجرى الناس عليهم وفي هذا اجتراء على الدولة والخلافة ..لهذا كان أبو بكر يعلم ويوقن أن رسول الله ﷺ قال ..(من اجتهد فأصاب له أجران ..ومن اجتهد

فأخطأ له أجر) المهم أن لا يكون هناك ضياع على الدولة في أي شيء ولا مساس بأحكام الدين التي لا تقبل التأويل ولا أخذ رشوة ولا مجاملة لأحد على حساب الصالح العام..ولما لم يكن خالد كذلك كان من أشجع الناس وأنبلهم خاصة وقد رضي بما فعله معه عمر وصبر واحتسب، ولقد ظهرت قوة إيمان خالد عندما طلب منه أصدقاؤه أن يقوم بثورة فأبى وقال قولته الشهيرة (الحمد لله الذي ولي عمر وكان أبغض إلى من أبى بكر ثم الزمني حبه) ... [1]



موقف طريف

كان عمر بن الخطاب يحاسب الولاة تحت بند (من أين لك هذا؟) وإذا كان عمر قد حاسب خالدا فإنه كذلك حاسب عمرو بن العاص وصادر عمر أموال أبي هريرة وحبس أبا سفيان بن حرب لأنه بدد مالا أخذه من ولده معاوية ليدفع به إلى بيت مال المسلمين ..ولما دفع له أولاده فك حبسه ثم حبسه مرة أخرى في قرض أخذته زوجته من بيت مال المسلمين وزعمت أنها خسرت في تجارتها لكن عمر قال لو كان مالي لتركته لكنه مال المسلمين ..وهكذا نرى أن عمر كان شديدا في محاسبة العمال ويقرر أن رعاية الحاكم للمحكومين أمر ضروري وأن محاسبة القادة والعمال تحت شعار (من أين لك هذا ؟) أو ما يعرف في هذه الأيام (الكسب غير المشروع) أمر ضروري والحاكم يحاسب ولا يتهم ويتعرف على ما يقوله الناس في أعماله فإن صح ظلم العامل لفرد من أفراد الرعية يؤاخذه وربما يعزله وحرم على العمال (هم الوزراء والمحافظون ومن في حكمهم)قبول الهدايا وكان يقول لهم إياكم والهدايا فإن الهدايا هى الرشوة المقنعة وهى سبب لضياع الحقوق على أصحابها ونافذة على أصحابها ونافذة تؤدى إلى خراب الذمم لذلك حدث أن عمر أرسل بأبي عبيدة وأمر أن يصادر نصف ممتلكات خالد وان أبا عبيدة نفذ أوامر الخليفة بدقة متناهية حتى أنه قسم زوجا من النعال كان ينتعله خالد فترك له نعلا واحدا وأخذ نعلا .. [2] وهكذا كان

---

(١) الطبري ج٣ ص٤٠٢ .

(٢) الطبري ج٣ ص٤٣٧ .

عمر مع عماله هو قدوة لهم فى محاسبة نفسه ومحاسبة أقاربه وكبار قادة الدولة وأى عامل فى موقعه ..لذلك استقام الأمر في الدولة ورضي الجميع بميزان العدل الدقيق بين الحاكم والمحكوم.

وانتهت الأسطورة

وهل تنتهي قصة بطل حرك الأحداث وقاد الجيوش وكان النصر دائما في ركابه..لم تنته بعد هذه القصة الأسطورية وإن كانت قد انتهت حملاته الحربية.. وأغمد سيف الله ولم يعش خالد بعد عزله سوى أربع سنين كانت ولا شك سنين عذاب وألم لأنه بدأ يعاني من الضيق المالي ..وإن كان لم يصل إلى حد العوز ..كان خالد يحصل على مبلغ كمعاش محدد له من بيت مال المسلمين وكان هذا لا يكفيه لأنه ربيب نعمة ولد في أحضان العز وترعرع في الترف والنعيم ومع ذلك رضي بوضعه لكنه أخذ أسرته وتوجه إلى حمص واشترى بها داراً وسكنها .. وكان معاشه السنوي : (ثلاثة آلاف درهم).. [1] والواقع أن عزل خالد كان ضربة شديدة له..وفي أثناء هذه اللحظة المعتمة انتشر الطاعون ببلاد الشام ومات معظم أصحابه ممن لهم مكانه مرموقة في نفسه وقد حزن خالد لموت هذه الصفوة من أصدقائه المقربين كما مات بالطاعون أكثر من أربعين شخصا من قبيلته الذين كان يحبهم ويقربهم إليه ويشكو لهم همه ويروح عن نفسه معهم ..

والتاريخ لم يذكر لنا من أولاده إلا ثلاثة عاشوا إلى ما بعد وفاته وهم :

١- سليمان ٢- مهاجر ٣- عبد الرحمن ..

ويقال بأن سليمان قتل شهيدا أيام غزو مصر وأما مهاجر فاستشهد مع سيدنا على بصفين وأما عبد الرحمن فكان كأبيه يتحلى بالقوة والشجاعة ..ويقال بأنه مات ميته غير طبيعية إذ قضي عليه بالسم وأن معاوية هو الذي دبر خطة قتله لغيرته منه ولخشيته من المكانة الكبيرة التي كان يحتلها ابن سيف الله في قلوب المسلمين .. ولسنا نعرف كم لخالد من بنات ...

---

(١) الطبري ج٣ ص٦٠٤ .

إن مرور الأيام هدأت من نفس خالد وخففت حفيظته على عمر إذ لم يعد عمر الفظ العنيف المتسرع فقد ناء تحت أثقال الخلافة فأصبح رقيقا صبورا وإن ظل عابسا متجهم الوجه ..وقد أصبح أمام خالد وقت طويل يفكر في أمره وقد أدرك تمام الإدراك ما كان عليه منافسه القديم من فضائل عظيمة وصفات كريمة لهذا سامحه على فعله معه وقال لأحد زواره الحمد لله الذي ألزمني حب عمر ..وكان هذا التحول في قلب خالد بالنسبة لعمر كبيرا حقا وكان مرور الزمن عاملا في لأم الجرح في قلب خالد الذي أصبح من الجنود المتقاعدين وهو يستعيد إلى ذهنه المعارك التي خاضها والمبارزات التي تحدى فيها أعظم فرسان العالم ومن حقه أن يزهو ويفخر بانتصاراته ولكن بدون غرور لأنه يؤمن بأن هذه الانتصارات كانت بعون الله وببركة رسوله الكريم ﷺ في قلنسوة خالد الحمراء فقد كان بعض شعيرات من رأس النبي العظيم في قلنسوته ..كان خالد وهو يستعيد هذه الذكريات يتذكر أصدقاؤه الذين يحتفظ التاريخ بأعمالهم البطولية والتي أصبحت الآن تحتل مكانا في قلوب المسلمين ..أصبح الأسد صابرا متأنيا لأنه لن يقاتل في ميدان ولا يرفع سيفا بعد اليوم ..لكنه كان يتسمع إلى أخبار الجنود المسلمين وكان يفرح لكل نصر يتحقق لهم ..وكان كالعاشق الولهان يتلهف على أنباء المعارك ويرى أن النصر الذي يزف إليه هو الحبيبة التي يراها أمامه ..لقد كان أعنف رجالات الحرب وأكثرهم نجاحا لذلك كان يفرح بالنصر ويهتز طربا له ..إن التاريخ عندما نستعرضه نرى أن خالدا هو الذي فتح الثغرة ضد المسلمين في أحد وحقق نصرا للمشركين وهو أول قائد مسلم يترك بلاد العرب ليغزو أرضاً أجنبية وأول مسلم يُخْضِع إمبراطوريتين كبيرتين ..كان خالد جادا لا يعرف الهزل لذلك ترك أثرا لمجده لأن حياته كلها جد فلقد عاش في الميدان أكثر من خمسة عشر عاما خاض خلالها أكثر من أربعين معركة بخلاف الاشتباكات الصغيرة .. خمس وثلاثون معركة خاضها في السنوات السبع الأخيرة ولم يخسر معركة واحدة .. ولنا أن نتخيل ماذا كان سيحدث لو ظل خالد على رأس جيش المسلمين بالشام .. لاشك أن الفتوحات ستزداد لكن قدر الله وما شاء فعل ..

خالد أكبر عملاق عرفه تاريخ الجندية لأنـه كـان جنديا بطبعـه وكـان مـع عبقريتـه الحربية يتميز بالعنف الشديد أثناء المعركة ..وكان دائما يقول لأصدقائه إن المعركـة ليست حربا تنتهي بانتصار حربي بل هى عملية تدور بعنـف شـديد ليكـون القضـاء على العدو قضاءً مبرما ..كان يتحلى بالنظرة الحربية البعيدة كمـا كـان يتمتـع بقـوة جسدية كبيرة ومهارة فائقة ..لهذا عندما بلغ ثمـان وخمسـين سـنة مـن عمـره وكـان العام الواحد والعشرون من السنة الهجرية مرض مرضا أقعده وأضعف قواه فتدهورت صحته وذبل جسده بصورة تميز بـهـا كـل الرجـال الأقويـاء الذيـن يفـرض عليـهم أن يقعدوا فجأة ويقدر عليهم أن يقضوا حياتـهم بـلا نشـاط واشـتد عليـه المـرض وقاسـى مقاساه لم يحتمله جسمه الواهـن وقبـل أن يلفـظ أنفاسـه قـال لأحـد أصحابـه (مـا في جسدي موضع إلا وفيه ضربة برمح أو طعنه بسـيف ورفـع الغطـاء عـن جسـمه ورأى صاحبه شيئا عجيبا ثم قال لجلسائه كيف تمكن رجل يحمل جسده كل هـذه الجـروح من أن يعيش لكن خالدا رد وهاأنذا أموت على فراشي حتف أنفي كما يمـوت البعـير فلا نامت أعين الجبناء) [1]

إن خالدا كـان يتمنـى لـو مـات ميتـة عنيفـة في معركـة تحـت بريـق السـيوف وسنابك الخيول لكـن صاحبـه قـال لـه .. يـا خـالد ..أنـت طلبـت الشـهادة لكنـك لم تنلها..!! فسأله خـالد .. لماذا ؟ قـال لأن رسـول الله ﷺ سمـاك سـيف الله المسـلول وسيف الله لن ينكسر في قتال فإن قتلك مشرك بيده فإن سيف الله قد يكون انكسر على يد عدو من أعداء الله وهذا أمر لن يحدث أبدا ..وأمعن خالد فكره فيما قـال الرجـل .. ومع أنه مصدق بحديثه إلا أنه يشعر أن حياته تنتهي وهو ممدد على الفـراش فصـاح لا ..ليست هذه نهاية الشجعان وخرج الرجل الذي كان يسامره وأغمض خالد عينيـه وكانت نهايته .. وقبل أن يغمض عينيه أوصى خالد بكل ما لديه لعمـر بـن الخطـاب مما يدل على رضاء خالد عن عمر قبل الوفاة [2].

---

(١) ابن قتيبه ص١١٦
(٢) الاستيعاب ج١ ص٤٠٨ لابن الأثير ج٣ ص١٠ الإصابة ج١ص٤١٥

مات سيف الله ووصل خبر موته إلى المدينة كالعاصفة ..وخرجت النسوة في الطرقات وعلى رأسهن نساء بني مخزوم ينتحبن ويولولن ويضربن صدورهن وخرج عمر بدرته ليضرب النساء ويفرقهن لأنه كان قد أصدر أمرا بألا تنوح النسوة على أي مسلم يموت وتشدد عمر في تنفيذ هذا الأمر ..لكن ما إن خرج من باب داره حتى سمع صوت ابنته حفصه وهى في داره مجاورة له وهى أرملة النبي ﷺ تبكي وتنتحب وتساءل عمر من مات ؟فقيل له خالد ..فدخل إلى داره وعلق درته واعتبر هذه حالة استثناء وسمح الخليفة لنساء بني مخزوم أن ينتحبن على أبي سليمان ويقلن فيه ما يردن لأنهن لن يكذبن في أي شئ يقلنه عنه ثم قال (دعهن يبكين على أبي سليمان ما لم يكن نقع أو لقلقه) [1]

وقد روي أن عمر لما توفى خالد قال .. رحم الله خالدا وكان يقف بجواره طلحة بن عبيد الله فنظر إلى عمر ثم تمثل ببيت من الشعر :

لا أعرفنك بعد الموت تندبني   وفي حياتي ما زوتني زادي

قال عمر إني ما عتبت على خالد إلا في تقدمه وما كان يصنع في المال [2]

حزن المسلمون حزنا شديدا على موت خالد وكان عمر من أشدهم حزنا عليه.. ولما بلغه وفاته ووصيته وجدوا تركته تتكون من :

١- سلاحه   ٢- فرسه   ٣- غلامه .

فضرب عمر كفا بكف وقال رحم الله أبا سليمان إنا كنا لنظنه على غير هذا.. قيل يا أمير المؤمنين لم يكن رأيك فيه في حياته على هذا .. قال عمر : ندمت على ما فعلت وعلى ما كان مني .. لقد كان والله سدادا لنحور العدو ميمون النقيبة .. فقيل له.. فلم عزلته ؟ .. قال .. ندمت .. ليته بقي ما بقي بالحمي حجر .. ولقد دخل هشام بن البختري في ناس من بني مخزوم على عمر فطلب أن ينشده من شعره في خالد .. فلما أنشد البختري شعره قال عمر قصرت في الثناء على أبي سليمان رحمه الله .. أنه كان يحب أن يذل الشرك وأهله وإن كان الشامت به متعرضا لمقت الله ثم

---

(١) أي نواح مع رفع الصوت .

(٢) الإصابة جـ١ ص٤١٥ .

قال رحم الله أبا سليمان ما عند الله خير له مما كان فيه .. ولقد مات فقيرا وعاش حميدا ولقد رأيت الدهر ليس بقائل [1] ومما يدل على تنويه عمر بفضل خالد أنه لما طعن طلب المسلمون منه أن يعهد بالخلافة لأحد من الصحابة .. فقال .. لو أدركت خالد بن الوليد ثم وليته ثم قدمت على ربي فقال لي .. من استخلفت على أمة محمد؟ لقلت سمعت نبيك يقول .. خالد سيف من سيوف الله سله الله على المشركين [2]..

هذه بعض كلمات عمر في خالد ليست من باب الدعاية السياسية أو أريد بها تسكين الخواطر .. أو أنه بذلك يسدل الستار على أخطاء خالد ويصون عليه كرامته .. هذا شئ غير وارد لأننا نعرف عمر الرجل الشجاع الصريح العادل .. وخالد أصبح الآن في عالم آخر في ذمة التاريخ فعمر يعترف بالحق ولو على نفسه ويقول الحق ولو على ولده لأنه لا يجامل لذلك كانت شهادة عمر شهادة خير تدل على علو قدر خالد الذي قال في مرضه الأخير (لئن مات عمر سوف يرى المسلمون أمورا ينكرونها) ويقول لأحد جلسائه في مرضه الأخير (قد كنت وجدت عليه في نفسي في أمور .. فلما تدبرتها في مرضي وحضرني من الله حاضر عرفت أن عمر كان يريد الله بكل ما فعل .. كنت وجدت عليه في نفسي حين بعث إلى من يقاسمني مالي حتى أخذ فرد نعل وأخذت فرد نعل ورأيته فعل ذلك بغيري من أهل السابقة وممن شهد بدرا وكان يغلظ على وكانت غلظته على غيري نحوا من غلظته على) [3] ...

تلك قصة خالد الفاروق وسيف الله وهى قصة مؤلمة النهاية وأنا لا أريد أن أقف موقف الحكم إكبارا الصحابة عن أي اتهام لأنهم فعلوا ما فعلوا بحسن نية خدمه للدين وصالح المسلمين نؤمن ونعتقد أن عزل خالد كان لمصلحة ظهر شأنها أيام عمر الذي كان يحاسب عماله بميزان واحد هو ميزان الحق والعدل .. وما علينا إلا أن نرضي عن الصحابة جميعا الذين عاصروا النبي العظيم ولهم معه صحبة وعاشوا معه يكافحون ، فرضي الله عنهم أجمعين وأعمالهم لم تشهدها عيوننا وربما يكون هناك من أخطاء في نقل الأحداث فعلينا أن نمسك ألسنتنا وأن نروي بدقة وأمانة ما سجلته

---

(١) خالد بن الوليد لعمر كحالة ص ١٩٨ وما بعدها والفاروق عمر لهيكل ج١ ص ١٨٢ وما بعدها .
(٢) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ص ٢٧ .
(٣) عبقرية خالد للعقاد ص ٢١٧ .

كتب التاريخ من النصيحة لشبابنا (العاقل من اتعظ بالأحداث وأخذ العبرة بما جرى على أرض الواقع)..

وقصة خالد قصة بطولة وشجاعة فيها التخطيط الدقيق والتنظيم الجيد والانضباط على القيم الأخلاقية العالية التي يجب أن نتحلى بها لأنها سلم النجاح والمواصلة إلى حياة السعادة والرفاهية والتقدم في ظل العطاء للإنسانية كلها ولكي تعرف قدر خالد انظر ما قيل فيه غير ما قدمنا ..

ما قيل في خالد

روي أحمد في مسنده أن أبا بكر عندما وجه خالدا لحرب الردة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول (نعم عبد الله وأخو العشيرة خالد بن الوليد) .. خالد بن الوليد سيف من سيوف الله سله الله على الكفار والمنافقين) وقال أبو عبيدة سمعت رسول الله ﷺ يقول .. (خالد سيف من سيوف الله نعم فتى العشيرة) وفي الصحيح (وأما خالد فإنكم تظلمون خالدا وقد احتبس أدراعه وأعبده في سبيل الله)[1]

قالت أم خالد تندبه :

أنت خير من ألف ألف من القشوم إذا ما كبت وجوه الرجال [2]

فسمع عمر قولها فقال صدقت والله إن كان لكذلك...

ورأى عمر امرأة محرمة تبكي وتقول :

أنت خير من ألف ألف من الناس	إذا ما كبت وجوه الرجال
أشجاع أنت فإنت أشجع من ليث	ضمر بن جهم أبي أشبال
أجواد فإنت أجود من سيل	دياس يسير بين الجبال

فقال عمر .. من هذه ؟ قيل له أم خالد تبكيه .. قال صدقت

ونختتم هذا بقول خالد بن الوليد لما حضرته الوفاة قال لقد طلبت القتل في مظانه فلم يقدر لي إلا أن أموت على فراشي وما من عملي شئ أرجى عندي بعد لا إله إلا الله من ليلة بتها وأنا متترس [1] والسماء تهلني تمطر إلى الصباح [2].

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٧ ص ١٣٧ .

(٢) كبت .. سقطت .

أوليـاء الله والصـالحون مـن أمـة محمـد ﷺ إن واراهـم القبر فـإن التـاريخ يـهتف بأسمائهم.. لأن أعمالهم مسـجلة بـأحرف مـن نـور علـى جبين الزمـن.. وصـدق الله العظيم (أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّـهِ لا خَـوْفٌ عَلَيْـهِمْ وَلا هُـمْ يَحْزَنُـونَ * الَّذِيـنَ آمَنُـوا وَكَـانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لا تَبْدِيـلَ لِكَلِمَـاتِ اللَّـهِ ذَلِـكَ هُـوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) [يونس ٦٢ :٦٤] ..

لذلك هناك في حمص وإلى يمين الطريق المتجه إلى حماة توجد حديقـة كبـيرة في نهايتها مسجد فسيح تبلغ مساحته نحو خمسمائة ياردة مربعة له مأذنتـان طويلتـان ويعلو المسجد قبة تتوسطه وفي ناحية الشمال الغربي يقع ضريح خالد وهو يوحـي إلى الإنسان بأشياء كثيرة خاصة إذا كان الزائر ممن يعرف شيئا عـن تـاريخ خـالد الـذي كان القائد والزعيم ويظـهر دائمـا وسط فرسـانه وهـي تطـير وراء المقـاتلين الـروم أو الفرس ترتج الأرض تحت أقدامهم وهم يجرون بخيولهم .. وكـان كـل فـارس منـهم يحاول أن يتقدم على زميله حتى إذا وصل إلى القائد والزعيم كـان لا يقـدر أن يسبقه أبدا .. كان خالد رجلا ضخم الجسم عريض المنكبين بارز العضـلات كـان يقـاتل علـى ظهر فرس عربي أصيل وقد أصبح جزءا منه تـهتز الأرض تحـت وقـع حوافـر فرسـه الشرس الهادر .. وإذا ما تسمع الزائر فسوف يسمع صوتـا يـأتي مـن أعمـاق التـاريخ يرتفع قائلا .. الله اكبر .. أنا المحـارب الصنديـد .. أنـا سـيف الله خـالد بـن الوليـد فرضي الله عنك يا خـالد في الأولـين وفي الآخريـن .. ونقـول لسيدنا رسـول الله الـذي تربيت على يديه بعد أن دخلت في الإسلام .. ما قاله أحد الشعراء..

يا سـيد الرسل طب نفسا بطائفة ... باعـوا إلى الله أرواحـا وأبـدانا
قادوا السفين فما ضلوا ولا وهنوا ... وكيـف لا وقد اختاروك ربانا
أعطـوا ضريبتـهم للدين من دمهم ... والناس تزعم نصر الدين مجانا

---

(١) متستر .
(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج٧ ص ١٤٠ وما بعدها .

فيا سيدي يا رسول الله .. خالد أحد الرجال الذين صنعوا التاريخ وعلموا الناس أن الإيمان ليس بالتمني ولا يدخل الخوف إلى قلب المسلم أبدا لأنه في رعاية الله ، فهو مقدام شجاع لا يخاف ، لأن الله معه يحفظه ويدافع عنه ، لذلك فهو يدافع عن الحق بالحق ، لا يخون ولا يغدر ولا يخرج على نظام الدولة ، هكذا كان خالد الذي عرفناه من خلال القراءات المتأنية والمتعددة عنه .. وهو صحابي عظيم .. نسأل الله بحقك يا رسول الله عنده أن يرفع قدر خالد في الأولين والآخرين ويعلي منزلته يوم الدين ويبوءه مقعد صدق في الفردوس الأعلى مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وأن يحشرنا معه فإن المرء مع من أحب وأنت يا سيدي يا رسول الله الذي أخبرتنا بذلك .. صلى الله عليك وعلى آلك وأصحابك وجمعنا تحت لوائك ووفقنا إلى كل عمل يقربنا من رضاء الله عنا إن ربي سميع مجيب..

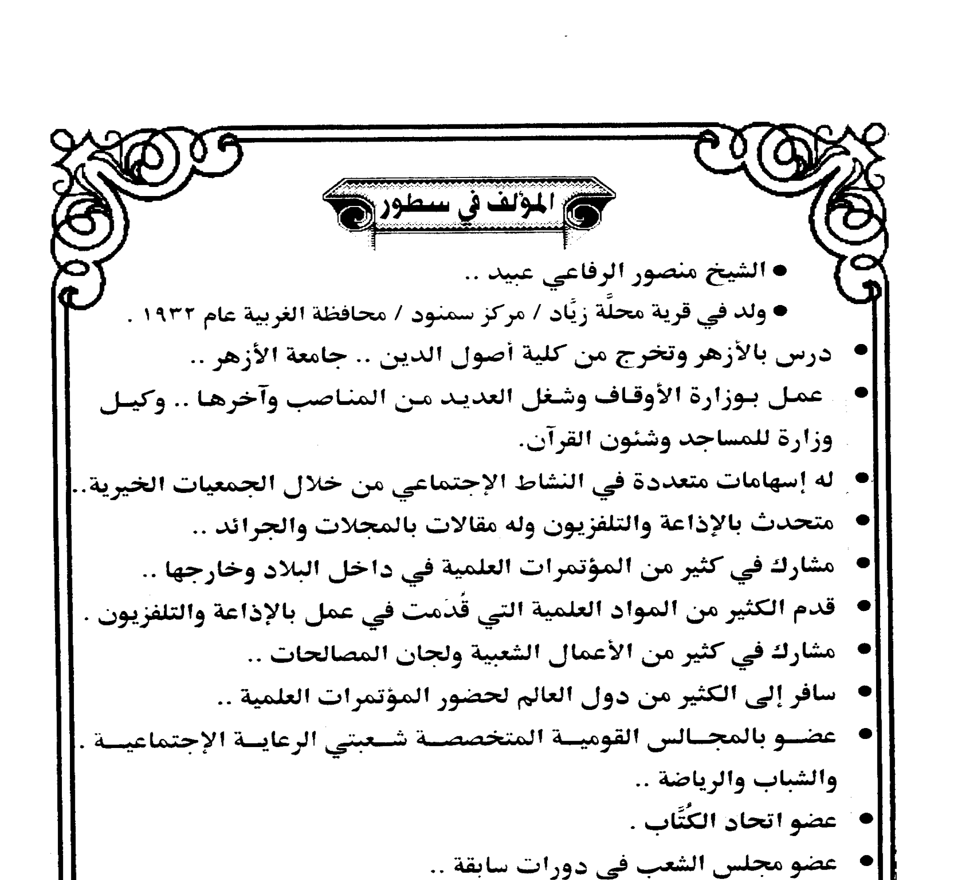
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الأبرار والأطهار...

منصور الرفاعي عبيد

وكيل وزارة الأوقاف الأسبق



فهرس



المؤلف في سطور

- الشيخ منصور الرفاعي عبيد ..
- ولد في قرية محلّة زيّاد / مركز سمنود / محافظة الغربية عام ١٩٣٢ .
- درس بالأزهر وتخرج من كلية أصول الدين .. جامعة الأزهر ..
- عمل بوزارة الأوقاف وشغل العديد من المناصب وآخرها .. وكيل وزارة للمساجد وشئون القرآن.
- له إسهامات متعددة في النشاط الإجتماعي من خلال الجمعيات الخيرية..
- متحدث بالإذاعة والتلفزيون وله مقالات بالمجلات والجرائد ..
- مشارك في كثير من المؤتمرات العلمية في داخل البلاد وخارجها ..
- قدم الكثير من المواد العلمية التي قُدمت في عمل بالإذاعة والتلفزيون .
- مشارك في كثير من الأعمال الشعبية ولجان المصالحات ..
- سافر إلى الكثير من دول العالم لحضور المؤتمرات العلمية ..
- عضو بالمجالس القومية المتخصصة شعبتي الرعاية الإجتماعية . والشباب والرياضة ..
- عضو اتحاد الكُتّاب .
- عضو مجلس الشعب في دورات سابقة ..
- ورد أسمه في الموسوعة القومية للشخصيات البارزة والتي صدرت عن هيئة الاستعلامات عام ١٩٨٩..
- حاصل على الكثير من الدروع والميداليات وشهادات التقدير من هيئات وجامعات ووزارات ..
- حاصل على وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولي ..
- له أكثر من ستين مؤلفا ..